جون رونالد تولكين

الهوبيت

(أو ذهابًا وعودة)



ترجمة

هشام فهمي

مي غنيم

الكتاب: الهوبيت

المؤلف: جون رونالد رول تولكين

الترجمة والإعداد: هشام فهمي – مي غنيم

تعريب الأغاني: هبة جلال

إعداد شعري للأغاني: محمد فوزي خلف

الغلاف والتصميمات الداخلية: أحمد فهمي

التجهيزات: حسام سليمان

الرسوم الداخلية: آلان لي

المصحح اللغوي: عماد غزير

التدقيق الأدبي: د. تامر إبراهيم – هشام فهمي

المدير التنفيذي: أحمد عبد المنعم

الإشراف العام: محمد سامي

رقم الإيداع: 2008/2302

الناشر: دار ليلى للنشر والتوزيع والإعلان

33 شارع السودان – تقاطع مصدق– الدقي – ت: 33370042 (00202)

الموقع: WWW. DARLILA. COM

دايموند بوك: الكويت – WWW. DIAMOND- BOOK. COM

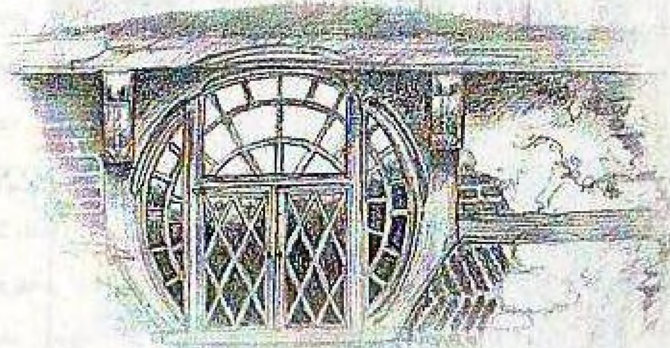


جون رونالد تولكين

الهوبيت

(أو ذهابًا وعودة)





ترجمة

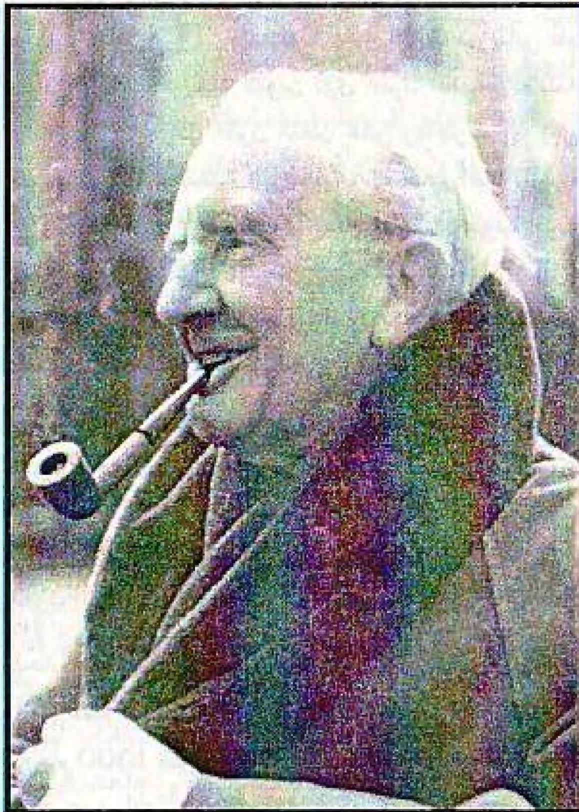
هشـــام فهـــمي

مـــي غنيـــم

دار ليلى دايموند بوك

الفهرست

تولكين... أبو الفانتازيا



بقلم د. تامر إبراهيم

حين ظهر الجزء الأول من ثلاثية (سيد الخواتم) في عام 2001 على شاشات السينما، كتبت صحيفة النيويورك تايمز تقول إن العالم سينقسم إلى نصفين: نصف قرأ الثلاثية ونصف سيقرئها قريبًا؛ وهو قول لا يحمل أي قدر من المبالغة، بل على العكس تمامًا، فثلاثية (سيد الخواتم) لم تكن في حاجة إلى السينما لتدعمها، بل لتذكرنا بها، فهذه الثلاثية تُعتبر الأهم، ليس في تاريخ أدب الفانتازيا فحسب، بل هي نقطة تحوُّل في تاريخ الأدب كله.

والآن حان الوقت لنعرفك على كاتبها الذي حفر اسمه في التاريخ بأحرف من ذهب، حان الوقت لنعرفك على (جون رونالد رول تولكين).



وُلد (تولكين) في الثالث من يناير عام 1892 في (جنوب أفريقيا) لأبوين ذوي أصول ألمانية، فعائلته تركت (ألمانيا) في أوائل القرن الثامن عشر وهاجرت إلى (بريطانيا) حتى نالت الجنسية البريطانية، ثم حصل أباه (آرثر) على منصب مدير فرع البنك الذي يعمل فيه في (جنوب أفريقيا)، ليأخذ زوجته (مابل) وينتقل إلى هناك لتنجب (مابل) طفليها (رونالد) و(هيلاري)، وهكذا يمكنك أن ترى كيف أن أصول (تولكين) المختلطة وطفولته التي قضاها في (جنوب أفريقيا) لعبت دورًا مهمًا في تشكيل ثقافته، الأمر الذي انعكس على كتاباته فيما بعد.

فعلى سبيل المثال تعرض (رونالد) وهو لا يزال في الثالثة من عمره إلى لدغة عنكبوت سام كادت تودي بحياته، لتمنحه هذه اللدغة خوفه المرضي من العناكب، لذا ستجد أن بطله (فرودو) يواجه عنكبوتًا في الجزء الثالث من (سيد الخواتم)، كما أن الطبيب (ثورتون كويمبي) الذي عالجه هو من أوحى له بشخصية الساحر (جاندلف) الذي ستجده في ثلاثية الخواتم و(الهوبيت) و(السيلماريليون).

بعد هذه الحادثة بفترة قصيرة توفى والده (آرثر) بالحمى الروماتزمية، فعادت (مابل) بطفليها إلى (بريطانيا) لتبدأ معاناتها في تربية طفليها وحيدة، تلك المعاناة التي تضاعفت بعد أن اعتنقت الكاثوليكية عام 1900 مثيرة حفيظة عائلتها البروتستانتية التي أعلنت انفصال (مابل) عنها، رافضة تقديم أي عون مادي أو معنوي لها، لتجبَر (مابل) على العمل لتنفق على عائلتها.

لكن عملها لم يمنعها من رعاية طفليها كما يجب، خاصة وأنها لاحظت ذكاء (رونالد) الفطري ونهمه الدائم للمعرفة، فعلمته اللاتينية حتى أتقنها، وغرست فيه حب النباتات والأشجار، الأمر الذي ستجده واضحًا في كتاباته أيضًا.

لكن معاناة (مابل) لم تطل، فالأم كانت مصابة بمرض السكر الذي لا علاج له سوى الأنسولين الذي لم يكن قد اكتُشف بعد، لتنهي مضاعفات السكر حياتها عام 1904 تاركة طفليها في رعاية الأب (فرانسيس زافير مورجان) الذي أكمل تعليم (رونالد) معتبرًا إياه ابنه الذي لم ينجبه، خاصة مع التزام (رونالد) واجتهاده الدائم.

في عام 1911 خلال دراسته في مدرسة (الملك إدوارد) أسس (رونالد) مع ثلاثة من أصدقائه جمعية شبه سرية هي جمعية T.C.B.S وهي اختصار لـ(جمعية باروفيان لمحبي الشاي)، إذ جمع بينهم حبهم لشرب الشاي في مقهى قريب من المدرسة، حتى إنهم واصلوا اجتماعاتهم بعد انتهاء دراستهم، وشجعت هذه الجمعية (رونالد) على كتابة الشعر الذي كان يقرأه على أصدقائه ليحظى بالاهتمام والتشجيع.



ثم دخل (رونالد) مرحلة المراهقة في السادسة عشر من عمره، ليقع في غرام (إديث ماري برات) التي كانت تكبره بثلاث سنوات، لكن هذه لم تكن مشكلتها الوحيدة، فـ(إديث) كانت بروتستانتية، مما أثار حفيظة الأب (فرانسيس) لدرجة أنه منع (رونالد) من رؤيتها أو الاتصال بها، وإلا منعه من إتمام دراسته، فأذعن له (رونالد) مضطرًا حتى أتم الواحدة والعشرين من العمر، ليرسل إلى (إديث) معلنًا حبه لها ورغبته في الزواج منها، لكنها فاجأته برسالة تخبره فيها بأنها ستتزوج من رجل آخر لأنها ظنت أنه تركها.

أسرع لها (رونالد) وأعلن لها أنه لم يتوقف يومًا عن حبها، فلم تتمالك (إديث) نفسها، بل ألغت زواجها وأعلنت لأسرتها أنها ستتزوج من (رونالد)، بل واعتنقت الكاثوليكية من أجله، ليتزوج الاثنان عام 1916. لكنه وفي ذات العام التحق بالجيش البريطاني وخاض الحرب العالمية الأولى كضابط اتصالات، ليشهد بنفسه ويلات الحرب التي لم تفارقه قط، خاصة مع أنه رأى بنفسه مصرع جميع أصدقاء عمره سوى واحد فقط، قبل أن يصاب هو الآخر إصابة أجبرته على العودة إلى (بريطانيا)، فحاول التغلب على أحزانه بالكتابة، لتولد حكايات (الأرض الوسطى) الأولى على فراشه في المستشفى، تلك الحكايات التي جُمعت فيما بعد في كتاب (كتاب الحكايات المفقودة The Book of Lost Tales) بجزأيه.

بعد أن خرج من المستشفى عمل لفترة في المعسكرات، وإن لم يتغلب على اكتئابه حتى أخذته (إديث) في جولة في إحدى الغابات ورقصت له رقصة مرحة لتخرجه من اكتئابه وتوحي له بلقاء (بيرين) و(لوثيان) الشهير في رواياته، حتى إنه أسمى زوجته (لوثيان)، وظل هذا الاسم

معها حتى النهاية.



وانتهت الحرب العالمية الأولى، وانتقل (رونالد) إلى الجامعة ليعمل فيها كأستاذ للغة الأنجلوسكسونية ويساهم في تأسيس قاموس (أكسفورد) الشهير، ويبدأ عشقه في دراسة اللغات واختراع لغات أخرى وجدت طريقها إلى رواياته فيما بعد. كما أنه أسس هو وصديقه (سي إس لويس) رابطة The Inklings التي ضمت مجموعة من الكتاب والشعراء والفلاسفة المتحمسين الذين يجتمعون ليلة الثلاثاء من كل أسبوع في كافيتيريا The Eagle and Child التي كان يقرأ فيها (تولكين) عليهم ما يكتبه أولًا فأول ليجد الدعم والنقد البنَّاء، خاصة من (لويس) الذي خرج علينا بحكايات (نارنيا) الشهيرة فيما بعد.

أنجبت (إديث) لـ(رونالد) أربعة أطفال تعلق (رونالد) بهم تمامًا، ثم وفي إحدى الليالي فكر (تولكين) في قصة يحكيها لأطفاله قبل النوم، ليبدأ العمل في رواية (الهوبيت) التي أصبحت البداية لعالم كامل من الفانتازيا، الأمر الذي يذكرنا بالرائعة (رولينج) التي كانت تفكر في قصة تحكيها لابنتها قبل النوم، لتخرج على العالم كله بسلسلتها الأشهر (هاري بوتر).

صحيح أن (تولكين) بدأ في تشكيل عالمه منذ زمن طويل، إلا أن رواية (الهوبيت) كانت بالنسبة له تحديًا أكبر، خاصة وأنها موجهة للأطفال الذين لا يمكنك الجزم أبدًا بما سيروق لهم، كما أنها أول رواية مكتملة تدور في عالمه الذي عاش فيه طويلًا؛ وها هو الآن سيدعو القراء لدخول هذا العالم، فهل سيحبونه أم...؟

هكذا بدأ (تولكين) في كتابة فصول روايته ببطء شديد محافظًا على عادته في مراجعة أدق التفاصيل، ومحاولًا أن يقدم رواية ممتعة من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يحقق أمنيته في صنع عالم من الأساطير يعوِّض به (بريطانيا) التي لم يحمل تاريخها الثقافي مثيلًا له قط.

بدأت الرواية بجملة (يُحكي أنه في حفرة بالأرض كان يسكن أحد الهوبيت)، لكنها لم تنته إلا وقد قدمت للقارئ عالمًا يعيش فيه الهوبيت والأقزام والسحرة والتنانين ولغات مخترعة وخرائط مرسومة، ومئات التفاصيل الأخرى التي مرَّ عليها (تولكين) مرور الكرام، لكنها تؤكد على أن هناك المزيد، وهذا المزيد لن يأتي إلا لو نجح في أول وأخطر اختبار له على الإطلاق: عليه أن ينشر الرواية ليعرف يقينًا إن كانت ستنجح أم لا، وبعدها لنرى ما سيكون.

لم يكن (تولكين) يفكر في النشر حينها، لكن روايته وجدت طريقها إلى (سوزان داجنال)

العاملة في دار (لندن) للنشر، والتي شعرت بأن الرواية تستحق النشر، لتشجع (تولكين) على خوض المخاطرة. وهكذا حمل (تولكين) روايته إلى الناشر (جورج آلن) الذي تحمس لفكرة تقديم عمل أدبي للأطفال في وقت لم يعد هناك ما يقرئونه فيه، لكنه لم يعلن حماسه هذا لـ(تولكين)، بل أخبره بأنها مخاطرة غير مضمونة العواقب، لكنه سيخوضها على أمل أن تنجح وتغطي تكاليفها فحسب، ثم نشر الرواية لينتظر هو و(تولكين) ردود الفعل على أحر من الجمر.

ولم تنجح الرواية كما توقع (جورج)، بل فاق نجاحها أقصى آماله بألف مرة على الأقل!

على الفور انغمس الأطفال -والكبار أيضًا- في عالم (الأرض الوسطى) والهوبيت (بيلبو) والساحر (جاندلف) وكنز الأقزام الذهبي الذي يحرسه التنين، وأدمنوا هذا العالم ليطالبوا (جورج آلن) بالمزيد، فحمل هو مطلبهم إلى (تولكين)، راجيًا منه أن يبدأ العمل في جزء ثان من الرواية، لكنه فوجئ بـ(تولكين) يرفض تكرار المخاطرة، كأنه يخشى أن يُفسد نجاحه برواية أخرى لا تحقق ما حققته له رواية (الهوبيت). هكذا بدأ (آلن) في الإلحاح على (تولكين) حتى وافق أخيرًا لاعتبارات الصداقة فحسب، وإن أعلن أن الجزء الثاني سيكون أصغر بكثير، فوافق (آلن) تاركًا له حرية الكتابة كيفما يشاء، ليبدأ (تولكين) العمل من جديد.

وهنا كان السؤال الأول الذي قاد للثلاثية الخالدة... من أين يبدأ؟!

وهنا كان على (تولكين) أن يعيد قراءة روايته أكثر من مرة، حتى انتهى به الأمر أخيرًا عند الخاتم الذي حصل عليه (بيلبو) في أحد فصول الرواية، ليجد (تولكين) نفسه متوقفًا عنده طويلًا.

تُرى من أين أتى هذا الخاتم؟ من كان يملكه ولماذا؟ وما الذي سيفعله هذا الخاتم بـ(بيلبو)، بل بعالمه كله؟

كلها أسئلة ظلت بلا إجابة، لكنها أغرت (تولكين) ببدء العمل الذي لم يكن سهلًا هذه المرة قط. اهتمامه بالتفاصيل أرهقه بشدة، واضطراره لسرد تاريخ الخاتم كان يعني أن يسرد تاريخ (الأرض الوسطى) كلها وما حولها من أراضي، وهذا يعني أن مهمته هذه المرة ستكون أكبر، وأن العالم الذي قدمه في (الهوبيت) سيفصح عن أسراره في هذا الجزء.

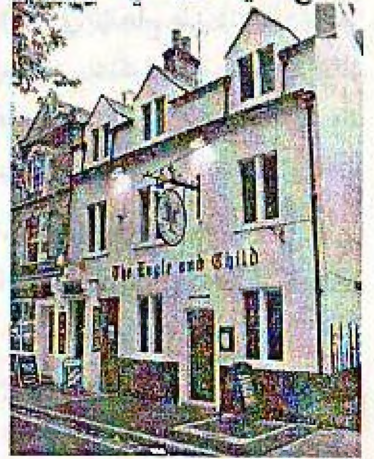
لكنه قرر البدء في الكتابة على أن يصل لإجابات على أسئلته لاحقًا، لينتهي من الفصل الأول من روايته الجديدة التي لم يستقر على اسمها بعد ، وليمزقه على الفور!

لسبب ما شعر (تولكين) بأن ما كتبه لا يصلح، لكنه لم يترك هذا يوقفه، بل أعاد كتابة الفصل الأول مرة ثانية وثالثة ورابعة، وفي المرة الخامسة استقر أخيرًا على ما يريده، ليواصل من

بعدها الكتابة ببطء أشد لتعاني بقية فصول روايته من الإعادة والتنقيح والتعديل، وهي المرحلة التي يصفها ابنه (كريستوفر) قائلًا: "كان أبي يبحث عن شيء ما في هذه المرحلة، شيء لا يعرفه، لذا ستجده كان يكتب كل فصل بأسماء مختلفة وبتفاصيل مختلفة كأنه يجرب شيئًا ما كل مرة، وكلما عثر على ما هو أفضل، كان يعيد كتابة كل ما سبق من جديد."

والواقع أن (كريستوفر) لعب دورًا مهمًا في كتابات (تولكين) بقدرته الخارقة على ملاحظة أدق التفاصيل، إذ اعتاد (تولكين) أن يقرأ على ابنه الفصول الجديدة أولًا فأول، ليصحح له ابنه تفاصيل من نوعية لون مقبض الباب في منزل (بيلبو)، ونوع الأزهار التي كان يزرعها في حديقته.

وبينما لعب (كريستوفر) دور المصحح الملاحظ لكل شيء، لعب (لويس) دور الصديق المشجِّع الذي كان يصغي للفصول في اجتماعات The Inklings الأسبوعية، ليثني على ما يفعله (تولكين) ويحمسه على الاستمرار في حكايته، لكنهم لم يدركوا كلهم أن (تولكين) لم يكن يعرف إلى أين ستمضي به قصته فحسب، لدرجة أنه أرسل إلى (لويس) ذات مرة يقول: "وصلت إلى النقطة التي سيترك فيها (فرودو) ورفاقه (شاير). أعرف أنه ذاهب للقاء (جاندلف)، لكنني أعرف أن (جاندلف) سيتخلف عن هذا اللقاء لسبب ما. أعرف أيضًا أنهم سيلقون شخصًا اسمه (سترايدر)، لكنه ليس اسمه الحقيقي، بل إن له دورًا في القصة لا أعرفه إلى الآن."



وببطء أدرك (تولكين) المشكلة الحقيقة فيما يكتبه، فهذه المرة لم تعد القصة للأطفال، بل تشابكت الأحداث وازدادت عمقًا ونضجًا واكتست بنوع من السوداوية التي تليق بروايات الكبار، وهذه الملاحظة أرَّقته طويلًا، فأرسل الفصول التي كتبها لصديقه الناشر (آلن) يرجوه أن يوصلها لابنه ليقرأها، لأنه في حاجة لرأي طفل فيما يكتب.

أرسلها وانتظر ليأتيه الرد في صورة رجاء أن يكمل، ليستعيد (تولكين) ثقته ويبدأ في الإجابة على كل الأسئلة التي أرقته طويلًا، وهكذا تحول الجزء الثاني من رواية (الهوبيت) إلى كتاب ضخم تتجاوز صفحاته الألف صفحة ويحمل ذلك الاسم الذي يعشقه قراء الفانتازيا في كل مكان...

(سيد الخواتم)...

وبعد أكثر من عشر سنوات من الكتابة وإعادة الكتابة والتصحيح والمراجعة الدقيقة، حمل (تولكين) روايته إلى (آلن) ليصدم هذا الأخير بالجزء الثاني الذي كان من المفترض أن يكون أصغر من (الهوبيت) ليفوقها حجمًا بست مرات على الأقل، وليعلن أنه لن يتمكن من نشر هذه الرواية أبدًا!

هنا كانت الصدمة من نصيب (تولكين) الذي حمل أوراقه وعاد إلى منزله حزينًا ليدخل في مرحلة طويلة من الاكتئاب كاد معها أن يحرق كل ما كتب، لولا زوجته التي أسمعته تسجيلًا بصوته لأحد فصول الرواية معلنة أنه يجب أن يحاول مرة أخرى، فوافق (تولكين) وكرر المحاولة.

هنا شرح له (آلن) أن المشكلة في ارتفاع أسعار الورق بصورة خرافية بعد الحرب، وأن طباعة رواية بهذا الحجم ستكون مخاطرة أكبر من أن يتحملها هو كناشر، وأن يدفع ثمنها القارئ، ثم اقترح أن يقسم الرواية إلى ثلاث أجزاء تُنشر على فترات متباعدة، لتقليل التكلفة في ناحية، ولاختبار نجاحها مع نشر الجزء الأول من ناحية أخرى، فوافق (تولكين) مضطرًا، وإن تساءل في حيرة عن اسم كل جزء من الأجزاء الثلاثة، خاصة وأنه يكره أن تحمل الثلاثة كتب ذات الاسم مع عبارة (الجزء الأول والجزء الثاني)، فأتى دور (آلن) ليساعده في اتخاذ القرار، فأطلق على الجزء الثاني اسم (البرجان) بينما أسمى (تولكين) الجزء الأول (رفقة الخاتم)، ثم اقترح (آلن) أن يسمي الجزء الثالث (عودة الملك) وهو الاسم الذي أثار قلق (تولكين) لكونه يكشف عن حدث رئيس في الرواية، لكن (آلن) أقنعه بأن روايته أكثر قوة وأهمية من أن تُحرق أحداثها حتى ولو حُكيت كاملة.

ثم نُشر الجزء الأول عام 1954 ليتغير العالم تمامًا...

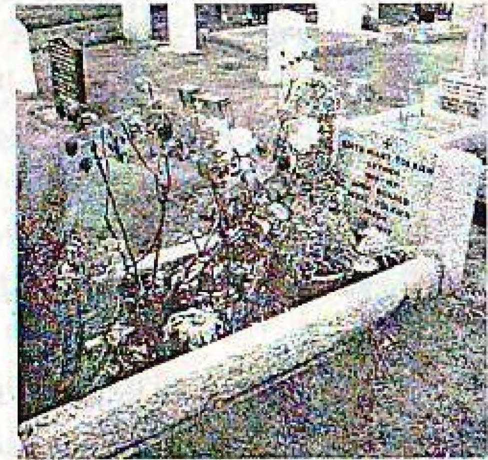
القول هنا لا مبالغة فيه، فأولًا النجاح المذهل وأرقام المبيعات التي حققها الجزء الأول لم يحققه كتاب من قبل قط، ثم ومع نشر الجزأين الثاني والثالث عام 1955 تحولت هذه الثلاثية إلى أشهر رواية في القرن العشرين على الإطلاق، وأصبح لها أتباع بمعنى الكلمة، ثم إن هناك أجيالًا كاملة من الكتاب والنقاد أعلنوا أنهم بدءوا مهنتهم من فرط حبهم لثلاثية (سيد الخواتم) التي لم تحقق حلم (تولكين) في أن تصبح لـ(بريطانيا) أساطيرها فحسب، بل أعادت تشكيل أدب الفانتازيا إلى الأبد.

ولم يتوقف الأمر على الكُتاب والنقاد، بل ظهر من تخصصوا فقط في رسم لوحات لكتابات

(تولكين)، و(آلان لي) أشهرهم وأهمهم؛ ويكفي أن تعرف أن من بين من حاولوا تقديم هذا العالم مرسومًا (مارجريت الثانية) ملكة (الدانمرك)!

بالطبع لا يمكن هنا حصر كم المسرحيات والعروض الموسيقية التي بُنيت على رواياته، فهنا لم يعد الأمر إعادة تشكيل أدب الفانتازيا فحسب، بل إعادة تشكيل ثقافة عالم بأكمله؛ وتضاعفت شهرة (تولكين) إلى درجة لم يحتملها هو، واعتزل مختفيًا عن المعجبين الذين طاردوه في كل مكان، معلنًا أنه في حاجة إلى راحة استحقها منذ فترة طويلة.

لكن الشهرة طاردته لسنوات طويلة، فتجاهلها هو مكتفيًا بقضاء أيامه مع زوجته وحبيبته (إديث) حتى فارقته عام 1971 ليحفر (تولكين) اسم (لوثيان) على شاهد قبرها، وليعيش محاولًا استيعاب حزنه الذي لم يُخرجه منه أي شيء حتى تكريمه من الملكة (إليزابيث)، ولم يطل به الأمر حتى لحق بزوجته ليدفن في قبرها بناءًا على رغبته، وليضاف على شاهد القبر اسم (بيرين)، وكان هذا في الثاني من سبتمبر عام 1973.



مات (تولكين)، لكن أعماله ظلت تتربع قوائم المبيعات لسنوات طويلة حتى بعد وفاته، وخرج من عباءته عشرات الكتّاب يحكون قصصًا في عوالم السحرة والأقزام والإلفيون، معلنين عن ولائهم لأستاذهم الذي لقّب بأبي الفانتازيا، والذي لم تتوقف كتبه بمماته، فابنه (كريستوفر) قام بجمع أعمال أبيه الغير مكتملة وتنسيقها ليقدم لنا روايتي The Silmarillion و The Children of Húrin، ثم قام بجمع مسودات وحكايات والده القديمة ليقدمها في موسوعة ضخمة من اثني عشر جزءًا هي موسوعة (تاريخ الأرض الوسطى The History of

Middle-earth) فائقة الجمال والأهمية.

ثم وجدت أعمال (تولكين) طريقها إلى عالم السينما في عدة محاولات لم تحظ بالنجاح المطلوب، حتى أتى المخرج النيوزلندي (بيتر جاكسون) عام 2001 ليقدم ثلاثية الأفلام التي حققت نجاحًا مذهلًا حاصدة المليارات وجوائز الأوسكار على حد سواء، والتي قال عنها (بيتر جاكسون): "لقد قدمت الأفلام لأذكر الناس أن هناك ما هو أروع، ثلاثية (تولكين) كما كتبها... علّهم يقرئونها."

وها نحن اليوم نقدم لك الترجمة الأمينة الكاملة لروايات (تولكين) الخالدة، ولأول مرة للقارئ العربي في كل مكان، لتعيش رائعة أدب الفانتازيا التي لا مثيل لها...

ولتتذوق السحر كما يجب أن يكون...

كلمة المؤلف

ᚦᛖ ᚻᚩᛒᛒᛁᛏ
ᚩᚱ
ᚦᛖᚱᛖ ᚪᚾᛞ ᛒᚪᚳᚳ ᚪᚷᚪᛁᚾ

هذه قصة عن أحداث قديمة للغاية، وفي تلك الأزمنة كانت اللغات والأبجدية مختلفة تمامًا عما نستخدمه اليوم، ولهذا نستخدم اللغة الإنجليزية للتعبير عن تلك اللغات؛ لكنني أود التنويه إلى نقطتين.

الأولى: في اللغة الإنجليزية الجمع الصحيح الوحيد لكلمة قزم Dwarf هو Dwarfs، والصفة منها هي Dwarfish. في هذه القصة نستخدم كلمتا Dwarves وDwarvish عند الإشارة إلى القوم القدماء الذي ينتمي إليهم (ثورين أوكنشيلد) ورفاقه.

الثانية: أورك Orc ليست كلمة إنجليزية، وليست مذكورة هنا سوى في مكان أو مكانين، وعادة ما تتم ترجمتها إلى جوبلين Goblin أو Hobgoblin بالنسبة للأنواع الأكبر حجمًا. الأورك هي كلمة يستخدمها الهوبيت للإشارة إلى الاسم الممنوح وقتها لهذه الكائنات، وليست لها علاقة على الإطلاق بكلمتي orc أو ork اللتان نستخدمهما للإشارة إلى الحيوانات البحرية من فصيلة الدلافين.

أما الحروف القديمة فكانت تُستخدم في الأصل للحفر أو النقش على الخشب والحجارة والمعادن، وهكذا كانت رفيعة خشنة؛ أما في وقت أحداث هذه الحكاية، كان الأقزام فقط هم من يستخدمونها بشكل ذي فائدة، بالذات للتسجيلات السرية الخاصة بهم. هذه الحروف مترجمة في هذا الكتاب إلى حروف إنجليزية معروفة الآن لقليلين، ورسالة الحروف القمرية الموجودة على

خريطة (ثرور) كانت كالتالي:

ᛋᛏᚪᚾᛞ.ᛒᚣ.ᚦᛖ.ᚷᚱᛖᚣ.ᛋᛏᚩᚾᛖ.ᚻᚹᛖᚾ.ᚦᛖ.ᚦᚱᚢᛋᚻ.ᚳᚾᚩᚳᚳᛋ.ᚪᚾᛞ.ᚦᛖ.ᛋᛖᛏ
ᛏᛁᛝ.ᛋᚢᚾ.ᚹᛁᚦ.ᚦᛖ.ᛚᚪᛋᛏ.ᛚᛁᚷᚻᛏ.ᚩᚠ.ᛞᚢᚱᛁᚾᛋ.ᛞᚪᚣ.ᚹᛁᛚᛚ.ᛋᚻᛁᚾᛖ.ᚢᛈᚩᚾ.ᚦᛖ.
ᚳᛖᚣᚻᚩᛚᛖ.

يجب التنويه أيضًا إلى أنه في هذه الطبعة الجديدة تم تصحيح الكثير من الأخطاء الصغيرة التي لاحظ القراء معظمها، والأهم هو حل مسألة الفصل الخامس (ألغاز في الظلام Riddles in the Dark) الذي يحوي الآن النهاية الحقيقية للعبة الألغاز كما حكاها (بيلبو) –تحت ضغط- لـ(جاندلف) في النهاية، بدلًا من الحكاية البديلة التي حكاها (بيلبو) لأصدقائه ودونها في مذكراته. تفسير هذه النقطة على كل حال موجود الآن كجزء من تاريخ الخاتم، وتتم روايته في (سيد الخواتم The Lord of the Rings).

J.R.R. Tolkien.



﴿ الفصل الأول ﴾

حفل غير متوقع

يُحكي أنه في حفرة بالأرض كان يسكن أحد الهوبيت. لم تكن تلك الحفرة رديئة قذرة، ولا رطبة تملؤها الديدان وتسودها الروائح الكريهة؛ ولا كانت كذلك حفرة رملية جافة جرداء ليس بها ما يمكن الجلوس عليه أو تناوله. لقد كانت حفرة يسكنها هوبيت، وهذا يعني الرفاهية.

كان لهذه الحفرة باب مستدير تمامًا كالكوة، مدهون بالأخضر وله مقبض نحاسي لامع في

منتصفه تمامًا. يُفتح الباب على ردهة أنبوبية كالنفق، وكان نفقًا مريحًا للغاية وخال من الأدخنة، له جدران مزينة وأرضيات مكسوة بالبسط ومزودة بكراس لامعة والكثير والكثير من المشاجب للقبعات والمعاطف، فقد كان هذا الهوبيت مولعًا بالزوار.

يمتد النفق بصورة شبه مستقيمة في جانب التل –واسم (التل) هو ما يطلقه جميع السكان المحيطين لمسافة أميال عديدة على المكان– وتتفرع منه العديد من الأبواب المستديرة الصغيرة من جانب واحد أولاً، ثم من الجانب الآخر. الهوبيت لا يسكنون الأدوار العلوية. هكذا كانت غرف النوم والمراحيض والمخازن وحجرات المؤن –الكثير منها– وخزائن الملابس –وكانت لديه غرف كاملة مخصصة للملابس– والمطابخ وحجرات الطعام جميعها في الطابق نفسه، بل في الممر ذاته. كانت أفضل الحجرات جميعًا تقع على الجانب الأيسر دخولاً، حيث كانت تلك الحجرات وحدها ذات نوافذ؛ ونوافذها تلك غائرة مستديرة تطل على حديقته، والخضرة من ورائها تنحدر صوب النهر.

كان هذا الهوبيت رحب الصدر، وكان اسمه (باجنز)؛ ولقد عاش آل (باجنز) في التل لفترة طويلة، وكان الجميع يكنون لهم الاحترام؛ ليس فقط لأن معظمهم كانوا من الأغنياء، بل أيضًا لأنهم لم يقوموا بأية مغامرات على الإطلاق، ولم يخرجوا عن المألوف قط، حتى إنه بإمكانك أن تعرف ما قد يقول أحد أفراد آل (باجنز) إن وجهت له سؤالاً من دون حتى أن تزعج نفسك بسؤاله.

هذه قصة عن واحد من آل (باجنز) قام بمغامرة، ووجد نفسه يقول ويفعل أشياء غير متوقعة بالمرة. ربما يكون قد خسر احترام جيرانه، لكنه أيضًا كسب الكثير. سوف ترون بأنفسكم ما إن كان قد كسب شيئًا في النهاية أم لا.

والدة هذا الهوبيت الذي نختصه بالحديث...

أولاً ماذا يكون الهوبيت؟

أظن أن هؤلاء الهوبيت في الوقت الحاضر في حاجة إلى وصف، بما أنهم أصبحوا نادري الوجود، ويخجلون من (القوم الكبار) كما يطلقون علينا. إن هؤلاء الهوبيت –أو بالأحرى كانوا– ضئيلو الحجم، يبلغ طولهم نحو نصف طول قامتنا، وكانوا أصغر حجمًا من الأقزام الملتحين. هؤلاء الهوبيت لا تنمو لهم لحى، وما من شيء سحري يقومون به، باستثناء حيلهم اليومية المعتادة، والتي تساعدهم على الاختفاء بهدوء وسرعة حين يظهر بعض الحمقى الضخام من البشر مثلي ومثلك، ويتسببون في الفوضى، ويحدثون ضجيجًا كقطيع من الأفيال، الشيء الذي يستطيع

الهوبيت سماعه من على بعد ميل.

كان الهوبيت يهوون ملء معداتهم، ويحبون ارتداء الألوان الزاهية –الأصفر والأخضر على وجه الخصوص– ولا ينتعلون الأحذية، حيث إن أقدامهم تنمو بها نعال جلدية طبيعية وشعر بني كثيف كالذي ينمو فوق رؤوسهم، وهو أيضًا مجعد. وكانت لديهم أصابع طويلة بنية رشيقة ووجوه طيبة وضحكات عالية صافية، خاصة بعد تناول وجبة العشاء، والتي يتناولونها مرتين يوميًّا إن تيسر ذلك.

والآن تعرفون ما يكفي لمتابعة ما يجري من الأحداث.

كنت أقول إن أم هذا الهوبيت –(بيلبو باجنز)– كانت الجميلة (بيلادونا توك)؛ واحدة من ثلاث فتيات رائعات للعجوز (توك)، الذي كان زعيمًا للهوبيت ساكني ضفاف النهر الصغير* الذي يجري عند سفح التل. كان كثيرًا ما يقال بين العائلات الأخرى إنه من المؤكد أن أحد أسلاف آل (توك) قد اتخذ جنية** زوجةً له، وكان ذلك بالطبع منافيًا للعقل. لكن الحقيقة أن آل (توك) كانوا يتحلون بالفعل ببعض الطباع التي لا تتفق مع كونهم من الهوبيت، وبين الحين والآخر، كان يرحل أفراد منهم ويقومون بمغامرات، وكانوا يختفون بالتدريج، وتتكتم العائلة الأمر؛ لكن تبقى حقيقة أن آل (باجنز) نالوا احترامًا أكثر مما ناله آل (توك)، رغم أنهم كانوا من دون شك أكثر ثراءً. لكن (بيلادونا توك) لم تقم بأية مغامرات على الإطلاق بعد أن أصبحت زوجة لـ(بانجو باجنز). وبنى (بانجو) والد (بيلبو) لزوجته أكثر الحفر رفاهية –والتي شاركت بنصيب من أموالها في بنائها– سواء في منطقة أسفل التل أو أعلاه أو على ضفاف النهر، وعاشا فيها حتى آخر أيامهما.

ورغم أنه كان يتصرف تمامًا كنسخة ثانية من أبيه الراضي المستقر، يبقى محتملاً أن (بيلبو)، وهو ابن (بيلادونا) الوحيد، قد حظي بقدر من طباع آل (توك) غير المألوفة، وأن تلك الطباع كانت فقط في انتظار الفرصة المناسبة لتظهر. لكن الفرصة لم تأت مطلقًا إلا بعد أن بلغ (بيلبو باجنز) العقد الخامس من عمره تقريبًا، وكان عندها يسكن الحفرة الجميلة التي بناها

* اسمه ببساطة The Water، وهو واحد من روافد نهر (برانديواين)، ويتدفق من قطاع (شاير) الغربي، ثم يلتقي به مرة أخرى عند جسر (برانديواين).

** الجنيات Fairies لا ذكر لهم تقريبًا في عوالم (تولكين) على الإطلاق، ولا يُحسبون ضمن المخلوقات التي تلعب أي دور في حكاياته. بدلاً منهم، وبصورة مختلفة كثيرًا، يوجد الإلفيون Elves، ويلعبون الدور الرئيس في تاريخ (الأرض الوسطى)؛ وهم أبطال أساسيون في ثلاثية (سيد الخواتم) وغيرها من روايات (تولكين).

أبوه، والتي وصفتها لكم منذ قليل؛ بل إن الفرصة لم تأت تحديدًا إلا بعد أن استقرت حياته تمامًا.

في صباح أحد الأيام الهادئة منذ فترة طويلة من الزمن، حين كان الضجيج أقل والخضرة أكثر، وكان الهوبيت مازالوا كثيري العدد وفي أوج ازدهارهم، تصادف أن بطلنا (بيلبو باجنز) كان واقفًا على عتبة داره بعد تناوله لوجبة الإفطار، يدخن غليونًا خشبيًا طويلاً هائل الحجم، يصل تقريبًا إلى صوف أصابع قدميه المصفف بعناية حين أتى (جاندلف).

(جاندلف)! لو أنكم قد سمعتم فقط ربع ما سمعت عنه –علمًا أنني قد سمعت فقط القليل من بين كل ما يُحكى عنه– لأعددتم أنفسكم لحكاية استثنائية؛ فالحكايات والمغامرات كانت تتناثر في كل مكان حيثما يذهب بصورة لافتة للنظر.

لم يأت (جاندلف) إلى التل منذ زمن طويل. في الواقع، هو لم يأت منذ وفاة صديقه العجوز (توك)، وأوشك الهوبيت أن ينسوا كيف كان شكله. كان غائبًا بعيدًا عن التل وعبر النهر يهتم بشؤونه الخاصة منذ أن كان هؤلاء الهوبيت بناتٍ وصبيانًا صغارًا. كل ما رآه (بيلبو) ذلك الصباح هو رجل عجوز يمسك بعصاه: كان يرتدي قبعة زرقاء طويلة مدببة، وعباءة طويلة رمادية اللون، وحذاء ضخمًا أسود برقبة، ووشاحًا فضيًا، ومن فوق الوشاح تتدلى لحيته البيضاء التي تصل إلى ما عند خصره.

–"طاب صباحك!" قالها (بيلبو) وهو يعنيها، فقد كانت الشمس مشرقة، والعشب الأخضر يبدو نضرًا.

لكن (جاندلف) نظر إليه من تحت حاجبين كثين ممتدين إلى ما بعد طرف قبعته الكبيرة، وقال: "ماذا تقصد؟ هل تتمنى لي صباحًا طيبًا، أم تعني أنه صباح طيب سواء أردت هذا أم لا، أم أنك تشعر بشعور طيب هذا الصباح، أم أنه صباح يناسب أن تشعر فيه هكذا؟"

أجاب (بيلبو) في مرح: "كل هذه الأشياء معًا! إنه صباح رائع لتدخين غليون مليء بالتبغ في الهواء الطلق. إن كان لديك غليون، فاجلس معي وسأملؤه لك. لا داعي للعجلة، فأمامنا اليوم بأكمله."

وجلس (بيلبو) على مقعد بجانب بابه، ووضع ساقًا على ساق، ونفخ حلقة جميلة من الدخان الرمادي في الهواء حتى ارتفعت إلى ما فوق التل من دون أن يخترقها شيء.

قال (جاندلف): "رائع! لكنني لا أملك الوقت لأنفخ حلقات الدخان هذا الصباح. إنني أبحث عمن يشاركني في مغامرة أرتب لها، ومن الصعب جدًا أن أعثر على رفيق."

–"نعم، أظنه أمرًا صعبًا جدًا في هذه الأنحاء، فنحن قوم هادئون ولا نحب المغامرات. تلك المغامرات المزعجة الكريهة تؤخرك عن موعد العشاء! لا أدري ما الذي يجذب البعض إليها!" قالها السيد (باجنز)، ووضع إبهامه خلف دعامة بنطاله، ونفخ حلقة أخرى أكبر من الدخان، ثم أخرج رسائله الصباحية وشرع في قراءتها متظاهرًا بأنه لا يبدي اهتمامًا بالرجل العجوز، فقد قرر أنهما يختلفان عن بعضهما، وأراد منه أن يرحل.

لكن الرجل العجوز لم يتحرك، بل ظل واقفًا مستندًا إلى عصاه ويحدق في الهوبيت من دون أن ينبس ببنت شفة، حتى شعر (بيلبو) بعدم الراحة، وأيضًا بقليل من الاستياء.

أخيرًا قال: "طاب صباحك! شكرًا جزيلاً، لكننا لا نريد أية مغامرات هنا! بإمكانك أن تجرب وراء التل أو في الجهة المقابلة للنهر."

وقصد (بيلبو) بهذا أن المحادثة قد انتهت.

قال (جاندلف): "لـ(طاب صباحك) هذه استخدامات عدة لديك! الآن تقصد بها أنك تريد أن تتخلص مني، وأنه لن يطيب صباحك حتى أرحل عنك."

–"مطلقًا، مطلقًا يا سيدي الكريم! حسن، أنا لا أعرف اسمك."

–"بل نعم، نعم يا سيدي العزيز. لكنني أعرف اسمك يا سيد (بيلبو باجنز)، وأنت أيضًا تعرف اسمي، مع أنك لا تتذكر أنني صاحب الاسم. أنا (جاندلف)، و(جاندلف) هو أنا! وها أنا أحيا لأرى يومًا يقول لي فيه ابن (بيلادونا توك): طاب صباحك، كأنني أدق الأبواب كبائع متجول!"

قال (بيلبو): "(جاندلف)! (جاندلف)! يا للعجب! الساحر المتجول الذي أعطى العجوز (توك) الأزرار الماسية السحرية التي كانت تربط نفسها بنفسها ولا تنفك أبدًا إلا حين يأمرها؟ أنت من يحكي الحكايات المدهشة في الحفلات عن التنانين والجوبلين والعمالقة وإنقاذ الأميرات وحظ أبناء الأرامل العاثر؟ لا تقل إنك ذلك المحترف في الألعاب النارية! إنني أذكرها! كان العجوز (توك) يشعلها عشية منتصف الصيف. كانت رائعة! كانت ترتفع في السماء على شكل نباتات الزنبق وأنف العجل والقوطيسوس النارية، وتبقى معلقة في السماء من الشفق وحتى المساء!"

لعلكم قد لاحظتم بالفعل أن السيد (باجنز) لم يكن يحسن الوصف مثلما كان يظن، وأنه كان مولعًا بالأزهار.

أكمل(بيلبو) قائلاً: "يا للسماء! لا تقل إنك (جاندلف) الذي تسبب في اختفاء الكثير من

الفتيان والفتيات الهادئين سعيًا وراء المغامرات المجنونة من تسلُّق الأشجار إلى زيارة الإلفيين إلى ركوب السفن المبحرة إلى شواطئ أخرى! يا للسماء! لقد كانت الحياة وقتها حقًا ممتعة... أقصد أنك كنت تتسبب في الكثير من الاضطراب في هذه المنطقة حينئذ. اعذرني، فلم تكن لدي فكرة أنك مازلت تقوم بكل هذا."

قال الساحر: "وكيف أكون في مكان آخر؟ على أية حال، يسرني أنك مازلت تذكر بعض الأشياء عني. يبدو أنك تذكر ألعابي النارية جيدًا على أية حال، وذلك يبعث على الأمل. وإكرامًا لجدك العجوز (توك)، و إكرامًا للمسكينة (بيلادونا)، سأعطيك ما طلبت."

قال (بيلبو): "معذرةً، لكنني لم أطلب شيئًا!"

-"بل فعلت! مرتين حتى الآن. ومن شدة كرمي، سأحقق لك مطلبك. في الواقع، سأتمادى في كرمي وأصطحبك في هذه المغامرة التي ستكون مسلية للغاية بالنسبة لي، ومفيدة فعلاً بالنسبة إليك إن استطعت أن تنجو منها!"

-"معذرة! لا أرغب في أي مغامرات، شكرًا، ليس اليوم. طاب صباحك! بإمكانك المجيء لاحتساء الشاي في أي وقت ترغب! لم لا تأتي غدًا؟ تعال غدًا! وداعًا!"

واستدار الهوبيت، وتوجه إلى بابه الأخضر المستدير وأسرع إلى الداخل، وأغلق الباب بأسرع ما أمكنه كي لا يبدو فظًا، فالسحرة هم في النهاية سحرة!

-"لا أفهم كيف دعوته إلى الشاي!" قالها (بيلبو) لنفسه لائمًا وهو في طريقه إلى حجرة المؤن. كان قد انتهى لتوه من تناول الإفطار، لكنه أحس بأن كعكة أو اثنتين بالإضافة إلى شراب ما سيفيدونه بعد تلك المحادثة المفزعة. وفي غضون ذلك، كان (جاندلف) مازال واقفًا في الخارج، ضحك طويلاً، ولكن بصوت خافت.

وبعد قليل، اقترب (جاندلف) من باب الهوبيت الأخضر الجميل، ونقش عليه علامة غريبة بطرف عصاه، ثم ابتعد. وفي الوقت نفسه، كان (بيلبو) ينتهي من تناول كعكته الثانية، ويفكر كيف أنه نجح في الهروب من التورط في تلك المغامرة.

وفي اليوم التالي، أوشك (بيلبو) أن ينسى أمر (جاندلف)، فهو لم يكن يتذكر الأشياء جيدًا. إلا إذا دوّن في دفتره التالي: "(جاندلف) – يوم الأربعاء."

لكن بالأمس ومن شدة ارتباكه، لم يدون (بيلبو) أي شيء. وقبل موعد احتساء الشاي مباشرةً، سمع (بيلبو) دقة مروعة لجرس الباب الأمامي للحفرة، وتذكر حينها! هكذا أسرع إلى

غلاية الشاي، وجهز فنجانًا وصحنًا آخرين، وأحضر كعكة أو اثنتين إضافيتين، ثم أسرع إلى الباب، وكان على وشك أن يقول: "أعتذر بشدة لتأخري عليك!"

لكنه اكتشف أن من بالباب لم يكن (جاندلف) على الإطلاق، بل كان قزمًا ذا لحية زرقاء مطوية تحت حزام ذهبي اللون، وعينين تبرقان من تحت قلنسوة عباءته الخضراء الصغيرة. وسرعان ما انفتح الباب، واندفع القزم إلى الداخل كأن (بيلبو) كان في انتظاره.

علق القزم عباءته ذات غطاء الرأس على أقرب مشجب للمعاطف، وقال بانحناءة خفيفة: "اسمي (دوالين)، وأنا في خدمتك!"

-"وأنا (بيلبو باجنز)، في خدمتك!" قالها الهوبيت، ولم يسأل أي سؤال من شدة دهشته.

وعندما صار الصمت غير مريح، أضاف (بيلبو) قائلاً: "أنا على وشك احتساء الشاي. لم لا تشاركني؟"

ربما تكون طريقته وقحة بعض الشيء، لكنه أراد أن يكون لطيفًا.

ماذا عساك أن تفعل إن جاءك قزم وعلق متعلقاته في ردهتك من دون أن يفسر بكلمة واحدة؟

لم يمكثا طويلاً على الطاولة. في الواقع، لم يكونا حتى قد تناولا الكعكة الثالثة حين دق جرس الباب دقة أعلى من سابقتها.

قال الهوبيت وهو يتوجه إلى الباب: "بعد إذنك!"

وكان على وشك أن يقول لـ(جاندلف) هذه المرة: "أخيرًا وصلت!"

لكنه وجد بالباب قزمًا طاعنًا في السن ذا لحية بيضاء وقلنسوة قرمزية، وهو أيضًا وثب داخلاً بمجرد أن انفتح الباب، تمامًا كأنه كان مدعوًا.

-"أرى أنهم بدءوا في الحضور بالفعل" قالها القزم حين لمح غطاء رأس (دوالين) الأخضر معلقًا، ثم علق غطاء رأسه الأحمر بجانبه، وقال ويداه على صدره: "اسمي (بالين)، وأنا في خدمتك!"

قال (بيلبو) وهو يلهث: "شكرًا لك!"

لم يكن هذا الرد مناسبًا، لكن جملة القزم (أنهم بدءوا في الحضور بالفعل) قد أربكته بشدة. كان (بيلبو) يحب الزوار، لكنه كان يحب أن يعرفهم قبل أن يصلوا، وكان يحب أن

يدعوهم بنفسه. راوده شعور رهيب بأن الكعك قد ينفد، وأنه قد يضطر لأن لا يقدم المزيد منه؛ فهو كمضيف يعرف واجباته جيدًا، ويحترمها مهما كانت مجهدة.

وأخيرًا قال (بيلبو) بعد أن أخذ نفسًا عميقًا: "فلتتفضل إذن لتحتسي بعض الشاي!"

قال (بالين) من تحت لحيته البيضاء: "بل أفضّل القليل من الجعة، إن كان ذلك يناسبك يا سيدي العزيز، ولا أمانع أبدًا في تناول بعض كعك الذرة إن كان لديك بعضه."

أجاب (بيلبو) بسرعة أدهشته هو شخصيًا: "بل لدي الكثير!"

ثم انطلق إلى حجرة المؤن، وصب كأسًا من النبيذ، وأحضر كعكتي ذرة مستديرتين شهيتين كان قد خبزهما عصر ذلك اليوم ليتناولهما بعد وجباته الأساسية.

وعندما عاد (بيلبو) إلى الطاولة، كان (بالين) و(دوالين) يتحدثان تمامًا كأصدقاء الصبا، وفي الواقع كانا بالفعل أخوين. قدم (بيلبو) لهما الجعة والكعك، ثم سمع دقة عالية بالباب مرة أخرى، ثم مرة أخيرة.

قال (بيلبو) في نفسه وهو في طريقه إلى الباب: "مؤكد أنه (جاندلف) هذه المرة."

لكن من بالباب لم يكن (جاندلف)، بل كانا قزمين آخرين، كل منهما يرتدي قلنسوة زرقاء وحزامًا فضي اللون، ولديه لحية صفراء ويحمل حقيبة بها مجرفة وبعض الأدوات. وسرعان ما انفتح الباب وقفزا إلى الداخل، أما (بيلبو) فلم يندهش على الإطلاق، وقال: "ماذا يمكنني أن أقدم لكما أيها القزمان؟"

قال أحدهما: "اسمي (كيلي)، وأنا في خدمتك!"

وقال الآخر: "وأنا (فيلي)، وأيضًا في خدمتك!"

ثم رفعا قلنسوتيهما وانحنيا.

قال (بيلبو) وقد أظهر حسن خلقه هذه المرة: "وأنا في خدمتكما وخدمة أهليكما!"

قال (كيلي): "أرى أن (دوالين) و(بالين) قد وصلا بالفعل. لننضم إلى الحشد!"

قال السيد (باجنز) في نفسه: "الحشد! لا يعجبني هذا مطلقًا. عليّ بالفعل الجلوس لبرهة لأسترد صوابي وأحتسي شرابًا."

ذاق رشفة واحدة من شرابه في ركن من أركان الحفرة، بينما التف الأقزام الأربعة حول الطاولة يتحدثون عن المناجم والذهب، وعن متاعبهم مع الجوبلين وسلب ونهب التنانين، وعن الكثير من الأمور الأخرى التي لم يفهمها (بيلبو)، والتي لم يشأ أن يفهمها؛ فهي أمور جميعها

تبدو متعلقة بالمغامرات و... وها هو جرس الباب يدق من جديد، كأنما كان أحد أطفال الهوبيت الأشقياء يحاول خلع مقبض الباب.

قال (بيلبو): "هناك من يدق الباب!"

قال (فيلي): "بل أظنهم أربعة يدقون الباب، فصوت الدقات كان مرتفعًا. هذا إلى جانب أننا رأيناهم خلفنا ونحن في طريقنا إلى هنا."

جلس الهوبيت المسكين في الردهة حاملاً رأسه بين يديه متعجبًا مما يحدث، ومتخوفًا مما قد يحدث، ومتسائلاً إن كانوا جميعًا سيبقون لتناول وجبة العشاء. ثم مجددًا دق الجرس بصوت أعلى من أية مرة مضت، واضطر (بيلبو) لأن يسرع إلى الباب.

حسن، لم يكن بالباب أربعة أقزام هذه المرة، بل كانوا خمسة! لقد انضم لهم قزم آخر حين كان (بيلبو) يجلس متعجبًا في الردهة. لم يكد (بيلبو) يدير مقبض الباب حتى أسرعوا جميعًا داخلين. كالمعتاد، انحنوا وقالوا واحدًا تلو الآخر: "في خدمتك."

كانت أسماؤهم هي (دوري) و(نوري) و(أوري) و(أوين) و(جلوين)، وسرعان ما عُلقت على المشاجب قلنسوتان أرجوانيتان، وقلنسوة رمادية، وأخرى بنية، وأخيرة بيضاء، ثم ساروا جميعًا وأيديهم العريضة على أحزمتهم الفضية والذهبية اللون لينضموا إلى الآخرين. أصبحوا جميعًا بمثابة حشد بالفعل، فالبعض يطلب نوعًا من الجعة، والبعض يطلب نوعًا آخر، وأحدهم يريد القهوة، وجميعهم يريدون الكعك. كل ذلك أبقى الهوبيت منشغلاً لبعض الوقت.

كان الهوبيت قد حضر لتوه إبريقًا كبيرًا من القهوة، لكن كعك الذرة كان قد نفد، وبدأ الأقزام يتناولون كعكات مستديرة بالزبد حين سمعوا بالباب دقة عالية. لم يكن ذلك صوت جرس الباب، بل كانت دقة عالية على باب الهوبيت الأخضر الجميل نفسه. هناك من يقرع الباب بشدة مستخدمًا عصا!

أسرع (بيلبو) إلى الباب وهو في شدة الغضب والذهول، فقد كان ذلك الأربعاء هو الأكثر إرباكًا على الإطلاق. فتح (بيلبو) الباب بعصبية، فسقطوا جميعًا داخل الحفرة واحدًا فوق الآخر. فوجئ بالمزيد من الأقزام... أربعة منهم! وكان (جاندلف) من خلفهم يستند إلى عصاه ويضحك. لقد أحدث انبعاجة واضحة في الباب الجميل، وكان قد قام أيضًا بمحو العلامة الغامضة التي نقشها على الباب يوم أمس.

قال: "على رسلك! على رسلك! ليس من عادتك يا (بيلبو) أن تبقي أصدقاءك ينتظرون عند عتبة الباب، ثم تفتح الباب كأنك تفتح النار! دعني أقدم لك (بيفر) و(بوفر) و(بومبر)،

وبالأخص (ثورين)."

-"في خدمتك!" قالها (بيفر) و(بوفر) و(بومبر) وهم واقفون في صف، ثم علقوا قلنسوتين صفراوين، وواحدة ذات لون أخضر باهت، وأخرى ذات لون أزرق سماوي وشُرّابة فضية طويلة. تلك الأخيرة كانت تخص (ثورين أوكنشيلد)*، وهو قزم ذو شأن رفيع، وبالطبع لم يسره على الإطلاق أن يسقط مفترشًا الأرض عند عتبة باب (بيلبو)، وأن يسقط (بيفر) و(بوفر) و(بومبر) فوقه، خاصة وأن (بومبر) كان هائل الحجم -بالنسبة لقزم- وثقيل الوزن.

كان (ثورين) متغطرسًا حقًا، ولم يردد مقولة (في خدمتك) المعتادة، لكن السيد (باجنز) المسكين اعتذر له مرارًا، حتى قال (ثورين) أخيرًا بوجه غير عابس: "ما من مشكلة."

قال (جاندلف) وهو ينظر إلى صف من ثلاث عشرة قلنسوة للحفلات من أفضل الأنواع وأيضًا إلى قبعته، جميعها معلق على المشاجب: "والآن جميعنا هنا! يا له من تجمع يبعث على البهجة! أتمنى أن يكون قد تبقى للواصلين متأخرين ما يأكلونه ويشربونه! ما هذا؟ شاي؟ لا، شكرًا! أفضل القليل من النبيذ الأحمر."

قال (ثورين): "وأنا أيضًا."

وقال (بيفر): "ومربى التوت وكعكة التفاح."

وقال (بوفر): "وفطائر اللحم المفروم والجبن."

وقال (بومبر): "وفطائر اللحم المقدد والسلطة."

وقال الأقزام الآخرون عبر الباب: "والمزيد من الكعك والجعة والقهوة إن كنت لا تمانع."

وقال (جاندلف) حين كان الهوبيت متوجهًا إلى حجرة المؤن: "وأضف القليل من البيض أيها المضياف!"

ثم صاح بصوت أعلى: "لتجلب الدجاج البارد ولا تنس المخللات!"

قال الهوبيت في نفسه: "يبدو أنه يعرف ما في داخل خزانة حفظ اللحوم مثلما أعرفه أنا شخصيًا!"

كان السيد (باجنز) يشعر بالارتباك، وبدأ يتساءل إن كانت أسوأ المغامرات قد ضلت

* (ثورين Thorin): هو اسم حقيقي لقزم في القصيدة الأولى والأشهر المعروفة باسم Völuspá من الملحمة الشعرية الإسكندنافية Poetic Edda، والمعروف أن (تولكين) تأثر بالكثير من الأسماء في هذه الملاحم القديمة. و(أوكنشيلد Oakenshield) مشتق من اسم Eikinskjaldi من القصيدة نفسها، ويعني (درع البلوط)

طريقها ووصلت إلى عتبة داره بطريق الخطأ. ومع الوقت، كان (بيلبو) قد أخرج جميع الزجاجات والأطباق والسكاكين وشوك الطعام والأكواب والصحون والملاعق، وتكوم كل ذلك في صوان كبير، وبدأ وجهه يحمر وشعر بالضيق والحر الشديدين.

قال (بيلبو) بصوت مرتفع: "يا لإزعاج هؤلاء الأقزام! لم لا يأتون للمساعدة؟"

لكن مهلًا! لقد وجد (بالين) و(دوالين) يقفان عند باب المطبخ، ومن ورائهما (فيلي) و(كيلي). وقبل أن ينبس ببنت شفة، كانوا قد نقلوا الصواني وبعض الطاولات الصغيرة إلى الردهة ورتبوا كل شيء من جديد.

جلس (جاندلف) على رأس المائدة، وجلس الثلاثة عشر قزمًا حوله، بينما جلس (بيلبو) على مقعد بجانب المدفأة، وأخذ يقضم قطعة بسكويت -كان بالفعل قد فقد شهيته- ويتظاهر بأن الأمور كلها تسير بطريقة طبيعية، وأن ما يحدث هو أبعد ما يكون عن بشائر مغامرة. وأخذ الأقزام يأكلون ويأكلون ويتحدثون ويتحدثون، ومضى الوقت. على الأقل وضعوا الكراسي في أماكنها، بينما قام (بيلبو) بجمع الأطباق والأكواب.

ثم قال (بيلبو) مستخدمًا ألطف طريقة ممكنة: "أظنكم جميعًا ستبقون لتناول وجبة العشاء؟"

قال (ثورين): "بالطبع! وسنبقى إلى ما بعد وجبة العشاء. لن نخوض في تفاصيل العمل إلا في ساعة متأخرة، ومن الضروري أن نستمع لبعض الموسيقى أولاً. والآن لننظف المكان!"

وبناءً عليه، هب الأقزام -باستثناء (ثورين)، فهو شخصية ذات شأن، ولذا ظل في مكانه يتحدث إلى (جاندلف)- ووضعوا كل شيء في كومات كبيرة، وانطلقوا. لم ينتظروا إحضار الصواني، بل وازنوا صفوفًا من الأطباق بيد واحدة، وكل صف تعتليه زجاجة، بينما أسرع الهوبيت من خلفهم وهو يرتعد من الخوف قائلاً للجميع أشياء على غرار: "من فضلك كن حذرًا!" و"من فضلكم لا تتعبوا أنفسكم! أستطيع أن أرتب كل شيء بنفسي!"

لكن الأقزام لم يعيروا ذلك اهتمامًا، وشرعوا في الغناء:

حطِّم هذي الأطباق، ولتخدش هذي الكؤوس
ارمِ الآنية الخزفية في الماء المغلي
واكسرها برنين يدوي كالناقوس

وعندما ننهي هذا الأمر
ربما يتبقى منها البعض سليمًا
فأرسل باقيها يتدحرج في البهو كما يختار
هذا ما يمقته (بيلبو باجنز) كل المقت
فلتحذر هذي الأطباق حذار
فلتثن الأشواك
ولتثلم النصال
كسر أوعية الماء واحرق كل السدادات
هذا ما يمقته (بيلبو باجنز) كالموت
شق الأثواب
دق بقبضتك على اللحم
اسكب كل اللبن على الأرض
وعلى سجاد الغرفة فلترم بقايا العظم
واسكب هذا الخمر على الأبواب
هذا ما يمقته (بيلبو باجنز)
فلتحذر هذي الأطباق حذار

وبالطبع لم يفعلوا أيًا من تلك الأشياء المريعة، بل قاموا بتنظيف ووضع كل شيء سالمًا في مكانه بسرعة البرق، بينما كان الهوبيت يدور ويدور في منتصف المطبخ يحاول أن يعرف ماذا كانوا يفعلون. وعندما عادوا جميعًا، وجدوا (ثورين) ممددًا ساقيه على سياج المدفأة ويدخن الغليون. كان ينفخ حلقات هائلة من الدخان، وتتوجه الحلقات إلى حيث طلب منها: فوق المدفأة، أو خلف الساعة على رف الموقد، أو تحت الطاولة، أو تدور وتحلق في الحجرة.

لكن أينما ذهبت حلقات الدخان، لم تكن بالسرعة الكافية لتفلت من (جاندلف). بوف! ينفخ (جاندلف) حلقة أصغر من الدخان من غليونه الصغير لتخترق جميع حلقات (ثورين)، أما حلقات دخان (جاندلف) فيتحول لونها إلى الأخضر وتدور لتحوم حول رأس الساحر. كانت

حوله سحابة من الدخان الأخضر، أعطت –بالإضافة إلى عتمة الليل– (جاندلف) مظهرًا غريبًا كمشعوذ.

وقف (بيلبو) صامتًا يراقب ما يحدث –وكان يحب حلقات الدخان– وتضرج وجهه خجلاً حين تذكر كيف كان فخورًا بالأمس بحلقات الدخان المتواضعة التي كان ينفخها في الهواء فوق التل.

قال (ثورين): "والآن لنستمع إلى الموسيقى! لتجلبوا الآلات الموسيقية!"

أسرع (كيلي) و(فيلي) إلى الحقائب، وأحضرا آلات كمان صغيرة؛ و(دوري) و(نوري) و(أوري) أخرجوا من معاطفهم آلات الفلوت. جلب (بومبر) الطبل من الردهة، أما (بيفر) و(بوفر) فتوجها أيضًا إلى الردهة، وأحضرا آلات المزمار التي كانا قد تركاها بين عصي المشي.

قال (دوالين) و(بالين): "عذرًا، لقد تركت آلتي في الشرفة!"

فقال (ثورين): "لتحضرا آلتي إلى هنا من فضلكما."

وعادا ومعهما آلتا فيول* كادتا تناهزان القزمين طولاً، وأيضًا قيثارة (ثورين) المغطاة بقطعة قماش أخضر. كانت قيثارته ذهبية جميلة، وعندما بدأ (ثورين) في العزف عليها، بدأ الجميع يعزفون الموسيقى معًا. كان صوت الموسيقى عذبًا لدرجة فاجأت (بيلبو) الذي نسي كل شيء آخر وسرح بخياله في أراض مظلمة لها أقمار غير مألوفة. أخذته الموسيقى بعيدًا فوق صفحة النهر، بل وأبعد بكثير من حفرته تحت التل.

أطلت ظلمة الليل على الحجرة عبر النافذة الصغيرة التي تُفتح على جانب التل، واشتعلت النيران في المدفأة بصورة متقطعة –كان ذلك في شهر أبريل– واستمروا في العزف، بينما كان ظل لحية (جاندلف) يهتز على الحائط.

ملأ الظلام جميع أنحاء الحجرة، وانطفأت النيران في المدفأة، وضاعت الظلال من على الجدران، لكنهم استمروا في العزف. وفجأة، شرع واحد من الأقزام في الغناء، ثم انضم إليه آخر أثناء ما كانوا يعزفون. غناء الأقزام جاء عميقًا كأنما يجيء من عمق أوطانهم العتيقة. وتلك هي لمحة من أغنيتهم، إن جاز لنا أن نطلق عليها (أغنيتهم) من دون أن تصاحبها موسيقاهم:

بعيدًا خلال جبال الضباب الباردة

* الفيول Viol كمان قديم الطراز ذو ستة أوتار.

سجونٌ عميقةٌ

وكهوفٌ سحيقةٌ

علينا الرحيلُ قُبيلَ مطلع النهار

لنبحث عن ذلك الذهب الأصفر المسحور

تعاويذُ أقزامِ عصرٍ سحيقٍ، كمثل الجرسُ

ولما المطارق تهوي، ترنُ كمثل الجرسُ

كهوفٌ سحيقةٌ

تنامُ بها هذه الكائناتُ المخيفة

في ردَهَاتٍ مجوفةٍ تحتَ هذي التلالْ

وفيما وراء الجبالْ

لملك قديم (وسيد إلفي)

هنالك أسلحةٌ تلتمع

كمثل الشفقْ

بعيدًا على خطِّ ضوء الأفقْ

وتصنع ضوءًا تشكله ثم تقبضهُ

فينجذب الضوء للسيفِ

ويختبئ الضوء في جوهر المقبضِ

هناك نجوم تشع ضياءً عجيبًا

معلقة فوق جوهرة الفضة

وتاجًا مهيبًا

ونار التنانين نقلت ضد البشرْ

ونقلت بين غروب الشموسِ وضوء القمرْ

بعيدًا خلال جبالِ الضباب الباردة

سجونٌ عميقةٌ

وكهوفٌ سحيقةٌ

علينا الرحيل قبيل انتهاء النهار

هناك لنا ذهبٌ راح قديمًا

هنالك قد نحتوا لنفوسهم قدحًا عظيمًا

وعزفوا على قيثارٍ من الذهبِ

هنالك حيث لا بشري يذهب

هنالك كانوا يعيشونْ

هنالك كانوا - طوال النهارِ طوال الليالي- يغنونْ

(ولم يسمع الإلفيون!)

هناك الصنوبر فوق الأعالي

تأتي الرياح طوال الليالي

ونار هنا حمراءُ

يطير اللهيبُ، يجف الهواءْ

ويبدو الشجيرات مثل المصابيح تنشر هذا الضياءْ

ترن النواقيسُ في الوادي

رجالٌ همُ يرقبون الأعالي، بوجه عليه شحوب بادي

فنار التنانينِ أشرسُ من نارهم

ستدمي بروجهمُ في الخلاء، يحطم كل البيوتِ

دخانٌ يلوح من الجبلِ المختفي تحت ذاك المحاقْ

وقومٌ يرى سيل دم يراقْ

(همو سمعوا صوت ذاك العذاب)

دوم-دوم، دوم-دوم

ففروا من الكهف كي يسقطوا في الممات

أسفل أقدامه

وتحت القمرْ

بعيدًا خلال جبالِ الضباب الباردة

سجونٌ عميقةٌ

وكهوفٌ سحيقةٌ

علينا الرحيل قُبَيلَ مطلع النهار

لنبحث عن ذلك الذهب الأصفر المسحور

وأثناء غنائهم، أحس الهوبيت بحب تلك الأشياء الجميلة المصنوعة يدويًا، وبالحيوية والسحر يتحركان بداخله. أحس حبًا عنيفًا يقظًا، وأحس بالأماني في قلوب الأقزام، ثم أحس شيئًا من طباع آل (توك) يستيقظ بداخله، وتمنى لو أن بإمكانه أن يرحل ليرى الجبال الضخمة، ويسمع حفيف أشجار الأناناس وخرير شلالات المياه، ويستكشف الكهوف، ويحمل سيفًا عوضًا عن عصا المشي.

نظر الهوبيت خارج النافذة. كانت النجوم تلمع في سماء مظلمة فوق الأشجار. تخيل الهوبيت جواهر الأقزام تتلألأ في الكهوف المظلمة. وفجأة في الغابة من وراء النهر، لمح الهوبيت لهيب نيران تشتعل –وعلى الأرجح كان يحاول أحدهم إشعال نار صغيرة– فتخيل التنانين السارقة تستقر عند التل الهادئ وتضرم فيه النيران وتبيده عن آخره. ارتعد من مجرد الفكرة، وسرعان ما عاد مرة أخرى لطبيعته كـ(باجنز)، ولحفرته تحت التل من جديد.

نهض (بيلبو) مرتجفًا. بنصف عقل أراد إحضار المصباح، وبأكثر من هذا النصف أراد التظاهر بذلك، ثم الذهاب للاختباء خلف براميل الجعة في حجرة المؤن، وألا يخرج منها إلا بعد رحيل الأقزام جميعًا. وفجأة، وجد (بيلبو) أن الموسيقى والغناء قد توقفا، وأن الجميع ينظرون إليه بأعين تلمع في الظلام.

قال (ثورين) بنبرة تنم عن أنه بإمكانه أن يحزر ما يدور بنصفي عقل الهوبيت: "إلى أين تذهب؟"

أجاب (بيلبو) مبررًا: "ماذا عن القليل من الإنارة؟"

قال الأقزام: "نحن نحب الظلام. الظلام يناسب الأعمال المظلمة! مازال لدينا بضع ساعات قبل بزوغ الفجر."

قال (بيلبو) وهو يسرع بالجلوس: "بالطبع!"

أخطأ (بيلبو) المقعد، وجلس على سياج المدفأة مصطدمًا بمذكي النار ومجرفة المدفأة ومحدثًا ضجة شديدة.

قال (جاندلف): "صه! دع (ثورين) يكمل حديثه!"

وهكذا بدأ (ثورين) حديثه: "(جاندلف)، أيها الأقزام، السيد (باجنز). نجتمع اليوم في منزل صديقنا ورفيقنا في التآمر، هذا الهوبيت الجريء الرائع، عسى ألا يتساقط الشعر من على أصابع قدميه أبدًا! فالنبيذ والجعة التي يقدمهما يستحقان كل تقدير!"

ثم توقف لبرهة قصيرة ليلتقط أنفاسه، وليترك للهوبيت فرصة للرد على ما قاله، لكن المديح كان قد اختلط على المسكين (بيلبو باجنز) الذي كان يمط شفتيه اعتراضًا على تلقيبه بالجريء، وفوق كل شيء تلقيبه برفيق التآمر. ورغم أنه لم يعبر عن غضبه، فإنه كان في حالة من الحيرة والارتباك.

أكمل (ثورين) حديثه قائلاً: "لقد اجتمعنا لمناقشة خططنا واتجاهاتنا ووسائلنا وسياساتنا وأدواتنا. سنبدأ في القريب العاجل قبل بزوغ الفجر رحلتنا الطويلة. تلك الرحلة التي لن يعود منها بعضنا أو ربما جميعنا، باستثناء صديقنا ومستشارنا المخلص الساحر (جاندلف). إنها اللحظة الحاسمة. أعتقد أن هدفنا معروف لنا جميعًا، أما بالنسبة للسيد (باجنز) المبجل وربما لواحد أو اثنين من الأقزام الأصغر سنًا –وأعتقد أنني على صواب حين أذكر اسمي (كيلي) و(فيلي) على وجه المثال– فإن الموقف الحالي ربما يحتاج لشرح مختصر."

كان ذلك هو أسلوب (ثورين)، فقد كان قزمًا ذا شأن. ولو كان الأمر بيده، لكان على الأرجح أطال الحديث حتى انقطع نفسه من دون أن يخبر أيًا من المستمعين بشيء لم يعلموه من قبل. لكن المسكين (بيلبو) الذي لم يعد يتحمل أكثر من ذلك قاطع حديث (ثورين) بطريقة فظة؛ فعندما سمع قوله (ربما لن يعود منها مطلقًا) أحس بصرخة مكتومة في صدره، وسرعان ما دوّت كأنها صفارة قطار تدوي داخل نفق. هب الأقزام واقفين ليصطدموا بالطاولة، أما (جاندلف) فأصدر ضوءًا أزرق من طرف عصاه السحرية، وفي وهج هذا الضوء ظهر الهوبيت المسكين جاثيًا على البساط بجانب المدفأة وهو يرتعش كريشة في مهب الريح، ثم خر منهارًا على الأرض وأخذ يصيح بصوت عال ويردد: "لقد صعقهم البرق، صعقهم البرق!"

رددها مرة تلو الأخرى، واستمر على حاله هذه لفترة طويلة، فأخذوه إلى حجرة الرسم، ومددوه على أريكة، وناولوه شرابًا، ثم عادوا إلى أعمالهم المظلمة.

قال (جاندلف) وهم يجلسون: "إنه هوبيت سريع الانفعال تصيبه نوبات غريبة، لكنه واحد من أفضل الهوبيت، شرس كتنين في مأزق."

إن كنت قد رأيت تنينًا في مأزق من قبل، لأدركت أن ما قاله (جاندلف) عن (بيلبو) مجرد مبالغة شعرية تنطبق على أي هوبيت، بما فيهم (بولرورار) خال العجوز (توك) الكبير، والذي كان ضخمًا للغاية -بالنسبة لهوبيت- لدرجة أنه كان باستطاعته أن يمتطي حصانًا. وذات يوم هاجم صفوف الأورك عند جبل (جرام) في معركة الحقول الخضراء، وأطاح برأس زعيمهم (جول-فرنبول) بمضرب خشبي، فطار رأسه في الهواء لمسافة مائة ياردة، ثم حط في جحر أرنب؛ وبهذا تحدد المنتصر في المعركة، وتم اختراع لعبة الجولف في الآن ذاته!

أما سليل (بولرورار) الرقيق، فقد بدأ يفيق في حجرة الرسم في تلك الأثناء. وبعد برهة، وبعد أن تناول مشروبًا، زحف (بيلبو) إلى باب الردهة، وأرهف السمع لما كان(جلوين) يقوله: "أف! (أو صيحة تذمر شبيهة بهذه) أتعتقدون أنه مناسب؟ (جاندلف) يتحدث عن شراسة هذا الهوبيت وما إلى ذلك، لكن صرخة كهذه في لحظة انفعال كفيلة بأن توقظ التنين وجميع أقاربه وتتسبب في مقتل الكثيرين منا. لقد بدت لي كأنها صرخة رعب أكثر من صرخة انفعال وتأثر! في الواقع، إن لم أكن قد رأيت العلامة على باب الحفرة، لبت متأكدًا من أننا قد أخطأنا المنزل؛ فما إن وقعت عيناي على رفيقنا وهو يرتعش ويلهث على البساط، غزا الشك قلبي. إنه يبدو كبقال أكثر منه لصًا!"

أدار السيد (باجنز) مقبض الباب وهمَّ بالدخول. أعلنت طباع آل (توك) انتصارها عليه، فقد أحس فجأة أن بإمكانه تحمُّل المشاق والجوع من أجل أن يلقب بـ(الشرس). أحس بالشراسة بالفعل عندما سمع القزم يتحدث عنه ويقول: وهو يرتعش على البساط، وكم من مرة شعر جانب آل (باجنز) بداخله بالندم على ما فعله ألآن، وكثيرًا ما قال لنفسه: "(بيلبو)، لقد كنت أحمق، فأنت من أقحم نفسه في تلك المغامرة."

قال (بيلبو): "عذرًا إن كنت قد سمعت مصادفة بعض ما قلتموه. أنا لا أتظاهر بأنني أفهم ما تتحدثون عنه، ولا اللصوص الذين تشيرون إليهم في حديثكم، لكنني أعتقد أنني محق حين أقول... (وكانت هذه طريقته للحفاظ على ماء وجهه) ... إنكم تظنونني معدوم الفائدة. لكنني سأثبت لكم العكس. لا توجد علامات على بابي. لقد قمت بطلائه منذ أسبوع، وأنا متيقن من أنكم قد أخطأتم المنزل؛ فبمجرد أن رأيت وجوهكم غير المألوفة على عتبة داري، وقع الشك في قلبي. لكن اعتبروا أنكم لم تخطئوه. أخبروني بما تريدون إنجازه، وسأفعل ما بوسعي، حتى إن

اضطررت لأن أسير من التل وحتى أقصى الشرق، ولمحاربة الديدان المتوحشة في الصحراء المترامية. إن جد جد جد خالي الكبير هو (بولرورار توك) و..."

قاطعه (جلوين) قائلًا: "نعم، نعم. كان ذلك منذ فترة طويلة. كنت أتحدث عنك أنت. وأؤكد لك أن ثمة علامة منقوشة على ذلك الباب. إنها العلامة المعتادة في مهنتنا، أو التي كانت معتادة؛ علامة ينقشها لص يحتاج إلى مهمة جيدة يتوفر بها قدر كبير من الإثارة إلى جانب مكافأة مرضية. هذا هو مدلول العلامة. يمكنك أن تطلق عليه (صائد كنوز محترف) بدلًا من (لص) إن أردت، فالبعض يطلقون عليهم ذلك، والأمر سواء بالنسبة إلينا. لقد أخبرنا (جاندلف) بأن أحدهم تنطبق عليه تلك الشروط في هذه الأنحاء، ويبحث عن عمل على الفور، وبأنه قد نظم اجتماعًا هنا يوم الأربعاء -أي اليوم- في موعد احتساء الشاي."

قال (جاندلف): "بالطبع هناك علامة. لقد نقشتها بنفسي على الباب لأسباب مقنعة، فقد طلبتم مني أن أبحث لكم عن الفرد الرابع عشر لتبدءوا مهمتكم، وأنا اخترت السيد (باجنز). لتقولوا إذن إنني لم أختر الفرد أو البيت المناسبين، وابدءوا مهمتكم إن شئتم وعددكم ثلاثة عشر قزمًا لتنالوا قسطًا وفيرًا من الحظ العاثر، أو بإمكانكم أن تعودوا من جديد لحفر المناجم."

ونظر (جاندلف) إلى (جلوين) بوجه غاضب عابس، فاعتدل القزم في جلسته. وعندما حاول (بيلبو) أن يسأل سؤالًا، استدار (جاندلف) وقطب وجهه، فبرز حاجباه الكثيفان حتى أطبق (بيلبو) شفتيه.

قال (جاندلف): "حسن، لا داع لمزيد من النقاش إذن. لقد اخترت السيد (باجنز)، ويجب أن يكون اختياري هذا كاف لكم جميعًا. إن قلت إنه لص، فهو كذلك، أو إنه سيكون كذلك عندما يحين الوقت. هذا الهوبيت يتمتع بطاقات أكبر مما تتصورون، وأكثر بكثير مما يتصور هو شخصيًا. بل ومن المحتمل أيضًا أن تعودوا سالمين، وربما تشكرونني في النهاية. والآن يا عزيزي (بيلبو)، لتحضر المصباح. دعونا نلقي بالضوء على بعض الأمور هنا."

وفي ضوء مصباح كبير يلقي ضوءًا أحمر، وضع (جاندلف) على المنضدة مخطوطة أقرب ما تكون إلى خريطة، ثم أجاب عن تساؤلات الأقزام الملحة قائلًا: "هذه من صنع جدك (ثرور) يا (ثورين). إنها خريطة للجبل."

ألقى (ثورين) عليها نظرة خاطفة، ثم قال بخيبة أمل: "لا أعتقد أنها ستكون ذات أية فائدة لنا. أنا أذكر الجبل جيدًا، كذلك الأراضي المحيطة به، وأعرف أيضًا مكان غابة (ميركوود) والمرج الذابل حيث تتوالد التنانين وتترعرع."

قال (بالين): "هناك علامة حمراء في الخريطة توضح مكان التنين فوق الجبل، لكن إيجاده لن يكون صعبًا على الإطلاق إن تمكنا من الوصول إلى هناك."

قال الساحر: "هناك أمر لم تلاحظوه، ألا وهو المدخل السري. أترون هذه النقوش في الجهة الغربية وهذا المؤشر الذي تشير إليه النقوش الأخرى*؟ إنه يرمز إلى ممر خفي يقود إلى الأروقة السفلى."

قال (ثورين): "ربما كان سرًا فيما مضى، لكن كيف لنا أن نعرف إن كان مازال سرًا إلى الآن؟ لقد عاش (سموج) العجوز هناك لفترة طويلة تكفيه لأن يعرف كل ما يمكن معرفته عن تلك الكهوف."

رد الساحر: "ربما، لكن من المؤكد أنه لم يستعملها لسنوات طويلة ماضية. لماذا؟ لأنها ضيقة للغاية. النقوش على الخريطة توضح أن الباب بارتفاع خمسة أقدام، وأن بإمكان ثلاثة أشخاص السير في الممر جنبًا إلى جنب. أما (سموج) فلا يمكنه الزحف إلى حفرة بهذا الحجم، بل لم يكن ليزحف إليها حينما كان تنينًا صغيرًا، فما بالك به الآن وقد التهم الكثير من الأقزام والرجال من ساكني منطقة (ديل)؟"

قال الهوبيت الذي ليست لديه خبرة إلا عن حفر الهوبيت –ناهيك عن التنانين– بصوت ضعيف: "تبدو لي كحفرة هائلة الحجم."

قالها (بيلبو) وقد غمره الحماس من جديد، حتى إنه نسي أن عليه ألا يتحدث مطلقًا الآن، فقد كان يحب الخرائط، وكانت لديه خريطة كبيرة معلقة في الردهة لمسارات الريف، وقد ميز طرقه المفضلة عليها بالحبر الأحمر.

ثم طرح (بيلبو) سؤاله: "إن فُرض أنه مخفي عن التنين، فكيف يكون مثل هذا الباب الضخم مخفيًا عن أعين الجميع بالخارج؟"

من الضروري أن نتذكر دائمًا أنه هوبيت قليل الخبرة.

رد (جاندلف) قائلاً: "بطرق عدة. لكن كي نعرف كيف تم إخفاء ذلك الباب تحديدًا، علينا أن نذهب إلى هناك لنكتشف بأنفسنا. من خلال قراءتي للخريطة، أستطيع أن أقول إنه ربما يكون هناك باب مغلق صُمم خصيصًا ليأخذ شكل جانب الجبل. إنها الطريقة التقليدية لدى الأقزام، أليس هذا صحيحًا؟"

* انظر الخريطة في بداية الكتاب.

رد (ثورين) قائلاً: "هذا صحيح."

أكمل (جاندلف) قائلاً: "أيضًا نسيت أن أخبركم بأن ثمة مفتاحًا كان مرفقًا بالخريطة. إنه مفتاح صغير وغريب. ها هو!"

سلم (جاندلف) مفتاحًا فضيًا طويلاً معقد الشكل لـ(ثورين)، وقال له: "أبقه في مكان آمن."

قال (ثورين) وهو يثبت المفتاح في سلسلة رقيقة كان يرتديها حول رقبته وتتدلى من تحت سترته: "سأحافظ عليه بالطبع. الآن فقط بدأت الأمور توحي بالأمل، فما ذكرته يغير كل شيء إلى الأفضل. قبل ذلك لم تكن لدينا فكرة واضحة عما يتوجب علينا فعله. كنا سنتوجه إلى الشرق بهدوء وحذر قدر المستطاع حتى نصل إلى البحيرة الطويلة*، وهناك توقعنا أن تبدأ المتاعب."

بادره (جاندلف) قائلاً: "بل قبل الوصول إلى هناك بكثير، حسب معرفتي بمتاعب الشرق."

واصل (ثورين) كأنه لم يسمع الساحر قائلاً: "يمكننا أن ننطلق بمحاذاة النهر المتدفق**، ومن هناك إلى أطلال منطقة (ديل)، البلدة الأثرية في ذلك الوادي التي تستظل بظل الجبل. ما من أحد منا أعجبته فكرة عبور البوابة الأمامية، فالنهر يجري من خلالها مباشرة عبر المنحدر الشاهق بالمنطقة الجنوبية للجبل، ومنها أيضًا يخرج التنين غالبية الوقت، إلا إذا كان التنين قد غيّر عاداته."

قال الساحر: "لن يكون ذلك مفيدًا من دون أن يكون بصحبتكم محارب قوي أو حتى بطل. لقد حاولت أن أجد واحدًا، لكن جميع المحاربين مشغولون بمحاربة بعضهم البعض في أراض نائية. أما في هذه الأنحاء، فالأبطال نادرو الوجود، أو بالأحرى معدومو الوجود. السيوف في هذه الأنحاء فقدت حدتها، والفؤوس تُستخدم لقطع الأشجار، أما الدروع فتُستخدم كمهود للأطفال الرضع أو كأغطية لآنية الطعام. والتنانين يبعدون عن هنا بمسافات طويلة، وهكذا كاد يطويهم النسيان. ولذلك وقع اختياري على عمليات السرقة، وبخاصة حين تذكرت وجود باب جانبي. وها هو صديقنا (بيلبو باجنز) لص من النخبة، فهيا بنا نضع بعض الخطط الآن."

* البحيرة الطويلة Long Lake الواقعة جنوب الجبل الوحيد و(ديل).

** النهر المتدفق River Running أو Running River (الاسمان قابلان للتبادل)، ويطلق عليه أيضًا اسم Celduin، هو النهر الذي يخرج نابعًا من الجبل الوحيد ويصب في بحر (رون Rhûn) الداخلي.

قال (ثورين): "حسن، من المفترض إذن أن يعطينا اللص المحترف بعض الأفكار والمقترحات بخصوص موضوعنا هذا."

والتفت إلى (بيلبو) ونظر إليه نظرة ساخرة لكن مهذبة.

رد (بيلبو) قائلاً: "أود أولاً أن أعرف المزيد بشأن بعض الأمور."

كان يشعر بارتباك شديد وبرهبة داخلية، لكنه حتى ذلك الوقت كان يظهر إصرارًا على المضي قدمًا.

أكمل قائلاً: "أود أن أعرف المزيد بشأن الذهب والتنين وما إلى ذلك. كيف وصل الذهب إلى هناك، ولمن يكون، والتفاصيل كلها."

رد (ثورين) بتعجب قائلاً: "عجبًا! أليست لديك خريطة؟ ألم تستمع إلى أغنيتنا؟ ألم نكن ومازلنا نتحدث لساعات عن كل تلك الأمور؟"

-"ما يهمني هو أن أعرف كل ما يمكن معرفته بأسلوب واضح ويسير." قالها (بيلبو) بتحدٍ وجدية، كأنه رجل أعمال يتحدث -وهو عادة ما يستخدم تلك الطريقة مع من يحاول اقتراض بعض الأموال منه- وقد حاول أيضًا أن يبدو حكيمًا وفطنًا ومحترفًا، وأن يعلو بنفسه إلى توقعات (جاندلف) في الوقت ذاته.

تابع قائلاً: "وأود أيضًا أن أعرف مدى خطورة الأمر. كم تبلغ نفقات الرحلة، وما الوقت المحدد للقيام بها، وإن كانت هناك تعويضات أو شيء من هذا القبيل."

وبهذا كله كان (بيلبو) يقصد أن يسأل: بم ستفيدني هذه الرحلة؟ وهل سأتمكن من العودة إلى هنا سالمًا بعدها؟

رد (ثورين) قائلاً: "حسن، سأطلعك على بعض الأمور: منذ زمن بعيد اضطر جدي (ثرور) وبقية عائلتي إلى الرحيل عن منطقة أقصى الشمال، وعادوا ومعهم كل ثرواتهم ومعداتهم إلى هذا الجبل الموضح على الخريطة، والذي اكتشفه من قبلهم جدي الأكبر (ثرين الأكبر)؛ ومن ثم ظلوا ينقبون وينجمون، وحفروا حفرًا هائلة وأعدوا ورشًا للعمل. وبالإضافة إلى ذلك، أعتقد أنهم وجدوا كميات كبيرة من الذهب، بل والجواهر أيضًا. بأية حال، تضاعفت ثرواتهم، ونالوا نصيبًا من الشهرة، وتم تتويج جدي في سفوح الجبل من جديد، وكان يعامل بوقار وتبجيل من قبل بني البشر الذين عاشوا في الجنوب، وكانوا قد بدءوا ينتشرون تدريجيًا حول النهر المتدفق وحتى أطراف الوادي المستظل بظل الجبل.

لقد بنوا في تلك الأيام بلدة (ديل) المبهجة، وكان الملوك يستعينون بالحدادين منا ويكافئون حتى أقلهم مهارة بسخاء. كان الآباء يتوسلون إلينا كي نأخذ غلمانهم ليتمرنوا على الحرف، ويدفعون الكثير في مقابل ذلك؛ فكانوا يزودوننا بالطعام، حيث إننا لم نكن نزرع أو نبحث عن طعامنا بأنفسنا. إجمالاً، كانت تلك أيامًا طيبة بالنسبة إلينا، وأفقر فقرائنا امتلك من الأموال ما يكفيه وما يكفي أن يقرض غيره، ومن الوقت ما يكفي أن يقضيه في الاستمتاع بها. ناهيك عن أكثر الألعاب روعة وسحرًا، والتي ليس لها مثيل في عالمنا اليوم. وعليه، فقد امتلأت ساحات وأروقة جدي بالدروع والجواهر والمنحوتات والكؤوس، وأصبحت سوق الألعاب ببلدة (ديل) بمثابة أعجوبة الشمال."

استطرد (ثورين) روايته قائلاً: "ومما لا شك فيه أن تلك الأسباب هي التي أتت بالتنين، فأنت تعرف أن التنانين يسرقون الذهب والجواهر من بني البشر والإلفيين والأقزام أينما وجدوا، ويحرسون كل ما يسرقونه وينهبونه ما داموا أحياء... بمعنى آخر، إلى الأبد، ما لم يتم قتلهم. ولا يستمتعون أبدًا بأي من غنائمهم، فهم لا يعرفون الفرق بين ما هو جيد الصنع وما هو رديء الصنع، رغم أنهم عادة ما تكون لديهم معرفة جيدة بالقيمة السوقية لما يسرقون وقت سرقته. هؤلاء التنانين لا يمكنهم صنع أي شيء لأنفسهم؛ بل لا يمكنهم حتى إصلاح جزء صغير تالف في دروعهم. في تلك الأيام كان الكثير من التنانين يسكنون الشمال، ومن المحتمل أن يكون الذهب قد صار شحيحًا هناك، بما أن الأقزام كانوا إما يرحلون إلى الجنوب أو يُقتلون؛ وأيضًا نتيجة الخراب والدمار اللذين تسببت فيهما التنانين بصفة عامة، وباتت الحال في تدهور مستمر. وبينهم عاش التنين الأكثر طمعًا وقوة وشرًا، وهو المخادع (سموج).

وفي يوم من الأيام، طار (سموج) في الهواء وتوجه جنوبًا. كان أول ما سمعناه هو ضجيج يشبه صوت الإعصار قادمًا من الشمال. ومع الرياح سمعنا ورأينا لأشجار الصنوبر من فوق الجبل صريرًا وتحطمًا. بعض الأقزام الذين كانوا خارج منازلهم، ولحسن حظي كنت واحدًا منهم، فقد كنت غلامًا مغامرًا جسورًا في ذلك الوقت، أقضي وقتي في التجول بالخارج، وهو ما أنقذ حياتي في ذلك اليوم... حسن، كنت أقول إننا رأينا التنين من مسافة بعيدة يستقر على جبلنا وسط وهج شعلة من النيران، وبعد ذلك نزل باتجاه المنحدرات. وعندما وصل إلى الغابة، اشتعلت بأكملها. ولم يفت وقت طويل حتى دقت جميع أجراس بلدة (ديل)، واستعد المحاربون بأسلحتهم، وأسرع الأقزام إلى خارج البوابة الكبرى، لكن التنين كان هناك بانتظارهم. لم يتمكن أي منهم من الفرار، وتبخرت مياه النهر، وحل الضباب على بلدة (ديل). ووسط الضباب ظهر التنين وأباد معظم المحاربين. تلك هي القصة البائسة التي كانت معتادة ومتكررة في تلك الأيام. بعد ذلك عاد

التنين، وزحف إلى داخل البوابة الأمامية ودمر جميع الأروقة والممرات والأنفاق والأزقة والسراديب والمنازل والمسارات و... وبعد ذلك لم يعد أي من الأقزام على قيد الحياة داخل البلدة، أما التنين فقد استولى على كل ثرواتهم لنفسه. وربما لأن تلك هي طريقة التنانين، فقد كدس كل ما هو ثمين في كومة كبيرة بالداخل، واستغلها كفراش ينام عليه. ولاحقًا كان يزحف إلى خارج البوابة الكبرى ويأتي في المساء إلى بلدة (ديل) ويحمل بعض أهلها، وبخاصة من يمشون فرادى ليلتهمهم، حتى دُمِّرت بلدة (ديل) بأكملها. أما البقية من سكانها، فمنهم من رحل عنها، ومنهم من رحل عن الدنيا. ليست لدي فكرة واضحة عما يحدث هناك اليوم، لكنني أعتقد أن من يسكن منطقة حافة البحيرة الممتدة في هذه الأيام هو أقرب ما يكون لمنطقة الجبل."

وأكمل (ثورين) حديثه: "عدد قليل منا من كان خارج البلدة في ذلك اليوم، وجل ما استطعنا فعله هو الاختباء والنحيب ولعن (سموج). وفي مخبئنا، وعلى عكس توقعاتنا، انضم إلينا أبي وجدي وقد احترقت لحيتاهما. لقد بديا لي متجهمين، لكنهما حكيا لنا أقل القليل. وعندما سألتهما كيف استطاعا الخروج سالمين، طلبا مني أن أكف عن السؤال، وأخبراني أنني يومًا ما في الوقت المناسب سأعرف حقيقة ما حدث. وبعد ذلك رحلنا عن المكان، واضطررنا لأن نعمل بجد في جميع الأنحاء لنكسب قوت يومنا، حتى إننا كنا نضطر أحيانًا لأن نعمل أعمال الحدادة أو حتى في مناجم الفحم، لكننا لم ننس البتة أمر كنوزنا المسروقة. وحتى الآن وقد تحسنت ظروفنا..."

وهنا مرر أصابعه على السلسلة الذهبية حول رقبته، ثم أردف قائلاً: "... فمازلنا نعتزم استرداد كنوزنا، وأن ننزل بـ(سموج) البلاء إن أمكن. لكنني كثيرًا ما كنت أتساءل كيف استطاع أبي وجدي الفرار. فهمت الآن أنهما لابد وأنهما قد فرا عبر باب جانبي سري لم يعرف بشأنه سواهما. لكن من الواضح أنهما قد رسما هذه الخريطة، وأود أن أعرف كيف أنها كانت بحوزة (جاندلف) وليست بحوزتي أنا بما أنني الوريث الشرعي لها."

قال الساحر: "لم أستحوذ عليها، بل مُنحت إياها. أتذكر حين قتل الأورك (أزوج) جدك (ثرور) في مناجم (موريا)؟"

قال (ثورين): "عليه اللعنة. نعم أتذكر."

رد الساحر: "و أباك (ثرين) حين رحل بعيدًا في اليوم الواحد والعشرين من شهر أبريل منذ مائة عام تحديدًا ولم تقع عليه عيناك منذ ذلك الحين."

قال (ثورين): "هذا صحيح."

قال (جاندلف): "حسن، لقد أعطاني أبوك هذه الخريطة لأعطيك إياها، واعذرني إن اخترت أنا الوقت المناسب لأسلمك إياها، نظرًا للمصاعب الكثيرة التي واجهتها لأتمكن من العثور عليك. لم يكن بمقدور أبيك أن يتذكر اسمه حين أعطاني تلك الورقة، وأيضًا لم يطلعني على اسمك، وبالتالي أعتقد أنني أستحق الشكر والتقدير. ها هي الورقة."

سلم (جاندلف) الخريطة لـ(ثورين)، ورد عليه (ثورين) قائلاً: "لم أفهم كل ما قلت."

وشعر (بيلبو) بأنه يريد أن يردد نفس الجملة، فيبدو أن شرح (جاندلف) لم يكن كافيًا. هكذا قال الساحر بهدوء وتجهم: "لقد أعطى جدك الخريطة لابنه قبل أن يرحل إلى مناجم (موريا) ليحفظها في أمان، وأبوك رحل ليجرب حظه مع الخريطة بعد مقتل جدك، وخاض مغامرات عديدة لم تكن حسنة العواقب، لكنه لم يقترب البتة من الجبل. لا أدري كيف وصل إلى هناك، لكنني وجدته سجينًا في زنزانة بقصر النكرومانسر."

سأله (ثورين) وهو يرتعد لمجرد الفكرة وسط رجفة باقي الأقزام: "وماذا كنت تفعل هناك؟"

-"لا عليك. كنت أتفقد بعض الأمور كالمعتاد. كانت عملية سيئة وخطرة، وحتى أنا (جاندلف) بالكاد استطعت الفرار. حاولت إنقاذ أبيك، لكن بعد فوات الأوان. كان حينها قد فقد صوابه، بل وهائم على وجهه وقد نسي أمر كل شيء، باستثناء الخريطة والمفتاح."

قاطعه (ثورين) قائلاً: "لقد قضينا على جوبلين* (موريا) منذ زمن بعيد. من الواضح أن علينا أن نخطط للقضاء على النكرومانسر أيضًا."

قال (جاندلف) في حدة: "ما تقوله منافٍ للعقل! إنه عدو تفوق قوته قوة جميع الأقزام مجتمعين، وهذا إن استطعنا لمّ شملهم جميعًا من جهات العالم الأربع. الأمر الوحيد الذي تمناه أبوك قبل وفاته هو أن يقرأ ابنه الخريطة ويستعمل المفتاح المرفق بها، إذ إن أمر التنين والجبل ليس بالأمر الهين بالنسبة إليك!"

وفجأة صاح (بيلبو) قائلاً: "اسمعوا جميعًا، اسمعوا!"

التفتوا إليه جميعًا وردوا قائلين: "نسمع ماذا؟"

أجابهم بارتباك شديد: "اسمعوا ما أود أن أقوله!"

سألوه: "وماذا تريد أن تقول؟"

* في النص الأصلي يُعرفون باسم Goblins، والترجمة العربية للكلمة هي (العفاريت)، لكنها لا تتفق مع المعنى الذي يقصده المؤلف إطلاقًا، فالجوبلين اسم آخر من أسماء الأورك Orcs.

فأجاب: "أود أن أقول إن عليكم أن تتوجهوا إلى الشرق لتلقوا نظرة عامة، ففي النهاية أنتم تعرفون أمر الباب الجانبي، ومن المؤكد أن التنانين تنام أحيانًا. أعتقد هذا. فإن لازمتم عتبة الباب لبعض الوقت، فأظن أنكم ستتوصلون لطريقة ما للعبور من خلاله. حسن، ألا تشاركونني الرأي في أننا قد تحدثنا طويلا في ليلتنا هذه؟ لم لا نذهب لننام الآن وننهض مبكرًا للانطلاق؟ سأقدم لكم إفطارًا شهيًا قبل أن ترحلوا."

قال (ثورين): "أعتقد أنك تقصد أن تقول: قبل أن نرحل. ألست أنت اللص؟ أليس المكوث عند عتبة الباب مهمتك؟ هذا بالطبع إلى جانب العبور من خلال الباب! لكنني أوافقك الرأي في أمري النوم والإفطار. أنا أفضل البيض مع اللحم قبل أن أبدأ رحلاتي. ليكن البيض مقليًا وليس مسلوقًا، ورجاءً لا تمزجه."

وبعد أن طلب الجميع ما سيتناولون بوجبة إفطار الغد من دون أن يذكر أحدهم أي كلمة مشابهة لـ(من فضلك) -وهو الأمر الذي ضايق (بيلبو) كثيرًا- نهضوا جميعًا من مجلسهم.

كان على الهوبيت أن يوفر لكل واحد منهم مكانًا ليقضي ليلته، فامتلأت جميع الحجرات الإضافية بالمنزل، واستخدموا المقاعد والأرائك كأفرشة. وبعد أن اطمأن (بيلبو) إلى أن كلاً أوى إلى فراشه، ذهب إلى سريره الصغير وهو منهك القوى ولا يشعر بالرضا، واتخذ قرارًا بشأن أمر واحد، ألا وهو أنه لن يزعج نفسه بالنهوض باكرًا ليعد الإفطار للجميع؛ فتأثير جانب آل (توك) عليه كان قد بدأ يتلاشى تدريجيًا، ولم يكن متأكدًا الآن من أنه سينطلق في أية رحلة بالصباح.

وبينما كان (بيلبو) راقدًا في فراشه، سمع (ثورين) في الحجرة المجاورة له -وهي أفضل حجرة نوم بالمنزل- يدندن ويقول:

بعيدًا خلال جبالِ الضبابِ الباردة
سجونٌ عميقةٌ
وكهوفٌ سحيقةٌ
علينا الرحيل قبلَ مطلعِ النهارِ
لنبحث عن ذلك الذهب الأصفر المسحور

وغرق (بيلبو) في النوم وصوت (ثورين) مازال يتردد في أذنيه، مما جعله يرى في منامه أحلامًا مزعجة، واستيقظ من نومه بعد بزوغ الفجر بوقت طويل.



الفصل الثاني[1]

ضأن مشوي

هبَّ (بيلبو) من مضجعه بنشاط، ولبس رداءه وتوجه إلى حجرة الطعام. لم يجد أحدًا هناك، لكنه وجد آثارًا لتحضير إفطار سريع وضخم. كانت الحجرة في حالة فوضى عارمة، وتكومت الأواني التي تحتاج إلى غسيل في المطبخ، فتقريبًا كل قدر وإناء يملكه (بيلبو) قد تم استخدامه هذا الصباح.

عملية غسيل الأطباق كانت واقعية بشكل يسبب الاكتئاب، مما اضطر (بيلبو) لأن يصدق

أن حفل ليلة أمس قد حدث بالفعل، وأنه لم يكن حلمًا مزعجًا راوده في منامه كما كان يأمل أن يكون الأمر. صحيح أنه أحس بارتياح شديد لمجرد أنهم قد رحلوا جميعًا من دونه، ومن دون أيضًا أن يزعجوا أنفسهم ويوقظوه قبل رحيلهم، وقال في نفسه: لكنهم بالطبع لم يشكروني، لكنه مع ذلك لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور بالقليل من الإحباط. ولقد أدهشه ذلك الشعور حقًا، لكنه قال لنفسه: "لا تكن أحمق يا سيد (بيلبو باجنز)! تُفكر في التنانين وكل هذا الهراء في سنك هذه!"

ارتدى (بيلبو) مريلة، وأشعل النار ليغلي بعض المياه، ثم بدأ عملية غسيل الأطباق. وبعد ذلك تناول إفطارًا شهيًا ويسيرًا في المطبخ قبل أن يتوجه إلى غرفة الطعام. وأثناء ذلك، كانت الشمس قد سطعت، وكان الباب الأمامي للمنزل مفتوحًا ليدع نسيم الربيع الدافئ يمر من خلاله. أما (بيلبو) فقد شرع في الصفير بصوتٍ عالٍ، وقد بدأ ينسى أمر الليلة الماضية.

في الحقيقة، كان جالسًا ليتناول وجبة إفطار شهية ويسيرة للمرة الثانية في حجرة الطعام بجانب النافذة المفتوحة حين دخل عليه (جاندلف) وقال له: "صديقي العزيز، متى ستأتي؟ اقترحت أمر الانطلاق مبكرًا، وها أنت تتناول إفطارك، أو أيًّا كان اسم تلك الوجبة، في العاشرة والنصف صباحًا! لقد تركوا لك تلك الرسالة، لأنهم لم يكن بمقدورهم الانتظار."

سأله السيد (باجنز) المسكين بارتباك شديد: "أية رسالة؟"

قال (جاندلف): "يا للسماء! أنت لست على ما يرام اليوم. ألم تنفض الغبار عن مذكرتك؟"

رد (بيلبو) قائلاً: "وما علاقة هذا بذاك؟ لقد اكتفيت هذا الصباح بغسل أطباق استعملها أربعة عشر شخصًا!"

قال (جاندلف): "إن كنت قد نفضت الغبار اليوم، لكنت وجدت هذه تحت الساعة مباشرة."

أعطى (جاندلف) لـ(بيلبو) ملاحظة مكتوبة بالطبع في دفتر ملاحظات (بيلبو) نفسه، فقرأ ما هو مكتوب فيها:

"تحية من (ثورين) ورفاقه إلى اللص (بيلبو)!

لحسن ضيافتك نقدم خالص شكرنا، وعلى عرضك لمساعدتنا مساعدة المحترفين نوافق

بامتنان.

شروط الاتفاق:

- الدفع عند التسليم، ونسبة الربح -إن وُجد- لا تزيد عن واحد إلى أربعة عشر من الربح الكلي.
- كل نفقات السفر مكفولة في جميع الأحوال.
- نفقات الجنازة نتحملها نحن أو مندوبونا إن جدَّ أمر لم يكن مخططًا له.

اعتقادًا منا بأنه ليس هناك من داعٍ لإقلاق نومك الهادئ، ارتأينا أن نبدأ في التحضيرات اللازمة مسبقًا. سننتظر حضورك الكريم في حانة (التنين الأخضر) في (بايووتر) في تمام الساعة الحادية عشرة، وواثقون في دقة مواعيدك.

يشرفنا أن نكون المخلصين لك دائمًا،

(ثورين) ورفاقه."

قال (جاندلف): "مما يعني أن عليك الوصول إلى هناك خلال عشر دقائق. عليك أن تسرع."

قال (بيلبو): "لكن..."

قاطعه الساحر قائلاً: "ليس هناك وقت لـ(لكن)."

كرر (بيلبو): "لكن..."

قاطعه الساحر مرة أخرى قائلاً: "ليس لديك وقت لذلك أيضًا! هلُمَّ!"

وحتى نهاية أيامه لا يذكر (بيلبو) كيف وجد نفسه خارج منزله ولأول مرة من دون قبعته وعصا المشي أو حتى نقود أو أي شيء عادة ما يأخذه وهو في طريقه إلى الخارج. خرج (بيلبو) ولم يكمل حتى نصف وجبة إفطاره الثاني ولم يغسل الأطباق، بل سلم (جاندلف) مفاتيح منزله، وانطلق جاريًا بأقصى سرعة ممكنة. حملته قدماه ذاتا الشعر الغزير إلى الطريق مرورًا بالطاحونة الكبيرة وعبورًا بالنهر، واستمر في الجري لمسافة ميل أو أكثر. كان يلهث بشدة حين وصل إلى منطقة (بايووتر) في تمام الساعة الحادية عشرة ليجد أنه قد نسي أيضًا إحضار منديله!

-"أحسنت!" قالها (بالين) الذي كان بانتظاره عند باب الحانة. وحينها أتى الآخرون من

شتى أنحاء الطريق بالقرية، وكل منهم يمتطي فرسًا، مربوطًا عليه مختلف أنواع الأمتعة والحقائب والصرر والممتلكات الشخصية. وكان هناك فرس صغير جدًا، وكان من الواضح أنه لـ(بيلبو).

قال (ثورين): "امتطيا فرسيكما، ولننطلق!"

رد (بيلبو) قائلاً: "أنا في شدة الأسف، لكنني جئت من دون قبعتي وتركت خلفي منديلي، وليس لدي الآن أية نقود. قرأت رسالتكم منذ خمس عشرة دقيقة فقط توخيًا للدقة."

قال (دوالين): "لا داع للدقة ولا القلق. ستضطر لأن تتدبر أمرك من دون مناديل ومن دون أيضًا العديد من الأشياء الأخرى مع نهاية تلك الرحلة. أما بالنسبة للقبعة، فلدي قلنسوة وعباءة إضافيتين في حقيبتي."

وهكذا بدءوا رحلتهم منطلقين من تلك الحانة في يوم صحو في أواخر أيام شهر أبريل، يمتطون جيادًا محملة بالمتاع، و(بيلبو) يرتدي قلنسوة خضراء -ملطخة قليلاً بفعل العوامل الجوية- وعباءة خضراء اقترضهما من (دوالين). كان مقاس القلنسوة والعباءة واسعًا عليه، وبدا مظهره مضحكًا إلى حد كبير، ولست أدري ماذا كان أبوه (بانجو) ليقول عنه إن رآه هكذا. كان عزاؤه الوحيد أن أحدًا لم يكن ليظن أنه من الأقزام، فهو لم يكن يملك لحية كثة مثلهم.

لم يمر وقت طويل حتى ظهر (جاندلف) بهيئته المبهرة على حصان أبيض وقد أحضر معه العديد من المناديل، وأيضًا غليون (بيلبو) وبعض التبغ. ومنذ ذلك الحين، اتسم الجو العام للرحلة بالبهجة؛ فبينما هم منطلقون، كان الجميع يحكون الحكايات ويغنون الأغاني باستمرار، باستثناء طبعًا وقت توقفهم لتناول الوجبات المختلفة. ورغم أن تلك الوجبات لم تكن بالقدر الذي يتمناه (بيلبو)، لكنه كان قد بدأ يشعر بأن المغامرات ليست بالسوء الذي كان يحسبه. في بداية رحلتهم عبروا أراضي الهوبيت، وبها بلد صاخب يسكنه قوم مهذبون وجديرون بالاحترام، شوارعه ممهدة وبه حانة أو اثنتين. وبين الحين والآخر، كنت ترى قزمًا أو مزارعًا يسير بتمهل وقد جاء في مهمة ما. وبعد ذلك وصلوا إلى أراض يتحدث الناس فيها بطريقة غريبة ويغنون أغاني لم يسمعها (بيلبو) البتة من قبل.

والآن توغلوا لمسافة طويلة في الأراضي المنعزلة، حيث لا وجود للبشر ولا وجود للحانات، والطرق غير الممهدة تزداد سوءًا كلما مضوا فيها. ومن أمامهم ظهرت تلال موحشة ترتفع أكثر وأكثر وسط ظلام تسببه الأشجار النامية عليها. كان على بعض التلال قلاع عتيقة لها طابع مخيف، كأن من بنوها كانوا من الأشرار. بدا كل شيء كئيبًا، وبخاصة بعد أن تغيرت حالة الجو

إلى الأسوأ في ذلك اليوم، ففي الأغلب يكون الجو صحوًا في شهر مايو كما في الحكايات، لكنه الآن بارد ورطب.

في الأراضي المنعزلة كان عليهم أن ينصبوا خيامهم كلما استطاعوا، لكن على الأقل لم تكن الأرض رطبة.

دمدم (بيلبو) بتذمر قائلاً "وسرعان ما سيبدأ شهر يونيو."

واستمر في شق طريقه خلف الجميع في طريق ملوث بالوحل. فات موعد تناول الشاي، وكانت السماء تمطر بغزارة منذ الصباح وحتى ذلك الوقت. كانت قلنسوة (بيلبو) وكذلك عباءته مبتلتين للغاية وقد بدأت قطرات المياه تزعج عينيه، وصار الفرس الذي يمتطيه متعبًا وكثير التعثر، وإجمالاً، لم يكن الجو العام يشجع على الكلام.

قال (بيلبو) في نفسه: "وبالطبع ستصل مياه المطر إلى الملابس الجافة وحقائب الطعام. اللعنة على عمليات السرقة وكل ما يرتبط بها! أتمنى لو أنني كنت في بيتي الآن، في حفرتي الجميلة بجانب المدفأة، وصوت صفير غلاية الشاي يناديني!"

ولم تكن تلك هي المرة الأخيرة التي تمنى فيها الهوبيت ذلك!

استمر الأقزام في رحلتهم، ولم يلتفتوا إلى الهوبيت أو يعيروه اهتمامًا. وفي الأفق في مكان ما خلف تلك السحب الرمادية، لابد وأن تكون الشمس قد غربت، فقد بدأ الظلام يحل عليهم، وهبت الرياح واشتدت، وسمعوا لأشجار الصفصاف على جانبي النهر حفيفًا وهي تلتوي من شدة الرياح. لست أدري أي نهر كان، لكنه كان نهرًا متدفقًا تجري فيه مياه حمراء، غزير بفعل الأمطار التي انهمرت طوال الأيام السابقة على التلال والجبال من أمامهم. وسرعان ما حل الظلام، وحركت الرياح السحب الرمادية، وظهر المحاق من فوق التلال بين الأشياء المتطايرة بفعل الرياح. ثم توقف الجميع، وغمغم (ثورين) بصوت غير مسموع من الجميع شيئًا ما بخصوص وجبة العشاء، ثم قال: "ومن أين سنأتي برقعة جافة لنفترشها أثناء نومنا؟"

ووقتها فقط لاحظ الجميع أن (جاندلف) قد اختفى!

لقد صاحبهم منذ بداية رحلتهم وحتى الآن، ولم يذكر أبدًا إن كان سيشترك في المغامرة أم هو مجرد مرافق لهم لبعض الوقت. لقد كان أكثر من يأكل ومن يتحدث ومن يضحك، والآن ببساطة هو ليس موجودًا على الإطلاق!

-"وهكذا السحرة حين تكون في أشد الحاجة إليهم." قالها (دوري) و(نوري) اللذان يشاركان الهوبيت رأيه بخصوص الوجبات اليومية: يجب أن تكون كل منها كبيرة ومتكررة.

في النهاية قرروا جميعًا أنهم سيضطرون لنصب خيامهم والمبيت في هذا المكان. طوال رحلتهم لم يبيتوا في أي مكان، وإن كانوا يعرفون أنهم قريبًا ما سيضطرون إلى القيام بذلك بشكل منتظم، وتأكدوا من ذلك حين وصلوا إلى جبال الضباب وبعيدًا عن الأراضي المأهولة بالبشر، إلا أنهم شعروا بأنها أمسية رطبة وغير مناسبة للقيام بذلك.

انتقلوا إلى مجموعة من الأشجار. ورغم أن ذلك المكان تحت تلك الأشجار كان غير رطب كالطريق خارجه، إلا أن الرياح كانت تنثر الماء من فوق أوراق الأشجار لتنزل قطرات المياه على الأرض محدثة صوتًا مزعجًا. لم يكن هذا كل ما جرى تلك الليلة، فقد أصابهم المزيد من سوء الحظ فيما يختص بإشعال النيران، فالأقزام شهيرون بقدرتهم على إشعال النيران في أي مكان مستخدمين أي أدوات تتوفر لديهم حتى في وجود رياح، لكنهم لم يستطيعوا إشعال نار في تلك الليلة، وحتى (أوين) و(جلوين) اللذان يمتازان بالمهارة في إشعال النار لم يوفقا في ذلك ليلتها.

ولاحقًا، ومن دون أي سابق إنذار أو حتى سبب، شعر فرس بالرعب وانطلق جاريًا. وقبل أن يتمكنوا من اللحاق به، كان الفرس قد وصل إلى النهر، وأثناء محاولة إخراجه من مياه النهر، كاد (فيلي) و(كيلي) يغرقان. أما عن الأمتعة والحقائب التي كانت محملة على ظهره، فقد سقطت جميعها وانجرفت مع مياه النهر. وبالطبع كانت تلك الأمتعة تحتوي على طعام، وبالطبع ما تبقى كان بالكاد يكفي وجبة العشاء ليتبقى فقط القليل لوجبة الإفطار في اليوم اللاحق.

جلسوا جميعًا في هذا الجو الرطب الكئيب يتحدثون بصوت منخفض، بينما ظل (أوين) و(جلوين) يحاولان إشعال النار من جديد ويتشاجران فيما بينهما. ظل (بيلبو) يفكر مليًّا بحزن في أن المغامرات ليست كنزهة على ظهر فرس تحت سماء شهر مايو المشمسة، أما (بالين) الذي كان دومًا بمثابة عين المجموعة فقد قال: "أرى ضوءًا في الأفق!"

وظهر من بعيد تل مغطى بأشجار كثيفة، وفي ظلمة الليل تمكنوا من رؤية ضوء يلمع من خلف مجموعات الأشجار المتشابكة. كان ضوءًا أحمر يبعث على الطمأنينة. لعله كان ضوء نار أو مشعل يتلألأ في ظلمة الليل. وبعد أن راقبوا الضوء لبعض الوقت، اختلفت الآراء فيما بينهم عما يجب فعله؛ فالبعض يرى أن عليهم الذهاب إلى هناك، والبعض يعارض هذه الفكرة تمامًا، والبعض يظن أن عليهم الوصول إلى هناك لإلقاء نظرة على ما يحدث، فسيكون ذلك أفضل على أية حال من تناول وجبة عشاء صغيرة وأخرى أصغر للإفطار غدًا، هذا بالإضافة إلى المبيت بملابس مبتلة حتى الصباح.

وقال بعضهم: "إن تلك المناطق ليست معروفة بالنسبة إلينا، وهي قريبة جدًّا من الجبال،

وقلّما يمر الرحالة من ذلك الطريق هذه الأيام. والخرائط القديمة لهذه المناطق معدومة الفائدة، فالأحوال هنا قد تغيرت للأسوأ، والطرق غير مأمونة، ولربما لم يسمع أحد بالملك في تلك المنطقة أصلاً. وكلما قل فضولنا ورغبتنا في البحث والتجول، كلما ابتعدنا عن المتاعب."

بينما قال آخرون: "نحن أربعة عشر فردًا رغم كل شيء."

وتساءل آخرون وتكرر السؤال بينهم: "أين ذهب (جاندلف)؟"

وبعد ذلك انهمرت مياه الأمطار عليهم أكثر من ذي قبل، وبدأ (أوين) و(جلوين) يتشاجران، وكان ذلك ما حسم الأمر، فقالوا وقد عزموا على مغادرة المكان: "وعلى كل، فبصحبتنا لص محترف."

وساقوا جيادهم –بحذر شديد– باتجاه الضوء. وصلوا أولاً إلى سفح التل، ثم سرعان ما وصلوا إلى الغابة، وبدءوا يسلكون دربهم إلى أعلى التل، لكن لم تكن هناك طرق ممهدة كالتي تسبق البيوت أو المزارع. وأثناء سيرهم وسط هذا الظلام الحالك، كنت تسمع لهم أصواتًا مختلفة من حفيف وطقطقة وصرير، وكان بإمكانك أيضًا سماع صوت تذمر الأقزام وتخبطهم.

وفجأة لمحوا الضوء الأحمر من خلف جذوع الأشجار بريقًا وهاجًا على مقربة منهم.

قال بعض الأقزام مشيرين إلى (بيلبو): "حسن، حان الآن دور اللص."

قال (ثورين) للهوبيت: "عليك التوجه إلى مكان الضوء، وأن تعرف كل شيء بخصوصه وفيم يُستخدم، وإن كان كل شيء على ما يرام. حسن، لتذهب الآن، وعد سريعًا إن كانت الأمور جيدة. وإن لم تكن، فعد إن استطعت! وإن لم تتمكن من العودة، فانعب مرتين كالبوم الريفي، ثم مرة كالبوم الصارخ، وسنفعل ما بوسعنا لإنقاذك."

وانطلق (بيلبو) رغمًا عنه، حتى إنه لم يتمكن من أن يوضح للأقزام أن قدرته على تقليد صوت نعيب أي نوع من أنواع البوم هي تمامًا كقدرته على الطيران! لكن على أية حال، بإمكان الهوبيت أن يتحركوا بهدوء، بل بهدوء شديد في الغابة، ويعد هذا مصدر فخر بالنسبة إليهم.

ظل (بيلبو) يتأفف باستمرار مما أسماه بـ(ضجيج وجلبة الأقزام) أثناء رحلتهم، رغم أنني لا أعتقد أنه في مثل تلك الليلة العاصفة كان أيٌّ منا لينتبه لمثل هذه الجلبة كما أسماها، حتى وإن مر الركب بأكمله على بعد قدمين فقط منه.

أما (بيلبو) فقد سار بثبات باتجاه الضوء الأحمر، ولا أتصور أن تكون حتى بعوضة قد أحست بحركته. هكذا توجه (بيلبو) بهدوء مباشرة إلى مكان النار الموقدة، حيث اتضح أن الضوء الأحمر كان ضوء نار، وإليكم ما رأى... ثلاثة أشخاص ضخام يلتفون حول نار ضخمة أوقدوها في

جذوع أشجار الزان. كانوا يشوون خروفًا على أسياخ خشبية، ويلعقون أصابعهم الملطخة بمرق اللحم. كانت الرائحة شهية للغاية، وكان هناك أيضًا برميل للشراب، وثلاثتهم يتناول شرابه في إبريق كبير.

يبدو أنهم كانوا من العمالقة*... بل من المؤكد أنهم كذلك، فحتى (بيلبو)، ورغم خبرته الضئيلة بمثل هذه الأمور، قد توصل إلى ذلك حين رأى ملامح وجوههم الحادة وحجمهم الضخم وشكل أرجلهم الغريب، هذا بالإضافة إلى طريقة استخدامهم للغة، والتي لم تكن راقية بالمرة.

وأخيرًا قال أحد العمالقة: "لحم ضأن بالأمس ولحم ضأن اليوم، وبالطبع سنتناول لحم الضأن غدًا أيضًا."

ثم قال آخر: "لم نلتهم أي لحم بشري منذ زمن طويل. فيم كان (ويليام) يفكر حين جلبنا إلى هذه المناطق؟ هذا ما لا أعرفه! وها هو شرابنا قد أوشك على النفاد، ولا أدري ماذا ينتظرنا بعد ذلك."

ثم لكز مرفق (ويليام)، بينما كان (ويليام) هذا يرتشف من إبريق شرابه.

شرق (ويليام)، وقال حالما استطاع التحدث: "اصمت! لا تتوقع أن يتوقف أحدهم إلى الأبد بالقرب من هنا في انتظار أن تلتهمه أنت و(برت). لقد التهمتما معًا سكان قرية ونصف كاملة منذ أن نزلنا من الجبال، ومازلتما ترغبان بالمزيد؟ لقد حان الوقت لتقولا: نشكرك يا (بيل)** على لحم خروف الوادي الشهي السمين الذي بين أيدينا."

وقضم (بيل) قطعة كبيرة من فخذ الشاة التي كان يشويها، ثم مسح شفتاه في كم ردائه.

نعم، من المؤسف أن تلك هي طباع العمالقة، حتى ذوي الرؤوس الواحدة منهم. بعد سماعه لكل ذلك، كان من المفترض أن يقوم (بيلبو) على الفور بأي تصرف؛ فإما أن يعود بهدوء ليحذر أصدقاءه من وجود ثلاثة عمالقة ضخام متعكري المزاج في المكان -ومن المحتمل أن يرغبوا في تذوق قزم مشوي أو حتى جواد من باب التغيير- أو أن يبدأ في التصرف كلص؛ فأي لص متمرس محترف من الدرجة الأولى كان ليسارع بنشل جيوب العمالقة -وهو دومًا جهد يستحق بذله إن تسنى له ذلك- ويخطف لحم الشاة من على الأسياخ بسرعة ويسرق الشراب، ثم يبتعد من دون حتى أن يلاحظه أحد منهم.

---

* العمالقة Trolls وترجمتها العربية (قزم أو جبار خرافي)، واخترنا ترجمتها إلى (العمالقة) لأنها أقرب إلى المعنى الذي يقصده المؤلف.

** لنتذكر أن الغربيين يستخدمون اسم (بيل) كتدليل لاسم (ويليام).

وأيضًا قد يطعن لصوص آخرون ليسوا على نفس الدرجة من الحرفية العمالقة بخناجر في قلة منهم، ومن ثم يقضي الجميع ليلة هنيئة.

كان (بيلبو) يعلم ذلك. لقد قرأ من قبل عن أمور كثيرة لم يرها أو يقوم بها قط. كان (بيلبو) مذعورًا، وكان أيضًا يشعر بالاشمئزاز، وتمنى لو أنه يبعد مئات الأميال عن هذا المكان. ومع ذلك... ومع ذلك، ولسبب ما، لم يستطع العودة مباشرة إلى (ثورين) ورفاقه صفر اليدين، فظل واقفًا هناك في الظلام مترددًا.

ومن ضمن خيارات عمليات السرقة المطروحة، أحس (بيلبو) بأن نشل جيوب العمالقة سيكون العمل الأقل صعوبة. وفي النهاية تسلل خلف شجرة واقعة وراء (ويليام) مباشرة.

ذهب (برت) و(توم) باتجاه البرميل، بينما كان (ويليام) يتناول شرابًا آخر. استجمع (بيلبو) شجاعته، ووضع يده الصغيرة في جيب (ويليام) الضخم. كانت بداخله حافظة بحجم حقيبة بالنسبة لـ(بيلبو). كان متحمسًا حيال عمله الجديد وهو يسحب الحافظة بحرص خارج جيب العملاق، وقال في نفسه: "هذه هي البداية!"

وكانت كذلك بالفعل!

إن سرقة حافظات العمالقة أمر مؤذٍ، وهذه المرة لم تكن استثناءً للقاعدة؛ فأثناء سحبها من الجيب، صرخت الحافظة قائلة: "من أنت؟!"

التفت (ويليام) بسرعة، وأمسك برقبة (بيلبو) قبل أن يتوارى خلف الشجرة.

صرخ (ويليام): "عجبًا! انظر يا (برت) بم أمسكت!"

قال الآخران وهما يقتربان: "ما هذا؟"

-"لا أعلم! ماذا تكون؟"

رد (بيلبو) المسكين وهو يرتعد مفكرًا كيف يقلد صوت نعيب البوم قبل أن يذبحوه، وقال: "أنا (بيلبو باجنز)، واحد من اللصو... الهوبيت"

قالوا جميعًا في دهشة شديدة: "من (اللصوهوبيت)؟"

المعروف عن العمالقة أنهم بطيئو الفهم، ويخشون أي شيء ليس مألوفًا لديهم.

قال (ويليام): "وما دخل (اللصوهوبيت) بجيبي على أية حال؟"

قال (توم) متلمظًا: "وهل يمكن طهيهم؟"

قال (برت) في حماس وهو يلتقط سيخًا: "علينا أن نجرب."

قال (ويليام) الذي كان قد تناول عشاءً شهيًا بالفعل: "يمكنكما تناوله تقريبًا في قضمة واحدة فقط بعد نزع جلده وعظامه."

قال (برت): "ربما هناك المزيد منه في الجوار. بإمكاننا إعداد فطيرة منهم."

ونظر إلى قدمي الهوبيت غزيرتا الشعر، وأمسك به من أصابع قدميه، وهزه وسأله: "أنت، هل هناك آخرون من نوعك يتسللون في هذه الغابة أيها الأرنب الصغير القرف؟"

رد (بيلبو) قائلاً: "أجل، الكثير."

ثم قال على الفور بعد أن تذكر أن عليه ألا يتخلى عن أصدقائه: "لا، ليس هناك أي منا على الإطلاق."

قال (برت) وهو يمسك بالهوبيت من شعره هذه المرة: "ماذا تقصد؟"

رد (بيلبو) وهو يلهث: "أقصد ما قلت. أرجوكم أيها السادة الكرام، لا تطهوني! إنني طاه ماهر، ومذاق ما أطهوه أطيب من مذاقي أنا إن طهوتموني. سأطهو لكم أطيب الطعام، إفطارًا شهيًا طيبًا، هذا إن لم تتناولوني في وجبة عشاء الليلة."

قال (ويليام) الذي كان قد تناول بالفعل قدر ما استطاع في وجبة العشاء: "إنه صغير مسكين. يا له من مراوغ! أخل سبيله!"

قال (برت): "ليس قبل أن يوضح ما يقصد بقوله الكثير وليس على الإطلاق، فأنا لا أريد أن يقوم أحدهم بذبحي أثناء نومي. لنبقي أصابع قدميه في النيران حتى يخبرنا!"

قال (ويليام): "لن أقوم بذلك. أنا من أمسك به على أية حال."

قال (برت): "أنت أحمق يا (ويليام)، تمامًا كما قلت عنك سابقًا هذه الليلة."

رد (ويليام): "بل أنت الأخرق!"

قال (برت): "وأنا لن أقبل منك هذا يا (بيل هاجنز)."

ولكم (ويليام) في عينه.

ومن هنا بدأ شجار عنيف. ما تبقى لـ(بيلبو) من دهاء مكنه من أن يزحف بعيدًا عن موقع أقدام العملاقين حين ألقاه (برت) على الأرض قبل أن يتشاجرا كالكلاب المسعورة وينعتا بعضهما البعض بأقذع الشتائم بأعلى صوت لديهما. وسرعان ما تشابكت الأذرع وبدآ يتدحرجان باتجاه النيران ويركلان ويضربان بعضهما البعض، بينما حاول (توم) فض اشتباكهما مستخدمًا فرع شجرة ليبعدهما إلى صوابهما، مما تسبب بالطبع في إثارة جنونهما.

ولاشك في أن ذلك كان الوقت المناسب لـ(بيلبو) كي يفر من بين أيديهم، لكنه أحس كأن قدميه قد سُحقتا تمامًا بقبضة (برت). أحس (بيلبو) بدوار شديد وبضيق في أنفاسه، فمكث في مكانه لاهثًا خارج محيط دائرة النار الموقدة.

ووسط الشجار الدائر بين العملاقين ظهر (بالين)، فالأقزام قد سمعوا ضجيجًا من بعيد، و بعد أن انتظروا لبرهة عودة (بيلبو) أو سماع تقليده لصوت نعيب البوم، قرروا أن يتسللوا بهدوء إلى مكان الضوء واحدًا تلو الآخر. وسرعان ما وقع الضوء على (بالين).

أطلق (توم) صرخة مرعبة؛ فالعمالقة يكرهون بشدة رؤية الأقزام (غير مطهيين). وعلى الفور توقف (برت) و(بيل) عن الشجار وصاحا: "أحضر جوالاً بسرعة يا (توم)!"

وقبل أن يدرك (بالين) -الذي كان يتساءل أين (بيلبو) من كل هذا الشغب- ما كان يحدث، ألقى العمالقة بالجوال فوق رأسه وسقط أسيرًا لديهم.

قال (توم): "سيأتي المزيد منهم إن لم أكن مخطئًا. كما قال: الكثير وليس على الإطلاق. إذن ليس هناك لصوهوبيت، لكن هناك الكثير من هؤلاء الأقزام على ما يبدو!"

قال (برت): "أعتقد أنك محق. علينا أن نبتعد عن الضوء."

وكان هذا بالفعل ما فعلوه. انتظروا في الظلام بأجولة في أيديهم كانوا يستخدمونها في حمل الخراف وغنائمهم الأخرى، وكلما مر قزم ليلقي نظرة على النار وأباريق الشراب المسكوبة والشاة الـ... وفجأة! يجد جوالاً رديئًا كريه الرائحة يغطيه، فيسقط أسيرًا.

ومن بعد (بالين) سرعان ما سقط (دوالين)، ثم (فيلي) و(كيلي) معًا، ثم (دوري) و(نوري) و(أوري) في الوقت نفسه، ومن بعدهم (أوين) و(جلوين) و(بيفر) و(بوفر) و(بومبر)... واصطفوا جميعًا بجانب النار.

وبينما كان العمالقة يمسكون بـ(بيفر) و(بومبر)، أثار هذان الكثير من الشغب، وقاوما مقاومة الأقزام وقت الشدة، فقال (توم): "سيلقنهما هذا درسًا."

كان (ثورين) آخر من حضر من الأقزام، ولم يمسكوا به على حين غرة كما حدث مع الآخرين، فقد جاء متوقعًا الأسوأ. لم يكن بحاجة لأن يرى أصدقاءه مأسورين في أجولة ليدرك أن الأمور ليست على ما يرام.

وقف (ثورين) في الظلام بعيدًا عن ضوء النار وقال: "ما المشكلة؟ من أمسك برفاقي؟"

ويبدو أن العمالقة قد نسوا أمر (بيلبو)، فرد على (ثورين) من وراء شجرة قائلاً: "إنهم

العمالقة! إنهم مختبئون بين الشجيرات بأجولة في أيديهم."

قال (ثورين): "أحقًا؟!"

ثم قفز (ثورين) باتجاه النار قبل أن يمسكوا به، والتقط فرع شجرة كبيرًا أحد طرفيه مشتعل، وقبل أن يتلافاه (برت)، كان طرف الفرع المشتعل قد لامس إحدى عينيه، فاضطر لأن ينسحب من المعركة لبعض الوقت. أما (بيلبو) فقد استجمع قواه وتعلق بإحدى ساقي (توم) بكل ما أوتي من قوة. كانت ساق العملاق بسمك جذع شجرة، وحين ركل (توم) بساقه جذوات النار في وجه (ثورين)، طار (بيلبو) إلى أعلى بعض الشجيرات، فاصطدم (توم) بفرع مما أفقده أحد ضروسه الأمامية، وأؤكد لك أن هذا جعله يعوي ألمًا. وفي تلك اللحظة، دنا (ويليام) من (ثورين)، وبسرعة وضع جوالاً فوق رأسه، وغطاه حتى أصابع قدميه، ووضع هذا حدًّا للمعركة.

ويا لها من ورطة تلك التي وقع فيها الأقزام!

جميعهم مقيد في الأجولة، وحولهم ثلاثة عمالقة ثائرون -اثنان منهم مصابان بحروق وكسور لا تنسى- وجالسون حولهم يتجادلون فيما بينهم عما يجب عليهم فعله بخصوص الأقزام: أيشوونهم على نار هادئة، أم يفرمونهم جيدًا ثم يسلقونهم، أم يكتفون بالجلوس عليهم واحدًا تلو الآخر ليسحقوا عظامهم؟

أما (بيلبو) فقد ظل عالقًا أعلى الشجيرات ممزق الثياب ومصابًا بجروح، ولا يجرؤ على التحرك من مكانه خوفًا من أن يسمعه العمالقة.

حينها فقط عاد (جاندلف)، لكن أحدًا لم يره.

كان العمالقة قد اتفقوا على أن يشووا الأقزام الآن ليلتهموهم لاحقًا، وكانت تلك فكرة (برت). وبعد الكثير والكثير من الجدال، وافقوا جميعًا على تنفيذ ذلك.

حينها سمعوا صوتًا يقول: "لا فائدة من شيهم الآن. سيستغرق ذلك الكثير من الوقت."

ظن (برت) أنه صوت (ويليام)، فقال: "لا تبدأ بالجدال من جديد يا (بيل)، وإلا سنظل نتجادل طوال الليل."

رد (ويليام) الذي ظن أن صاحب الصوت هو (برت): "من تراه يجادل؟"

رد (برت): "أنت من يجادل."

قال (ويليام): "إنك كاذب."

وهكذا بدأ الشجار من جديد. وفي النهاية اتفقوا على أن يفرموهم جيدًا ثم يسلقوهم،

فأحضروا قدرًا سوداء واستلوا سكاكينهم؛ وحينها سمعوا صوتًا يقول: "لا فائدة من سلقهم، فليس لدينا مياه، والطريق إلى البئر طويل."

ظن (برت) و(ويليام) أن صاحب الصوت هو (توم)، فقالا: "اصمت! لن يسعفنا الوقت، وإن قلت المزيد فستحضر المياه بنفسك من البئر."

رد (توم) الذي ظن أن صاحب الصوت هو (ويليام) قائلاً: "بل اصمت أنت! أود أن أعرف من هنا يجادل غيرك!"

قال (ويليام): "يا لك من أحمق!"

فقال (توم): "بل أنت الأحمق!"

ومن هنا بدأ الشجار مرة أخرى، وصار أكثر حدة من ذي قبل، حتى اتفقوا على أن يجلسوا عليهم واحدًا تلو الآخر ليسحقوا عظامهم ويسلقونهم في المرة القادمة. حينها سمعوا الصوت يقول: "ومن سنجلس عليه أولاً؟"

ظن (برت) الذي تسبب (ثورين) في إصابة عينه أن من تحدث هو (توم)، فرد قائلاً: "لنبدأ بآخر واحد أمسكنا به."

فقال (توم): "لا ترد على سؤال سألته بنفسك! لكن إن أردت أن تبدأ بآخر واحد فتفضل. أيهم كان؟"

قال (برت): "القزم ذا الجورب الأصفر الطويل."

فسمعوا صوتًا شبيهًا بصوت (ويليام) يقول: "هذا هراء! بل كان القزم ذا الجورب الرمادي الطويل."

قال (برت): "إنني متأكد أن لونه كان أصفر."

قال (ويليام): "كان لونه أصفر."

فقال (برت): "إذن لماذا قلت إن لونه كان رماديًا؟"

فرد (ويليام): "لم أقل ذلك، بل قاله (توم)."

فقال (توم): "لم يكن أنا، بل أنت!"

فرد (برت) قائلاً: "اثنان على واحد، لتصمت إذن!"

فقال (ويليام): "إلى من تتحدث؟"

رد (توم) و(برت) معًا: "كفى! الليل سينقضي، والفجر سيطلع سريعًا. لننته من الأمر!"

وحينها سمعا صوتًا شبيهًا بصوت (ويليام) يقول: "فليقض عليكم بزوغ الفجر ويحولكم إلى أحجار!"

وفي اللحظة ذاتها بزغ الفجر وأضاء من فوق التل، واهتزت أغصان الأشجار من حولهم بشدة. في الواقع، لم يكن (ويليام) من تحدث، فقد تحول إلى حجر بينما هو ينحني على الأرض، أما (برت) و(توم) فقد ثبتا في مكانيهما كالصخور وهم يرمقانه.

وإلى يومنا هذا مازالوا متسمرين هناك، وحيدين تمامًا، إلا حينما تحط عليهم الطيور لبعض الوقت. العمالقة كما تعلمون عليهم الاختباء تحت الأرض قبل بزوغ الفجر، وإلا سيتحولون إلى المادة الصخرية التي صُنعوا منها، ولا يتحركون ثانيةً على الإطلاق.

وكان هذا بالضبط هو ما حدث للعمالقة الثلاثة: (برت) و(توم) و(ويليام).

قال (جاندلف) وهو يخطو من وراء شجرة: "ممتاز!"

ثم ساعد الساحر (بيلبو) لينزل من فوق شجيرة مليئة بالشوك، وحينها أدرك (بيلبو) ما حدث، فصاحب الصوت كان الساحر، وقد نجح في إلهاء العمالقة بشجارات ومجادلات فيما بينهم حتى طلع الفجر وقضى عليهم تمامًا.

كانت الخطوة التالية هي فك وثاق الأقزام وإطلاق سراحهم. لقد كادوا يختنقون في تلك الأجولة، وكانوا منزعجين بشدة، فبالطبع لم يرق لهم حديث العمالقة عن خططهم بشأن شيهم وطحنهم وفرمهم، واضطر (بيلبو) لأن يروي لهم ما حدث مرتين متتاليتين حتى شعروا بالارتياح.

قال (بومبر): "لم يكن الوقت مناسبًا لعملية سرقة، فكل ما أردناه هو التدفئة والطعام!"

رد (جاندلف) قائلاً: "وهذا بالضبط ما لا يمكنكم الحصول عليه من هؤلاء العمالقة من دون صراع على الأقل. حسن، لا تضيعوا الوقت الآن. ألا تدركون أنه من المؤكد أن للعمالقة كهفًا أو حفرة بالقرب من هنا ليحتموا من الشمس؟ علينا أن نلقي بنظرة!"

فتشوا المكان حولهم، وسرعان ما وجدوا آثارًا لأحذية العمالقة الصخرية تتجه بعيدًا عبر الأشجار. ظلوا يتعقبون آثار العمالقة إلى أعلى التل حتى وصلوا إلى باب حجري ضخم لكهف تغطي مدخله الشجيرات، لكنهم لم يستطيعوا فتح باب الكهف، بالرغم من أنهم حاولوا جميعًا دفعه أثناء إلقاء (جاندلف) بتعويذة لفتحه.

سأل (بيلبو) بعدما أرهقتهم محاولة فتح الباب الفاشلة وأثارت حنقهم: "أتظنون هذا

يساعدنا؟ لقد وجدته على الأرض حيث كان العمالقة يتشاجرون."

وأخرج (بيلبو) مفتاحًا ضخمًا، لكن لاشك أنه بالنسبة لـ(ويليام) مفتاح صغير جدًا ويسهل إخفاؤه. من المؤكد أنه سقط من جيب العملاق، ولحسن الحظ أنه سقط قبل أن يتحجر العمالقة.

صرخوا جميعًا في وجه (بيلبو): "ولماذا لم تذكر شيئًا عنه من قبل بحق السماء؟!"

انتزع (جاندلف) المفتاح من بين يدي (بيلبو)، وأداره في ثقب الباب الحجري، ودفعه دفعة واحدة، فانفتح الباب بحركة مفاجئة إلى الخلف وتوجه الجميع إلى الداخل. وبالداخل تناثرت عظام على الأرض، وتشبع الهواء برائحة كريهة، لكنهم وجدوا كميات كبيرة من الطعام موزعة على الأرفف والأرض بغير نظام. هذا إلى جانب كومة مبعثرة من الغنائم بجميع أنواعها من أزرار نحاسية إلى قدور في الركن مليئة بالعملات الذهبية. وجدوا أيضًا العديد من الملابس معلقة على الجدران -لكن مقاساتها صغيرة جدًا بالنسبة للعمالقة ويبدو أنها كانت تخص الضحايا- والعديد من السيوف المختلفة الصنع والشكل والحجم. كان اثنان من السيوف تحديدًا لافتين للانتباه، نظرًا لروعة صنع غماديهما ومقبضيهما المرصعين بالجواهر.

أخذ كل من (جاندلف) و(ثورين) واحدًا منهما، بينما أخذ (بيلبو) سكينًا في غمد جلدي ربما كان أحد العمالقة يستعمله كسكين صغير للجيب، لكنه كان بمثابة سيف قصير للهوبيت.

قال الساحر وهو يسحب السيوف من غمادها ليتفحصها: "هذه السيوف جيدة الصنع. لم يقم العمالقة بصنعها، ولا حتى الحدادون من بني البشر في هذه الأنحاء أو هذه الأيام. إن قرأنا ما هو منقوش على نصالها، فسنعرف المزيد عنها."

وقال (فيلي): "لنخرج بعيدًا عن هذه الرائحة الكريهة!"

حمل الأقزام قدور العملات الذهبية والطعام الذي يبدو أن أحدًا لم يمسسه إلى الخارج، وكذلك حملوا برميلاً ممتلئًا بالشراب. وبعد أن انتهى الأقزام، شعروا بأنهم بحاجة إلى وجبة إفطار، ونظرًا للجوع الشديد الذي أحسوا به، انغمسوا في تناول الطعام الذي أحضروه من مخازن العمالقة، فمؤنهم التي بدءوا رحلتهم بها قد باتت شحيحة جدًا. أما الآن، فهم يتناولون الخبز والجبن، ولديهم شراب وفير والكثير من اللحوم ليشووها على لهب النيران إن أرادوا.

وبعد تناولهم وجبة الإفطار خلدوا للنوم، فلم تخل ليلتهم الماضية من المتاعب. لم يقوموا بأي نشاط حتى آخر فترة الظهيرة، وبعد مضيها، أحضروا جيادهم وحملوا قدور الذهب، ثم دفنوها بحرص قريبًا من الطريق المحاذي للنهر، كما ألقوا عليها الكثير من التعاويذ في حال

سنحت لهم الفرصة ليعودوا فيما بعد ليستردوها. وبعد انتهائهم، صعدوا جميعًا مرة أخرى، وانطلقوا من جديد في طريقهم باتجاه الشرق.

قال (ثورين) لـ(جاندلف) أثناء سيرهم في رحلتهم: "إلى أين ذهبت إن سمحت لي بالسؤال؟"

أجاب الساحر: "لألقي نظرة استطلاعية."

سأله (ثورين): "وماذا أتى بك في تلك اللحظة الحاسمة؟"

رد الساحر: "أنني أبصرت خلفي."

قال (ثورين): "بالضبط! لكن هلا أوضحت لنا قليلاً من فضلك؟"

قال الساحر: "ابتعدت لأستطلع الطريق، فقريبًا سيصبح الطريق خطرًا ووعرًا. كنت أيضًا حريصًا على أن نجد مصدرًا نؤمّن منه زادنا القليل، ولم أكن قد ابتعدت كثيرًا حين التقيت باثنين من أصدقائي من مملكة (ريفندل)."

سأله (بيلبو): "أين تلك المملكة؟"

قال (جاندلف): "لا تقاطعني! سنصل إلى هناك في غضون بضعة أيام إن حالفنا الحظ، وستعرف كل ما هناك لتعرفه عنها. كما كنت أقول: قابلت اثنين من رجال (إلروند). كانا مارين بجواري على عجلة خوفًا من العمالقة، وهما من أخبراني بأن ثلاثة منهم قد نزلوا من أعلى الجبل واستقروا في الغابة بمكان ليس ببعيد عن الطريق، وبأن كل من بالبلدة قد فر بعيدًا عنها، وبأن العمالقة يقطعون الطريق على الغرباء عن المنطقة، فشعرت على الفور بأن وجودي ضروري هنا. هكذا أبصرت ورائي عن بعد، ورأيت نارًا فقصدتها. حسن، الآن وقد علمتم بالأمر، رجاءً انتبهوا لأنفسكم في المرة المقبلة، وإلا فلن نتمكن من الوصول إلى أي مكان!"

فقال (ثورين): "شكرًا!"



الفصل الثالث

استراحة قصيرة

رغم تحسن حالة الجو في ذلك اليوم، فإن أحدًا من الأقزام لم يغنِّ أو يروِ الحكايات، لا في ذلك اليوم، ولا في اليوم التالي، ولا اليوم الذي تلاه. بدءوا يشعرون أن الخطر بات وشيكًا، وأنه يحيط بهم من كل جانب. خيموا تلك الليلة في العراء، وأصبح لدى جيادهم طعام أوفر مما لديهم؛ فقد كانت الأرض مفروشة بالحشائش الخضراء، لكن لم يتبق لديهم الكثير من الزاد في حقائبهم، وحتى ما حصلوا عليه من العمالقة قد نفد.

وفي صباح أحد الأيام، خاضوا في نهر يقع في منطقة ضحلة فسيحة تضج بأصوات تلاطم

الأمواج وتصادمها بالصخور. أما الضفة المقابلة من النهر، فقد كانت زلقة وشديدة الانحدار، وحين وصلوا وجيادهم إلى أعلاها، وجدوا أن طرق الجبال الشاهقة قد باتت قريبة للغاية منهم، وبدا بالفعل أن مسيرة يوم واحد كانت تفصلهم عن الطريق إلى سفح أقرب الجبال إليهم. بدا ذلك الجبل مظلمًا وموحشًا، رغم تسلل أشعة الشمس إلى بعض جوانبه البنية اللون. أما قمته فبدت براقة.

لم يكن (بيلبو) قد رأى شيئًا بهذه الضخامة من قبل قط، فسأل بصوت مبهور وهو ينظر إلى الجبل بعينين متسعتين قائلًا: "أهذا هو الجبل؟"

رد (بالين) قائلاً: "بالطبع لا! إنه مجرد بداية سلسلة جبال الضباب، وعلينا العبور من خلالها أو من فوقها أو تحتها بطريقة ما لنصل إلى (ويلدرلاند)* خلفها. وبعدها يصبح الطريق طويلاً، حتى من الناحية الأخرى لها، لنصل بعد ذلك إلى الجبل الوحيد في الشرق حيث يرقد (سموج) على كنوزنا."

أطلق (بيلبو) صيحة دهشة. وفي تلك اللحظة تحديدًا شعر بالغربة كما لم يشعر من قبل. تذكر مرة أخرى مقعده المريح أمام المدفأة في حجرة المعيشة المفضلة لديه في حفرته، وكذلك صوت صفير غلاية الشاي.

ولم تكن تلك هي المرة الأخيرة!

منذ ذلك الحين قاد (جاندلف) المسيرة، وقال لهم: "علينا ألا نضل الطريق، وإلا سينتهي أمرنا. نحتاج أولاً للطعام، ولمكان معقول وآمن للراحة. أيضًا من الضروري أن نجد الطريق السليم لعبور سلسلة جبال الضباب، وإلا سنضل طريقنا بينها ونضطر لأن نعود إلى نقطة البداية من جديد. هذا إن تمكنتم من العودة."

سأل الجميع (جاندلف) عن مقصده، فأجاب قائلاً: "نحن الآن قد وصلنا إلى حافة البراري كما يعلم بعضكم، وفي مكان ما في طريقنا يتوارى وادي (ريفندل) الجميل، حيث يعيش (إلروند) بمنزل (الملاذ الأخير)**. لقد بعثت إليه برسالة مع أصدقائي، وسيكونون في انتظارنا."

بدا رد (جاندلف) هذا مطمئنًا، لكنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى وادي (ريفندل) بعد، كما أن العثور على منزل (الملاذ الأخير) ذلك غرب تلك الجبال ليس سهلاً كما يبدو. لم تظهر في

---

* اسم يُطلق على أراضي (الأرض الوسطى) التي تقع شرق جبال الضباب.

** منزل (الملاذ الأخير The Last Homely House)، اسم يُطلق على مأوى الملك (إلروند) في (ريفندل)، لأنه كان آخر معقل للحضارة في أراضي (إريادور)، قبل أن يعبر أحد الرحالة جبال الضباب ويدخل براري (روفانيون).

الأفق من أمامهم أية أشجار أو وديان أو تلال. لم يظهر سوى منحدر شديد يصعد ويمتد إلى أسفل الجبل الأقرب إليه، وهو عبارة عن أرض واسعة بلون نبات الخلنج وصخور متداعية، وتنمو فيها بعض الحشائش والطحالب الخضراء على شكل رقع طولية وعرضية، مما قد يعني وجود مياه في تلك الأنحاء.

مضى النهار وحل الأصيل، لكن لم يظهر في كل تلك الأراضي المقفرة من حولهم أثر لأي منزل، وبدأ يحل بهم القلق، وخشوا أن يكون المنزل متواريًا في أي مكان في الطريق بينهم وبين الجبال. وأثناء سيرهم، أدهشتهم بعض الوديان التي ظهرت أمامهم على نحو مفاجئ، والتي كانت ضيقة ومنخفضة عند جانبيها.

نظروا إلى أسفل، وأدهشتهم رؤية أشجار تنمو أسفلهم على جانبي الوادي، ومياه تجري في قاعه. كانت هناك أخاديد ضيقة يمكنهم بالكاد الوثوب من فوقها، لكنها كانت عميقة للغاية وبها شلالات. كانت هناك أيضًا وهدان مظلمة لا يمكنهم القفز من فوقها أو تسلقها. وكانت هناك مستنقعات، بعضها كان أخضر يسر النظر بأزهاره الطويلة الزاهية، لكن المؤكد أن أي جواد يحاول عبورها يحمل على ظهره لن يخرج منها أبدًا.

كانت مساحة الأرض ما بين مخاضة النهر والجبال شاسعة بالفعل وأكثر مما يمكنك أن تتصور، الأمر الذي أصاب (بيلبو) بالذهول؛ والطريق الوحيد خلالها كان محددًا بأحجار بيضاء، بعضها صغير الحجم وبعضها الآخر نصفه مغطى بالطحالب والنباتات. وبالإجمال، كان السير في هذا الطريق بطيئًا، حتى بتوجيهات (جاندلف) الذي كان يبدو أنه يعرفه جيدًا. كنت ترى رأسه ولحيته يتحركان يمينًا ويسارًا بينما هو يبحث عن الصخور والجميع يتبعون خطاه، لكن بحلول المساء أدركوا أنهم لم ينتهوا من بحثهم بعد، فموعد احتساء الشاي قد فات منذ فترة طويلة، ويبدو أن موعد تناول العشاء سيفوت بدوره.

تطايرت الفراشات من حولهم، وبدأت الأضواء تخفت والقمر لم يسطع بعد، وأخذ جواد (بيلبو) يتعثر في جذور النباتات والصخور الصغيرة، وفجأة وصلوا إلى حافة منخفض شديد الانحدار لدرجة أن جواد (جاندلف) كاد ينزلق إلى أسفل المنخفض.

عندها صاح (جاندلف): "ها هو أخيرًا!"

تجمع الأقزام حوله، واقتربوا من حافة المنخفض ونظروا إلى أسفله، فرأوا الوادي من بعيد. كان بإمكانهم سماع صوت تخبط المياه المتدفقة بالصخور في قاع الوادي وتمييز رائحة الأشجار في الهواء، كما استطاعوا رؤية ضوء مسلط على جانب الوادي المقابل لجدول المياه. ولم

ينس (بيلبو) قط كيف انزلقوا جميعًا في الظلام أسفل هذا الطريق المتعرج شديد الانحدار حتى وصلوا إلى وادي (ريفندل) السري. وكلما انخفض بهم الطريق، شعروا بدفء الهواء. أما (بيلبو)، فقد أشعرته رائحة أشجار الصنوبر بالنعاس، حتى إن رأسه كان يتمايل بين الحين والآخر فيرتطم أنفه برقبة الفرس، وكاد يسقط أكثر من مرة. ومع انخفاض الطريق، ارتفعت الروح المعنوية لدى الجميع، واختلفت أنواع الأشجار ما بين الزان والبلوط، وساد شعور بالراحة مع ذوبان حمرة الشمس في الأفق.

كان اللون الأخضر قد تلاشى تقريبًا من العشب حين اقتربوا أخيرًا من أرض مفتوحة لا تبعد كثيرًا عن ضفتي مجرى المياه.

قال (بيلبو) في نفسه: "هممم... هذه الرائحة تشبه رائحة الإلفيين!"

ورفع ناظريه إلى نجوم السماء، فوجدها مشتعلة بلون أزرق براق، وحينها ارتفع صوت بغناء كترانيم ضاحكة من بين الأشجار يدندن:

أوه!
ماذا تصنعُ؟
وإلى أين ستذهبُ؟
وخناجرُك ستحتاجُ إلى تلميعْ
إن النهرَ يفيضُ... يسيلُ!
أوه!
ترلالالي!
وهنا بالأسفل في الوادي
أوه!
ماذا تطلب؟
وإلى أين ستذهبُ؟
رائحة الحطبِ تفوح
وبشاراتُ الكعكِ تلوح
أوه!
ترلليلليلالي!

إن الوادي ممتعْ
ها! ها!
حقًا ذاهبٌ؟
لكن هم هزوا لحيتهم في شكل السالبْ!
لا معرفة
بالذي - السيد (باجنز)- أحضرهُ
و(دوالين) و(بالين) يتعبان خطاه الحادي
أسفل هذا الوادي
في يونيو
ها! ها!
هل حقًا تبقى؟
أم ستطيرُ؟
فخناجرك ستشقى
ونهارك يفنى
إن طرت تكن غبيًا
إن تبقَ تكنْ أسطوريًا
وستصغي وستسمعْ
حتى يهبط هذا الليل
للنغمات الحلوة الأروعْ
ها! ها!

وأخذوا يضحكون ويغنون بين الأشجار ويمرحون بشتى الوسائل، حتى إنك كنت لتظنهم قد فقدوا صوابهم إن رأيتهم. وإن أشرت إلى الأمر، فهم لا يبالون: فقط يستمرون في الضحك، بل ويضحكون أكثر من ذي قبل. بالطبع لا أحد سوى الإلفيين يقوم بكل ذلك، وسرعان ما لمحهم (بيلبو) بنظرة خاطفة في ظلمة الليل.

لطالما أحب (بيلبو) الإلفيين، رغم أنه نادرًا ما كان يصادفهم، لكنه كان في الوقت ذاته يخافهم قليلاً. أما الأقزام، فهم لا يتفقون مع الإلفيين، وحتى الأقزام اللطفاء أمثال (ثورين) وأصدقائه يعتقدون أن الإلفيين حمقى -في حين أن الحمق في الحقيقة هو أن يظنوا ذلك-

وينزعجون من وجودهم، وكان هذا بسبب أن بعض الإلفيين يغيظون الأقزام ويسخرون منهم، خاصة من لحاهم.

سمع (بيلبو) صوت أحد الإلفيين يقول: "حسن، حسن! انظروا جميعًا! الهوبيت (بيلبو) يمتطي فرسًا، عجبًا! ألا يبدو ذلك مبهجًا؟"

ثم قال صوت آخر: "بل إنه لأمر مذهل!"

ثم بدءوا يغنون أغنية أخرى سخيفة بلا معنى كسابقتها. وحين انتهوا، خرج إلفي طويل صغير السن من بين الأشجار، وانحنى تحية لـ(جاندلف) و(ثورين)، ثم قال: "مرحبًا بكم في الوادي."

رد (ثورين) في شيء من الفظاظة قائلاً: "شكرًا!"

وكان (جاندلف) قد نزل عن جواده بالفعل، واختلط بالإلفيين وبدأ يتحدث إليهم في مرح.

قال أحدهم محدثًا (جاندلف): "لقد انحرفتم قليلاً عن طريقكم، هذا إن كنتم متوجهين نحو الطريق الوحيد الذي يعبر مجرى المياه ويصل إلى المنزل من بعده. سنعيد توجيهكم، لكن من الأفضل أن تترجلوا عن جيادكم حتى تصلوا إلى أعلى الجسر. هل ستمكثون قليلا وتغنون معنا أم ستستكملون طريقكم؟ إنهم حتمًا يعدون وجبة العشاء هناك، وأنا أشم رائحة احتراق الحطب استعدادًا للطهي بالفعل."

ورغم شعوره بالتعب الشديد، كان (بيلبو) يفضل البقاء قليلاً، فغناء الإلفيين تحت نجوم ليلة صيف كهذه هو عرض لا يجب تفويته إن كنت من محبي الغناء. كان أيضًا ليستمتع بالحديث مع هؤلاء ممن تغنوا باسمه، فيبدو أنهم يعرفون الكثير عنه، رغم أنه لم يقابلهم في حياته من قبل. أراد أن يسمع رأيهم في مغامرته التي يقوم بها الآن، فقد يكون رأيهم مشوقا بالنسبة إليه؛ فالإلفيون يعرفون الكثير، وهم أفضل من يجلب الأخبار، ويستطيعون معرفة ماذا يجري حولهم مع الشعوب المختلفة في شتى الأنحاء بسرعة تفوق سرعة تدفق المياه في الأنهار.

لكن الأقزام حينها كانوا ينتظرون بفارغ الصبر تناول وجبة العشاء في أقرب وقت ممكن، ولم يُبدوا استعدادًا للبقاء. وهكذا تحركوا جميعًا على أقدامهم يتقدمون جيادهم حتى وصلوا إلى طريق ممهد، وفي نهايته وصلوا إلى حافة النهر. كانت مياه النهر تتدفق بسرعة محدثة ضوضاء، ويبدو أن شمس ذلك اليوم الصيفي قد سطعت طوال النهار، وأذابت الثلوج من أعلى الجبال حتى أحالتها إلى مياه تختلط بمياه النهر. كان الجسر الذي عليهم عبوره ضيقا مبنيًا من الحجر وليس له سور، لكن رغم ضيق مساحته، يسهل على أي جواد أن يعبره، ومن ثم بدأ الجميع في عبور

الجسر ببطء وحذر واحدًا تلو الآخر، وكل منهم يتقدم جواده ويسحبه من لجامه.

أما الإلفيون فقد أضاؤوا حافة النهر بالمصابيح، وغنوا أغنية مبهجة أخرى أثناء عبور الجميع للجسر. وحين جاء دور (ثورين) في العبور، انحنى بشدة كأنه سيعبر الجسر جاثيًا على يديه وركبتيه، فصاح الإلفيون قائلين: "لا تغمس لحيتك في مياه النهر يا جدي! إنها طويلة جدًا وليست بحاجة إلى من يرويها!"

ثم صاحوا بعدها بقليل قائلين: "انتبهوا لأن لا يأكل (بيلبو) الكعك كله، فبدانته الحالية لا تسمح له بالمرور من ثقب المفتاح!"

رد (جاندلف) الذي كان آخر من عبروا قائلاً: "حسن، حسن! يكفي هذا أيها القوم الطيبون! طابت ليلتكم! إن للوديان آذانًا، ولبعض الإلفيين ألسنة عذبة أكثر من اللازم! طابت ليلتكم!"

وهكذا وصلوا جميعًا إلى منزل (الملاذ الأخير) ووجدوا أبوابه مفتوحة على مصاريعها.

إنه حقًّا لأمر غريب، كيف أننا نتذكر الأمور الطيبة التي تحدث لنا والأيام التي نقضيها في سعادة، لكننا لا نحكيها، بينما الأمور المزعجة أو المرعبة أو حتى بالغة الشناعة منها يصنع قصصًا مسلية، بل وتتطلب رواية الواحدة منها وقتًا طويلاً.

مكث الأقزام والساحر والهوبيت طويلاً في هذا المنزل الرحب، تحديدًا أربعة عشر يومًا، حتى إنهم وجدوا صعوبة في مغادرته. تمنى (بيلبو) أن يبقى هناك إلى أبد الآبدين، حتى إنه كان ليفضل البقاء على الرجوع مرة أخرى سالمًا ومن دون مشقة لحفرته بالتل. ورغم ذلك، فليس هناك الكثير ليُحكى عن إقامتهم بمنزل (الملاذ الأخير).

سيد هذا المنزل هو إلفي ودود، ابن واحد من هؤلاء الذين تحكى عنهم القصص الغريبة منذ بداية التاريخ؛ حيث زمن الحروب ما بين الجوبلين الأشرار وبين الإلفيين وبين قاطني الشمال الأوائل من البشر. وفي زمن حكايتنا هذه، كان مازال على قيد الحياة من لهم أسلاف من الإلفيين وأبطال الشمال، و(الروند) سيد هذا المنزل كان بمثابة زعيم عليهم.

كان (إلروند) على درجة عالية من النبل والطيبة، مما يجعلك تشعر بأنه سيد الإلفيين جميعًا. كان بقوة محارب مغوار، وبحكمة ساحر قدير، وبوقار ملك على الأقزام، وبلطف ليالي الصيف الهادئة، ويُذكر اسمه في الكثير من القصص. ورغم أن دوره في حكاية مغامرة (بيلبو) الشيقة بسيط، فإنه كان دورًا مؤثرًا كما سترون بأنفسكم، هذا إن تمكنا من الوصول إلى نهاية

الحكاية.

كان منزل (إلروند) مثاليًا، فهو سيروق لك سواء كنت ممن يحبون الطعام أو النوم أو العمل أو رواية القصص أو الغناء أو حتى مجرد الجلوس والتأمل، أو ربما خليط ممتع من كل ما سبق؛ فالشرور لا تخطو عتبة هذا الوادي.

كنت أتمنى لو أن هناك متسع من الوقت لأقص عليكم حتى بعض القصص أو أسمعكم واحدة أو اثنتين من الأغاني التي استمعوا إليها في ذلك المنزل. لقد استرد الجميع -بما فيهم الجياد- قوتهم ونشاطهم في أول بضعة أيام قضوها هناك. هذا بالإضافة إلى إصلاح ثيابهم وتطبيب جراحهم، كما نعموا بالهدوء والطمأنينة. امتلأت حقائبهم بالطعام ومؤن خفيفة الوزن لكنها كبيرة القيمة، مما ييسر عليهم عبور مسارات الجبال، كما حسّنوا من خططهم بعد استماعهم لأفضل النصائح من صاحب المنزل. وحين أتت عشية منتصف الصيف، حان وقت رحيلهم مع أول شعاع لشمس صباح اليوم التالي.

كان (إلروند) على دراية ممتازة بجميع أنواع النقوش القديمة، وفي يوم كان يتفحص السيوف التي أحضرها (ثورين) و(جاندلف) من مخبأ العمالقة، وقال: "هذه السيوف ليست من صنع العمالقة. إنها سيوف قديمة، بل إنها عتيقة منذ زمن الإلفيين النبلاء في الغرب، أسلافي. تم صنعها في مدينة (جوندولين) لمحاربة الجوبلين. من المؤكد أن السيوف كانت بين ذخيرة أحد التنانين أو ضمن مسروقات أحد الجوبلين، حيث إن التنانين والجوبلين دمروا تلك المدينة منذ سنوات طويلة. هذا السيف يا (ثورين) منقوش عليه كلمة (أوركريست)، أي (ساطور الجوبلين) بلغة أهل مدينة (جوندولين) القديمة. إنه سيف شهير. أما هذا السيف يا (جاندلف) فعليه كلمة (جلامدرينج)، أي (مطرقة العدو)، والذي كان يخص ملك مدينة (جوندولين) يومًا ما. حافظا عليهما!"

تساءل (ثورين) وهو ينظر إلى سيفه من منظور جديد قائلاً: "ومن أين أتى العمالقة بهذه السيوف يا تُرى؟"

أجابه (إلروند) قائلاً: "لا أدري، لكن من المحتمل أن يكون العمالقة الذين قابلتموهم قد حصلوا عليها عن طريق سلب مسروقات غيرهم من السارقين، أو أخذ ما تبقى من عمليات سرقة الذهب في إحدى حفر جبال الشمال، فقد سمعت أنه مازالت هناك كنوز من الذهب منسية في كهوف مناجم (موريا) الضخمة المهجورة منذ حروب الأقزام والجوبلين."

فكر (ثورين) للحظات فيما سمع من (إلروند)، ثم قال: "سأتشرف بحمل هذا السيف

والحفاظ عليه. عسى أن يقطع قريبًا رؤوس الجوبلين من جديد!"

قال (إلروند): "ستتحقق لك أمنيتك في القريب العاجل في الجبال! لكن أرني خريطتك الآن."

أخذ (إلروند) الخريطة، وأطال النظر إليها، ثم هز رأسه في استنكار. صحيح أنه لا يستحسن كلية حب الأقزام للذهب، لكنه في الوقت ذاته يكره التنانين وحبهم الشديد للشر والأذى. شعر (إلروند) بالأسى حين تذكر بلدة (ديل) المتهدمة، وأجراسها التي كانت تبعث على البهجة، وأراضيها المحترقة على ضفتي النهر المتدفق اللامع.

كان القمر مضيئًا على شكل هلال فضي متألق، فرفع (إلروند) الخريطة ليسقط عليها شعاع ضوء أبيض لامع، وقال: "ما هذا؟ هناك أحرف قمرية بهذه الخريطة، بجانب النقوش الظاهرة التي توضح أن الباب بارتفاع خمسة أقدام، وأن بإمكان ثلاثة أشخاص السير في الممر جنبًا إلى جنب."

سأل الهوبيت بحماس بالغ: "ما هي الأحرف القمرية؟"

كما أخبرتكم من قبل عن الهوبيت: إنه يهوى الخرائط ويحب أيضًا النقوش والأحرف والخطوط المنمقة، رغم أنه حين يكتب هو نفسه تكون خطوطه رفيعة متشابكة.

أجاب (إلروند) قائلاً: "الأحرف القمرية هي أحرف منقوشة، لكنها غير مرئية بمجرد النظر إليها. فقط تظهر حين يضيء القمر من خلفها. بل أحيانًا ولمزيد من السرية، تظهر تلك الأحرف فقط حين يتصادف أن يكون شكل قمر في اليوم الذي تتفقدها فيه هو نفس شكله يوم تمت كتابتها، بل وفي نفس الفصل من السنة أيضًا. الأقزام هم من اخترعوا الأحرف القمرية واعتادوا كتابتها بأقلام فضية كما قد يخبرك أصدقاؤك هنا. وعلى ذلك، تكون الأحرف القمرية بهذه الخريطة قد تمت كتابتها منذ فترة طويلة أثناء سطوع هلال عشية منتصف الصيف في السماء."

سأل (جاندلف) و(ثورين) معًا: "وماذا توضح الأحرف؟"

شعر كل من (جاندلف) و(ثورين) بقليل من الاستياء، ربما لأن (إلروند) هو أول من اكتشف الأحرف القمرية في هذه الخريطة، رغم أن الفرصة لم تكن لتتاح لهما قبل تلك الليلة لاكتشافها، ولا أحد يعلم متى كان ليحدث ذلك.

قرأ (إلروند): "قف إلى جوار الحجر الرمادي عندما يطرق طائر السُمنة، وسينير آخر ضوء لشمس يوم (دورين) الغاربة ثقب المفتاح."

قال (ثورين): "(دورين)... إنه الأب الأكبر لأقدم سلالات الأقزام، (ذوي اللحى

الطويلة)، وسلفي الأول. أنا وريثه."

سأله (إلروند): "وما هو يوم (دورين) هذا؟"

أجاب (ثورين): "إنه اليوم الأول في عام الأقزام الجديد. كما يعرف الجميع، هو آخر الأيام القمرية للخريف وبداية الشتاء. مازلنا نسميه بيوم (دورين) عندما يكون قمر الخريف الأخير والشمس في السماء معًا. لكنني أخشى أن هذا لن يساعدنا كثيرًا، لأن قدراتنا هذه الأيام لا تستطيع حساب الوقت الذي سيظهر فيه من جديد."

قال (جاندلف): "علينا أن نرى ذلك. هل هناك كتابة أخرى؟"

أجاب (إلروند) وهو يعيد الخريطة إلى (ثورين): "لا يمكن قراءتها في ضوء هذا القمر إن كانت موجودة."

ثم إنهم نزلوا حيث مجرى المياه ليشاهدوا الإلفيين وهم يرقصون ويغنون في عشية منتصف الصيف. وكان الصباح التالي هو صباح منتصف الصيف، وكان صافيًا وجميلا كالحلم. كانت السماء زرقاء لا ترى فيها سحابة واحدة، وأشعة الشمس تتراقص على سطح المياه.

وتحرك الرفاق من جديد وسط أغاني الوداع والأماني الطيبة بقلوب مستعدة للمزيد من المغامرات، وبمعلومات عن الطريق الذي يتوجب عليهم سلوكه فوق جبال الضباب إلى الأراضي الواقعة خلفها.



الفصل الرابع

فوق التل وتحت التل

كانت هناك الكثير من الطرق المؤدية إلى هذه الجبال، والعديد من الممرات من فوقها، لكن غالبية تلك الطرق كانت خادعة مضللة، ولا تؤدي إلى أي مكان، أو أنها كانت ذات نهايات مسدودة. أما الممرات، فغالبيتها تسوده الشرور والمخاطر المروعة، لكن بفضل نصائح (إلروند) لهم، بالإضافة إلى دراية (جاندلف) بالطرق وذاكرته القوية، سلك الأقزام والهوبيت الطريق السليم، ومنه إلى الممر السليم.

ومرت أيام طوال بعد مغادرتهم للوادي وابتعادهم عن منزل (الملاذ الأخير) لأميال عدة،

لكنهم كانوا مازالوا في طريقهم إلى أعلى الجبال. كان الطريق شاقًا ومحفوفًا بالمخاطر، وكان أيضًا ملتويًا منعزلاً طويلاً. والآن أصبح بمقدورهم أن ينظروا وراءهم إلى الأراضي التي مروا بها، فيرونها منبسطة وبعيدة. وعلى مسافة بعيدة، بعيدة جدًا في الغرب، أبصر (بيلبو) رقعة زرقاء باهتة اللون، وحدثه قلبه بأنها بلدته، بلدة الأمان والراحة حيث تقع حفرته الصغيرة. شعر (بيلبو) برعدة تسري في جسده، فقد بات الصقيع محيطًا بهم والرياح تضربهم من بين الصخور. كانت أشعة شمس منتصف النهار المسلطة على القمم الثلجية للجبال تتسبب في تساقط بعض الصخور الضخمة على جوانبها، وأحيانًا كانت الصخور تسقط بينهم -لحسن حظهم- أو تمر من فوق رؤوسهم، مما كان يصيبهم بالذعر. خلت لياليهم من الراحة في ظل هذا البرد القارص، وما من أحد منهم جرؤ على الغناء أو حتى التحدث بصوت عال، فصدى الصوت كان حادًا مروعًا، كأن السكون يأبى أن يزعجه أحد أو شيء غير صوت خرير المياه وصفير الرياح وانهيار الصخور.

قال (بيلبو) في نفسه: "الصيف على أشده أسفل هذه الجبال، والجميع يقطعون الحشائش ويجففونها كعلف للدواب، ويخرجون للتنزه. سيمر موسم الحصاد وموسم زراعة التوت قبل أن نبدأ حتى في الوصول إلى الجانب الآخر للجبل إن استمررنا بمعدل سرعتنا هذا."

لم يكن (بيلبو) وحده من تدور بخلده مثل هذه الخواطر الكئيبة، فالجميع انتابهم نفس الشعور، رغم أنهم حين ودعوا (إلروند) كانوا مفعمين بأمل صباح منتصف الصيف، وكانوا يتحدثون ببهجة عن ممرات الجبال وعن عبور الأراضي من خلفها بخفة. كانوا ينوون بلوغ الباب السري في الجبل المنعزل في أول ليلة يظهر فيها قمر فصل الخريف المقبل، وقالوا فيما بينهم: "ربما يتصادف أن يكون يوم (دورين)."

لكن (جاندلف) كان يهز رأسه ولا ينطق ببنت شفة.

لم يمر الأقزام من هذا الطريق لسنوات عديدة، لكن (جاندلف) فعل، وهو يعرف تمامًا كيف أن الشرور والمخاطر قد نمت واستفحلت في البراري منذ أن أبعدت التنانين البشر عن تلك الأنحاء، وانتشر الجوبلين فيها سرًا بعد معركة مناجم (موريا). حتى الخطط المحكمة التي يضعها السحرة الحكماء أمثال (جاندلف) والأصدقاء الأوفياء أمثال (إلروند) تكون أحيانًا مضللة حين تجد نفسك تخوض مغامرة خطرة على حافة البراري، و(جاندلف) كان يملك من الحكمة ما يكفيه ليعرف ذلك.

كان يعرف أن شيئًا غير متوقع قد يحدث، وكان يرجو أن يمروا من فوق هذه الجبال الشاهقة ذات القمم المهجورة والوديان التي لا تخضع لحكم أي ملك من الملوك من دون أن تصادفهم

أية مغامرات مخيفة، لكن لم يكن هذا ما حدث. كان كل شيء على ما يرام حتى هبت في يوم من الأيام عاصفة رعدية. لا، لم تكن عاصفة رعدية، بل كانت معركة رعدية. تعلم أنت كيف تكون العواصف الرعدية الشديدة مروعة حين تهب على الأرض وفي وديان الأنهار، وبالأخص حين تتصادم عاصفتان رعديتان شديدتان ببعضهما البعض؛ لكن المروع بحق هو الرعد والبرق حين يضربان الجبال أثناء الليل حين تهب عاصفة من الشرق وأخرى من الغرب وتندلع الحرب بينهما. البرق يضرب قمم الجبال، والصخور ترتجف، وأصوات تصدُّعها تملأ الهواء. تصطدم أجزاؤها المتهشمة بالكهوف والشقوق فتتدحرج بداخلها. أما ظلمة الليل فتختفي وسط أضواء البرق والضجيج.

لم يشهد (بيلبو) قط أو حتى مر بخياله شيء من هذا القبيل. لقد لجؤوا جميعًا لمكان ضيق يطل على وادٍ مظلم منحدر بشدة عند أحد جوانبه، وهناك قرروا قضاء ليلتهم محتمين بصخرة ناتئة من أعلى. رقد (بيلبو) على الأرض، وغطى جسده ببطانية وهو مازال يرتعد من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه. وحين اختلس النظر، رأى على ضوء وهج البرق مردة الأحجار* في الهواء الطلق يلهون عبر الوادي بالصخور ويقذفونها باتجاه بعضهم البعض، ثم يلتقطون المزيد منها ويتقاذفونها وسط ظلمة الليل فتتحطم بين الأشجار أو تتهشم إلى قطع صخرية صغيرة فيُسمع لها دوي. وبعد ذلك هبت الرياح وأمطرت السماء، وحركت الرياح مياه الأمطار والبرد في كل اتجاه، وبالتالي لم تمثل الصخرة الناتئة حماية فعالة على الإطلاق.

سرعان ما غمرت المياه ملجأهم، أما جيادهم فقد وقفت خافضة رؤوسها محتفظة بأذيالها بين أرجلها، وبعضها كان يصهل من شدة الخوف حين يسمع صوت قهقهة العمالقة وصوت صياحهم بين الجبال.

قال (ثورين): "موقفنا هذا لا نحسد عليه! فإن لم تطح بنا الرياح أو تغرقنا المياه أو يصعقنا البرق، فسيلتقطنا أحد المردة ليقذف بنا عاليًا في السماء على سبيل التسلية."

رد (جاندلف) قائلاً: "حسن، إن كنت تعرف مكانًا أفضل، فلتأخذنا إليه!"

كان (جاندلف) يشعر بالضيق، ولم يكن هو الآخر راضيًا عن أفعال العمالقة. انتهت مناقشته مع (ثورين) بأن أرسلا (فيلي) و(كيلي) للبحث عن ملجأ أفضل، فقد امتازا بحدة البصر؛ وبما أنهما أصغر سنًا من باقي الأقزام بما لا يقل عن خمسين عامًا، فهما عادة من يتم تكليفهما

* مردة الأحجار Stone-giants يعتبرون أكثر مخلوقات (الأرض الوسطى) غموضًا، فـ(تولكين) ذكرهم في حكاياته بشكل عابر، وليس لهم دور يذكر فيها، وهو فقط اكتفى بأن يذكرهم ليدل على وجودهم في عالمه.

بمثل هذه المهام، وبالأخص حين يعلم الجميع أن من العبث إرسال (بيلبو) للقيام بأحد هذه الأعمال.

-"إن أردتما العثور على شيء، فأفضل وسيلة للبحث عنه هي أعينكما." هكذا قال (ثورين) للقزمين الشابين.

من المؤكد أنك عادة ما تجد شيئًا حين تبحث، لكنك لا تجد بالضرورة الشيء ذاته الذي تبحث عنه، وهذا ما أثبته هذا الموقف. سرعان ما عاد (فيلي) و(كيلي) زاحفين ومتشبثين بالصخور وسط تلك الرياح، وقالا: "وجدنا كهفًا جافًا وليس ببعيد، ويمكننا إدخال الجياد وكل شيء إلى داخله."

سألهما الساحر الذي يعرف أن كهوف الجبال غالبًا ما تكون مشغولة: "هل عاينتماه بدقة؟"

قال القزمان: "أجل، أجل!"

ورغم أن الجميع يعرفون أن من المستحيل أن يكون القزمان قد عاينا الكهف بدقة مع عودتهما بهذه السرعة، إلا أنهما أضافا: "إنه ليس بكهف كبير، وليس ممتدًا أيضًا."

وهذا بالطبع ما يمثل خطورة الكهوف، فأحيانًا لا يمكنك أن تعرف إن كان الكهف ممتدًا أم لا، أو إلام يصل بك ممر خلفي به، أو ماذا ينتظرك بداخله. لكن بالنسبة للموقف الراهن، بدت أخبار (فيلي) و(كيلي) مناسبة جدًا. هكذا قام الجميع، واستعدوا للانتقال إلى الكهف. كانت الرياح تصفر وصوت الرعد مازال يدوي. لم تكن عملية انتقالهم وجيادهم بالأمر اليسير، لكن الكهف لم يكن بعيدًا، وسرعان ما وصلوا إلى صخرة كبيرة في وسط الطريق، إن عبرت من ورائها وجدت مدخلاً مقوسًا في جانب الجبل، مساحته بالكاد تكفي لأن يعبر جواد من خلاله بعد أن تخلع عنه حمله وسرجه. وبينما هم يجتازون المدخل، شعروا بأنهم أفضل حالاً بالداخل، حيث يمكنهم سماع صوت الأمطار والرياح تعصف بالخارج بدلاً من أن تكون حولهم، وشعروا بالأمان بعيدًا عن العمالقة وما يتقاذفون من صخور. لكن الساحر لم يكن ليترك مجالاً للمخاطرة، فأشعل عصاه كما فعل في ذلك اليوم في حجرة طعام (بيلبو). حدث ذلك منذ فترة طويلة إن كنت مازلت تذكر، وعلى شعاع هذا الضوء عاينوا الكهف من أوله وحتى آخره.

كان الكهف متوسط المساحة؛ لم يكن كبيرًا جدًا أو مثيرًا للريبة. كانت أرضيته جافة وبدت بعض زواياه مريحة. وفي أحد أطرافه كان هناك متسع للجياد، وهناك وقفت الجياد وقد أحست بسعادة غامرة بسبب تغير المكان. كانت تنفث البخار من مناخيرها وتمضغ الطعام من

أكياس العلف المعلقة حول رؤوسها. أراد (أوين) و(جلوين) أن يشعلا نارًا عند مدخل الكهف ليجففا ملابسهما، لكن (جاندلف) لم يكن ليسمح بذلك، فنشروا جميعًا متعلقاتهم المبتلة على الأرض، وأخرجوا ملابس جافة من حقائبهم، ثم بسطوا أغطيتهم على الأرض بشكل مريح، وأخرجوا غلايينهم ونفثوا حلقات الدخان التي أحالها (جاندلف) بهدف تسليتهم إلى حلقات مختلفة الألوان تتراقص تحت سقف الكهف. أخذوا يتحدثون ويتحدثون حتى نسوا أمر العاصفة، وتجاذبوا أطراف الحديث حول ما سيفعل كل منهم بحصته من الكنز حين يحصلون عليه، ففي تلك اللحظة تحديدًا لم يبد لهم الأمر مستحيلاً.

ثم بدأ الجميع يغفون واحدًا تلو الآخر.

وكانت تلك هي آخر مرة يرون فيها جيادهم وأمتعتهم وحقائبهم وأدواتهم ومعداتهم الشخصية التي أحضروها معهم في رحلتهم.

برغم كل شيء، فقد أثبتت تلك الليلة أن اصطحاب الأقزام و(جاندلف) لـ(بيلبو) معهم في رحلتهم كان أمرًا مفيدًا. لسبب ما لم يتمكن (بيلبو) من أن يخلد للنوم إلا بعد فترة طويلة. وحينما خلد إليه، راودته الأحلام المزعجة. رأى في منامه أن شقًا في جدار الجزء الخلفي من الكهف أخذ يتسع أكثر فأكثر حتى أحدث فجوة بالجدار، وشعر (بيلبو) بالخوف الشديد، لكنه لم يتمكن من الصياح أو فعل أي شيء سوى أن يمكث في مكانه ليراقب ما يحدث. ثم رأى في منامه أيضًا أن أرضية الكهف قد بدأت في التشقق، وأنه كاد ينزلق بين الشقوق ليسقط في الهاوية.

وحينها استيقظ (بيلبو) في فزع شديد ليجد أن جزءًا من حلمه كان بالفعل حقيقة، وأن شقًا بالجدار الخلفي للكهف قد أحدث فجوة به، وقد صارت بالفعل كأنها ممر واسع. استيقظ (بيلبو) في الوقت المناسب ليرى ذيل آخر الجياد وهو يختفي في فجوة الكهف، وبالطبع أطلق (بيلبو) صيحة عالية، عالية جدًا بالنسبة لصغر حجم الهوبيت.

في لمح البصر وثب الجوبلين...

جوبلين ضخام الحجم...

جوبلين ضخام الحجم بشعو الخلقة...

جوبلين كثيرون دخلوا إلى الكهف...

أحاط كل ستة منهم على الأقل بواحد من الأقزام، واثنان منهم بـ(بيلبو)، وأمسكوا الجميع وحملوهم عبر فجوة الكهف في لمح البصر أيضًا. لكنهم لم يمسكوا بـ(جاندلف)، فصيحة (بيلبو) كانت مفيدة جدًا بالنسبة إليه، حيث أفاق عليها في جزء بسيط من الثانية. وحين اقترب

منه الجوبلين ليمسكوا به، أحدث وميضًا رهيبًا كضوء البرق، وفاحت رائحة كرائحة البارود، وسقط الكثير منهم صريعًا على أرض الكهف.

انغلقت الفجوة بسرعة من ورائهم، وأصبح (بيلبو) والأقزام على الجانب الآخر من الكهف.

وأين يا تُرى (جاندلف)؟

لم يكن لدى الأقزام أو (بيلبو) أو حتى الجوبلين أية فكرة، والجوبلين لم ينتظروا لاكتشاف أين اختفى (جاندلف). كان الجانب الآخر غائرًا ومظلمًا، بحيث إن الجوبلين الذين اعتادوا سكن مناطق قلب الجبال هم فقط من يمكنهم الرؤية بداخله. كانت الممرات متقاطعة ومتشابكة في جميع الاتجاهات، لكن الجوبلين كانوا يعرفون طريقهم بالداخل كمعرفتك أنت بالطريق لأقرب مكتب بريد إلى دارك. هكذا ظل الطريق ينخفض بهم أكثر فأكثر حتى أصبح الجو بالداخل خانقًا إلى أقصى الحدود. كان الجوبلين قاسي القلب ولا يعرفون الرحمة مع من يوقعون بهم. كانوا يضحكون بصوت حجري مروع، مما أصاب (بيلبو) ببؤس أكثر مما أصابه حين حمله العمالقة من أصابع قدميه.

تمنى (بيلبو) مرة تلو الأخرى لو أنه كان بحفرته الأنيقة اللامعة، ولم تكن تلك هي المرة الأخيرة!

ثم ومض ضوء أحمر أمام أعينهم، وشرع الجوبلين في الغناء. كان صوت غنائهم أشبه بالنعيق، وتزامن غناؤهم مع صوت ضربات أقدامهم المسطحة على الصخور واهتزاز أسراهم أيضًا بفعل ضربات الأقدام.

نقض ونتزع من داخل الشق الأسود
قبض، نغتصب، نسرق، نعتقل
وإلى بلدة الجوبلين ستذهب يا ولدي!
نصدم، نحطم، نسحق، ندمر
بالمطرقة والهراوة، بالمقرعة والجرس
نسحق، في غياهب الأرض نسحق
هو، هو يا ولدي!

نضرب ونجلد بالسوط اللاسع
ولن تجرؤ على الهرب وستعمل وأنت قانع
بينما الجوبلين يضحكون ويشربون
وفي غياهب الأرض بالأسفل
ستتوارى يا ولدي!

كان غناء الجوبلين مروعًا بالفعل، وردد صدى الصوت كلماتهم وصوت ضحكاتهم البشعة. بات المغزى من الأغنية واضحًا كالشمس الآن بعد أن أخرج الجوبلين سياطهم وصوبوا الضربات على الأقزام والهوبيت لتسمع صوت السياط، مما حثهم على الركض أمام الجوبلين بأقصى سرعة ممكنة، حتى كثرت بالفعل أصوات أنين أكثر من قزم حين تعثروا ووقعوا في حفرة كبيرة.

أضاءت الحفرة بفعل نيران حمراء مشتعلة في وسطها، وأيضًا بفعل مشاعل معلقة على الجدران، وامتلأت الحفرة بالجوبلين. أخذ الجوبلين جميعًا يضحكون ويضربون الأرض بأقدامهم ويصفقون بأيديهم حين ركض الأقزام ومن خلفهم (بيلبو) المسكين -الذي كان أقربهم لسياط الجوبلين- باتجاه الحفرة، بينما ساقهم جوبلين آخرون إليها وصاحوا بهم واستحثوهم بالسياط من الخلف. أما الجياد فكانت بالفعل مجتمعة في ركن بالحفرة، وبجانبها جميع الأمتعة والحقائب إما مكسورة أو مفتوحة على الأرض بعد أن فتشها الجوبلين وتشمموها وتنازعوا عليها.

أخشى أن تلك كانت هي المرة الأخيرة التي وقع فيها بصر الأقزام والهوبيت على تلك الجياد الصغيرة الممتازة، ومن بينها جواد أبيض ضئيل الحجم قوي ومرح كان (إلروند) قد أعاره لـ(جاندلف) بما أن حصان الأخير لم يكن مناسبًا لممرات الجبال.

الجوبلين يأكلون الجياد والمهور والحمير ومخلوقات أقوى بكثير، وهم دائمًا ما يشعرون بالجوع. لكن في الوقت الحالي، كان السجناء يفكرون فقط في أنفسهم والورطة التي وقعوا فيها. كبل الجوبلين أيدي الأقزام وراء ظهورهم، وقيدوهم جميعًا في صف واحد وسحبوهم إلى أقصى طرف بالحفرة، و(بيلبو) المسكين مجرور خلف الجميع في آخر الصف.

وبعيدًا تحت الظلال، وعلى صخرة كبيرة مستوية، جلس جوبلين هائل الحجم ذو رأس ضخم، ومن حوله وقف آخرون مسلحون يحملون الفؤوس والسيوف الملتوية التي يفضلون استخدامها. لعلك تعرف أن الجوبلين قساة أشرار غلاظ القلب، لا تصنع أيديهم أي شيء جميل، لكنهم يتحلون بالمهارة في بعض الجوانب. يمكنهم مثلًا شق الأنفاق والتنقيب في المناجم كأي من

الأقزام المهرة إن أرادوا، رغم أنهم عادة ما يكونون مهملين وقذرين. يجيد الجوبلين صنع المطارق والفؤوس والسيوف والخناجر والمعاول والملاقيط، وأيضًا وسائل التعذيب؛ وأحيانًا يكلفون الآخرين من السجناء أو العبيد –الذين يعملون لديهم حتى الموت من نقص في الهواء وقلة الضوء– بصنعها طبقًا لتصاميم الجوبلين. ولا نستبعد أن تكون بعض الآلات التي جلبت البلاء على العالم حتى يومنا هذا من اختراعهم، وبخاصة المعدات الخاصة بقتل أعداد كبيرة من الأفراد في وقت واحد. فالعربات والمحركات والانفجارات دائمًا ما أشعرتهم بالبهجة، وكذلك أيضًا تفادي العمل بكثرة بأيديهم إن تمكن لهم ذلك. لكن في تلك الأيام وتلك المناطق المقفرة، لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى هذه الدرجة من التقدم كما نطلق عليهم. لم يكن الجوبلين يكرهون الأقزام لشخصهم، فهم يكرهون جميع الأشياء وجميع المخلوقات، وبخاصة من يعيش منها في نظام ورخاء، وفي بعض الأنحاء كان يقوم الأقزام الخبثاء بالتحالف مع الجوبلين. لكن الجوبلين كانوا يحملون ضغينة شديدة لرفاق (ثورين) على وجه الخصوص، بسبب الحروب التي اكتفيت فقط بذكرها لكم من قبل، لكنني لم أرو تفاصيلها في حكايتنا هذه. وعلى أية حال، فإن الجوبلين لا يكترثون كثيرًا بمن يمسكون، شريطة أن تتم عملية الإمساك بالسجناء بدهاء وحذق بحيث لا يتمكنون من الدفاع عن أنفسهم.

قال كبير الجوبلين: "من هؤلاء البائسون؟"

رد أحد الجوبلين الذين قادوا السجناء إلى الحفرة قائلاً: "إنهم أقزام، وهذا المخلوق!"

ثم سحب (بيلبو) من الأغلال المثبتة حول قدميه، فوقع الهوبيت على ركبتيه، ثم استطرد الجوبلين قائلاً: "لقد وجدناهم يحتمون برواقنا الأمامي."

قال كبير الجوبلين موجهًا حديثه لـ(ثورين): "ماذا كنتم تقصدون بهذا؟ لم تقصدوا خيرًا بالطبع! كنتم تتلصصون على شؤون رجالي الخاصة. نعم، أعتقد هذا! إنكم لصوص، والأمر لا يفاجئني! إنكم قتلة وأصدقاء للإلفيين، ليس هذا من المستبعد! اقترب! أسمعني ما لديك لتقوله."

رد (ثورين) بطريقة مهذبة قائلاً: "أنا (ثورين) القزم، وأنا في خدمتك! جميع ما ذكرت من أمور تشتبه بها أو تتخيلها لم يكن لدينا عنه أية فكرة. لقد احتمينا من عاصفة بالخارج فيما بدا لنا كهفًا ملائمًا وخاليًا، ولم تدر بأذهاننا فكرة إزعاج أي من الجوبلين على الإطلاق."

وكانت تلك هي الحقيقة!

قال كبير الجوبلين: "همم... هذا ما تقوله أنت. دعني أسألك أولاً: ماذا كنتم تفعلون في الجبال؟ ومن أين أتيتم؟ وإلى أين كنتم ذاهبين؟ في الواقع، أود أن أعرف كل شيء عنكم، ليس لأن ذلك سيفيدك بشيء يا (ثورين أوكنشيلد)، فأنا بالفعل أعرف الكثير عنك، لكنني أود أن أعرف

الحقيقة، وإلا سأعد لك خصيصًا أمرًا لن يعجبك!"

لم يدر (ثورين) ما عليه قوله، ولا كيف يرد على كل تلك الأسئلة دفعة واحدة، لكنه رد بعد أن أدرك أن قول الحقيقة كاملة لن يفيدهم: "كنا نقوم برحلة لزيارة أقربائنا: أولاد وبنات إخواننا وأخواتنا، وأولاد وبنات أعمامنا من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، وأيضًا آخرين من أحفاد أجدادنا الذين يسكنون الجهة الشرقية لهذه الجبال الرحبة."

رد أحد الجوبلين قائلاً: "إنه كاذب! يا له من كاذب لعين! العديد من رجالنا قد صعقهم البرق في الكهف حين أردنا الإمساك بهذه المخلوقات، وهم الآن صرعى. كيف أيضًا يمكنه تبرير هذا الذي يحمله؟"

وأخرج الغول السيف الذي يحمله (ثورين)، وكان السيف الذي حصل عليه من مخبأ العمالقة. وحين وقع بصر كبير الجوبلين عليه، أطلق عواءً رهيبًا من شدة غضبه. أما جنوده، فقد أطبقوا على أسنانهم وأحدثوا جلبة بدروعهم وضربوا الأرض بأقدامهم. لقد ميزوا السيف من أول نظرة، فهو السيف ذاته الذي تسبب في قتل المئات منهم قديمًا حين قام الإلفيون المنصفون قاطنو (جوندولين) باصطياد الجوبلين وسط التلال وحاربوهم أمام جدران المدينة. لقد أطلق الإلفيون على السيف اسم (أوركريست)، أي (ساطور الجوبلين)، لكن الجوبلين أسموه ببساطة (القاطع)، وكانوا يكرهونه ويكرهون من يحمله أكثر.

صاح كبير الجوبلين: "قتلة! وأصدقاء للإلفيين! اجلدوهم! اضربوهم! عضوهم وأطبقوا عليهم بأسنانكم! خذوهم إلى حفر مظلمة مليئة بالأفاعي، ولا تسمحوا لهم برؤية النور مرة أخرى!"

كان كبير الجوبلين يتميز من الغضب، حتى إنه وثب من مقعده واندفع بسرعة إلى (ثورين) بنفسه شاغرًا فاه.

وفي تلك اللحظة تحديدًا انطفأت جميع المشاعل بالحفرة، وخمدت النيران وتصاعد دخان أزرق وهاج حتى السقف، ثم تناثرت ومضات بيضاء لاذعة على الجوبلين، وما تلا ذلك من أصوات الصرخات والأنين والنعيق والغمغمة والعواء والتذمر والسباب لا يمكن وصفه. إن ألقينا بالمئات والمئات من القطط والذئاب البرية معًا وهي حية في نار هادئة لشيها، فلن تصدر مثل تلك الأصوات التي أصدرها الجوبلين وقتها. الومضات كانت تُحدث حفرًا محرقة في أجسادهم، والدخان الذي سقط من سطح الحفرة ملأها بالأتربة، مما جعل الهواء كثيفًا لدرجة أن حتى أعين الجوبلين لم يمكنها أن تبصر من خلاله. وسرعان ما بدءوا يتساقطون ويتعثرون ببعضهم البعض

ويتدحرجون على الأرض، ويعضون ويركلون ويقاتلون كأنهم جميعًا قد فقدوا صوابهم.

وفجأة، ومض سيف بشعاع من نور. أبصر (بيلبو) السيف يخترق جسد كبير الجوبلين بينما كان واقفًا مصعوقًا وسط نوبة غضبه، فسقط صريعًا، أما جنوده ففروا هاربين يصرخون قبل أن ينالهم السيف في الظلام.

ومن ثم عاد السيف مرة أخرى إلى غمده، وسمع الأقزام والهوبيت صوتًا قويًا واثقًا يقول: "اتبعوني بسرعة!"

وقبل أن يعي (بيلبو) ما حدث، كان قد بدأ يهرول مرة أخرى بأسرع ما أمكنه بما أنه آخر المقيدين في الصف، وتوجهوا جميعًا إلى أسفل ممرات أكثر ظلمة حيث بدأت صرخات الجوبلين تخفت من خلفهم. كانوا يتبعون ضوءًا باهتًا يضيء من أمامهم.

قال الصوت: "أسرعوا! أسرعوا! ستضاء المشاعل قريبًا"

صاح (دوري) الذي كان أيضًا في آخر الصف بجانب (بيلبو) قائلاً: "امنحنا نصف دقيقة!"

كان (دوري) من اللطف بحيث جعل الهوبيت يتسلق كتفيه قدر المستطاع بيديه المكبلتين، ومن ثم انطلقا معًا وسط أصوات رنين الأغلال والكثير من التعثر بما أن أيدي الجميع كانت مكبلة ولا يستطيعون استخدامها للحفاظ على توازنهم. وبعد فترة ليست بطويلة توقفوا، ومن المؤكد أنهم قد وصلوا أثناء ركضهم إلى صميم قلب الجبل.

وبعد ذلك أضاء (جاندلف) عصاه. بالطبع كان صاحب الصوت هو (جاندلف)، لكنهم في ذلك الوقت كانوا مشغولي البال، ولم يسألوا كيف تمكن من الوصول إلى هناك. أخرج (جاندلف) سيفه مرة ثانية، ومرة ثانية ومض السيف بشعاع من نور، وتوهج بشدة استعدادًا للمزيد من الوميض إن كان أي من الجوبلين في الجوار. والآن جاء ضوءه كشعلة زرقاء براقة احتفالاً بقتل سيد هذا الكهف كبير الجوبلين. لم يكن قطع الأغلال وتحرير جميع السجناء من قيود الجوبلين بسرعة بمشكلة. يُطلق على هذا السيف اسم (جلامدرينج)، أي (مطرقة العدو) إن كنت مازلت تتذكر، أما الجوبلين فقد أسموه ببساطة (المضرب)، وكانوا يكرهونه أكثر من السيف (القاطع) إن كان ذلك ممكنًا. تم أيضًا إنقاذ السيف (أوركريست)، فـ(جاندلف) أحضره معه بعد أن انتزعه من بين يدي أحد حراس الجوبلين المذعورين.

بإمكان (جاندلف) التذكر والتركيز في معظم الأمور، ورغم أنه لا يمكنه فعل كل شيء، فإنه يتمكن من فعل الكثير لأصدقاء في مأزق.

سأل (جاندلف): "هل جميعنا هنا؟ دعوني أرى: (ثورين)، (ثورين)، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة، أحد عشر... أين (فيلي) و(كيلي)؟ ها هما، اثنا عشر، ثلاثة عشر... وها هو السيد (باجنز) رقم أربعة عشر! حسن، حسن! من المحتمل أن يسوء الوضع، أو من المحتمل أن يتغير للأفضل. ليس لدينا جياد أو طعام، ولسنا ندري بالضبط أين نحن، وحشد كبير من الجوبلين الغاضبين من ورائنا. حسن، لننطلق!"

ومن ثم انطلقوا جميعًا. كان (جاندلف) محقًا بشأن الجوبلين، فقد بدأ هو والأقزام والهوبيت يسمعون ضجيجهم وصرخاتهم الكريهة بعيدًا من ورائهم في الممرات التي عبروها، وكان ذلك ما حث الجميع على الركض أسرع من ذي قبل. وبما أن (بيلبو) المسكين لم يكن بإمكانه الركض حتى بنصف سرعة الآخرين –وأؤكد لكم أن بإمكان الأقزام العدو بسرعة رهيبة عندما يضطرون لذلك– فكانوا يتناوبون في حمله على ظهورهم.

ومع ذلك، يعلم الجميع أن سرعة الجوبلين أعلى من سرعة الأقزام، ومعرفة هؤلاء الجوبلين بهذه الممرات أكبر، فهم من حفروها بأنفسهم، بالإضافة إلى أن غضبهم قد بلغ حد الجنون. وعلى ذلك، لم تبد هناك فائدة من أن يسرع الأقزام، فهم مازال بإمكانهم سماع صرخات الجوبلين تقترب أكثر فأكثر، وسرعان ما أصبح بإمكانهم سماع حتى أصوات ضربات أقدامهم على الأرض؛ أصوات ضربات الكثير والكثير من الأقدام المسرعة باتجاههم تأتي من أقرب ركن إليهم. صارت ومضات من ضوء المشاعل الأحمر مرئية من خلفهم في النفق الذي يسلكونه، وبدءوا يشعرون بالإنهاك التام.

قال السيد (باجنز) المسكين وهو يرتطم بظهر (بومبر) مع كل حركة: "لماذا؟ نعم، لماذا قمت بمغادرة حفرتي الجميلة؟"

ثم قال (بومبر) المسكين، الذي كان بدينًا، مما جعله يترنح بشدة أثناء ركضه والعرق يتصبب من فوق أنفه من شدة الرعب والانفعال: "لماذا؟ نعم، لماذا قمت باصطحاب هوبيت بائس ضئيل الحجم في رحلة لصيد الكنوز؟"

وفي هذا الوقت كانوا قد اقتربوا من منعطف حاد، فتخلف (جاندلف) عن الآخرين وتبعه (ثورين)، ثم صاح (جاندلف): "عند المنعطف! اسحب سيفك يا (ثورين)!"

لم يكن هناك مجال لفعل أي شيء آخر، والجوبلين لم يرق لهم الأمر، فقد جاؤوا عند المنعطف مسرعين بصراخهم العالي، ليجدوا (ساطور الجوبلين) و(مطرقة العدو) يلمعان بشدة أمام أعينهم مما أصابهم بالذهول. الجوبلين الذين كانوا في المقدمة ألقوا بمشاعلهم أرضًا وأطلقوا

صرخة قبل أن يسقطوا صَرعى. أما الجوبلين الذين كانوا خلفهم، فصاحوا ووثبوا إلى الخلف متخطين حتى الذين كانوا يركضون خلفهم.

بدءوا يصرخون في رعب: "القاطع والمضرب!"

وسرعان ما دبت الربكة فيما بينهم، ومعظمهم أسرع بالعودة من نفس الطريق حيث أتى.

لم يجرؤ أي من الجوبلين على الالتفات خلفه إلا بعد فترة طويلة جدًا، وأثناء ذلك كان الأقزام قد واصلوا ركضهم من جديد. كان طريقًا طويلاً بحق في أنفاق مملكة الجوبلين المظلمة. وحين اكتشف الجوبلين ذلك، أطفؤوا مشاعلهم وارتدوا أحذية خفيفة، واختاروا من بينهم العدائين الأسرع، والذين يمتازون بحاستي سمع وبصر قويتين. وعلى ذلك، انطلق هؤلاء العداؤون من الجوبلين بخفة ورشاقة وسط الظلام في هدوء تام كالوطاويط، حتى إنك قد تشك في أنهم يتحركون البتة.

ولهذا السبب لم يسمع للجوبلين أي من (بيلبو) أو الأقزام أو حتى (جاندلف) حسًا ليدركوا أنهم قادمون، ولا حتى رأوهم مقبلين، بينما أن الجوبلين الذين ركضوا بهدوء من خلفهم كان بإمكانهم رؤية (جاندلف) ورفاقه، بما أن (جاندلف) كان قد ترك عصاه تصدر ضوءًا خافتًا لمساعدة الأقزام في طريقهم.

وفجأة، وبينما كان (دوري) في آخر الصف مرة أخرى يحمل (بيلبو)، سحبه أحدهم من الخلف في الظلام، فصرخ القزم ثم سقط على الأرض، بينما سقط الهوبيت من على كتفي (دوري) في عتمة النفق، وارتطم رأسه بصخرة صلبة وفقد الوعي.



الفصل الخامس

ألغاز في الظلام

حينما فتح (بيلبو) عينيه، تساءل إن كان قد فتحهما حقًا؛ فالظلام الذي أحس به وعيناه مغلقتان كان نفسه الذي أحاط به بعد أن فتحهما. لم يكن أحد مطلقًا على مقربة منه، ولك أن تتخيل الرعب الذي أحس به. لم يكن بمقدوره سماع أي شيء أو رؤية أي شيء أو الشعور بأي شيء سوى الأرض الصخرية من تحته.

نهض (بيلبو) بتمهل شديد، وتحسس طريقه في الظلام بيديه وقدميه حتى لمس جدار

النفق، لكنه لم يجد شيئًا أعلى الجدار أو أسفله، لم يجد شيئًا على الإطلاق. لا أثر لأي من الجوبلين، وكذلك لا أثر لأي من الأقزام. كان يشعر بدوار، ولم يستطع عقله المشوش تحديد الطريق الذي سلكوه قبل أن يسقط على الأرض. حاول أن يحزر قدر المستطاع أي طريق عليه سلوكه، وزحف قليلاً في أحد الاتجاهين حتى التقت يداه فجأة بما بدا له أنه خاتم بارد صغير جدًا مصنوع من الصلب وملقى على أرض النفق. كانت تلك نقطة تحول مهمة وحاسمة في حياته، لكنه في ذلك الوقت لم يكن يدري ذلك. ومن دون تفكير، وضع الهوبيت الخاتم في جيبه، فبالطبع لم يبد له أنه ذو فائدة ما في تلك اللحظة. لم يتقدم (بيلبو) كثيرًا، لكنه جلس على الأرض الباردة واستسلم لحالة من التعاسة الشديدة لمدة طويلة. جلس يتخيل نفسه يقلي اللحم المقدد مع البيض في مطبخه بحفرته، فقد بدأ يشعر بداخله أن الوقت قد حان لتناول وجبة ما، وتفكيره هذا أشعره بمزيد من التعاسة.

لم يستطع (بيلبو) التفكير فيما عليه فعله، أو التفكير فيما حدث، أو أن يعرف لم تركه الأقزام و(جاندلف) خلفهم، ولماذا -إن كانوا قد تركوه خلفهم حقًا- لم يمسك به الجوبلين. لم يكن حتى يعرف لم كان رأسه يؤلمه. الحقيقة أنه ظل غائبًا عن الوعي وعن الأنظار في ركن شديد الإظلام لفترة طويلة.

وبعد قليل، بحث الهوبيت عن غليونه في الظلام، ولحسن حظه لم يجده مكسورًا. ثم بحث عن حافظته، ولمزيد من حسن الحظ وجد بعض التبغ بداخلها. وأخيرًا بحث عن بعض أعواد الثقاب، لكنه لم يجد أيًا منها على الإطلاق، مما بدد كل آماله تمامًا حينها. لكنه حين عاد إلى صوابه، أدرك أن ذلك كان في صالحه، فمن يدري ما قد يخرج إليه من تلك الحفر المظلمة إن أشعل عود ثقاب أو انتشرت رائحة التبغ في هذا المكان الكريه؟

كان (بيلبو) مازال حتى تلك اللحظة يشعر بالوهن الشديد، لكنه حين فتش عن ثقاب وتحسس كل جيوبه، التقت يده بمقبض سيفه الصغير، أو بالأحرى الخنجر الصغير الذي حصل عليه من مخبأ العمالقة، والذي كان قد نسي أمره تمامًا، وحتى الجوبلين لم يلاحظوا وجوده، بما أنه كان يعلقه في بنطاله من الداخل.

أخرج (بيلبو) خنجره من غمده، ولمع الخنجر لمعة باهتة خافتة أمام عينيه، ثم قال (بيلبو) في نفسه: "إذن فهذا السيف أيضًا من صنع الإلفيين. والجوبلين ليسوا قريبين مني، لكنهم ليسوا بعيدين بشكل كاف كذلك."

لكن لسبب ما أحس (بيلبو) بالراحة، فقد كان شعورًا رائعًا أن يحمل سيفًا تم صنعه في

(جوندولين) ليُستخدم في الحروب ضد الجوبلين؛ تلك الحروب التي كثيرًا ما تؤلَّف الأغاني عنها، وأيضًا لأنه لاحظ كيف أن تلك الأسلحة لها عظيم الأثر على الجوبلين كما حدث من قبل.

تمتم مفكرًا: "هل أعود من حيث أتيت؟ لا، ليست فكرة جيدة على الإطلاق! أسلك طرقًا جانبية؟ مستحيل! أتقدم إلى الأمام؟ يبدو أنه الحل الوحيد! حسن، لأنطلق!"

نهض (بيلبو) من مكانه، وأسرع في طريقه ممسكًا بسيفه الصغير أمامه، بينما يتحسس الجدار بيده الأخرى وقلبه يدق في عنف.

مما لاشك فيه أن (بيلبو) أصبح الآن في ما يُطلق عليه مكان ضيق. لكن علينا أن نتذكر أن المكان ليس ضيقًا جدًّا بالنسبة إليه بقدر ما قد يكون ضيقًا بالنسبة لي أو لكم؛ فالهوبيت ليسوا تمامًا كالأناس العاديين، وحتى إن كانت الحفر التي يسكنونها جميلة ومبهجة وجيدة التهوية ومختلفة تمامًا عن أنفاق الجوبلين، فهم على أية حال أكثر اعتيادًا منا على ارتياد الأنفاق، ولا يفقدون طريقهم بسهولة بالممرات أسفل الأرض، لكن فقط بعد أن تتعافى رؤوسهم من الخبطات العنيفة!

يستطيع جميع الهوبيت أيضًا التحرك بهدوء شديد والاختباء بسهولة والتعافي بشكل مذهل من آثار السقطات والكدمات، بل ولديهم كنز من الحكم والأقوال المأثورة التي لم يسمع بها بنو البشر مطلقًا من قبل أو غابت في طي النسيان منذ زمن بعيد.

ورغم كل هذا، لم يكن ليعجبني أبدًا أن أكون في موقف السيد (باجنز)، فالنفق بدا كأنه بلا نهاية، وكل ما استطاع الهوبيت تحديده هو أن النفق كان مازال ينحدر بشكل مستقيم في قلب الجبل في نفس الاتجاه، باستثناء بعض المنعطفات والزوايا. وبين الحين والآخر، كان (بيلبو) يستشعر وجود ممرات متفرعة إلى جانب الجبل، حيث كان سيفه يضيء قليلاً بفعل الضوء المتسرب أو أثناء تحسسه لجدار النفق، لكنه لم يلق بالاً لتلك الممرات، بل إنه كان يسرع بتجاوزها خوفًا من الجوبلين أو من المخلوقات الشريرة التي كانت في مخيلته، والتي ظن أنها قد تخرج من تلك الممرات.

ظل (بيلبو) منطلقًا، وظل الطريق ينخفض به، لكن لا أثر ولا صوت لأي شيء، باستثناء سماعه صوت طنين الخفافيش بين الفينة والفينة، مما أفزعه في بادئ الأمر، حتى اعتاده (بيلبو) ولم يعد يشعره بالانزعاج. ولا أدري كم ظل (بيلبو) منطلقًا في طريقه في النفق على هذا المنوال، كارهًا لهذا الطريق ولا يجرؤ على التوقف. ظل متابعًا الطريق حتى أصابه الإعياء، وأحس بأن

الطريق بالنفق لن ينتهي غدًا، أو حتى طوال الأيام التالية.

وفجأة، ومن دون سابق إنذار، وجد (بيلبو) نفسه وسط مياه! ويا للهول! كانت المياه مثلجة، وهذا ما أخرجه منها في التو واللحظة. لم يكن يدري إن كانت تلك المياه مجرد بركة في النفق، أم أنها حافة لجدول يجري تحت الأرض ويتقاطع مع الممر، أم أنها حافة بحيرة عميقة ومظلمة تحت سطح الأرض. لم يكن سيفه يلتمع الآن. توقف (بيلبو) وأنصت، أنصت جيدًا ليسمع صوت قطرات مياه تتساقط من سقف لم يتمكن من رؤيته في الماء حوله، ولم يسمع الهوبيت أي صوت آخر.

قال الهوبيت في نفسه: "إذن فهي إما بركة وإما بحيرة، وليست جدول ماء تحت الأرض."

ومع ذلك، لم يجرؤ (بيلبو) على الخوض في تلك المياه المظلمة. لم يكن يعرف السباحة، وتخيل وجود مخلوقات لزجة ومقززة ذات أعين كبيرة بارزة لا تبصر تتلوى في المياه؛ فمن المعروف أن البرك والبحيرات في قلب الجبال تعيش بها مخلوقات غريبة، كالأسماك التي هاجر أسلافها إلى هذه البرك والبحيرات منذ وقت طويل لا يعلمه أحد ولم يخرجوا منها منذ ذلك الحين، فتغير حجم أعينها إلى الأكبر والأكبر من فرط محاولتها الرؤية وسط ظلمة المياه. أيضًا توجد في هذه البرك والبحيرات مخلوقات أخرى أكثر إثارة للتقزز من الأسماك، فحتى في الأنفاق والكهوف التي شقها الجوبلين لأنفسهم توجد مخلوقات أخرى مجهولة بالنسبة للجوبلين تعيش في هذه الأنفاق والكهوف، بعد أن تسللت من الخارج لتمكث بالداخل وسط الظلام. وبعض هذه الكهوف أيضًا يعود تكوينه إلى فترات طويلة قبل وجود الجوبلين الذين اكتفوا بتوسيعها والربط بينها بممرات. أما السكان الأصليون لتلك الكهوف فهم مازالوا بداخلها يتطفلون ويتحركون خلسة في المكان.

تحت الأرض، وبجوار تلك المياه المظلمة هنا، عاش مخلوق لزج ضئيل الحجم هو العجوز (جولام). لا أدري من أين أتى (جولام)، أو من أو ماذا كان. كان ببساطة مخلوقًا غامضًا كظلمة الليل، لديه عينان كبيرتان دائريتان باهتتان في وجهه النحيف. لديه أيضًا قارب صغير، وكان دائمًا ما يجدف بهدوء شديد في أنحاء البحيرة -اتضح بالفعل أنها بحيرة- الواسعة العميقة ذات المياه شديدة البرودة. كان يجدف في المياه بقدمين كبيرتين متدليتين من جانبي القارب، لكن من المستحيل أن يصدر عن تجديفه هذا تموجًا واحدًا في صفحة المياه. كان يبحث بعينيه الباهتتين اللتين تشبهان المصابيح عن الأسماك التي لا تبصر، والتي كان يختطفها من المياه بأصابعه الطويلة

بسرعة البرق. كان (جولام) يحب تناول اللحوم أيضًا، وكان لحم الجوبلين يروق له، هذا إن تمكن من الحصول عليه، لكنه كان حريصًا على ألا يكتشف أحد وجوده بالبحيرة. كان أحيانًا يقترب من الجوبلين من الخلف ويقوم بخنقهم إن أتى أحدهم بمفرده قرب حافة البحيرة بينما هو يتجول فيها، لكن نادرًا ما كان أحد الجوبلين ينزل إلى مكان تلك البحيرة، فقد كان لديهم شعور أن هناك مخلوقات كريهة تتوارى فيها عند جذور الجبل. اكتشف الجوبلين وجود تلك البحيرة عندما كانوا يشقون الأنفاق السفلية منذ زمن بعيد. وحين أدركوا أنها لا يمكنها تخطيها، أنهوا بها الطريق في هذا الاتجاه، ولم يكن هناك داع من سلوك هذا الطريق إلا إذا أرسل كبير الجوبلين بهم إلى هناك، فأحيانًا يشتهي كبير الجوبلين تناول أسماك البحيرة، وفي كثير من تلك الأحيان لا تعود الأسماك أو الجوبلين المكلفون باصطيادها على حد سواء.

في الواقع، كان (جولام) يعيش في جزيرة من الصخور الزلقة في منتصف البحيرة، وكان يراقب (بيلبو) الآن من على بعد بعينيه الباهتتين كالتلسكوب. لم يكن (بيلبو) يرى (جولام)، لكن الأخير كان متعجبًا بشدة من أمر (بيلبو)، فقد لاحظ على الفور أنه لا يمت للجوبلين بصلة.

نزل (جولام) إلى قاربه، وأطلقه بعيدًا عن الجزيرة، بينما كان (بيلبو) مازال جالسًا على حافة البحيرة في حيرة تامة من أمره، حيث يعرف أنه قد وصل إلى نهاية الطريق وبداية حيرته.

وفجأة، ظهر (جولام) وهمس بصوت كفحيح الأفاعي قائلًا: "باركنا ورشنا بالمياه يا عزيزي! يا لها من وجبة منتقاة! أقل ما يقال عنها إنها لقمة شهية لنا يا (جولام)!"

وكان حينما يقول (جولام) يُصدر صوتًا كريهًا متحشرجًا من حلقه، ومن هنا جاء الاسم*، رغم أنه دائمًا ما يشير إلى نفسه بـ(يا عزيزي).

كاد الهوبيت يموت رعبًا حين سمع هسيس (جولام) في أذنيه، وفجأة رأى عينيه الباهتتين بارزتين باتجاهه.

سأله الهوبيت وهو متشبث بسيفه أمامه: "من أنت؟"

خاطب (جولام) نفسه هامسًا: "ما هذا المخلوق يا عزيزي؟"

دائمًا ما يخاطب (جولام) نفسه، بما أنه ليس هناك من يتحدث إليه. إذن لم يقترب (جولام) من حافة البحيرة هذه المرة بدافع الجوع، فهو لم يكن يشعر بالجوع وقتها، بل أتى بدافع الفضول، وإلا كان قد أطبق على عنق (بيلبو) أولًا، ثم تحدث هامسًا بعدها.

* الحشرجة التي يصدرها من حلقه تخرج كأنه يقول: جولام Gollum، ومن هنا جاء الاسم.

قال (بيلبو): "أنا السيد (بيلبو باجنز). لقد ضللت طريقي بعيدًا عن الأقزام وبعيدًا عن الساحر، ولا أدري أين أكون، ولا أريد أن أعرف، بشرط أن أخرج من هنا."

قال (جولام) وهو ينظر إلى سيف (بيلبو): "ما هذا الذي يمسكه بأيديه؟"

لم يعجب (جولام) مظهر السيف في يد (بيلبو) الذي أجابه قائلاً: "إنه سيف، سيف مصنوع في (جوندولين)!"

أصدر (جولام) صوت هسيس آخر، ثم تحدث بأسلوب أكثر تهذيبًا وقال: "ربما تود أن تبقى هنا وتتحدث مع هذا المخلوق قليلاً يا عزيزي. إنه يحب الألغاز. نعم، ربما يحبها، أليس كذلك؟"

كان (جولام) متلهفًا ليبدو ودودًا، في الوقت الراهن على الأقل، حتى يعرف أكثر عن السيف وعن الهوبيت، وما إن كان قد جاء وحده حقًا أم لا، وإن كان يصلح كطعام له أم لا، أو حتى يقرر ما إن كان يشعر بالجوع حقًا. كانت الألغاز هي كل ما يشغل باله؛ وقديمًا، قديمًا جدًا كانت تسليته الوحيدة بين المخلوقات الأخرى الغريبة التي تسكن الحفر هي أن يطرح الألغاز وأحيانًا يخمنها. كان ذلك قبل أن يخسر كل أصدقائه ويبتعد عن الجميع ليزحف إلى أسفل هذه الجبال ليمكث في الظلام وحيدًا.

-"حسن." هكذا أجاب (بيلبو) الذي كان متلهفًا بدوره على الموافقة حتى يعرف أكثر عن هذا المخلوق، وما إن كان وحده بالبحيرة، وما إن كان مفترسًا أو جائعًا، وما إن كان صديقًا للجوبلين أم لا.

قال (بيلبو) وقد أدرك أن الوقت لن يسعفه بأن يتذكر أحد الألغاز: "لتبدأ أنت."

فبادره (جولام) هامسًا بصوته المبحوح:

ما الذي لديه جذور لا يراها أحد
وأطول قامة من الأشجار
عاليًا، عاليًا يرتفع
وإن كان لا ينمو أبدًا؟

أجاب (بيلبو): "يا للسهولة! أعتقد أن الحل هو (الجبل)."

-"إذن فصديقنا هذا يخمن الأجوبة بسهولة. يجب أن ننظم مسابقة معه يا عزيزي! فإن سألناه ولم يجب، نلتهمه يا عزيزي. وإن سألنا ولم نجب، نفعل ما يريد، أليس كذلك؟ نريه الطريق إلى الخارج، نعم!"

-"أوافق!" قالها (بيلبو) بلا تردد، حيث كان لا يجرؤ على المعارضة. كاد عقله ينفجر من كثرة التفكير في ألغاز قد تنجيه من الهلاك.

ثلاثون فرسًا أبيض على تل أحمر
أولاً يقضمون
ثم يطحنون
ثم يتوقفون

كان ذلك هو اللغز الذي استطاع التفكير فيه في تلك اللحظة، فقد كانت فكرة التهام (جولام) له مازالت مسيطرة على فكره. كان هذا اللغز أيضًا قديمًا إلى حد كبير، و(جولام) كان يعرف الحل تمامًا كما تعرفونه أنتم.

همس من جديد قائلاً: "قديمة ومعروفة! الأسنان! الحل هو الأسنان يا عزيزي! لكننا لدينا ستة أسنان فقط!"

ثم طرح (جولام) لغزه الثاني قائلاً:

تصرخ بلا صوت
وترفرف بلا أجنحة
تعض بلا أسنان
وتهمس بلا فم

صاح (بيلبو) وهو مازال منزعجًا من التفكير في احتمالية التهام (جولام) له قائلاً: "لحظة من فضلك!"

ولحسن حظه أنه كان قد سمع لغزًا شبيهًا بهذا اللغز من قبل، فاستعاد حصافته وعرف

حل اللغز، فقال: "الرياح! إنها بالطبع الرياح."

أعجب (بيلبو) بنفسه لأنه استطاع تأليف لغز في الحال رغم وضعه الحرج هذا، وقال في نفسه: "هذا اللغز سيحير هذا المخلوق الضئيل اللعين الذي يسكن تحت سطح الأرض."

ثم قال:

عين في وجه أزرق
رأت عينًا في وجه أخضر
فقالت العين الأولى:
تلك العين تشبه هذه العين
لكن وهي في مكان منخفض
وليس في مكان مرتفع

أخذ (جولام) يفكر، فبقاؤه تحت سطح الأرض لفترة الطويلة قد بدأ ينسيه مثل تلك الألغاز. بدأ (بيلبو) يأمل أن هذا البائس لن يستطيع حل اللغز، لكن وقتها فقط مرت بذاكرة (جولام) العديد من الذكريات منذ زمن بعيد بعيد، حين كان يعيش مع جدته في حفرة مطلة على ضفة نهر، وأصدر صوته المعتاد وقال: "يا عزيزي... إنها الشمس ساطعة على أزهار الربيع. هذا هو الحل."

لكن يبدو أن هذا النوع المعتاد من الألغاز والذي يُتناقل يوميًا فوق سطح الأرض أصبح مرهقًا بالنسبة لـ(جولام). ويبدو أيضًا أن تلك الألغاز تذكره بأيام لم يكن يشعر فيها بمثل هذه الوحدة التي يشعر بها الآن، ولم يكن يشعر فيها بمثل هذه الحقارة والدونية، وقد أزعجه تذكر ذلك. والأهم هو أن هذه الألغاز قد بدأت تشعره بالجوع، حتى إنه في هذه المرة انتقى لغزًا أكثر صعوبة وإزعاجًا:

لا يمكن رؤيته ولا الشعور به
ولا يمكن سماعه ولا شم رائحته
يتوارى خلف النجوم وتحت التلال

ويملأ القصور الخالية
يأتي أولاً ويرحل أخيرًا
وينهي الحياة ويقتل الضحك

ولسوء حظ (جولام) أن (بيلبو) قد سمع مثل هذا اللغز من قبل، وأن الإجابة كانت تحيط به من كل جانب على أية حال، فأجاب على الفور من دون حتى أن يحك رأسه ليتذكر أو يرتدي طاقية التفكير قائلًا: "إنه الظلام!"

ثم تلا (بيلبو) على (جولام) لغزه التالي:

صندوق بلا مفاصل ولا مفتاح ولا غطاء
يختفي بداخله كنز ذهبي

أراد (بيلبو) من وراء هذا اللغز كسب بعض الوقت حتى يتمكن من التفكير في لغز أكثر صعوبة، فقد ظن أنه سهل ومكرر وقديم قدم الزمن، رغم أنه لم يسمعه بنفس كلماته المعتادة. لكن اتضح أنه لغز كريه ومحير لـ(جولام) الذي أخذ يهمس لنفسه من دون أن يتوصل إلى الحل، ثم يهمس ويغمغم، لكن من دون جدوى.

وبعد فترة قصيرة نفد صبر (بيلبو)، وقال: "إذن ما هو حل اللغز؟ أتظن أن الإجابة هي غلاية شاي تصفر؟ يبدو ذلك من الأصوات المزعجة التي تصدرها! لكنه ليس الحل الصحيح."

رد (جولام): "امنحنا فرصتنا. دعه يمنحنا فرصتنا يا عزيزي."

قال (بيلبو) بعد أن منح وقتًا طويلاً لـ(جولام): "حسن، ما هو تخمينك؟"

لكن فجأة، تذكر (جولام) سرقته قديمًا لأعشاش الطيور، وجلوسه تحت ضفة النهر ليعلم جدته... يعلم جدته كيف تمص الـ...

"البيض! البيض هو حل اللغز!" كذا قال هامسًا، ثم كان لغزه التالي:

حية بلا أنفاس
باردة كالموت

لا نظمأ أبدًا ودائمًا نشرب
ودائمًا تحميها درع بلا صوت

وبدوره ظن (جولام) أن هذا اللغز سهل لدرجة لا توصف بما أن الإجابة كانت دائمًا حاضرة بذهنه، لكنه في تلك اللحظة لم يتذكر لغزًا أصعب من هذا، وخصوصًا بعد أن أربكه بشدة لغز البيض الأخير. وبالمثل، كان اللغز محيرًا بالنسبة لـ(بيلبو) المسكين الذي عاش حياته يتفادى المياه الغزيرة قدر المستطاع. أتصور طبعًا أنكم تعرفون الإجابة، أو على الأقل يمكنكم تخمينها في غمضة عين، بما أنكم تجلسون في راحة بمنازلكم ولستم عرضة للافتراس حتى تتوقف عقولكم عن التفكير. جلس (بيلبو) وتنحنح استعدادًا للإجابة أكثر من مرة، لكن ما من إجابة خرجت من فمه.

وبعد فترة بسيطة بدأ (جولام) يهمس لنفسه بسعادة: "أتراه لذيذًا يا عزيزي؟ أهو شهي وطري؟ هل هو سهل المضغ ومقرمش؟"

بدأ (جولام) يحدق في (بيلبو) وسط الظلام المحيط بهما، فقال (بيلبو) وهو يرتعد: "لحظة من فضلك. لقد أعطيتك فرصتك كاملة قبل قليل."

قال (جولام) وقد بدأ ينزل عن قاربه إلى الشط استعدادًا للامساك بـ(بيلبو): "عليه أن يتعجل، يتعجل!"

وحينما وضع (جولام) قدمه العنكبوتية الطويلة في الماء، قفزت سمكة من شدة الرعب خارج مياه البحيرة لتقع على أصابع قدم (بيلبو)، فصاح (بيلبو) في اشمئزاز وقال: "إنها باردة ولزجة!"

ومن هنا عرف الإجابة، فصاح: "الأسماك! الأسماك! الحل هو الأسماك!"

شعر (جولام) بخيبة أمل كبيرة، لكن (بيلبو) سأل لغزه التالي بسرعة البرق، حتى إنه اضطر (جولام) للعودة إلى قاربه ليفكر.

قال (بيلبو):

التي بلا سيقان استقرت على التي بساق واحدة
والذي بساقين جلس على الذي بثلاثة سيقان

ثم التي بأربع سيقان حصلت على الباقي

لم يكن هذا حقًّا هو الوقت المناسب لمثل هذا اللغز، لكن (بيلبو) كان في عجلة من أمره. كان من الممكن أن يصعب على (جولام) حل هذا اللغز إن كان (بيلبو) قد قاله في وقت آخر؛ فبعد أن ذكرا لتوهما الأسماك، لم يكن تخمين (من دون أرجل) صعبًا على الإطلاق، وبعد تخمين هذا الجزء أصبح تخمين بقية اللغز سهلاً، وكان الحل بالطبع كالتالي: "سمكة على طاولة صغيرة، ثم رجل يجلس بالطاولة على كرسي صغير، ثم القطة تأكل عظام السمكة."

وسرعان ما أعطى (جولام) الجواب، ثم قرر (جولام) أن الوقت قد حان ليسدد إلى (بيلبو) لغزًا صعبًا كريهًا، وهكذا قال:

يلتهم الأشياء كلها
الطيور والحيوانات والأشجار والأزهار
يقضم الحديد ويقرض الفولاذ
ويطحن الصخور القاسية
يقتل الملوك ويخرب المدن
ويهدم الجبال العالية

جلس (بيلبو) المسكين في الظلام يحاول تذكر جميع أسماء العمالقة والجوبلين الذين سمع بهم طوال حياته في الحكايات، لكنه أدرك أن أيًّا منهم لم يقم بكل هذه الأمور معًا. راوده شعور أن الإجابة ستكون مختلفة تمامًا، وأن من الأكيد أنه يعرفها، لكنه لم يتذكرها. بدأ (بيلبو) يشعر بالرعب، ولم يساعده ذلك على التذكر. بدأ (جولام) ينزل عن قاربه. ضرب الماء بيديه وسبح باتجاه ضفة البحيرة، وبدأ (بيلبو) يرى عيني (جولام) تقتربان منه، وأحس (بيلبو) كأن لسانه قد انحشر بفمه.

أراد أن يصرخ بأعلى صوت: "امنحني المزيد من الوقت! امنحني بعض الوقت!"

لكن كل ذلك خرج من فمه في شكل صرخة مفاجئة طويلة مبتورة: "الوقت! الوقت!"

وبهذا أنقذت (بيلبو) الصدفة البحتة، فبالطبع كان ما صرخ به هو حل اللغز.

ومرة أخرى شعر (جولام) بخيبة أمل، بالإضافة إلى شعوره بالغضب وبالتعب من لعبتهم هذه، فقد أشعرته فعلاً بالجوع الشديد. وهذه المرة لم يعد (جولام) لقاربه، بل جلس في الظلام بجانب (بيلبو)، مما أشعر الهوبيت بعدم الراحة وشتت تفكيره.

قال (جولام): "عليه الآن أن يسألنا سؤالاً يا عزيزي. نعم، نعم، نعم! سؤالاً واحدًا أخيرًا. نعم، نعم!"

لكن (بيلبو) لم يتمكن من التفكير في أي سؤال وهذا المخلوق الكريه البارد المبتل جالس بجواره يود لو يلكزه وينبشه ببراثنه. حك (بيلبو) جلده، وقرص نفسه، ومع ذلك لم يتمكن من التفكير في سؤال يطرحه على (جولام) الذي قال: "اسألنا سؤالاً! هيا!"

قرص (بيلبو) وصفع نفسه، وأمسك بسيفه الصغير بإحكام، بل إنه تحسس ما بداخل جيبه بيده الأخرى، فوجد الخاتم الذي التقطه في الممر، وكان قد نسي أمره تمامًا، فقال بصوت مرتفع: "ما هذا الذي في جيبي؟"

كان في الواقع يسأل نفسه، لكن (جولام) ظن أن سؤال (بيلبو) ما هو إلا لغز جديد، فاضطرب بشدة وهمس بصوته المزعج: "ليس هذا عدلاً! ليس عدلاً! ليس هذا عدلاً يا عزيزي، أليس كذلك؟ أن يسألنا عما يحتفظ به في جيبه الكريه الصغير."

وحينما رأى (بيلبو) ما حدث، وبما أنه لم يجد سؤالاً أفضل يسأله لـ(جولام)، تمسك بسؤاله هذا وأعاده بصوت أعلى فقال: "ما هذا الذي في جيبي؟"

همس (جولام) بصوته المخيف: "عليه أن يمنحنا ثلاث فرص لنحزر الإجابة الصحيحة يا عزيزي، ثلاث فرص."

رد (بيلبو): "حسن! ابدأ إذن!"

قال (جولام): "يداك!"

رد (بيلبو) الذي لحسن حظه كان قد أخرج لتوه يده من جيبه قائلاً: "خطأ، حزر من جديد!"

استاء (جولام) أكثر من ذي قبل، وبدأ يفكر في جميع الأشياء التي يحتفظ بها هو في جيوبه: عظام الأسماك، أو أسنان الجوبلين، الأصداف المبتلة، أو جزء من جناح وطواط، حجر صغير حاد يزيد به من حدة مخالبه؛ والكثير من الأشياء الكريهة الأخرى. ثم حاول أن يفكر فيما يحتفظ به الآخرون في جيوبهم، وأخيرًا قال: "سكين!"

قال (بيلبو) الذي كان بالفعل قد فقد سكينه منذ فترة: "خطأ! حزر للمرة الأخيرة!"

بدت حالة (جولام) بالفعل أسوأ مما كانت عليه حين سأله (بيلبو) سؤال البيض. بدأ يهمس ويغمغم ويهز نفسه للأمام وللخلف ويضرب الأرض بقدميه ويتلوى بارتباك، ومع ذلك لم يجرؤ على تبديد آخر فرصة له، فقال له (بيلبو): "هيا! مازلت أنتظر!"

حاول (بيلبو) أن يبدو جريئًا ومرحًا، لكنه لم يكن متأكدًا كيف ستنتهي اللعبة في حالة إن أصاب (جولام) أو أخطأ الإجابة.

قال (بيلبو): "انتهى الوقت!"

صرخ (جولام) قائلاً: "خيط، أو لا شيء!"

لم يكن ذلك بالطبع عادلاً، أن يحزر مرتين في الوقت نفسه.

قال (بيلبو) بصوت مرتفع: "كلتا الإجابتين خطأ."

شعر (بيلبو) بالراحة، لكنه قفز من مكانه ليقف على قدميه، وأسند ظهره إلى أقرب جدار، وتشبث بسيفه الصغير. كان بالطبع يعلم كم هي مقدسة وأزلية لعبة الألغاز هذه، وكم يخشى -حتى الأشرار من المخلوقات- الغش حين يلعبونها. لكن (بيلبو) أحس بأنه لا يمكنه الوثوق بأن مثل هذا المخلوق الطيني قد يحفظ عهده إن اضطر لعكس ذلك، فمن الوارد أن يختلق أي عذر ليتهرب من قواعد اللعبة. وإحقاقًا للحق، لم يكن سؤال (بيلبو) الأخير مطابقًا لمواصفات الألغاز بحسب القواعد الأزلية للعبة.

لكن على أية حال، لم يقم (جولام) بمهاجمة (بيلبو) على الفور، فقد كان يخشى السيف الذي بيده، بل ظل جالسًا مكانه يرتجف ويهمس لنفسه، وأخيرًا لم يطق (بيلبو) الانتظار أكثر من ذلك، فقال: "إذن؟ ماذا عن وعدك لي؟ أريد الخروج من هنا، وعليك أن ترشدني لطريق الخروج."

قال (جولام): "أحقًا قلنا ذلك يا عزيزي؟ أحقًا وعدنا المخلوق الكريه الضئيل المسمى (باجنز) بأن نرشده لطريق الخروج؟ نعم، نعم، فعلنا. لكن بم يحتفظ في جيوبه؟ ليست الإجابة (خيط) يا عزيزي، وليست (لا شيء) كذلك. يا لسوء حظك يا (جولام)!"

قال (بيلبو): "لا بأس، لكن عليك أن تحفظ وعدك لي."

همس (جولام) بصوته المزعج: "إنه غاضب ونافد الصبر يا عزيزي، لكن عليه أن ينتظر. نعم، عليه أن يفعل. لا يمكننا التوجه لأعلى الأنفاق بهذه السرعة. علينا أن نذهب لنجلب بعض

الأشياء أولاً. نعم، علينا إحضار أشياء لتساعدنا."

صاح (بيلبو) في حدة: "لتسرع إذن!"

أحس (بيلبو) بقليل من الراحة حين علم أن (جولام) سيبتعد عن هنا، فقد ظن أنه يختلق عذرًا ليرحل، وأنه لم ينو الرجوع مرة أخرى.

لكن عمَّ كان يتحدث (جولام)، وما هي تلك الأشياء المفيدة التي يحتفظ بها بعيدًا وسط هذه البحيرة المظلمة؟

لكن (بيلبو) كان مخطئًا، فقد كان (جولام) بالفعل ينوي العودة مرة أخرى، وقد بدأ يشعر بالغضب وبالجوع الآن، وكما نعرف عن (جولام) أنه مخلوق بائس وشرير، وكانت لديه خطة بالفعل بمضي ذلك الوقت.

لم تكن جزيرة (جولام) بعيدة عن الشاطئ، تلك الجزيرة التي لم يكن (بيلبو) يعرف عنها شيئًا. وهناك في مخبئه، كان (جولام) يحتفظ ببعض بقايا حقيرة لأشياءٍ لا قيمة لها، وكان يحتفظ أيضًا بشيء واحد رائع الجمال، رائع الجمال بشكل مدهش حقًا؛ كان يحتفظ بخاتم، خاتم ذهبي، خاتم نفيس وأثير إلى نفسه.

همس (جولام) لنفسه كما اعتاد أن يفعل في الأيام حالكة الظلام التي يقضيها في البحيرة قائلاً: "إنه هدية عيد ميلادي! هذا هو ما نريد الآن. نعم، هذا ما نريد!"

لقد أراد الخاتم الآن لأنه كان خاتماً يمنح القوة، وما إن تضعه في إصبعك تصبح غير مرئي، ولا يمكن لأحد أن يستدل على وجودك إلا في وضح النهار وتحت أشعة الشمس المباشرة حيث سيظهر ظلك، والذي بدوره سيكون باهتًا وغير واضح.

-"إنه هدية عيد ميلادي! فقد حصلت عليه يوم عيد ميلادي يا عزيزي." هذا ما اعتاد (جولام) أن يقوله لنفسه، لكن ما من أحد يمكنه تأكيد صحة قوله هذا، فمن يدري كيف حصل عليه (جولام) منذ مئات السنين حين كانت هذه الخواتم ذات نفوذ جبار حول العالم؟

ربما يكون سيد الخواتم ذاته يجهل كيف وقع الخاتم في يد (جولام).

اعتاد (جولام) أن يضع الخاتم في إصبعه في بادئ الأمر حتى أرهقه ارتداؤه، ثم احتفظ به في جيب ملاصق لجلده حتى أصيب بالتقرحات. أما الآن فهو عادة ما يخبئه في حفرة بين صخور جزيرته، وكان دائمًا ما يعود إلى الجزيرة ليلقي نظرة عليه. ورغم ذلك، كان (جولام) أحيانًا يضع الخاتم في إصبعه، وذلك حين كان يشعر بأنه لا يحتمل فراقه أكثر من ذلك، أو حين يشعر بالجوع، الجوع الشديد وقد أرهقه صيد الأسماك. وحين يضعه في إصبعه، كان (جولام) يتسلل

بين الممرات المظلمة بحثًا عن جوبلين ضلوا طريقهم، بل إنه كان أحيانًا يغامر ويتسلل إلى مكمنهم حيث المشاعل المضاءة التي تطرف عينيه وتشعره بوخز فيهما، ومع ذلك كان يشعر بالأمان. نعم، يشعر بالأمان الشديد، فما من أحد يراه، وما من أحد من الجوبلين يلحظ وجوده حتى يطوق أصابعه حول أعناقهم. منذ ساعات قليلة فقط وضع (جولام) الخاتم في إصبعه وأمسك بجوبلين صغير، ويا لصوت الصرير الحاد الذي أصدره الجوبلين! ورغم أنه كان مازال يحتفظ بعظمة أو اثنتين يمكنه أن يقرضهما، إلا أنه فضل أن يتناول شيئًا أكثر لينًا.

-"آمن للغاية. نعم، لن يمكنه رؤيتنا، أليس كذلك يا عزيزي؟ لا، لن يرانا، وسيصبح سيفه الصغير الكريه معدوم الفائدة. نعم، معدوم الفائدة." هكذا همس (جولام) لنفسه، وهذا ما دار بخلده وهو ينسل من أمام (بيلبو) على حين غرة ويسرع إلى قاربه مرة أخرى ويبتعد في الظلام. ظن (بيلبو) أن ذلك سيكون آخر عهده بـ(جولام)، ومع ذلك انتظر قليلاً، فهو لم يكن لديه أية فكرة عن كيفية العثور على طريق الخروج من دون مساعدة.

وفجأة، سمع (بيلبو) صوت صرخة عالية، فسرت قشعريرة باردة في جسده. سمع (جولام) يسب ويلعن وينتحب في الظلام في جزيرته التي قدر (بيلبو) من صوته أنها لا تبعد كثيرًا عن ضفة البحيرة. كان (جولام) في جزيرته يفتش هنا وهناك ويبحث عبثًا عن شيء ما، وسمعه (بيلبو) يتساءل بصوت مرتفع قائلاً: "أين هو؟ أين هو؟ إنه مفقود يا عزيزي، مفقود، مفقود! يا للمصيبة! لقد حلت بنا لعنة! لقد فقدت عزيزي!"

سأله (بيلبو) بصوت مرتفع قائلاً: "ما الأمر؟ ماذا فقدت؟"

صرخ (جولام): "عليه ألا يسأل، فالأمر ليس من شأنه! لا يا (جولام)! إنه مفقود يا (جولام)، مفقود يا (جولام)!"

قال (بيلبو) في حنق: "أحقًا؟ وأنا مثله مفقود وضال! وأريد أن أكون (غير مفقود). لقد فزت باللعبة، وأنت وعدتني، فهيا عد إلى هنا! عد إلى هنا وأرشدني لطريق الخروج، ثم استأنف بحثك هذا!"

ونظرًا لحالة البؤس الشديد التي كان (جولام) عليها، بالطبع لم يرق قلبه لحديث (بيلبو) الذي راوده شعور بأن أيًا كان ما يريده ويبحث عنه (جولام) لا يمكن أن يكون خيرًا.

صاح (بيلبو): "عد إلى هنا!"

رد (جولام) قائلاً: "لا، ليس بعد يا عزيزي! علينا أن نبحث عنه. إنه مفقود يا (جولام)."

قال (بيلبو): "لكنك لم تحزر الإجابة الصحيحة لسؤالي الأخير، ولقد وعدتني."

صرخ (جولام): "لم أحزر!"

وفجأة ووسط هذا الظلام، أصدر (جولام) صرخته المعتادة الحادة كفحيح الأفاعي، ثم قال: "ماذا هذا الذي في جيبه؟ عليه أن يخبرنا، عليه أن يخبرنا أولاً!"

وبقدر معرفة (بيلبو) بالأمر، لم يكن هناك سبب معين يمنعه من إخبار (جولام). أما (جولام) فقد قفز إلى ذهنه خاطر كان من الطبيعي ألا يخطر ببال (بيلبو) بنفس السرعة، وذلك لأن (جولام) قد قضى سنوات طويلة محتضنًا هذا الشيء على وجه الخصوص، وكان دائم القلق من أن يقوم أحدهم بسرقته. لكن (بيلبو) بدأ ينزعج من تأخر (جولام)، فرغم كل شيء، فقد فاز (بيلبو) باللعبة بما يتفق مع أصول العدل بعد أن عرض نفسه لمخاطرة رهيبة.

قال (بيلبو) محدثًا (جولام): "الإجابات تُحزر ولا تُمنح."

رد (جولام): "لكنه لم يكن سؤالاً منصفًا. لم يكن لغزًا يا عزيزي. لا، لم يكن لغزًا."

فقال (بيلبو): "حسن، إن كان الأمر مقتصرًا على الأسئلة المعتادة، فقد سألتك واحدًا بالفعل. ماذا فقدت؟ هيا، أخبرني!"

-"ما هذا الذي في جيبه؟" قالها (جولام) بنبرة أعلى وأكثر حدة، وشعر (بيلبو) بالذعر حينما نظر باتجاه (جولام) ليرى نقطتين صغيرتين من الضوء تحدقان فيه من بعيد، فالشك في قلب (جولام) قد جعل الضوء في عينيه يبدو كأنه يحترق بلهيب خافت.

سأله (بيلبو) بإصرار: "ماذا فقدت؟"

لكن البريق في عيني (جولام) صار الآن بلون النيران الخضراء وهو يقترب من (بيلبو) بسرعة وخفة. نزل (جولام) إلى مركبه مرة أخرى، وجدف بقوة باتجاه شاطئ البحيرة المظلم، وثورته العارمة لفقدانه ما فقد والشك الذي نما في قلبه جعلاه لا يخشى أي سيف كان.

لم يدرك (بيلبو) سبب غضب هذا المخلوق البائس، لكنه أحس بغضبه، وعلم أن (جولام) ينوي قتله مهما كلفه الأمر. وفي الوقت المناسب، استدار (بيلبو) وركض في الظلام باتجاه الممر الذي أتى منه، وظل مقتربًا من الجدار ليتحسسه بيده اليسرى.

-"ما هذا الذي في جيبه؟" هكذا جاء صوت صراخ (جولام) من خلف (بيلبو)، بينما نزل الأول عن قاربه إلى الشاطئ.

تساءل (بيلبو) في نفسه وسط ركوضه ولهاثه وتعثره: "ماذا لدي في جيبي يا ترى؟"

ووضع (بيلبو) يده اليسرى في جيبه، وأحس بالخاتم باردًا للغاية ينساب بهدوء ليلتف حول سبابته.

جاءت صرخات (جولام) من خلف (بيلبو) مباشرة الآن. فاستدار (بيلبو) ليرى عيني (جولام) تبرقان بضوء أخضر كمصباحين صغيرين يقتربان منه عند أعلى المنحدر. ومن شدة ذعره، حاول (بيلبو) أن يركض بسرعة أكبر، لكنه تعثر فجأة في نتوء بالأرض، فسقط مفترشًا إياها وسيفه الصغير من تحته.

وبعد لحظة كان (جولام) قد وصل إلى الهوبيت، وقبل أن يحاول (بيلبو) أن يفعل أي شيء، كأن يلتقط أنفاسه أو يقوم من على الأرض أو حتى يشهر سيفه، مر (جولام) من فوقه من دون أن يلحظ وجوده، وظل يركض وهو يلعن ويهمس بطريقته المعتادة.

ما هذا الذي حدث الآن؟

إن (جولام) يبصر في الظلام. وحتى أثناء ركضه، كان (بيلبو) يرى الضوء الصادر من عيني (جولام) باهتًا من خلفه. نهض (بيلبو) من على الأرض وهو يشعر بألم ممض، وأغمد سيفه الذي كان يصدر ضوءًا باهتًا من جديد، ثم تبع (جولام) بحذر شديد. لم يكن هناك اختيار آخر أمامه، فلم يبد من المفيد أن يتجه (بيلبو) مرة أخرى إلى أسفل الممر حيث بحيرة (جولام)، وخطر ببال الهوبيت أنه ربما يقوده إلى طريق الخروج بشكل ما من دون أن يقصد.

قال (جولام) بصوته الحاد: "عليه اللعنة! عليه اللعنة! عليه اللعنة! لتحل اللعنة بهذا الـ(باجنز)! لقد اختفى! بماذا يحتفظ في جيبه؟ نستطيع أن نحزر، أن نحزر يا عزيزي. لقد وجده. نعم، بالتأكيد وجده... هدية عيد ميلادي."

أرهف (بيلبو) سمعه، فقد بدأ أخيرًا يحزر أيضًا ما يجري من حوله. أسرع قليلاً خلف (جولام) متمالكًا نفسه ليقترب منه قدر المستطاع، لكن (جولام) كان مسرعًا، ولم ينظر خلفه، بل أخذ يتلفت يمينًا ويسارًا كما خمن (بيلبو) من الضوء الساقط على الجدران من حوله.

-"هدية عيد ميلادي! اللعنة! كيف أضعناه يا عزيزي؟ نعم، الآن قد فهمت. حين جئنا من هذا الطريق آخر مرة، حين أمسكنا بهذا الجوبلين الصغير المزعج الكريه. نعم، لقد فهمت. اللعنة! لقد انزلق من إصبعنا بعد كل تلك السنوات الطويلة! لقد اختفى يا (جولام)."

وفجأة، توقف (جولام) عن الركض، وجلس على الأرض يبكي وينتحب. جاء صوت بكائه كصفير متقطع كريه إلى أقصى حد. توقف (بيلبو) أيضًا وألصق جسده بجدار النفق. وبعد فترة قصيرة، انقطع صوت بكاء (جولام)، وبدأ يتحدث كأنه في جدال مع نفسه، فقال: "لا فائدة

من العودة إلى هناك للبحث عنه. لا، فنحن لا نذكر جميع الأماكن التي قصدناها، ولن يفيدنا التذكر في شيء. هذا الـ(باجنز) يحتفظ به في جيبه. نعم، نعتقد أن هذا المتطفل الكريه قد وجده."

-"نعتقد يا عزيزي، نعتقد، إذ لا يمكننا الجزم بذلك، ولن نفعل حتى نجد المخلوق الكريه ونعتصره. لكنه لا يعرف قدرات الهدية، أليس كذلك؟ سيحتفظ بها في جيبه فقط، فهو لا يعرف، ولا نظنه سيبتعد كثيرًا. إنه تائه، هذا الكائن المتطفل الكريه، ولا يعرف طريق الخروج. لقد قال ذلك بنفسه."

-"نعم، لقد قال ذلك بنفسه، لكنه مخلوق مخادع، ولا يقول ما يدور بذهنه. لم يقل بم كان يحتفظ في جيبه. إنه يعرف. إنه يعرف طريقًا للدخول، وحتمًا يعرف طريقًا للخروج. نعم، هذا أكيد. لقد توجه للباب الخلفي، للباب الخلفي، هذا أكيد."

-"إذن سيمسك به الجوبلين. لن يمكنه الخروج من هذا الطريق يا عزيزي."

-"(جولام)، نعم، الجوبلين! وإن كانت لديه الهدية، هديتنا العزيزة، فالجوبلين سيحصلون عليها يا (جولام)! سيعثرون عليه ويكتشفون قدراته، ولن نشعر بالأمان مرة أخرى مطلقًا يا (جولام)! سيضعه أحد الجوبلين حول إصبعه، ولن يراه أحد. سيكون هناك بينهم، لكنه سيكون غير مرئي، ولن تستطيع حتى أعيننا الماهرة ملاحظة وجوده، وسيأتي متسللاً ومتخفيًا ليمسك بنا يا (جولام)! (جولام)!"

-"كفانا إذن كلامًا يا عزيزي، ولنسرع. إن ذهب هذا الـ(باجنز) من هذا الطريق، فعلينا أن نسرع أيضًا إلى هناك لنرى ما سيحدث. لنذهب! هو لم يبتعد كثيرًا، لنسرع!"

وبوثبة سريعة نهض (جولام) من على الأرض، وبدأ يخطو خطوات متثاقلة لكن سريعة. أسرع (بيلبو) من خلفه بحذر، وقد أصبح الآن همه الأول ألا يتعثر بنتوء آخر بالأرض أو أن يسقط عليها محدثًا ضجة. كانت تدور برأسه دوامة من الأمل والدهشة، وقد بدأ يدرك بأن الخاتم الذي معه إنما هو خاتم سحري يجعل من يضعه غير مرئي! وبالطبع كان (بيلبو) قد سمع بمثل هذه الأمور في الروايات القديمة قدم الزمن، لكن كان من الصعب تصديق أنه حقًا قد وجد خاتمًا من تلك الخواتم بنفسه بالصدفة البحتة.

لكن لم لا يصدق وقد مر (جولام) ذو العينين البراقتين على بعد ياردة واحدة منه من دون أن يلحظه؟

وهكذا انطلقا: (جولام) في المقدمة يهس ويلعن، و(بيلبو) من ورائه يركض بهدوء الهوبيت المعتاد. وسرعان ما وصلا لأماكن -كما لاحظ (بيلبو) أثناء ما كان يركض وحده بهذا النفق- تتفرع منها ممرات جانبية هنا وهناك، وبدأ (جولام) يعدها بهذه الطريقة: "واحد إلى

اليسار، ها هو، وواحد إلى اليمين، نعم، اثنان إلى اليمين، نعم، نعم، واثنان إلى اليسار، ها هما..."

وكلما زاد عدد الممرات، كلما أبطأ (جولام) سرعته وبدأ يرتعد وينتحب، فقد ابتعد عن مياه البحيرة كثيرًا، و بدأ يشعر بالخوف، فربما يكون الجوبلين على مقربة، وهو قد فقد خاتمه. وفي النهاية، توقف (جولام) عن الركض عند ممر جانبي منخفض إلى يسارهما، وهمس: "سبعة ممرات إلى اليسار، نعم، وستة إلى اليمين، نعم! ها هو، ها هو الطريق إلى الباب الخلفي، نعم، ها هو الممر!"

ألقى (جولام) بنظرة داخل الممر، ثم انكمش بعيدًا عنه وقال: "لكننا لا نجرؤ على المضي في هذا الممر يا عزيزي. لا، لا نجرؤ. الجوبلين أسفل هذا الممر. الكثير والكثير من الجوبلين. نستطيع أن نشم رائحتهم!"

-"ماذا سنفعل الآن؟ عليهم اللعنة! علينا أن ننتظر هنا يا عزيزي، لننتظر قليلاً ونرى ما سيحدث."

هكذا وصلا إلى نهاية مسدودة. صحيح أن (جولام) قاد (بيلبو) إلى الممر الذي يوصل إلى الخارج، لكن (بيلبو) لا يمكنه العبور من خلاله، فـ(جولام) كان يجلس محدبًا ظهره عند فتحة الممر بالضبط وعيناه تبرقان في رأسه الذي أخذ يهزه يمينًا ويسارًا بين ركبتيه.

زحف (بيلبو) بعيدًا عن جدار النفق في سكون تام كأنه فأر يتحرك، لكن جسد (جولام) تيبس على الفور وبدأ يتنشق الهواء من حوله وتغير الضوء في عينيه إلى الأخضر، كما أصدر صوت هسيس بسيط لكن مرعب. لم يكن بإمكانه رؤية الهوبيت، لكنه ظل متيقظًا، فالظلام قد زاد من حدة حاستين أخريين لديه: السمع والشم. ويبدو أن (جولام) قد جثم بيديه المستويتين على الأرض ورأسه منتصب وأنفه شبه ملتصق بالصخور من حوله. ورغم أنه ظهر على ضوء عينيه كظل أسود، إلا أن (بيلبو) قد رأى، أو ربما أحس أن (جولام) مشدود كوتر القوس المستعد للانطلاق.

توقف (بيلبو) عن التنفس تقريبًا، وتيبس جسده هو الآخر. كان يائسًا، وأراد الخروج من هنا، من هذا الظلام الرهيب قبل أن تخور قواه. شعر (بيلبو) بأن عليه أن يقاتل، عليه أن يطعن هذا الكائن الشرير، أن يطفئ ضوء عينيه، أن يقتله. لقد أراد هذا المخلوق أن يقتله أولاً. لكن لا، لن يكون قتالاً عادلاً، فالهوبيت الآن غير مرئي، و(جولام) لا يحمل سيفًا. هذا بالإضافة إلى أن (جولام) لم يهدد (بيلبو) فعليًا بالقتل، أو حتى حاول ذلك. لكنه كان يائسًا وحيدًا ويشعر

بالضياع.

الاستنتاجات الفاجئة ومشاعر التعاطف والشفقة المختلطة بمشاعر الرعب والفزع؛ كل هذا اعتصر قلب (بيلبو)... لمحة من الأيام المظلمة التي لا نهاية لها والتي تمر من دون أمل في تغير الحال إلى الأفضل... صخور صلبة... سمكة باردة... تسلل وهمس في الظلام...

كل تلك الأفكار مرت برأسه في لحظات معدودة. ارتعد (بيلبو)، ثم في خلال لحظة واحدة، وكأنما تزود بطاقة وعزيمة جديدتين، كان الهوبيت قد وثب فجأة من مكانه.

لم تكن وثبة رائعة بمفهومنا نحن كبني البشر، لكنها كانت مناسبة لهذا الظلام، فقد قفز (بيلبو) من فوق رأس (جولام) مباشرة بعد أن خطا سبع خطوات للأمام على الأرض وبمقدار ثلاثة في الهواء. وأدرك أنه نجا من أن يصدم رأسه بسقف هذا الممر المنخفض بأعجوبة. ألقى (جولام) بنفسه إلى الخلف، وحاول الإمساك بالهوبيت الذي طار من فوقه، لكنه حاول متأخرًا، فحين أطبق بيديه، لم يمسك سوى بالهواء. أما (بيلبو)، فقد نزل على الأرض على قدميه القويتين، وأسرع بالركض في النفق الجديد.

لم يستدر (بيلبو) ليرى ما يفعله (جولام)، لكنه سمع صوت همسه الحاد المزعج على مقربة شديدة منه يلعنه، ثم توقف الصوت. وفجأة جاء صوت صرخة مخيفة مليئة بالكراهية واليأس. لقد شعر (جولام) بالهزيمة، لم يكن يجرؤ على التقدم في النفق الجديد. لقد خسر، خسر فريسته، بل خسر أيضًا الشيء الوحيد في حياته الذي يحبه، هديته العزيزة. صوت صرخة (جولام) ألقى بالرعب في قلب (بيلبو)، لكنه واصل التقدم في طريقه الجديد، والآن بدأ صوت (جولام) يخف ويضعف كأنه صدى صوت من خلف (بيلبو) الذي سمع (جولام) يهدد ويتوعد له صارخًا: "إنك لص! لص! لص! هذا الـ(باجنز)، نحن نكرهه! نكرهه، نكرهه إلى الأبد!"

وبعد ذلك ساد صمت رهيب، لكن ذلك أيضًا أقلق (بيلبو)، وقال في نفسه: "إن كان الجوبلين بهذا القرب لدرجة أن (جولام) شم رائحتهم، فمن المفترض أنهم قد سمعوا صرخاته ولعناته. عليَّ أن أحترس الآن، أو سينتهي أمري نهاية مؤسفة."

كان الممر منخفضًا وغير ممهد، لكن لم يكن المضي فيه صعبًا على الهوبيت، باستثناء حين كان يتعثر في تلك الصخور البارزة الكريهة بالأرض، فتصطدم أصابع قدميه المسكينة بها مرة تلو الأخرى رغم حرصه الشديد. وأثناء تقدمه قال (بيلبو) في نفسه: "هذا الممر منخفض قليلا ليسير فيه الجوبلين، على الأقل ينطبق هذا على كبيري الحجم منهم."

هذا ما اعتقده (بيلبو)، لكن ما لم يكن يعرفه هو أن حتى الكبير منهم، جوبلين الجبال، يمكنه اجتياز هذه الممرات بسرعة رهيبة بعد أن يحني ظهره ويستند إلى يديه على الأرض.

سرعان ما بدأت الممرات التي كانت تنحدر إلى أسفل في الاتجاه إلى أعلى، ثم بعد قليل ارتفع الطريق بشدة مما أبطأ من سرعة (بيلبو)، لكن أخيرًا اعتدل الطريق من جديد، ثم انحنى قليلا، ثم انحدر مرة أخرى. وهناك، عند قاع منحدر قصير، رأى بعد أن عبر منحنى آخر بصيصًا من النور. لم يكن ضوءًا أحمر كهذا الذي يصدر عن النيران أو المشاعل، لكنه كان نورًا خافتًا كالذي تراه من خلف الأبواب المغلقة، فبدأ (بيلبو) في الركض مرة أخرى. ركض (بيلبو) بأسرع ما أمكنه، وعبر المنحنى الأخير. وفجأة، وجد نفسه في الهواء الطلق حيث بدا له ضوء النهار –بعد أن قضى كل ذلك الوقت في الظلام– براقًا يغشي البصر، رغم أنه كان فقط ضوء شمس يتسرب من مدخل النفق، حيث كان في آخره باب حجري ضخم تُرك مفتوحًا.

طرفت عينا (بيلبو)، وحين فتحهما من جديد، رأى الجوبلين!

كان الجوبلين يحملون دروعهم وقد أخرجوا سيوفهم من أغمدتها، وجلسوا على عتبة الباب من الداخل يراقبونه بأعين مفتوحة عن آخرها، ويراقبون أيضًا الممر الذي يؤدي إليه. كان الجوبلين يقظين متأهبين ومستعدين لأي شيء.

رأى الجوبلين (بيلبو) قبل حتى أن يراهم. نعم، لقد رأوه، ولم يعرف إن كان مجرد حادث أم أنها كانت آخر حيلة يقوم بها الخاتم قبل أن يتقبل سيدًا جديدًا. المهم أن الخاتم لم يكن في إصبع (بيلبو). ووسط صيحات البهجة، هم الجوبلين بالهجوم على (بيلبو). وفجأة، أحس (بيلبو) بوخز، واختلطت بداخله مشاعر الخوف بالخسارة، كأنما هي ترديد لصوت صرخات (جولام) البائسة. ووسط كل ذلك، نسي (بيلبو) أن يشهر سيفه، بل أقحم يديه في جيوبه حيث وجد الخاتم في جيبه الأيسر، وانزلق الخاتم على إصبعه مرة أخرى. توقف الجوبلين على نحو مفاجئ عندما لم يجدوا له أثرًا. لقد تلاشى الهوبيت. صاح الجوبلين بصوت أعلى بكثير من المرة الأولى، لكن من دون عنصر البهجة في صيحاتهم.

بعضهم صرخ قائلاً: "أين هو؟"

والبعض الآخر قال: "لنتفقد أعلى الممر!"

بعضهم صاح: "من هنا"

وآخرون صاحوا: "من هناك!"

ورفع زعيمهم صوته عاليًا وقال: "انتبهوا للباب."

وسادت فوضى عارمة من أصوات الصفير وتخبط الدروع وصليل السيوف، ثم الجوبلين يسبون ويلعنون ويجرون في مختلف الاتجاهات، ويتعثرون ويقعون على بعضهم البعض وقد جن جنونهم، وعلت الصيحات والاحتجاجات، وسادت اضطرابات وضجة رهيبة في المكان.

شعر (بيلبو) بالرعب مما يحدث، لكنه أدرك سريعًا ما يجري، فتسلل وراء برميل كبير به شراب الحراس من الجوبلين، وبهذا ابتعد عن الطريق وتجنب الاصطدام بهم، وتجنب أيضًا أن يتم سحقه حتى الموت بين أقدامهم، أو أن يتحسسه أحدهم فيمسك به.

ظل (بيلبو) يكرر لنفسه: "عليَّ أن أصل إلى الباب، عليَّ أن أصل إلى الباب!"

لكن مر وقت طويل قبل أن يجازف (بيلبو) ويحاول الوصول إلى الباب. ثم أصبح الأمر شبيه بلعبة "أستغماية" رهيبة، فالجوبلين يملؤون المكان ويجرون في كل اتجاه، والهوبيت المسكين يحاول تفاديهم، فيصطدم بأحدهم ولا يعرف الواحد منهم بماذا اصطدم، ثم يزحف الهوبيت على أربع، وينسل من بين ساقي زعيم الجوبلين في الوقت المناسب تمامًا، ثم ينهض ويركض في النهاية إلى الباب.

كان جزءًا بسيطًا من الباب مازال مفتوحًا، ويبدو أن أحد الجوبلين قد دفعه. بذل (بيلبو) قصارى جهده، لكنه لم يتمكن من تحريكه من مكانه. حاول أن يقحم نفسه في الشق المفتوح، وحاول أكثر وأكثر حتى انحشر! كان شعورًا شنيعًا، فقد انحشرت أزرار سترته بين حافة الباب والباب نفسه. صار بإمكانه أن يرى ما بالخارج: كانت هناك عدة درجات تنزل بك إلى واد ضيق بين الجبال. رأى (بيلبو) في الخارج أشعة الشمس تتسلل من خلف سحابة، لكنه لم يستطع الخروج بعد.

وفجأة صرخ أحد الجوبلين بالداخل قائلاً: "هناك ظل عند الباب! شيء ما بالخارج!"

سقط قلب (بيلبو) من شدة الرعب، وحاول دفع نفسه بكل ما أوتي من قوة، فتمزقت أزرار سترته وتناثرت في جميع الاتجاهات، لكنه خرج أخيرًا.

خرج (بيلبو) بقميص وصدرية ممزقين، وأخذ يقفز درجات السلم كما تفعل الماعز، بينما ظل الجوبلين في ذهولهم يلتقطون أزرار ردائه النحاسية الجميلة عند عتبة الباب.

وبالطبع سرعان ما تبع الجوبلين (بيلبو) وهم يصرخون ويصيحون باستياء محاولين الإمساك به حول الأشجار. لكن الجوبلين لا يحبون ضوء الشمس، فهو يسبب لهم رجفة في أرجلهم ويصيبهم بدوار في رؤوسهم.

لم يتمكن الجوبلين من الإمساك بـ(بيلبو) وهو يضع الخاتم، وظل (بيلبو) ينسل بين ظلال الأشجار ويعدو بسرعة حذرة ويبتعد عن أشعة الشمس قدر المستطاع، وسرعان ما عاد الجوبلين متذمرين لاعنين لحراسة باب المخرج.

لقد نجا (بيلبو).



الفصل السادس

يستجيرون من الرمضاء بالنار

ربما يكون (بيلبو) قد نجا من الجوبلين، لكنه لم يكن يدري في أي مكان هو الآن وقد فقد قلنسوته وردائه وطعامه وجواده الصغير وأزرار ثوبه وأصدقاءه. ظل (بيلبو) يتجول هائمًا على وجهه حتى بدأت الشمس تختفي في الغرب من خلف الجبال التي ألقت بظلالها على الطريق الذي سلكه (بيلبو).

نظر خلفه، ثم نظر أمامه، ولم ير سوى سلاسل جبال ومنحدرات تميل حتى تصل إلى

أراض منخفضة، كما كانت بعض الأراضي المنبسطة والمسطحة تلوح من بين الأشجار بين الحين والآخر.

تعجب (بيلبو) قائلاً: "يا للسماء! يبدو أنني وصلت إلى الجانب الآخر لجبال الضباب، تمامًا عند حافة الأراضي الواقعة خلف الجبال! تُرى إلى أين وصل (جاندلف) والأقزام؟ أرجو من السماء ألا يكونوا مازالوا هناك في الجبل تحت رحمة الجوبلين!"

ظل (بيلبو) في تجواله بالوادي العالي الصغير حتى وصل إلى حافته، ثم نزولاً في المنحدر من ورائه، لكن فكرة مزعجة للغاية ظلت تسيطر على تفكيره طوال الوقت. كان يتساءل ما إن كان عليه –بعد أن أصبح لديه الخاتم السحري– أن يعود إلى تلك الأنفاق الكريهة الرهيبة ليبحث عن أصدقائه. وفور أن قرر أن من واجبه أن يرجع –رغم ما شعر به من بؤس حين قرر ذلك– سمع أصوات.

توقف (بيلبو) وأصغى. لم تكن الأصوات للجوبلين، فزحف نحو مصدرها بحذر. كان الطريق حجريًا ويتجه إلى أسفل، وله جدار من الصخور من ناحية اليسار. أما في الناحية الأخرى، فكانت الأرض منحدرة حتى تصل إلى وهدان أسفل الطريق مغطاة بشجيرات وأشجار منخفضة. وفي أحد تلك الوهدان وبين الشجيرات كان هناك من يتحدث.

اقترب (بيلبو) زاحفًا، وفجأة رأى من بين صخرتين كبيرتين رأسًا عليه قلنسوة حمراء تطل من بينهما. كان ذلك (بالين) يتفحص المكان من حوله. كاد (بيلبو) يصفق بيديه وأن يصرخ من شدة سعادته، لكنه لم يفعل. كان مازال يضع الخاتم حول إصبعه خشية أن يواجه أمرًا غير متوقع أو غير لطيف، ورأى (بيلبو) كيف أن (بالين) قد نظر إليه مباشرة من دون أن يلاحظه، فقال في نفسه بخبث: "سأفاجئهم جميعًا."

زحف الهوبيت إلى الشجيرات عند حافة الوهد. كان (جاندلف) والأقزام يتجادلون، وكانوا يتناقشون حول كل ما مر بهم في الأنفاق، ويتساءلون ماذا يفعلون الآن. كان الأقزام متذمرين، وكان (جاندلف) يخبرهم أنهم لا يمكنهم مطلقًا المضي في رحلتهم تاركين السيد (باجنز) أسيرًا لدى الجوبلين من دون حتى أن يحاولوا معرفة ما إن كان مازال حيًا أم ميتًا، ومن دون محاولة إنقاذه.

قال الساحر: "إنه صديقي رغم كل شيء، وهو رفيق جيد، وأنا أشعر بالمسؤولية تجاهه. أتمنى لو أنكم لم تفقدوه."

تساءل الأقزام لماذا قاموا باصطحاب (بيلبو) في رحلتهم، ثم لم لم يستطع اللحاق بأصدقائه ليخرج من الجبل معهم، ولم لم يختر الساحر من هو أكثر حذقًا من الهوبيت.

قال أحد الأقزام: "إن مشاكله أكثر من نفعه حتى الآن. وإن كنا بصدد الاختيار أن نعود الآن لنبحث عنه في تلك الأنفاق المقيتة، فرأيي أن ذلك كثير عليه."

رد (جاندلف) بغضب قائلاً: "أنا من اصطحبه، وأنا لا أصطحب من هم معدومو الفائدة. والآن، إما أن تساعدوني في البحث عنه، وإما سأذهب أنا وأترككم هنا تخرجون من هذه الورطة وحدكم. إن وجدناه هذه المرة، فإنكم أنتم من ستشكرونني قبل أن ينتهي الأمر كله. لم انطلقت وحدك وتركته يسقط هناك يا (دوري)؟"

أجاب (دوري): "كنت لتفعل الشيء ذاته إن أمسك أحد الجوبلين بقدميك من الخلف في الظلام على نحو مفاجئ ليوقعك، ثم يركلك في ظهرك!"

سأله الساحر: "ولم لم تلتقطه بعد ذلك؟"

أجاب (دوري) في استنكار: "عجبًا! أحقًا تسألني ذلك؟ لقد كان الجوبلين يضربون ويعضون في الظلام، والجميع يسقطون فوق بعضهم البعض ويتخبطون بأحدهم الآخر! كنت أنت على وشك أن تقطع عنقي بسيفك (جلامدرينج)، بينما كان (ثورين) يطعن الجوبلين هنا وهناك وفي كل مكان بسيفه (أوركريست). وفجأة رأينا إحدى الومضات الشديدة التي تصدر عنك، فسمعنا للجوبلين عواءً، ورأيناهم يعودون من حيث أتوا. ثم صحت أنت: اتبعوني جميعًا! وهذا ما توجب على الجميع فعله، وقد ظننا أن الجميع قد تبعوك. وأنت تعرف جيدًا أنه لم يكن هناك متسع من الوقت لنقوم بالعد، ليس قبل أن ارتطمنا بحراس البوابة وعبرنا الباب السفلي ومنه مباشرة إلى هنا. وها نحن جميعنا هنا من دون اللص. يا له من مزعج!"

-"وها هو اللص!" قالها (بيلبو) فجأة وهو يخطو بينهم ويخلع الخاتم من إصبعه. ومن شدة المفاجأة قفزوا جميعًا، ثم صاحوا من البهجة.

أصيب (جاندلف) بالذهول مثلما أصيب به الجميع، ولعله شعر بالسرور أكثر من أي واحد فيهم، ثم نادى (بالين) ولامه باعتباره عين المجموعة على سماحه لأي أحد بالدخول وسطهم مثلما فعل (بيلبو) من دون أن يقوم القزم بإنذارهم. ومنذ ذلك الحين، أصبح (بيلبو) بين الأقزام أشهر من نار على علم. وإن كان الشك قد وقع في قلوبهم من قبل حيال كونه لصًا من الدرجة الأولى –رغم تأكيد (جاندلف) لهذا– فقد ذهب الشك من قلوبهم بلا رجعة. كان (بالين) أكثرهم حيرة وارتباكًا، لكن الجميع أثنوا على (بيلبو)، واعترفوا بأنها كانت حيلة ممتازة منه.

وبالفعل شعر (بيلبو) بالرضا لمدحهم إياه، حتى إنه استطاع كتم ضحكاته بصعوبة بداخله، لكنه لم يخبرهم بأمر الخاتم. وحين سألوه كيف قام بتلك الحيلة، أجاب قائلاً: "آه...

لا شيء. فقط زحفت إلى هنا بهدوء وحذر شديدين."

قال (بالين): "حسن، تلك هي المرة الأولى التي يزحف فيها فأر حتى بهذا الحذر والهدوء أمام عيني من دون أن أكشفه، ولهذا أرفع قلنسوتي تحية لك."

وبالفعل رفع (بالين) قلنسوته لـ(بيلبو)، ثم قال: "(بالين) في خدمتك."

فقال (بيلبو): "وأنا خادمك السيد (باجنز)."

وبعد ذلك أرادوا أن يعرفوا المزيد عن مغامرته بعد أن فقدوه داخل الجبل، فجلس (بيلبو) وحكا لهم كل ما مر به باستثناء أمر الخاتم، حيث قال في نفسه إنه ليس بالوقت المناسب. أبدى الجميع اهتمامًا بشأن مسابقة الألغاز تحديدًا، كما ارتعدوا بشدة لمجرد وصفه لـ(جولام).

تابع (بيلبو) حكايته قائلاً: "ثم لم أستطع أن أفكر في أي سؤال آخر وهذا المخلوق جالس بجانبي، فقلت: ما الذي في جيبي؟

ولم يحرز الإجابة الصحيحة بعد ثلاث محاولات، فقلت: وماذا عن وعدك لي؟ أرشدني إلى طريق الخروج!

لكنه هجم عليّ وحاول قتلي، فركضت ووقعت على الأرض، لكنه لم يرني في الظلام. ثم تبعته، لأنني قد سمعته يحدث نفسه، فقد ظن فعلاً أنني أعرف طريق الخروج، ولذا فكر في أن يقصده هو الآخر. ثم جلس (جولام) عند المدخل، ولم يكن بإمكاني أن أعبره، فوثبت من فوقه وهربت، ثم أسرعت إلى البوابة."

سأله الأقزام: "وماذا عن الحرس من الجوبلين؟ ألم يكن هناك أيهم عند البوابة؟"

رد (بيلبو) قائلاً: "بالطبع! الكثير منهم، لكنني تفاديتهم، ثم انحشرت في الباب الذي كان جزءًا بسيطًا فقط منه مفتوحًا، ولذا فقدت الكثير من أزرار ردائي."

ولاحت نظرة أسى في عينيه حين رمق ملابسه الممزقة، ثم قال: "لكنني اعتصرت نفسي لأخرج من الباب، وها أنا ذا."

نظر الأقزام لـ(بيلبو) بنظرة احترام جديدة حين كان يتحدث عن تفادي الحرس والقفز من فوق (جولام)، وعن انحشاره في الباب، كأن كل ذلك لم يكن يمثل بالنسبة له أية صعوبة أو خطورة.

قال (جاندلف) بوجه بشوش: "ألم أقل لكم إن السيد (باجنز) لديه طاقات أكبر مما تتصورون؟"

وبعد قوله هذا، رمق (جاندلف) (بيلبو) من تحت حاجبيه الكثيفين بنظرة شك جعلت الهوبيت يتساءل ما إن كان (جاندلف) قد خمن الجزء المتبقي من حكاية (بيلبو) والذي لم يَرْوِه على مسامعهم.

وبعد ذلك كان لدى الهوبيت الكثير من الأسئلة التي أراد أن يسألها لـ(جاندلف)، فإن كان (جاندلف) قد حكا للأقزام ما جرى معه بالجبل، فـ(بيلبو) لم يكن معهم ليسمع الحكاية. أراد (بيلبو) أن يعرف كيف ظهر الساحر مرة أخرى داخل الجبل، وإلى أين وصلوا جميعهم الآن.

وفي الواقع، لم يكن الساحر يمانع إطلاقًا في أن يتحدث عن مدى براعته أكثر من مرة، والآن قد بدأ يخبر (بيلبو) بأنه و(إلروند) كانا على علم بوجود الجوبلين الأشرار في هذه المنطقة من الجبال، لكن البوابة الرئيسة لم تكن في الطريق الوعر الذي سلكه الأقزام، بل كانت في طريق آخر مختلف وأسهل على الرحالة اجتيازه، ولذا غالبًا ما كان الجوبلين يمسكون بمن يداهمه الليل قريبًا من بواباتهم. لكن من الواضح أن القوم قد كفوا عن المرور بهذا الطريق، فاضطر الجوبلين في الآونة الأخيرة لأن يشقوا مداخل أخرى أعلى الممر الذي سلكه الأقزام، بما أنه كان مازال يعتبر ممرًا آمنًا قبل مغامرتهم الأخيرة هذه.

قال (جاندلف): "عليّ أن أجد ماردًا خيِّرًا ليسد هذا الممر مرة أخرى، وإلا فلن يتمكن أي شخص من عبور الجبال على الإطلاق."

بمجرد أن سمع (جاندلف) صيحة (بيلبو)، أدرك الساحر ما حدث. وعلى وميض سيفه الذي قتل الجوبلين الذين حاولوا الإمساك به، وثب (جاندلف) بسرعة إلى داخل الشق الذي انفتح بالجدار بينما هو ينغلق من وراء الجوبلين. ثم تبع (جاندلف) الجوبلين والأقزام الأسرى حتى حافة الردهة الكبيرة، وهناك جلس الساحر وحاول أن يُعمِل سحره في الظلام.

-"كان الوضع خطرًا وحساسًا، ولذا تطلب العمل بسرعة ودقة شديدتين."

لكن (جاندلف) بالطبع كان قد أجرى بحوثًا ودراسات خاصة بمجال السحر المتعلق بالنار والضوء، وحتى الهوبيت لم ينس قط الألعاب النارية السحرية التي كان (جاندلف) مسؤولاً عنها في حفلات العجوز (توك) في عشية منتصف الصيف كما ذكرت لكم في أول الحكاية. أما بقية مغامرة (جاندلف) الأخيرة في الجبل فقد سمعنا جميعًا كل ما هو هنالك عنها، باستثناء فقط أن نعرف أن (جاندلف) كان يعرف بأمر الباب الخلفي -الاسم الذي يطلقه الجوبلين على البوابة السفلى للجبل- الذي فقد (بيلبو) عنده أزرار ردائه. في الحقيقة، كان هذا الباب معروفًا لدى كل من هو ملم بهذه المنطقة من الجبل، لكن الأمر تتطلب ساحرًا ليتمكن من إبقاء رأسه منخفضًا في

تلك الأنفاق، وليقود الجميع في الاتجاه السليم.

قال الساحر: "لقد بنى الجوبلين تلك البوابة منذ سنوات طويلة ليستعملوها كمنفذ للهروب إن احتاجوا واحدًا من ناحية، وكمخرج من الجبل على الأراضي الخلفية له، والتي مازالوا يحبون الخروج إليها ليلاً وإحداث الفوضى والضرر من ناحية أخرى. هم دائمًا يحرسونها، وما من أحد نجح في سدها من قبل قط؛ وأتوقع بعد هروبنا منها أنهم سيبذلون مجهودًا مضاعفًا في حراستها."

ضحك الساحر، وضحك الجميع لقوله أيضًا. فرغم خسارتهم الفادحة، لكنهم قاموا بقتل الكثير من الجوبلين، وعلى رأسهم كبيرهم، ثم إنهم تمكنوا جميعًا من الهرب وكتبت لهم النجاة. هكذا يمكننا القول ببعض الاطمئنان إنهم قد كسبوا الكثير حتى تلك اللحظة.

لكن الساحر قصد أن يعيدهم إلى أرض الواقع، فقال: "علينا الانطلاق على الفور، فنحن خائرو القوى الآن. وحين يجن الليل، سيخرج الجوبلين بالمئات من خلفنا. إنني أرى الظلال قد بدأت تمتد، مما يدل على اقتراب غروب الشمس؛ وأنتم تعرفون أن الجوبلين يمكنهم شم آثار أقدامنا حتى بعد ساعات وساعات من مرورنا. علينا إذن أن نتقدم بأميال عدة بحلول الغسق. لحسن حظنا أن السماء ستكون مقمرة الليلة إن بقيت على صفائها هذا، ولا يعني هذا أن ضوء القمر يضايق الجوبلين كثيرًا، لكنه سيمدنا ببعض الضوء لنتقدم على هديه."

سأل الهوبيت الساحر المزيد من الأسئلة، وكانت إحدى إجاباته: "نعم، صحيح! فالمرء يفقد إحساسه بالوقت داخل أنفاق الجوبلين. اليوم هو الخميس، وقد أمسكوا بنا ليلة الاثنين أو صباح يوم الثلاثاء. لقد قطعنا أميالاً وأميالاً، وعبرنا قلب الجبال، ووصلنا إلى الجانب الآخر. لقد كان طريقًا مختصرًا بالفعل. لكننا لسنا في المكان الذي كان طريقنا الأول سيأخذنا إليه، فنحن أقرب الآن إلى ناحية الشمال، وهناك بلدة غريبة في طريقنا، ومازلنا على ارتفاع شاهق. هيا، لننطلق!"

تأوه (بيلبو) حين تذكر فجأة أن آخر وجبة قد تناولها كانت منذ ثلاث ليال، وقال: "أشعر بجوع شديد."

ولك أن تتخيل ما شعر به الهوبيت! لقد شعر بفراغ تام وبقلقلة في معدته، وبرعشة قوية في ساقيه، خصوصًا أن وقت الإثارة قد انتهى.

قال (جاندلف) موجهًا حديثه لـ(بيلبو): "ليس بيدي شيء أفعله، إلا إذا كنت تروم العودة لتسأل الجوبلين بلطف أن يسمحوا لك باسترداد حصانك وأمتعتك."

رد (بيلبو) قائلاً: "لا، شكرًا لك!"

-"حسن، علينا إذن أن نشد أحزمتنا وأن نبدأ في السير، وإلا سنكون نحن وجبة عشاء الجوبلين، وبالطبع سيكون هذا أسوأ بكثير من عدم تناولنا نحن للعشاء!"

وأثناء سيرهم، كان (بيلبو) يلتفت حوله عسى أن يجد شيئًا يأكله، لكن الأزهار لم تكن قد طرحت التوت البري بعد، وبالطبع لم يكن هناك جوز أو فستق، بل إنه لم يجد حتى زهور الزعرور البري. قضم (بيلبو) بعض أوراق نبات الحُمّاض، وشرب من جدول ماء جبلي صغير يعبر طريقهم، ثم تناول ثلاث حبات فراولة برية وجدها على جانب الجدول، لكنه لم يشعر بأي تحسن.

استمروا في طريقهم حتى اختفى الطريق الصخري الصلب. اختفت كذلك الشجيرات والأعشاب الطويلة من بين الصخور الكبيرة ورقع الأعشاب بالتربة، كما اختفت نباتات الزعتر والمريمية والسمسق العطري، وحتى الأزهار الصفراء التي تنمو بين الصخور. كل ذلك اختفى، ووجدوا أنفسهم أعلى منحدر واسع حاد مكسو بالأحجار المتساقطة المتبقية من انهيار أرضي. وحين حاولوا أن يهبطوا هذا المنحدر، تدحرجت القاذورات والحصى الصغير من بين أقدامهم؛ ثم بدأت أجزاء أكبر من الأحجار المتصدعة تنزلق لترتطم ببعضها البعض محدثة ضجة، وتسببت في أن بدأت أجزاء أخرى من تحتها في الانزلاق والتدحرج، ثم بدأت أكوام من الصخور تضطرب وتتساقط وتصطدم بالأرض محدثة ضجة وسحابة من الغبار. وخلال وقت قصير، بدا المنحدر بأكمله من فوقهم ومن تحتهم كأنه يهتز بفعل زلزال، وبدءوا جميعًا في الانزلاق إلى أسفله في زمرة واحدة وسط ربكة من الانسياب والانسلال وأصوات تصدع الألواح والأحجار المزعجة.

لم ينقذ حياتهم من هذا الانهيار سوى الأشجار أسفل المنحدر. انزلقوا جميعًا إلى حافة أيكة من أشجار الصنوبر المتسلقة أسفل المنحدر الجبلي، والممتدة من غابات أكثر ظلمة وكثافة بالوادي من تحتها. تمسك البعض بجذوع الأشجار، ثم تعلقوا بفروعها السفلى، والبعض الآخر -كصديقنا الهوبيت- احتمى وراء الأشجار من انقضاض الصخور. وسرعان ما انقضى الخطر وتوقف الانهيار الصخري، وجاء صوت تحطم آخر الصخور خافتًا بعد أن سقطت أكبر الصخور متدحرجة حتى ارتطمت بالنباتات الكثيفة وجذور أشجار الصنوبر على الأرض.

قال (جاندلف): "حسن! لقد أسرع هذا الانزلاق من تقدمنا، وحتى الجوبلين الذين يتعقبوننا ستواجههم متاعب ليهبطوا إلى هنا بهدوء."

شعر الأقزام و(بيلبو) بالتعاسة بينما هم يفركون أرجلهم وأقدامهم المصابة بالكدمات

والرضوض، ثم تذمر (بيلبو) قائلاً: "بالتأكيد، لكن لن يكون من الصعب عليهم أن يقذفونا بالأحجار على رؤوسنا."

قال (جاندلف): "هراء! سنغير اتجاهنا بعيدًا عن طريق المنحدر هذا. علينا أن نسرع. انظروا كيف بهتت ضوء الشمس!"

كانت الشمس قد غابت بالفعل منذ فترة وراء الجبال، وبهتت الظلال من حولهم، رغم أنهم كانوا مازالوا يرون من بعيد -من خلال الأشجار، ومن فوق قمم بعضها الداكنة اللون، والتي تنمو أسفل ذلك الطريق- أضواء المساء تضيء الأراضي المنبسطة من وراء الأشجار. ساروا جميعًا بتعب شديد لكن بأسرع ما أمكنهم أسفل منحدر بسيط لغابة صنوبر في طريق مائل يصل مباشرة إلى الناحية الجنوبية. في أحيان كانوا يخوضون أدغال كثيفة من السرخس ذات أوراق طويلة يصل طولها إلى ما بعد رأس الهوبيت، وفي أحيان أخرى كانوا يخطون بهدوء شديد وتمهل فوق أرض مفروشة بأوراق أشجار الصنوبر المدببة الأطراف. وفي أثناء ذلك، أخذت ظلمة الغابة تشتد، وسكون الغابة يتزايد، وما من رياح جاءت في تلك الأمسية لتجلب معها نسمات هواء بحرية تداعب فروع الأشجار.

صار الظلام حالكًا لدرجة أن (بيلبو) لم يستطع رؤية أي شيء سوى لحية (ثورين) تهتز بجانبه، كما ساد هدوء شديد لدرجة أن (بيلبو) كان يسمع صوت أنفاس الأقزام كأنها صوت ضجيج عال، فسأل في قنوط: "أحقًا علينا اجتياز المزيد من الأميال؟ أصابع قدمي كلها مصابة بكدمات ورضوض، وساقاي تؤلماني، وأشعر باهتزازات في معدتي كأنها جوال فارغ."

قال (جاندلف): "نعم، فقط القليل من الأميال."

وبعدما بدا للهوبيت كالكثير جدًا من الأميال، وصلوا فجأة إلى مكان مفتوح خال تمامًا من الأشجار. سطع القمر في السماء، وأضاء تلك الأرض الخالية، وبطريقة ما شعروا جميعًا بأنه ليس بمكان لطيف، رغم أنه لم يكن هناك ما يثبت ذلك.

وفجأة، سمعوا عواءً بعيدًا أسفل التل، عواءً مرعبًا طويلاً، وتبعه عواء آخر ناحية اليمين على مقربة شديدة من مكانهم، ثم آخر لا يبعد كثيرًا عنهم من ناحية اليسار. أدركوا على الفور أنه عواء الذئاب في ضوء القمر.

لقد كان تجمعًا للذئاب!

لا تعيش الذئاب قرب حفرة السيد (باجنز) في بلدته، لكنه كان يعرف صوت عوائها، فكثيرًا ما وصف له أحدهم الصوت أثناء قصه لحكاية من الحكايات؛ كما أن واحدًا من أولاد

أخواله -من آل (توك) بالطبع- الأكبر سنًا كان رحالة عظيمًا، وكان يقلد هذا الصوت أحيانًا ليخيف (بيلبو). لكن سماع صوت عواء الذئاب في الغابة تحت ضوء القمر كان أكثر مما يتحمله (بيلبو). حتى الخواتم السحرية لا تفيد كثيرًا في مواجهة الذئاب، وخصوصًا في مواجهة تلك المجموعات الشريرة المتوحشة، والتي تعيش تحت ظلال الجبال التي يقطنها الجوبلين فوق حافة البراري وعلى حدود أراض مجهولة. الذئاب من هذا النوع لديها حاسة شم أقوى من تلك التي لدى الجوبلين، وليست بحاجة لأن تراك لتقع فريسة لها!

صاح (بيليو): "ماذا سنفعل، ماذا سنفعل؟! نهرب من الجوبلين لتوقع بنا الذئاب!"

ومن هنا جاء هذا المثل، رغم أننا نستخدم الآن بصيغة أخرى، ونقول: يستجير من الرمضاء بالنار*، حين يقابلنا موقف مزعج شبيه بذلك.

صاح (جاندلف): "تسلقوا الأشجار بسرعة!"

ركض الجميع تجاه الأشجار النامية على طرف تلك الأرض الفضاء يبحثون عن الأشجار ذات الأفرع القريبة من الأرض أو الأفرع النحيلة ليتسلقوها إلى أعلى. عثروا على مبتغاهم بسرعة مناسبة، وبدءوا يتسلقون أعلى الأشجار بقدر احتمال الأفرع لأوزانهم.

كنت لتنفجر ضاحكًا -إن كنت بعيدًا بمسافة آمنة- إن رأيت الأقزام جالسين على أفرع الأشجار ولحاهم تتدلى إلى أسفل كأنهم رجال طاعنين في السن أصابهم الخبال ويتظاهرون بالعودة إلى أيام الصبا. تسلق (فيلي) و(كيلي) شجرة صنوبر عالية كأنها شجرة عيد ميلاد هائلة الحجم، أما (دوري) و(نوري) و(أوري) و(أوين) و(جلوين) فكانوا أكثر راحة فوق شجرة صنوبر ضخمة ذات أغصان متوسطة الحجم ومتفرعة بشكل منتظم. (بيفر) و(بوفر) و(بومبر)

و(ثورين) تسلقوا معًا شجرة صنوبر أخرى، و(دوالين) و(بالين) أسرعا إلى شجرة تنوب عالية نحيلة الجذع ذات أفرع قليلة، ثم حاولا العثور على فرع من الأفرع العليا ذات الخضرة ليجلسا عليه. أما (جاندلف) الذي كان أطول بكثير من الآخرين، فقد عثر لنفسه على شجرة لم يكن أي من الأقزام ليتمكن من تسلقها. كانت شجرة الصنوبر تلك ضخمة وقد نمت على طرف الأرض الفضاء، وتوارى (جاندلف) بين أغصانها، لكن عينيه كانتا تعكسان ضوء القمر بينما هو يختلس النظر.

وأين كان (بيلبو)؟

* المثل الأصلي يقول: Out of the Frying-pan into the Fire أي (يخرج من المقلاة ليسقط في النار). والمثل بشكل عام يدل على الخروج من موقف صعب للوقوع في موقف أصعب، أو كما نقول في المثل الشعبي: يخرج من نقرة ليقع في دحديرة.

لم يتمكن (بيلبو) من تسلق أية شجرة، وظل يعدو من جذع شجرة إلى آخر كأرنب يريد الوصول إلى حفرته التي تاه عنها قبل أن يمسك به كلب صيد يطارده.

قال (نوري) لـ(دوري) الذي كان يجلس على فرع أسفله: "هل تسلقت الشجرة تاركًا خلفك اللص مرة أخرى؟"

أجابه (دوري): "ليس بإمكاني حمل اللصوص على ظهري طوال الوقت أسفل الأنفاق ثم أعلى الأشجار! هل تظنني حمالًا؟"

وسرعان ما دنت أصوات العواء المخيف أكثر فأكثر من حولهم، وقال (ثورين) في توتر: "ستلتهمه الذئاب إن لم نفعل شيئًا."

كان (دوري) على فرع قريب من الأرض في الشجرة الأسهل تسلقًا، فقال (ثورين) موجهًا حديثه إليه: "أسرع بمد يد العون للسيد (باجنز)!"

كان (دوري) رفيقًا شهمًا حقًّا رغم تذمره الدائم، لكن (بيلبو) المسكين لم يتمكن من الوصول إلى يده حتى بعد أن نزل القزم إلى أقرب الفروع إلى الأرض، ومد ذراعه للهوبيت قدر ما استطاع. هكذا اضطر (دوري) لأن ينزل عن الشجرة، وسمح لـ(بيلبو) بأن يتسلق ظهره ليقف عليه.

وفي تلك اللحظة تمامًا اندفعت الذئاب تعوي في الأرض الفضاء، وفوجئ الأقزام بمئات العيون تحدق فيهم. لكن (دوري) لم يتخل عن (بيلبو)، بل انتظر حتى نجح الهوبيت في تسلق الفروع بصعوبة بالغة، ثم قفز القزم إلى الفروع هو أيضًا في الوقت المناسب تمامًا!

نهش أحد الذئاب عباءة (دوري) أثناء تعلقه بالشجرة حتى كاد ينال منه. وخلال دقيقة واحدة، تجمعت مجموعة كبيرة من الذئاب تعوي حول الشجرة من كل جانب، وتقفز حول جذعها بأعين براقة وألسنة متدلية وأشداق يسيل منها الزبد.

لكن حتى الوارج* المتوحشون –وهو الاسم الذي كان يُطلق على الذئاب الشريرة القاطنة عند حافة البراري– لا يمكنهم تسلق الأشجار، مما جعل الأقزام والساحر والهوبيت آمنين من شرورهم لبعض الوقت. ولحسن حظهم أن الجو ليلتها كان دافئًا وليس عاصفًا؛ فصحيح أن الأشجار ليست بمكان مريح للبقاء فيه طويلاً على وجه العموم، لكن من المؤكد أنها يمكنها أن تصبح مكانًا أكثر شقاءً إن اضطررت للبقاء فيه لمدة طويلة في جو بارد عاصف، أو حين تتربص بك

* الكلمة مشتقة على الأرجح من الكلمة النرويجية القديمة Vargr والتي تعني (ذئب) أو (خارج عن القانون).

الذئاب وتنتظرك متحفزة أسفلها.

من الواضح أن تلك الأرض الفضاء كانت ملتقى للذئاب، فقد أخذ المزيد منها في الانضمام إلى المجموعة. تركت الذئاب حرسًا منها أسفل الشجرة التي كان (دوري) و(بيلبو) عليها، ثم تفرقت بقيتها، وأخذت تتشمم الآثار في الأرض حتى انتهت من تحديد جميع الأشجار التي تسلقها الأقزام، وقامت بوضع حراسة عليها كذلك، بينما توجهت بقية الذئاب –المئات والمئات منها كما بدا– لتجلس على الأرض في دائرة واسعة؛ وفي منتصف الدائرة جلس ذئب رمادي ضخم. تحدث الذئب إلى الآخرين بلغة الوارج الرهيبة التي كان (جاندلف) يفهمها. ورغم أن (بيلبو) لم يكن يفهم لغتهم هذه، فإنها بدت له مروعة، كأن الحديث كله كان يدور حول أمور وحشية شريرة... وكانت تلك هي الحقيقة. وبين الحين والآخر، كانت جميع ذئاب الوارج الملتفة حول زعيمها تجيبه معًا، وكادت الضجة الشديدة التي أحدثتها الذئاب توقع بـ(بيلبو) من فوق شجرة الصنوبر.

سأطلعكم على ما سمعه (جاندلف)، رغم أن (بيلبو) لم يفهم أي شيء منه.

كثيرًا ما ساعدت ذئاب الوارج والجوبلين بعضها البعض في إتمام بعض الأعمال الشريرة، فقليلاً ما يتجول الجوبلين بعيدًا عن جبالهم، إلا حين يُطردون منها ويرغبون في البحث عن غيرها بغرض السكنى، أو حين يشدون الرحال للحرب، الأمر الذي يسعدني أن أقول إنه لم يحدث منذ فترة طويلة. لكن في تلك الأيام، كان الجوبلين يخرجون في غارات مخصصة للبحث عن طعام أو إحضار عبيد يعملون لديهم، ووقتها غالبًا ما كان الجوبلين يطلبون من الوارج المساعدة، ثم يقتسمون الغنائم بعدها. وأحيانًا كان الجوبلين يمتطون الذئاب كما يمتطي بنو البشر الجياد. ويبدو أن الجوبلين والذئاب قد قاموا بالتخطيط لغارة كبيرة يشنونها في تلك الليلة تحديدًا، فحضر الوارج لمقابلة الجوبلين الذين تأخروا في الحضور. ومن الواضح أن السبب وراء تأخرهم هو مقتل كبيرهم، والارتباك الذي أحدثه الأقزام و(بيلبو) والساحر، ومن المحتمل أن تكون محاولة الإمساك بهم مازالت تشغل بال الجوبلين.

رغم المخاطر الشديدة المنتشرة في تلك الأراضي البعيدة، فإن بعض الرجال الذين يتحلون بالجرأة قد بدءوا مؤخرًا في الزحف من جديد عليها من جهة الجنوب؛ فقاموا بقطع الأشجار وبناء مساكن يعيشون فيها وسط أكثر غابات الوادي بهجة، وكذلك على ضفتي النهر. كانوا وفيري العدد، وكذلك كانوا شجعانًا ومسلحين، وحتى ذئاب الوارج لا تجرؤ على مهاجمتهم نظرًا لتجمعهم بأعداد كبيرة في وضح النهار. لكن الذئاب مؤخرًا خططت –بمساعدة من الجوبلين– لأن تقوم بالهجوم على بعض القرى الأقرب إلى الجبال مع حلول المساء. إن كانت

الأمور قد جرت كما تم التخطيط لها، لما بقي أي من أهل تلك القرى على قيد الحياة في الصباح التالي، باستثناء القليل ممن يود الجوبلين الاحتفاظ بهم، فيبقونهم بعيدًا عن براثن الذئاب ليحملوهم معهم كسجناء في كهوفهم.

كان حديث الذئاب هذا مروعًا، ليس فقط لأن الحطابين الشجعان وزوجاتهم وأبناءهم كانوا في خطر، بل أيضًا بسبب الخطر الذي بات يتهدد (جاندلف) وأصدقاءه. فذئاب الوارج شعرت بالحيرة والغضب حين وجدتهم هناك في نفس مكان لقائهم بالجوبلين. ظنت الذئاب أن (جاندلف) وأصدقاءه ما هم إلا أصدقاء للحطابين، وقد جاؤوا للتجسس عليها ونقل أخبارها وخططها إلى قاطني الوادي، ومن ثم تضطر الذئاب والجوبلين لخوض معركة حامية بدلاً من أن تأسر السجناء وتلتهم قومًا استيقظوا لتوهم من النوم. ولهذا السبب، صار من المؤكد أن الذئاب لا تنوي الابتعاد عن هنا أو السماح لمن هم فوق الأشجار بالفرار، ليس قبل صباح اليوم التالي على أية حال. بالإضافة إلى أنها قد ذكرت سابقًا في حديثها أن الجوبلين قد تركوا الجبال وفي طريقهم إلى هنا، والجوبلين يستطيعون تسلق الأشجار، بل وقطعها.

والآن يمكنكم تفهم سبب خوف (جاندلف) الشديد –رغم كونه ساحرًا قديرًا– بعد سماعه لأصوات تذمر الذئاب وأصوات عوائها، فقد شعر أن موقفه وموقف أصدقائه سيئ للغاية، فهم حتى لم يبدءوا في وضع أي خطة للفرار. ورغم أنه لا يمكنه فعل الكثير بينما هو عالق في شجرة عالية يلتف حولها الذئاب من كل جانب، فإن الساحر لم يكن ليسمح للذئاب بأن تنتصر عليهم بتلك البساطة. أخذ الساحر يلتقط الكبير من أكواز الصنوبر من فروع الشجرة من حوله، ثم أشعل إحداها بنار وهاجة زرقاء اللون وألقاها، فسقطت بسرعة وسط اجتماع الذئاب في الدائرة. أصاب كوز الصنوبر المشتعل ظهر واحد من الذئاب، وعلى الفور اشتعل فرائه الأشعث، فأخذ يعدو يمينًا ويسارًا ويعوي عواءً رهيبًا مفعمًا بالألم. ألقى الساحر بكوز صنوبر آخر، ثم بآخر، واحد له لهيب أزرق، وآخر مشتعل بنار حمراء، ثم واحد آخر أخضر اللون. سقطت الأكواز المشتعلة كأنها تنفجر على الأرض في منتصف دائرة تجمع الذئاب محدثة دخانًا وومضات ملونة. أصابت إحدى الأكواز الضخمة أنف زعيم الذئاب، فوثب في الهواء مسافة عشر أقدام، ثم ظل يركض بشكل دائري ويعض وينهش في بقية الذئاب من شدة غضبه وفزعه.

هلل الأقزام و(بيلبو) وصاحوا في سعادة، فقد كانت ثورة الذئاب تلك مشهدًا فظيعًا، وأصوات الشغب والاهتياج التي أحدثتها دوت في شتى أنحاء الغابة.

معروف عن الذئاب أنها تخشى النيران، لكن تلك النيران كانت رهيبة ولا تشبه النيران المعتادة؛ فإن سقط لهيبها على فراء أحد الذئاب، كان يعلق به ويحترق فيه. وإن لم يسرع الذئب

بالتدحرج على الأرض، كانت النيران سرعان ما تنشب في جسده لتحرقه كله. وخلال وقت قصير كنت ترى الأرض الفضاء تعج بذئاب تتدحرج على ظهورها لتطفئ اللهب العالق بفرائها. بينما كنت ترى الذئاب الأخرى التي اشتعل فراؤها كله بالفعل تعوي وتركض في كل اتجاه. بالطبع تسبب هذا في اشتعال النيران في فراء المزيد من الذئاب الأخرى. فقام بعضها بمطاردة الذئاب المشتعلة، مما اضطرها إلى الهرب إلى أسفل المنحدرات وهي تعوي وتنبح في ألم أثناء بحثها عن مياه لتطفئ لهيب النيران.

قال سيد النسور*: "ما هذه الضجة التي في الغابة الليلة؟"

كان يجلس بريشه الأسود في ضوء القمر فوق قمة عالية منعزلة من الصخور عند الحافة الشرقية للجبال.

استطرد سيد النسور قائلاً: "أسمع أصوات عواء الذئاب! هل يعيث الجوبلين فسادًا في الغابة؟"

وحلق عاليًا بخفة في الهواء، وعلى الفور تبعه اثنان من حراسه، وقفزا من بين الصخور إلى الهواء على جانبيه. ثم طافت النسور في السماء، ونظرت أسفلها إلى حلقة ذئاب الوارج التي بدت كنقطة صغيرة من هذه المسافة الكبيرة. لكن النسور حادة البصر، ويمكنها رؤية حتى الأشياء الصغيرة من مسافات بعيدة، وسيد نسور جبال الضباب تحديدًا لديه عينان تمكناه من أن ينظر بهما إلى الشمس فلا تطرفان، كما تمكناه من أن يرى أرنبًا على بعد ميل منه يتحرك على الأرض، وإن كان هذا في ضوء القمر. هكذا، ورغم أنه لم يتمكن من رؤية من يختبئون في الأشجار، إلا أنه استطاع تمييز أصوات الضجيج التي أحدثتها الذئاب، وأن يرى ومضات النيران، كما استطاع سماع أصوات الذئاب تعوي وتنبح رغم أن الأصوات كانت خافتة من هذه المسافة البعيدة. أبصر سيد النسور أيضًا انعكاس ضوء القمر على خوذات الجوبلين ورماحهم، فيبدو أن هؤلاء الجوبلين الأشرار قد بدءوا الزحف في مجموعات كبيرة عبر بواباتهم مرورًا بمنحدرات التلال ووصولاً إلى عمق الغابة.

ليست النسور بطيور ودودة، وبعضها معروف عنه الوضاعة والقسوة، لكن سلالة النسور التي سكنت منطقة الجبال الشمالية قديمًا كانت من أعظم سلالات الطيور التي عاشت على الإطلاق؛ فقد كانت أبية قوية، وتمتاز بالنبل وطيبة القلب. لم تكن تلك السلالة من النسور تحب

* اسمه (جوايهير Gwaihir)، وسيلعب دورًا مهمًا في الثلاثية (سيد الخواتم).

الجوبلين، ولم تكن كذلك تخشاهم، وكانت دائمًا ما تنقض عليهم وتلاحقهم كلما لمحتهم -لكنها كانت نادرًا ما تلمحهم، بما أن النسور لم تكن تتغذى على تلك المخلوقات- حتى يضطر الجوبلين إلى الرجوع صارخين إلى كهوفهم والتوقف عن أي عمل مؤذ كريه يقومون به. وبدورهم كان الجوبلين يكرهون النسور ويخشونهم، لكنهم لم يكونوا يستطيعون بلوغ القمم العالية التي تسكنها ولا يقوون على طردها من الجبال.

لكن سيد النسور الليلة غلبه فضوله، وأحب أن يعرف ما يجري من أحداث على الأرض من تحته، فاستدعى المزيد من النسور، وطارت النسور جميعًا بعيدًا عن الجبال في تمهل، وظلت تحلق في السماء في شكل حلقات هبوطًا، حتى اقتربت شيئًا فشيئًا من حلقة الذئاب ونقطة التقائها مع الجوبلين.

ويا له من مشهد!

كانت أمور رهيبة تحدث على الأرض تحت النسور المحلقة. الذئاب التي اشتعل فراؤها وفرت أشعلت النيران في أشجار الغابة في غير موضع. كان فصل الصيف في ذروته، وقد صارت الأمطار في هذه الناحية الشرقية للجبال شحيحة منذ فترة. نباتات جافة، وغصون أشجار متساقطة، وأوراق أشجار الصنوبر الدبقة والمتراكمة، وأشجار ميتة هنا وهناك، كل ذلك سرعان ما أكلته ألسنة اللهب، وطوقت النيران الأرض الفضاء التي اجتمعت فيها ذئاب الوارج. لكن الحرس من الوارج لم يتركوا أماكنهم عند جذوع الأشجار، رغم أنهم كانوا يقفزون ويعووون ويلعنون الأقزام بلغتهم المروعة من فرط غضبهم وثورتهم العارمة. تدلت ألسنتهم خارج الأفواه، ولمعت أعينهم بلون ألسنة النيران الدامي من حولهم.

وفجأة، أتى الجوبلين يركضون ويصيحون، فقد ظنوا أن المعركة مع الحطابين قد بدأت بالفعل، لكنهم سرعان ما أدركوا حقيقة ما يجري. اكتفى بعض الجوبلين بالجلوس والضحك، والبعض الآخر اكتفى بالتلويح بالرماح أو ضرب قبضاتهم بالدروع. فالجوبلين لا يخافون النيران، ولم يمض وقت طويل حتى قاموا بوضع خطة بدت مسلية للغاية بالنسبة لهم.

قام بعض الجوبلين بتجميع كل الذئاب في مجوعة واحدة، وآخرين كدسوا النباتات الجافة والحطب حول جذوع الأشجار، كما قام بعضهم بضرب الأرض بسرعة بأرجلهم لمرات عدة حتى تمكنوا بالكاد من إخماد النيران المشتعلة. لكنهم تعمدوا ألا يطفئوا النيران المشتعلة بالقرب من الأشجار التي تسلقها الأقزام، بل قاموا بتغذية تلك النيران بأوراق الأشجار والفروع والنباتات الجافة. وسرعان ما أحاطت حلقة من لهب النيران والدخان بالأقزام، وقد عمل الجوبلين على ألا

يتطاير الدخان إلى خارج الحلقة أو أن تنطفئ النيران، بل حاولوا تضييق مجالها حتى لامست ألسنة اللهب المضطرم الوقود الذي كدسه الجوبلين تحت الأشجار. اغرورقت عينا (بيلبو) بالدموع من فرط كثافة الدخان وقد بات يشعر بحرارة النيران، لكنه استطاع رؤية الجوبلين من بين الدخان يرقصون ويدورون في حلقات كبني البشر حين يحتفلون بعشية منتصف الصيف حول نار المشعلة. وعلى بعد مسافة معقولة، وقفت الذئاب تشاهد وتنتظر خارج حلقة رقص الجوبلين المحاربين ذوي الرماح والفؤوس. واستمع (بيلبو) رغمًا عنه لأغنية كريهة للجوبلين:

خمسةَ عشرَ طائرًا في خمسِ أشجارٍ من التنوبْ
وريشهم تذروهُ نيرانٌ غضوبْ
لكن
هذي العصافيرُ الصغيرةُ اللطيفةُ بلا جناحاتْ
أوه!
ماذا سنفعل بها
هذي الصغيرات اللطيفاتْ؟
هل نشويها حتى الموت ونطهوها في القدرْ؟
ونحمرها
لنتناولها ساخنة جدًا؟

ثم توقف الجوبلين عن الغناء، وصاحوا قائلين: "طيري بعيدًا أيتها العصافير الصغيرة! طيري بعيدًا إن استطعت! انزلي أيتها العصافير الصغيرة، أم أنك تحبين أن نشويك في أعشاشك الصغيرة؟ غني إذن أيتها العصافير الصغيرة، غني! لم لا تغنين؟!"

فصاح (جاندلف) ردًا على الجوبلين قائلاً: "اذهبوا بعيدًا أيها الصغار! ليس هذا وقت المرح، فالصغار الأشقياء الذين يلعبون بالنار ينالون العقاب!"

قال (جاندلف) ما قال لإثارة غضب الجوبلين، وليظهر لهم أنه لم يكن خائفًا منهم، رغم أنه بالطبع كان خائفًا ورغم أنه ساحر؛ لكن الجوبلين لم يلاحظوا ذلك، فأكملوا غناءهم:

احرقْ، احرقْ هذا الشجرَ وهذا السرخسْ
الفحها بمشاعلِ نارٍ ثائرةٍ حتى تتجعدْ
لتضيء الليلَ لأجلِ المرحِ الأعظمْ
يا هيه!

احرقهم... حمصهم
حمرهم... واشويهم
حتى تلتهب لحاهم وتحملق أعينهمْ
حتى يحترقَ الشعرُ ويتجعد هذا الجلدْ
ويذوبَ الدهنُ، ويطغى اللونُ الأسودُ فوقَ العظمْ
برمادٍ يرقدُ تحتَ سماءْ
إذن الأقزام مصيرهم الموتْ

وبمجرد أن انتهى الجوبلين من أغنيتهم، كانت النيران قد وصلت بالفعل إلى شجرة (جاندلف)، وفي لحظات معدودة كانت قد وصلت إلى بقية الأشجار التي تسلقها الأقزام؛ واشتعل لحاء الشجرة وانهارت الفروع القريبة من الأرض.

تسلق (جاندلف) حتى وصل إلى أعلى شجرته، والوميض المفاجئ الصادر عن عصاه لمع كالبرق بينما هو يستعد للوثوب من أعلى الشجرة إلى الأرض وسط رماح الجوبلين مباشرة. كان من الممكن أن تقوده تلك الوثبة إلى نهايته، رغم أنه كان ليقتل الكثير من الجوبلين أثناء سقوطه السريع على الأرض كالصاعقة.

لكن الساحر لم يقم بتلك الوثبة على الإطلاق، ففي تلك اللحظة تحديدًا اندفع سيد النسور نحوه كالسهم، وقبض عليه بمخالبه، ثم طار بعيدًا.

صدر عن الجوبلين عواء مدو من شدة الغضب وهول المفاجأة، وصاح سيد النسور بصوت عال ردًا على (جاندلف) الذي بدأ يحدثه. أما النسور الضخمة التي كانت بصحبة سيدها، فقد عادت ونزلت لتطير قريبًا من الأرض كأنها ظلال سوداء ضخمة. علا نباح الذئاب وصرت بأسنانها، أما الجوبلين فقد صاحوا وضربوا الأرض بأقدامهم في غضب، وقذفوا برماحهم الثقيلة في الهواء، لكن من دون جدوى. ظلت النسور تحلق من فوقهم، وسرعة ضربها لأجنحتها في الهواء طرحت الجوبلين والذئاب أرضًا ودفعت بعضهم إلى الابتعاد، واستخدمت النسور مخالبها لجرح وجوه الجوبلين. طارت بقية النسور إلى قمم الأشجار، والتقطت الأقزام الذين كانوا قد

تسلقوا إلى أعلى الفروع التي تمكنوا من الوصول إليها.

أما المسكين (بيلبو)، فقد كاد الجميع ينسون أمره مرة أخرى!

تمكن الهوبيت بصعوبة من التعلق بساقي (دوري) بينما كان آخر النسور يلتقطه، وظل (بيلبو) معلقًا في الهواء حتى أحس بأن ذراعيه ستنكسران، وحلقوا جميعًا فوق ذلك الاضطراب الذي أحدثته الحرائق. وبعيدًا من تحتهم، كان الجوبلين والذئاب متفرقين في أنحاء الغابة، وكانت بعض النسور مازالت تحلق فوق أرض المعركة.

هبت النيران على نحو مفاجئ حتى وصلت إلى أعلى فروع الأشجار، ثم انتشرت فيها، فأحدثت اضطرابات مفاجئة من الشرر والدخان.

لقد نجا (بيلبو) بحياته في الوقت المناسب تمامًا!

ولم يمض وقت طويل حتى صار وهج النيران باهتًا من تحتهم كومضة حمراء على الأرض المظلمة، وأخذت النسور ومعها الأقزام ترتفع في السماء في حلقات كاملة عالية.

لم ينس (بيلبو) رحلته الجوية هذه قط، وكيف تشبث بكاحلي (دوري). ظل الهوبيت يئن قائلًا: "ذراعاي، يا لذراعيّ الهزيلتين!"

بينما تأوه (دوري) قائلًا: "ساقاي المسكينان! ساقاي المسكينان!"

لطالما أصابت المرتفعات (بيلبو) بالدوار، وكان دائمًا ما يشعر بتوعك حين يلقي بنظرة من حافة منحدر بسيط حتى، بل إنه كان يكره حتى صعود السلالم الخشبية، ناهيك عن تسلق الأشجار ومحاولته للفرار من ذئاب مفترسة!

ولك أن تتخيل كيف كان رأسه يدور حين ألقى نظرة من بين أصابع قدميه المتدلية ليرى الأراضي الواسعة التي خيم عليها الظلام من تحته، كما رأى ضوء القمر منعكسًا على بعض الصخور في جوانب التلال وفوق صفحات مياه الجداول في الأراضي المستوية.

بدت قمم الجبال الشاحبة الآن أقرب، وأضاء القمر بعض الصخور البارزة من ظلال الجبال المظلمة. وبغض النظر عن كونهم في فصل الصيف، فقد كان الجو شديد البرودة. أغمض (بيلبو) عينيه، وتساءل ما إن كان سيحتمل وضعه هذا لمزيد من الوقت، ثم دارت بخلده أفكار عما يمكن أن يحدث له إن خارت قواه، وأزعجته تلك الفكرة كثيرًا.

لكن على أية حال، انتهت رحلة الهوبيت الجوية في الوقت المناسب بالنسبة له قبل أن تنخلع ذراعاه تمامًا. أطلق (بيلبو) سراح كاحلي (دوري) لاهثًا، وسقط على منبسط قاس لوكر أحد النسور. مكث (بيلبو) في مكانه صامتًا، ودارت برأسه أفكار شتى تشوبها الدهشة لنجاته من

النيران، وخوف من أن يسقط من أحد جانبي ذلك المكان الضيق العالي الذي كان يجلس فيه إلى الظلام الحالك بعيدًا بأسفله.

وبعد مرور كل ذلك الوقت، وبعد كل ما مر به من مغامرات خلال الأيام الثلاثة الماضية من دون أن يأكل أي شيء تقريبًا، كان (بيلبو) بالفعل يشعر بشعور غريب، فوجد نفسه يقول بصوت مسموع: "الآن فقط أعرف كيف يكون شعور قطعة اللحم حين تُرفع فجأة من المقلاة بواسطة شوكة طعام لتوضع مرة ثانية على الرف!"

سمع الهوبيت (دوري) يجيبه قائلاً: "لا، ليس بالضرورة! لأن قطعة اللحم تعرف أنها ستعود إلى المقلاة عاجلاً أم آجلاً. أما نحن فنأمل ألا نعود إليها، كما أن النسور ليست شوك طعام!"

قال (بيلبو) وهو يعتدل في جلسته وينظر بقلق إلى النسر الذي كان جاثمًا بالقرب منهما: "لا، لا أقصد أنها كاللقالق... أقصد الشوك على الإطلاق*."

تساءل (بيلبو) إن كان قد نطق بالمزيد من الهراء من دون أن يعي، وإن كان النسر قد ظن كلامه فظًا؛ فليس من الفطنة أن تكون فظًا في معاملتك مع أحد النسور، بالذات إن كنت في حجم الهوبيت وفي وكره العالي في السماء! لكن النسر كان منهمكًا في ترتيب وتهذيب ريشه وزيادة حدة منقاره ولم ينتبه لكلامهما... لحسن الحظ.

وبعد مضي وقت بسيط، طار إلى الوكر نسر آخر، وقال للأول: "سيد النسور يأمرك بأن تُحضر سجينيك إلى الإفريز الكبير."

ثم عاد النسر من حيث أتى، ولحق به النسر الأول وقد قبض على (دوري) بمخالبه، وطار به بعيدًا في ظلمة الليل تاركًا (بيلبو) وحده تمامًا. حاول (بيلبو) جهده ليعي ما يحدث، وتساءل عما كان النسر الأول يقصده بكلمة (سجينين). وما إن بدأ في تخيل نفسه يُقطع إلى قطع صغيرة كالأرنب الذي سيتم التهامه على العشاء، حان دوره.

عاد النسر وأمسك بـ(بيلبو) بمخالبه من الجزء الخلفي لردائه، وانطلق سريعًا، لكن الرحلة الجوية كانت قصيرة تلك المرة، وسرعان ما أنزل النسر (بيلبو) الذي كان يرتجف من شدة الخوف على إفريز متسع من الصخور بجانب الجبل. لم يكن هناك أي طريق للوصول إلى هذا الإفريز سوى الطيران إليه، وما من طريق للنزول منه سوى القفز إلى الهاوية. وعلى الإفريز،

* بسبب توتره، تلعثم (بيلبو)، وقال: اللقالق Storks، بدلاً من الشوك Forks، والكلمتان قريبتان في النطق كما هو واضح.

وجد (بيلبو) الجميع جالسين مسندين ظهورهم إلى جدار الجبل، كما وجد أيضًا سيد النسور يتحدث إلى (جاندلف).

لكن يبدو أن (بيلبو) لن يتم التهامه بعد كل ذلك، فقد اتضح أن الساحر وسيد النسور يعرفان بعضهما البعض قليلاً، وتربطهما علاقة صداقة خفيفة. وحقيقة الأمر أن (جاندلف)، الذي كان يقضي الكثير من الوقت في الجبال، قد أسدى خدمة من قبل للنسور بأن طبب جراح سيدها من أثر إطلاق سهم عليه. إذن اتضح أن ما قصده النسر بكلمة (سجينين) هو (اثنان من السجناء الذين تم إنقاذهم من الجوبلين)، ولم يقصد أنهم أسرى لدى النسور. استمع (بيلبو) إلى حديث (جاندلف) وسيد النسور وأدرك أنهم -أخيرًا- سيتمكنون من النجاة فعليًا من أخطار تلك الجبال المروعة. كان (جاندلف) يضع ويناقش خططًا مع سيد النسور تتضمن أن تحمل النسور الأقزام و(بيلبو) والساحر بعيدًا ليتمكنوا من استكمال رحلتهم في الأراضي المنبسطة أسفل الجبال. لكن سيد النسور لم يكن ليأمر بنقلهم قريبًا من أي مكان يسكنه بنو البشر، وقال موضحًا السبب: "سيصوب بنو البشر سهامهم باتجاهنا مستخدمين أقواسهم الكبيرة لأنهم سيظنون أننا نتربص بخرافهم، وظنهم هذا يكون بمحله في أوقات أخرى. لكن لا! يسرنا أن نحرم الجوبلين تسليتهم، ويسرنا أيضًا أن نرد لك جميلك، لكننا لن نعرض أنفسنا للخطر من أجل إيصال الأقزام إلى الأراضي الجنوبية المنبسطة."

قال (جاندلف): "حسن، لتأخذوننا إذن إلى أبعد مكان يمكنكم الوصول إليه، فنحن الآن ملزمون منكم بالفعل، لكننا في الوقت الحالي نتضور جوعًا."

قال (بيلبو) بصوت خفيض ضعيف بحيث لم يسمعه أحد: "وأنا أكاد أموت جوعًا."

قال سيد النسور ردًا على الساحر: "من الممكن تدبير شيء حيال ذلك الأمر."

وربما كنت ستلاحظ نارًا موقدة على الإفريز الصخري إن مررت من هناك في وقت لاحق في نفس الليلة، وقد التف حولها الأقزام يطهون ويشوون طعامًا شهيًا. أحضرت النسور بعض الفروع الجافة لإشعال النيران، كما أحضرت بعض الأرانب والأرانب البرية وخروفًا صغيرًا، وكان على الأقزام القيام بالتجهيزات اللازمة. أحس (بيلبو) بضعف شديد بحيث لم يتمكن من مساعدتهم، لكنه لم يكن بارعًا في سلخ الأرانب أو تقطيع اللحوم على أية حال، فقد اعتاد أن يطلب من الجزار أن يبعث لحفرته باللحوم جاهزة للطهي. افترش (جاندلف) هو الآخر الأرض بعد أن ساعد الأقزام في إشعال النيران، بما أن (أوين) و(جلوين) قد فقدا علب مادة الصوفان شريطة الاشتعال التي تساعدهما على إشعالها، فحتى ذلك الوقت لم يكن الأقزام قد بدءوا في استخدام أعواد الثقاب بعد.

وبهذا انتهت مغامراتهم في جبال الضباب. سرعان ما شعر (بيلبو) من جديد براحة في معدته بعد أن ملأها بالطعام، وشعر برضا وقناعة تمكناه من أن يخلد للنوم، رغم أنه كان ليفضل أن يتناول رغيفاً من الخبز وبعض الزبد على قطع اللحم المحمر على العصي

التي تناولها لتوه. نام الهوبيت ملتفاً حول نفسه على تلك الأرض الصخرية القاسية بعمق أكثر مما كان يشعر به حين ينام في سرير أبيه بحفرته في بلدته الصغيرة.

لكن طوال ليلته، رأى (بيلبو) في منامه منزله، وظل يتجول في شتى حجراته، كأنما يبحث عن شيء ولا يجده أو حتى يتذكر كيف كان شكله.



الفصل السابع

مستقر غريب

استيقظ (بيلبو) في صباح اليوم التالي حينما أحس بخيوط أشعة الشمس تداعب جفنيه، ونهض مسرعًا ليتحقق من الساعة ويجهز غلاية الشاي... فقط ليكتشف أنه أبعد ما يكون عن بيته. هكذا جلس، وتمنى عبثًا لو أن بإمكانه أن يستحم أو يغسل أسنانه، لكنه للأسف لم يحصل على هذا أو ذاك، ولا حصل كذلك على فنجان من الشاي أو قطعة من الخبز المحمص أو اللحم المقدد في وجبة إفطاره، بل التهم فقط بعض لحم الضأن البارد ولحم الأرانب. وبعد تناول إفطاره، كان على (بيلبو) أن يستعد لانطلاقة جديدة.

في تلك المرة سمح النسر للهوبيت بأن يمتطي ظهره ويتشبث بالريش بين جناحيه، واندفع الهواء في وجهه في عنف، فأغمض (بيلبو) عينيه. وبعد أن صاح الأقزام بعبارات الوداع، وبعد أن قطعوا عهودًا بأن يردوا جميل سيد النسور إن تمكن لهم هذا، ارتفع بهم خمسة عشر نسرًا ضخمًا في السماء بعيدًا عن جانب الجبل. لم تكن الشمس قد ابتعدت كثيرًا عن الشرق، وكان صباحًا باردًا، والضباب يغمر الوادي والتجاويف، ويملأ الجو في كل مكان عند قمم وأعالي التلال. فتح (بيلبو) إحدى عينيه ليختلس النظر، وأدرك أن الطيور قد علت بالفعل مبتعدة عن الأرض، ورأى الجبال بعيدة وقد بدت كأنها تتراجع من ورائهم. أغمض (بيلبو) عينيه مرة أخرى، وتشبث أكثر بريش النسر.

قال له النسر: "إنك تؤلمني! لا داعي لأن تشعر بالذعر هكذا كالأرانب، حتى وإن كنت تشبهها. إنه صباح جميل ورياحه قليلة، فما الذي يمكنه أن يبعث فيك شعورًا أفضل من هذا سوى الطيران؟"

أراد (بيلبو) أن يقول: "حمام دافئ تليه وجبة إفطار شهية أتناولها على مهل وسط الخضرة!"

لكنه رأى أنه من الأفضل ألا يقول شيئًا على الإطلاق، وقرر أن يخفف من قبضته قليلاً على ريش النسر.

ومر بعض الوقت، ثم بدا أن النسور قد أبصرت مقصدها رغم هذه المسافة الكبيرة، فبدأت في الهبوط تدريجيًا بشكل حلزوني وفي دوائر واسعة. ظلت النسور تهبط بهم لمدة طويلة حتى تمكن الهوبيت أخيرًا من فتح عينيه من جديد، فقد بدت الأرض قريبة جدًا من النسور والأقزام، ومن تحتهم ظهرت أشجار تشبه أشجار البلوط والدردار وأراض واسعة خضراء ونهر يجري من بينها جميعًا. في وسط المجرى ظهرت على السطح صخرة ضخمة وقد اندفعت المياه من حولها؛ كتلة صخرية كأنها آخر حدود الجبال البعيدة، أو كتلة حجرية هائلة الحجم قذف بها مارد في السهل من على بعد أميال عدة.

سريعًا هبطت النسور واحدًا تلو الآخر فوق تلك الصخرة وأنزلت الراكبين، ثم قالت: "وداعًا! صحبتكم السلامة أينما ارتحلتم وحتى تصلوا إلى أوكاركم في نهاية الرحلة!"

وتلك هي أكثر عبارات الوداع تهذيبًا لدى النسور.

أجاب (جاندلف) الذي كان يعرف الرد الصحيح لتلك العبارة قائلاً: "فلتحملكم الرياح من تحت أجنحتكم حيث تبحر الشمس ويسير القمر."

ومن ثم رحلت النسور. ورغم أن سيد النسور أصبح مع مرور الأيام ملكًا على جميع الطيور واعتمر تاجًا ذهبيًا فوق رأسه، كما ارتدى قادته الخمسة عشر أطواقًا ذهبية -كلها مصنوعة من الذهب الذي أعطاهم إياه الأقزام- لم تقع عينا (بيلبو) على النسور مرة أخرى، باستثناء يوم معركة الجيوش الخمسة حين رآها تحلق عاليًا وبعيدًا في السماء. لكن بما أننا ستقوم بسرد تلك الأحداث قبل نهاية حكايتنا، فلن نحكي المزيد عنها الآن.

كانت هناك مساحة مسطحة فوق التل الحجري، يليها ممر ممهد في آخره درجات سلم كثيرة تهبط إلى النهر الذي تعبره مخاضة من الأحجار المسطحة الضخمة، والتي بدورها تقود إلى أرض تكسوها الحشائش الخضراء بعد المجرى المائي. عند آخر درجة بالسلم، وبالقرب من نهاية المخاضة الصخرية، كان هناك كهف صغير يفترش الحصى أرضيته، وهناك اجتمعوا جميعًا ليتبادلوا الآراء حول ما يتعين عليهم فعله الآن.

تحدث الساحر إلى الأقزام والهوبيت قائلاً: "لقد حاولت جهدي منذ بداية رحلتنا أن أتأكد من سلامتكم جميعًا قدر الإمكان عبر الجبال، وبتدبير جيد وحظ وفير تمكنت حقًا من ذلك. والآن فقد توغلنا شرقًا لأبعد بكثير مما اعتزمت أن أتوغل معكم بالفعل، فرغم كل شيء، هذه ليست مغامرتي أنا. ربما أتمكن من أن ألتقي بكم مرة ثانية قبل نهاية المغامرة، لكن في الوقت الحالي لدي مسألة أخرى مُلحة عليَّ تولي أمرها."

وبينما استمع الأقزام لحديث الساحر شعروا بالحزن والأسى، حتى إن (بيلبو) بكى، فقد كانوا قد بدءوا يظنون أن (جاندلف) سيرافقهم حتى نهاية رحلتهم، وأنه سيكون موجودًا لمساعدتهم دائمًا في المواقف الصعبة.

أكمل الساحر حديثه قائلاً: "لكنني لن أختفي هكذا في التو واللحظة، بل سأرافقكم ليوم أو يومين آخرين، فربما استطعت أن أساعدكم في الخروج من مأزقكم الحالي، كما أنني شخصيًا بحاجة إلى بعض المساعدة أيضًا. ليس لدينا طعام أو أمتعة أو مهور نمتطيها، ولا تعرفون أين أنتم الآن. إنكم مازلتم على بعد أميال شمال الطريق الذي كان علينا سلوكه، لكننا اضطررنا لترك طريق الجبل على عجلة. فقط القليل من بني البشر يسكنون تلك المناطق، ما لم يكن هذا قد تغير منذ آخر مرة سرت فيها في هذا الطريق، أي منذ بضعة سنوات؛ لكنني أعرف شخصًا يعيش بالقرب من هنا، وهو الشخص ذاته الذي بنى درجات السلم عند الصخرة الضخمة، والتي أظنه يطلق عليها اسم (الكاروك). هو لا يأتي إلى هنا كثيرًا، وبخاصة في النهار، وبالتالي لن يكون انتظاره هنا مفيدًا، بل في الواقع، سيكون الانتظار شديد الخطورة. علينا إذن العثور عليه؛ وإن سارت الأمور في اجتماعنا به كما سنخطط لها، فأعتقد أنني سأرحل بعد أن أتمنى لكم -كما فعلت

النسور– أن تصحبكم السلامة أينما ارتحلتم."

توسل الأقزام لـ(جاندلف) كي لا يرحل، وعرضوا عليه نصيبًا من ذهب التنين والفضة والجواهر، لكنه لم يعدل عن رأيه، وقال: "سنرى، سنرى! وأعتقد أنني استحققت بالفعل نصيبًا من ذهب التنين حين تحصلون عليه."

وبعد ذلك توقف الأقزام عن التوسل لـ(جاندلف)، وخلعوا ملابسهم واغتسلوا في النهر الذي كانت مياهه صافية قليلة العمق، ومخاضته مفروشة بالأحجار. وبعد أن جففتهم أشعة الشمس التي صارت قوية ودافئة، أحس الأقزام بالانتعاش، رغم أنهم كانوا مازالوا يشعرون بالإرهاق والجوع. وسرعان ما عبروا مخاضة النهر حاملين الهوبيت، ثم بدءوا يسيرون وسط الحشائش الخضراء الطويلة وتحت أشجار البلوط الضخمة وأشجار الدردار العالية.

وأثناء سيرهم اقترب (بيلبو) من الساحر وسأله: "ولماذا يُطلق على الصخرة اسم الكاروك؟"

أجابه الساحر: "أسماها الكاروك لأن هذا هو الاسم الذي اختاره لها، فهو يطلق على تلك الأشياء اسم (كاروك)، وتلك الصخرة هي الكاروك لأنها الوحيدة القريبة من داره، كما أنه يعرفها جيدًا."

سأله (بيلبو): "من هذا الذي أسماها؟ ومن الذي يعرفها؟"

قال الساحر: "الشخص الذي ذكرته لكم. إنه رجل عظيم. وعليكم جميعًا أن تحسنوا التصرف حين أقدمكم إليه. أظنني سأقدمكم إليه بتمهل، كل اثنين منكم معًا. لكن احرصوا على ألا تزعجوه، وإلا فلن يتوقع أحد كيف تكون ردة فعله، فهو حين يغضب يصبح مرعبًا، لكنه ودود إن لاطفتموه. ومع ذلك، فإنني أحذركم من سرعة غضبه."

التف الأقزام جميعًا حول (جاندلف) حين سمعوه يتحدث هكذا مع (بيلبو)، وسألوه أسئلة مثل: "أهذا هو الشخص الذي تأخذنا إليه الآن؟ ألم تجد شخصًا هادئ الطباع تأخذنا إليه؟ ألا تشرح لنا المزيد لتتضح لنا الأمور؟"

وإلى آخر ذلك، فجاءت إجابات (جاندلف) كالتالي: "أجل، هو بالفعل! لا، لم أجد! بلى، هذا ما كنت أنوي فعله!"

وبدا بعض الاستياء على وجه الساحر، لكنه أردف قائلاً: "إن كان لابد أن تعرفوا المزيد، فهذا الشخص اسمه (بيورن). إنه قوي للغاية، وهو ممن يغيرون الجلود."

قال (بيلبو) في هلع: "ماذا تقول؟! أتاجر فراء هو؟ رجل يفكر في الأرانب على أنها فقط

مصدر للفراء ويبدله بجلود السناجب؟"

أجاب (جاندلف) في سرعة: "لا، كلا، بتاتًا! سيد (باجنز)، حاول قدر المستطاع ألا تكون أحمق أرجوك، وبحق السماوات العلى لا تذكر كلمة (تاجر فراء) مرة أخرى طالما أنت في نطاق مائة ميل من داره؛ ولا تذكر كذلك كلمات مثل (دثار) أو (غطاء للكتف) أو (لفاع مذيل) أو (قفاز من الفراء)، إلى آخر تلك الكلمات المشؤومة!

هو ممن يغيرون الجلود، بمعنى أنه يغير جلده هو، فأحيانًا يبدو كدُب أسود ضخم، وأحيانًا يبدو كبشري قوي ضخم له شعر أسود وذراعان مفتولتان ولحية طويلة. لا يمكنني قول المزيد، لكن من المفترض أن ما عرفتموه يكفي. يقول البعض إنه ينحدر من السلالات القديمة والعظيمة لدببة الجبال التي عاشت بها قبل مجيء العمالقة. يقول آخرون إنه ينحدر من سلالة بني البشر الأوائل الذين عاشوا قبل مجيء (سموج) أو التنانين الأخرى إلى هذه المنطقة من العالم، وقبل مجيء الجوبلين من الشمال إلى التلال بالمنطقة هنا. لا أعرف بالضبط، لكنني أميل إلى صحة تلك الرواية الأخيرة، فهو ليس من الأشخاص الذين يمكن أن توجه لهم أسئلة.

على أية حال، هذا الشخص لم يسحره أحد، وإنما هو الذي سحر نفسه بنفسه. ويعيش في غابة بلوط في بيت ضخم مصنوع من الخشب. وكبقية الرجال من بني البشر يربي المواشي والخيول التي تبدو على نفس الدرجة من الروعة مثله. تعمل المواشي لديه وتكلمه ويكلمها، لكنه لا يتغذى عليها، وكذلك لا يصيد أو يتغذى على الحيوانات البرية. يحتفظ بخلايا وخلايا من النحل الشرس، ويتغذى غالبًا على القشدة والعسل. حين يبدو كدب يمكنه التجول في نطاق واسع، وقد رأيته في مرة يجلس وحده تمامًا أعلى صخرة الكاروك ليلاً يراقب القمر وهو يختفي من وراء جبال الضباب، وسمعته يزمجر قائلاً بلهجة الدببة: سيأتي اليوم الذي يهلكون فيه، ولسوف أعود!

ولذلك أظنه سكن الجبال لفترة ما قديمًا."

أصبح لدى الأقزام و(بيلبو) الكثير الآن ليفكروا فيه، ولم يسألوا المزيد من الأسئلة. كان الطريق مازال أمامهم طويلاً، وقابلتهم منحدرات يصعدونها ووديان ينزلونها، وبدأ الحر يشتد. في أحيان كانوا يأخذون قسطًا من الراحة في ظلال الأشجار، لكن (بيلبو) كان قد بدأ يشعر بالجوع الشديد لدرجة أنه كان على استعداد لأن يأكل جوزات البلوط إن وجد إحداها وقد سقطت على الأرض بعد أن نضجت.

ومضى الوقت وحل الأصيل، وبدءوا جميعًا يلاحظون رقعًا كبيرة من الأرض مغطاة

بالأزهار، والأزهار مقسمة حسب نوعها كأن أحدهم قد قام بزراعتها. لكن زهور البرسيم كانت الأكثر انتشارًا: كانت هناك رقع واسعة من زهرة برسيم عرف الديك، وزهرة البرسيم الأرجواني، بالإضافة إلى مساحات مزروعة بأزهار البرسيم البيضاء قصيرة العيدان ذات الرائحة الحلوة كالعسل. أصوات الطنين والأزيز والتمتمة ملأت الجو، فقد كان النحل مشغولاً في كل مكان حولهم، ويا له من نحل!

لم ير (بيلبو) في حياته نحلاً كهذا، وقال في نفسه: "إن لدغتني إحداها، فمن المؤكد أنني سأتورم لدرجة أن حجمي سيتضاعف!"

كان النحل أكبر حجمًا من الدبابير، وكان حجم الذكور منه أكبر بكثير من إبهامك، والحلقات الصفراء في أجسامه ذات اللون الأسود الفاحم تلمع بلون ذهبي صارخ.

قال (جاندلف) للأقزام: "لقد اقتربنا. نحن الآن عند حدود المناحل الخاصة به."

بعد قليل وصلوا إلى نطاق من أشجار بلوط عالية وعتيقة، ومن ورائها ظهر حاجز عال من الأشواك لا يمكنك أن ترى أي شيء من خلاله أو أن تتخطاه.

قال الساحر محدثًا الأقزام: "من الأفضل أن تنتظروا هنا، وحين أنادي أو تسمعون صوت صفيري اتبعوني. سترون الطريق الذي سأسلكه، لكن لا تنسوا: كل اثنين منكم في المرة، وكل زوج منكم يتحرك بعد مضي خمس دقائق من الزوج السابق له. وبما أن (بومبر) هو أكثر الأقزام سمنة، فهو ليس بحاجة لرفيق. فليأتي وحده في النهاية. هيا بنا يا سيد (باجنز). هناك بوابة في مكان ما في هذا الطريق."

وهكذا دار الساحر حول حاجز الأشواك مصطحبًا معه الهوبيت المذعور.

سرعان ما اقتربا من بوابة خشبية عالية وواسعة، ومن ورائها استطاعا رؤية حدائق ومجموعة من المباني الخشبية المنخفضة؛ بعضها -كالحظائر والزرائب والسقائف- له أسقف من القش والأخشاب متعددة الأشكال، بالإضافة إلى منزل خشبي منخفض.

وبالداخل، وعند الناحية الجنوبية للحاجز الضخم، كانت هناك صفوف وصفوف من خلايا النحل، أعلاها على شكل جرس مصنوع من القش، وكان صوت أزيز النحل الضخم وهو يطير هنا وهناك وإلى الداخل والخارج يملأ المكان.

قام الساحر والهوبيت بدفع البوابة الثقيلة، فانفتحت ببطء محدثة صوت صرير، وسارا في ممر واسع باتجاه المنزل. بعض الخيول -والتي بدا أنها مطهمة ومن سلالة ممتازة- عدت

باتجاههما، ثم نظرت إليهما بإمعان ينم عن الذكاء، ثم عدت بسرعة باتجاه المباني.

قال (جاندلف) للهوبيت: "لقد أسرعت لتعلمه بقدوم غرباء."

وسرعان ما وصلا إلى ساحة لها ثلاثة جوانب؛ واحد منها يتكون من جدار المنزل الخشبي، واثنان لجدارين مبنيين مستطيلين ملحقين بالمنزل، بينما توسط الساحة جذع شجرة بلوط ضخمة وبجانبها العديد من الفروع المبتورة. بجوار جذع الشجرة وقف رجل ضخم له لحية كثيفة وشعر أسود غزير، وله ذراعان ضخمتان مكشوفتان وساقان ذاتا عضلات بارزة. كان الرجل يلبس رداء طويلاً من الصوف يصل حتى ركبتيه، ويقف مستندًا إلى فأس كبيرة.

كانت الخيول تقف إلى جواره وأنوفها قريبة جدًا من كتفيه، وقال الرجل محدثًا إياها: "ها هما ذان! لا يبدو أنهما خطران. يمكنكم الذهاب!"

وأطلق ضحكة عالية ووضع فأسه على الأرض، وتقدم من الساحر والهوبيت، ثم وقف أمامهما وقد فاق طوله طول (جاندلف) بكثير، وسألهما بأسلوب فظ: "من أنتما، وماذا تريدان؟"

كان من السهل على (بيلبو) أن يركض من بين ساقي الرجل من دون أن يضطر لأن يخفض رأسه ليفوت حافة الرداء البني الطويل الذي كان يلبسه.

قال الساحر مجيبًا إياه: "أنا (جاندلف)."

فقال الرجل بصوت خفيض: "لم أسمع به مطلقًا من قبل."

ثم حنى رأسه، ونظر للهوبيت من تحت حاجبين كثيفين مقطبًا جبينه وقال: "وماذا يكون هذا الرفيق الصغير؟"

قال (جاندلف): "إنه السيد (باجنز)، واحد من أبناء أرقى عائلات الهوبيت، وذو سمعة لا يرقى إليها الشك."

انحنى (بيلبو) محييًا الرجل، فلم يكن يرتدي قبعة ليرفعها له احترامًا، وكان في شدة الخجل من أزرار ردائه المفقودة.

أكمل الساحر قائلاً: "إنني ساحر، وقد سمعت بك، وإن لم تسمع أنت بي؛ لكن ربما تكون قد سمعت بابن عمي الطيب (راداجاست)* الذي يسكن بالقرب من الحدود الجنوبية لمنطقة (ميركوود)؟"

---

* هو واحد من السحرة الخمسة الذين كتب عنهم (تولكين) في أعماله، وإن كان لم يذكر سوى ثلاثة منهم فقط هنا وفي (سيد الخواتم). أغلب الظن أن الاسم مستمد من الكلمة الإنجليزية القديمة Rudugást، والتي تعني حرفيًا (الروح البنية).

أجاب (بيورن): "نعم، أظنه رفيق طيب بين السحرة، وكنت أراه بين الحين والآخر. حسن، الآن وقد عرفت من تكونان، أو من تدعيان أن تكونا، فماذا تريدان؟"

قال الساحر: "في الحقيقة، لقد فقدنا أمتعتنا وضللنا طريقنا أيضًا، ونحن بحاجة إلى القليل من المساعدة، أو على الأقل المشورة، فقد مررنا بتجربة قاسية مع الجوبلين في الجبال."

اندهش الرجل الضخم، وقال بأسلوب ألطف: "الجوبلين؟ أصادفتكما مشاكل مع الجوبلين؟ ولمَ دنوتما من مكمنهم؟"

أجاب الساحر: "لم نكن نقصد ذلك. لقد باغتونا أثناء الليل في ممر كان علينا اجتيازه، فقد كنا نعبر الأراضي من ناحية الغرب لنصل إلى البلدان هنا. إنها قصة طويلة."

قال الرجل: "إذن فمن الأفضل أن تتفضلا بالداخل لتخبراني بالمزيد عنها، طالما لن يستغرق قصها عليَّ اليوم بطوله."

تقدمهما الرجل ليعبرا خلال باب مظلم يشرف على الساحة ويصل إلى المنزل.

تبع كل من الساحر والهوبيت الرجل ليجدا نفسيهما في ردهة واسعة تتوسطها مدفأة. ورغم أن فصل الصيف لم يكن قد انتهى بعد، فإن نيرانًا كانت تشتعل بالمدفأة التي تصاعد منها الدخان إلى ما فوق عوارض خشبية مسودة بحثًا عن مخرج له في فتحة بالسقف. اجتاز ثلاثتهم تلك الردهة المظلمة، والتي كانت مضاءة فقط بنيران المدفأة وفتحة السقف من فوقها، وعبروا بابًا آخر أصغر ليصلوا إلى شرفة مبنيةٍ فوق دعائم خشبية مصنوعة من جذوع الأشجار. كانت تلك الشرفة تطل على الناحية الجنوبية، وكان الجو مازال دافئًا بفعل أشعة الشمس التي شارفت على الغروب بعد أن مالت باتجاه الغرب، فسقطت أشعتها لامعة بلون ذهبي على حديقة مليئة بأزهار كثيرة تصل حتى درجات سلم الشرفة.

وهنالك جلسوا على مقاعد خشبية، وبدأ (جاندلف) يروي مغامرتهما، بينما أخذ (بيلبو) يؤرجح ساقيه المتدليتين، ويتطلع إلى أزهار الحديقة بتعجب متسائلًا ماذا تكون أسماؤها، فهو لم ير نصف تلك الأصناف من الأزهار من قبل قط.

قال الساحر: "كنت أعبر الجبال وبرفقتي صديق أو اثنان..."

قال (بيورن): "صديق أو اثنان؟ أرى معك صديقًا واحدًا، وفي الواقع هو صديق ضئيل الحجم."

-"نعم. في الحقيقة، لم نشأ أن نزعجك بزيارة الكثير منا قبل أن أعرف ما إن كنت

مشغولًا. سأناديهما إن سمحت لي."

-"تفضل، لتناديهما!"

أطلق (جاندلف) صفيرًا طويلًا حادًا، فتحرك (ثورين) و(دوري) سريعًا حول المنزل حتى وصلا إلى طريق الحديقة، وقاما بتحية الرجل بانحناءة منخفضة.

قال (بيورن): "أرى أنك كنت تقصد صديقًا أو ثلاثة! لكن هذين ليسا من الهوبيت. إنهما قزمان!"

قال القزمان بانحناءة أخرى: "اسمي (ثورين أوكنشيلد)، وأنا في خدمتك! وأنا (دوري)، في خدمتك!"

قال (بيورن): "وأنا لست بحاجة لخدماتكما، شكرًا لكما. لكنني أتوقع أنكما أنتما من يحتاج لخدماتي. ورغم أنني لست مولعًا بالأقزام، لكن إن كنت حقًا (ثورين ابن ثرين ابن ثرور) -حسبما أتذكر- فلابد أنك ورفيقك هذا جديران بالاحترام، وأنكما من أعداء الجوبلين ولستما في أراضيَّ لتحدثا أي ضرر كان... ماذا تفعلان هنا بالمناسبة؟"

سارع (جاندلف) بالإجابة قائلًا: "إنهما في زيارة لأراضي أجدادهما في الشرق الأقصى لأراضيك وراء (ميركوود)، ولم نكن نخطط مطلقًا لأن نمر بأراضيك. لقد كنا نمر بالممر المرتفع الذي كان من المفترض أن يأخذنا إلى الطريق الذي يمر بجنوب بلدك حين قام الجوبلين الأشرار بمهاجمتنا كما كنت على وشك أن أخبرك."

قال (بيورن) الذي لم يكن في حياته على قدر عالٍ من التهذيب: "أكمل إذن!"

واصل (جاندلف) حديثه قائلًا: "ضربتنا عاصفة شديدة، وبدأ مردة الأحجار يتقاذفون الصخور، فاتخذنا كهفًا أعلى الممر كملاذ، الهوبيت وأنا وبعض الرفاق..."

-"أتعتبر اثنين من الأقزام (بعضًا)؟"

-"لا، لكن في الواقع كان هناك أكثر من اثنين."

-"وأين هم؟ هل قُتلوا؟ هل التهمهم الجوبلين أم عادوا من حيث أتوا؟"

-"لا، لكن من الواضح أنهم لم يأتوا جميعًا حين سمعوا صفارتي. أظنهم يشعرون بالخجل، فنحن نخشى بشدة أن نكون ضيوفًا ثقلاء عليك بسبب عددنا."

قال (بيورن) متذمرًا: "هلُم، أطلق صفارتك مرة أخرى! فيبدو أنني أقيم حفلًا بالفعل، وواحد أو اثنان آخران لن يحدثا فارقًا."

أطلق (جاندلف) صفارة أخرى، وقبل حتى أن يكملها كان كل من (نوري) و(أوري) أمامهم، إذ إن (جاندلف) -إن كنتم تذكرون- قد أمر الأقزام بأن يحضر كل زوج منهم كل خمس دقائق.

قال (بيورن): "مرحبًا! لقد حضرتما بسرعة! أين كنتما تختبئان؟ تفضلا يا عفريتي العلبة!"

-"أنا (نوري) في خدمتك، وأنا (أوري)..."

وما إن بدآ حتى قاطعهما الرجل قائلاً: "شكرًا لكما. حين أريد منكما خدمة سأطلبها بنفسي. اجلسا ودعونا ننتهي من تلك القصة، وإلا سيحل موعد العشاء قبل أن ينتهي من روايتها."

أكمل (جاندلف): "وسرعان ما تملكنا النعاس. انفتح شق في الجدار الخلفي للكهف، وخرج منه الجوبلين وأمسكوا بالهوبيت والأقزام وبقطيع مهورنا و..."

-"قطيع مهوركم؟ هل أنتم أعضاء في سيرك متنقل، أم أنكم كنتم تحملون الكثير من الأمتعة، أم أنك معتاد أن تطلق على ستة مهور (قطيعًا)؟"

-"لا، أبدًا، لكن عدد المهور في الواقع كان أكثر من ستة، بما أن عددنا كذلك كان أكثر من ستة، و... حسن، ها هما اثنان آخران!"

وفي تلك اللحظة ظهر (بالين) و(دوالين)، وقاما بتحية (بيورن) بانحناءة منخفضة جدًّا لدرجة أن لحيتيهما لامستا بل وكنستا الأرض الحجرية من تحتهما. عبس وجه الرجل الضخم لدى رؤيتهما، لكنهما حاولا جاهدين أن يظهرا حسن أدبهما، وظلا يومئان برأسيهما وينثنيان وينحنيان تحية له ويلوحان بقلنسوتيهما أمام رُكبهما بطريقة الأقزام المعهودة حتى انفجر الرجل ضاحكاً، فقد بدا مظهرهما فكاهيًا للغاية.

-"إذن كلمة (قطيع) كانت دقيقة، ويا له من قطيع مضحك! تفضلا أيها المرحين، وأخبراني ما اسماكما. لا أريد خدماتكما الآن، فقط اسماكما، ثم اجلسا وتوقفا عن الاهتزاز هكذا!"

قال القزمان اللذان لم يجرؤا على إظهار أي استياء: "(بالين) و(دوالين)."

وجلس القزمان بخفة على الأرض وقد علت وجهيهما نظرة دهشة.

قال (بيورن) مخاطبًا الساحر: "والآن أكمل من جديد!"

قال الساحر: "أين توقفت؟ نعم، إذن فلم يمسك الجوبلين بي، وتمكنت من قتل واحد أو اثنين منهم بوميض عصاي..."

تدخل (بيورن) قائلاً: "ممتاز! إذن إنه من المفيد كون المرء ساحرًا."

بينما أكمل (جاندلف): "... ثم انسللت داخل الشق قبل أن ينغلق الجدار، وتبعتهم حتى القاعة الرئيسة التي كانت تعج بالجوبلين. هناك جلس كبيرهم ومن حوله اصطف ثلاثون أو أربعون حارسًا مسلحًا.

قلت في نفسي: حتى إن لم يكونوا مقيدين بوثاق واحد، فماذا بإمكان دستة من الأقزام أن تفعل في مواجهة كل هؤلاء الجوبلين؟"

-"دستة؟ إنها أول مرة أسمع فيها من يطلق على ثمانية أفراد (دستة)! أم أن هناك المزيد من عفاريت العلبة*؟"

وحينها ظهر قزمان آخران ووقفا مبتسمين، ثم انحنيا تحية للرجل، فقال (جاندلف): "حسن، يبدو أن المزيد منهم قد وصل الآن. أظنهما (فيلي) و(كيلي)."

قال (بيورن): "يكفي هذا! اجلسا صامتين! أكمل يا (جاندلف)!"

بدأ (جاندلف) يحكي من جديد حتى بدأ يصف القتال الذي حدث في الظلام، واكتشافهم للبوابة السفلى، وشعورهم المروع حين اكتشفوا أن السيد (باجنز) منسي داخل الجبل.

أكمل (جاندلف): "قمنا بالعد، واكتشفنا أن الهوبيت لا أثر له، وأن عددنا أصبح أربعة عشر فقط!"

قال (بيورن) بتعجب: "أربعة عشر! هذه أول مرة أسمع أن عشرة ناقص واحد يساوي أربعة عشر! من المؤكد أنك تقصد تسعة، أو لعلك لم تذكر لي جميع أسماء رفاقك."

قال الساحر: "نعم هذا صحيح، فأنت لم تقابل (أوين) و(جلوين) بعد، و... آه، ها هما! أرجو ألا يكونا قد أزعجاك."

قال الرجل: "حسن، اسمح لهم جميعًا بالدخول! أسرعا! أقبلا أنتما الاثنان واجلسا! لكن يا (جاندلف)، حتى بعد وصول القزمين الأخيرين، لا يوجد سواك وعشرة أقزام والهوبيت

---

* عفريت العلبة هي أقرب ترجمة عربية لمصطلح Jack-in-the-box الذي هو عبارة عن لعبة أطفال تتكون من علبة ذات ذراع تدوير، وتعزف لحنًا -هو أغنية Pop Goes the Weasel في الغالب- عند تدوير الذراع، ومع نهاية اللحن يثب من العلبة شكل صغير يشبه المهرج في أغلب الأحيان.

الذي فقدتموه. إذن لابد أن عددكم كان أحد عشر من دون الهوبيت الذي نسيتموه داخل الجبل وليس أربعة عشر، إلا إذا كان السحرة يعدون بطريقة مختلفة عن باقي القوم. على أية حال، لتكمل الحكاية الآن من فضلك."

لم يرد (بيورن) أن يظهر اهتمامًا مبالغًا فيه، لكن حكاية الساحر كانت قد بدأت حقًا تثير انتباهه، فقديمًا كان (بيورن) يعرف كل خبايا الجبال التي كان (جاندلف) يقوم بوصفها في حكايته. أبدى الرجل تأثرًا، وأخذ يومئ برأسه حين حكا (جاندلف) عن ظهور الهوبيت مرة أخرى، ثم هبوطهم أسفل المنحدر الصخري، وكذلك عن حلقة الذئاب التي أحاطت بهم في الغابة.

وحين ذكر (جاندلف) كيف أنهم اضطروا لتسلق الأشجار، وكيف أن الذئاب أحاطت بها من كل جانب، هب الرجل واقفًا وقال في حماس مشبوب: "ليتني كنت هناك! بالتأكيد كنت لأصيب تلك الذئاب بأكثر من الألعاب النارية!"

قال (جاندلف) وهو مسرور بأن حكايته قد بدأت تترك انطباعًا جيدًا لدى الرجل: "في الحقيقة، لقد فعلت كل ما بوسعي، فقد كنا محاصرين فوق الأشجار، والذئاب من تحتنا وقد جن جنونها، والغابة من حولنا تلتهمها ألسنة النيران حين أتى الجوبلين من التلال واكتشفوا وجودنا. أخذ الجوبلين يصيحون في بهجة، وغنوا أغنية تستهزئ بنا: خمسة عشر طائرًا في خمس أشجار من التنوب..."

قاطعه (بيورن): "عجبًا! لا تقل إن الجوبلين لا يعرفون الحساب، فهم يعرفونه جيدًا. اثنا عشر ليسوا كخمسة عشر، وهم يدركون ذلك جيدًا."

أجاب (جاندلف): "نعم، وأنا أيضًا أدرك ذلك، فقد كان معنا (بيفر) و(بوفر) أيضًا. لم أجرؤ على تقديمهما لك من قبل، لكن ها هما قد أتيا."

وفي لحظة كان (بيفر) و(بوفر) قد دخلا إلى الحديقة و...

-"وأنا أيضًا!" صاح بها (بومبر) لاهثًا بعد أن اضطر ليسرع كي يلحق بالقزمين. كان (بومبر) أكثرهم سمنة، وقد غضب حين علم بأنه من المفترض أن يأتي وحده في النهاية، ورفض أن ينتظر الدقائق الخمس المتفق عليها، فتبع القزمين الذين تحركا قبله مباشرة.

قال الرجل بعد دخول الأقزام الثلاثة: "حسن، عددكم الآن خمسة عشر. وبما أن الجوبلين يعرفون الحساب، فأظن أن من يجلسون أمامي الآن هم كل من كانوا فوق تلك الأشجار. حان الوقت الآن لتكمل الحكاية من دون المزيد من المقاطعة."

وحينها فقط أدرك السيد (باجنز) كم كانت حيلة (جاندلف) بارعة، فتلك المقاطعة

المستمرة هي فعلاً ما ساعدت على جعل الحكاية أكثر تشويقًا بالنسبة لـ(بيورن)، وهي ما صرفت ذهنه عن أن يقوم بالتخلص من الأقزام وطردهم فور رؤيتهم كمتسولين باعثين على الشك. دائمًا ما تجنب (بيورن) الضيوف قدر المستطاع، وحتى أصدقاؤه القليلون كانوا يسكنون بعيدًا جدًا عن أرضه، ونادرًا ما كان يستضيف أيًا منهم في بيته؛ أما الآن فهو يجلس في شرفته ومن حوله خمسة عشر من الغرباء!

وحين انتهى الساحر أخيرًا من روايته وقص على (بيورن) كيف أنقذتهم النسور وحملتهم إلى الكاروك، كانت الشمس قد اختفت من وراء قمم جبال الضباب، ورمى كل ما هو بالحديقة ظلالاً طويلة على الحشائش من حولهم.

قال الرجل: "إنها حكاية ممتعة! من أفضل الحكايات التي سمعتها منذ فترة طويلة. ربما إن كان المتسولون يمكنهم رواية حكايات مسلية كهذه لصرت أكثر لطفًا معهم. وبالطبع ربما تكون قد اختلقت الحكاية بأكملها، لكنكم في كلتا الحالتين تستحقون وجبة عشاء. هيا بنا لنتناول الطعام جميعًا!"

فقال الجميع في لهفة: "نعم من فضلك! شكرًا جزيلاً لك!"

تركوا جميعًا الشرفة، ودخلوا إلى الردهة التي غرقت في ظلام دامس الآن. صفق (بيورن) بيديه، فجاءته مسرعة أربعة مهور بيضاء جميلة والعديد من الكلاب الرمادية الضخمة الطويلة. تحدث (بيورن) إلى المهور والكلاب بلغة غريبة تشبه أصوات الحيوانات، فخرجت الحيوانات وعادت سريعًا وهي تمسك بأسنانها بمشاعل استخدمتها في إشعال النيران، ثم ثبتتها بحاملات منخفضة فوق العوارض المثبتة بالمدفأة الرئيسة في الردهة.

كان باستطاعة تلك الكلاب أن تقف على أرجلها الخلفية فقط إن أرادت، وأن تحمل الأشياء بأرجلها الأمامية. وبسرعة أخرجت الكلاب مساند من الجدران الجانبية للردهة، ثم أعدت الموائد قريبًا من نار المدفأة.

بعد ذلك سمعوا أصوات خراف، ودخلت عليهم خراف بيضاء بلون الثلج يتقدمها كبش أسود بلون الفحم. كان أحد الخراف يحمل غطاءً للمائدة مطرزًا عند أطرافه بأشكال حيوانات مختلفة، بينما حملت خراف أخرى على ظهورها العريضة صوانٍ بها أوعية وأطباق كبيرة وسكاكين وملاعق خشبية. أسرعت الكلاب بنقل كل ما كان على ظهور الخراف إلى الموائد التي كانت منخفضة جدًا لدرجة تمكن (بيلبو) من أن يجلس إليها شاعرًا بالراحة. بجانب تلك الموائد دفع أحد المهور مقعدين خشبيين منخفضين لهما قواعد متسعة وأرجل قصيرة وسميكة ليجلس

عليهما (جاندلف) و(ثورين)، بينما قام المهر بوضع كرسي أسود كبير من نفس الطراز لـ(بيورن) عند الطرف الآخر للمائدة. فجلس عليه الرجل بساقيه الضخمتين ممددتين تحت المائدة. كانت تلك هي كل المقاعد المتوفرة في ردهة (بيورن)، ولربما تكون المقاعد والموائد قد أعدت بأطوال منخفضة لتتناسب أطوال الحيوانات الرائعة التي كانت تخدم (بيورن) وتقدم له الوجبات.

أتدرون علام جلس بقية الأقزام؟ لا، لم تنسهم المهور، بل أحضرت لهم مقاعد مستديرة كالبراميل مصنوعة من جذوع الأشجار المصقولة واللمعة، ومنخفضة جدًا حتى بالنسبة لـ(بيلبو). سرعان ما جلس الجميع إلى مائدة (بيورن) في القاعة التي لم تشهد مثل هذا التجمع منذ سنوات طويلة.

جلس الجميع يتناولون وجبة عشاء شهية لم يتناولوا مثلها منذ ودعوا (إلروند) ورحلوا عن منزل (الملاذ الأخير) في الغرب. تراقص الضوء الصادر من المشاعل ونار المدفأة من حولهم، بالإضافة إلى ضوء شمعتين حمراوين طويلتين مصنوعتين من شمع العسل. وأثناء تناولهم وجبة العشاء كان (بيورن) يحكي بصوته الأجش الخفيض للساحر والأقزام والهوبيت قصصًا عن الأراضي البرية المحيطة بهذا الجانب من الجبل، وتحديدًا عن الغابة المظلمة الخطرة التي كانت تمتد على الطرفين الشمالي والجنوبي لأرض مساحتها تتطلب منهم مسيرة يوم بأكمله وتقطع طريقهم إلى الشرق.

إنها غابة (ميركوود) الرهيبة...

أصغى الأقزام لقصص (بيورن) بانتباه، فهم يعرفون أنهم مقدمون على اجتياز تلك الغابة، وأنها تُعتبر من أكثر المناطق المحفوفة بالمخاطر بعد اجتياز منطقة الجبال وقبل أن يصلوا إلى عرين التنين. حين انتهى الجميع من تناول عشائهم، بدأ الأقزام يحكون قصصًا عن مغامراتهم، لكن (بيورن) كان قد بدأ يغلبه النعاس، ولم يعر حكايات الأقزام اهتمامًا كبيرًا. دار حديث الأقزام حول الذهب والفضة والجواهر واشتغالهم بالمعادن، لكن (بيورن) لم يبد أي اهتمام بتلك الأمور، فلم تكن أي من مقتنياته بالردهة التي جلسوا فيها مصنوعة من الذهب أو الفضة، بل إن باستثناء سكاكين الطعام لم يكن هناك بالردهة ما هو مصنوع من المعدن سوى القليل جدًا.

وبعد تناولهم وجبة عشائهم الشهية، ظلوا جميعًا جالسين إلى تلك المائدة الطويلة يتناولون شرابهم في أكواب خشبية. حل المساء بالخارج، واشتعلت نيران المدفأة في منتصف الردهة بالمزيد من الحطب، وانطفأت المشاعل، لكنهم مكثوا هناك يستنيرون بضوء النيران المتراقصة، ومن خلفهم ظهرت عوارض المنزل الطويلة حالكة الظلام عند أعلاها كأشجار الغابات.

وربما يكون ما سمعه (بيلبو) حقيقي أو ربما يكون ضربًا من الخيال، لكنه على أية حال تخيل أنه سمع أصوات عند قمة العوارض الخشبية كأصوات تخلل الرياح من بين فروع الأشجار، بل إنه سمع أيضًا نعيب بوم. أحس (بيلبو) كأن الأصوات من حوله قد بدأت تخفت وتبعد، وبأن النعاس قد بدأ يغلبه، لكنه فجأة استيقظ مفزوعًا عندما أصدر باب الردهة الضخم صوت صرير، ثم انغلق بعنف. نظر (بيلبو) حوله ليجد أن (بيورن) قد رحل، وها هم الأقزام يجلسون على الأرض يضعون ساقًا على ساق حول المدفأة، ويبدو أنهم قد شرعوا لتوهم في الغناء.

غنى الأقزام الكثير من الأغاني، واستمر غناؤهم لمدة طويلة؛ وها هي إحدى أغنياتهم:

الريحُ تسري في المروجِ الذابلة
لكنّما الأوراق في الغابة خاملة
الظل ينتشر في الليل وفي النهار
تنساب في الخفوت أشياء مخيفة قاتلة
الريح تأتي من جبال الخوف والصقيع
تأتي كمثل المد والجذر بصمت مخيف
تسّاقط الأوراق في وقع مريع
تتبعها الفروع بالأنين
تتبعها الغابة بالعويل
تتبعها الأغصان بالحفيف
تأتي العواصف هنا شرقًا وغربًا
أي تحرك يموت ها هنا في الغابة
لكن صرير هذه الرياح يسري
يهدر في المستنقع المميت خوفًا
تجري الرياح كي تفرق الغيوم
تصفر بين العشب
تحت السماء الباردة

تهز صفحات المياه الراكدة

ترمي وراءها عرين التنين

حيث دخان يتصاعد إلى السماء

حيث صخور قاسيات لا تلين

تترك خلفها جبالاً وحيدة

انطلقت في رحلاتها تغادر العوالم شريدة

تأتي إلى عمق بحار الظلمات

لما تأهب المحاق للسفر

أما النجوم ستذوب في نهارها الآتَ

كان النعاس بدأ يتملك (بيلبو) مرة أخرى حين نهض (جاندلف) فجأة وقال: "حان موعد النوم، بالنسبة لنا فقط وليس بالنسبة لـ(بيورن). يمكننا أن نقضي ليلتنا في هذه الردهة في سلام وأمان، لكنني أحذركم جميعًا من أن تنسوا ما قاله (بيورن) قبل أن يرحل عن الردهة: التجول بالخارج قبل سطوع الشمس يعرض حياتنا جميعًا للخطر."

وجد (بيلبو) الأفرشة قد أُعدت بالفعل في جانب من الردهة. كانت على شكل منصة منصوبة بين العواميد والجدار الخارجي للردهة. كان فراش الهوبيت عبارة عن فرشة صغيرة من القش وأغطية من الصوف. أوى (بيلبو) إلى فراشه بسعادة لشعوره بالدفء، رغم أن فصل الصيف لم يكن قد انقضى بعد. هدأت نيران المدفأة، واستغرق الهوبيت في النوم، لكنه استيقظ في وقت لاحق في تلك الليلة حين لم يتبق من نيران المدفأة سوى بعض الجمرات المشتعلة. كان الأقزام و(جاندلف) من حوله نيامًا، وأدرك (بيلبو) ذلك من أنفاسهم المنتظمة التي سمعها وسط سكون الليل. نظر الهوبيت حوله فرأى لضوء القمر العالي الأبيض انعكاسًا على الأرض بعد مروره عبر فتحة السقف التي يخرج منها الدخان.

وبعد برهة سمع (بيلبو) أصواتًا مزعجة بالخارج تشبه أصوات شجار حيوانات ضخمة عند الباب. اندهش (بيلبو) من تلك الأصوات، وتساءل إن كان مصدرها (بيورن) وهو في هيئة مسحورة، وأنه ربما يدخل عليهم وهم نيام بهيئته كدب ويقتلهم جميعًا.

أسرع (بيلبو) بالاختباء تحت الأغطية، وغطى نفسه حتى رأسه. وفي النهاية ورغم

مخاوفه، استغرق الهوبيت في النوم مرة أخرى.

استيقظ (بيلبو) في صباح اليوم التالي عندما تعثر به أحد الأقزام في الردهة المظلمة حيث كان ينام. وقع القزم عليه، ثم تدحرج مرتطمًا بالمنصة ومنها إلى الأرض.

فتح (بيلبو) عينيه ليجد (بوفر) يتذمر، ثم قال له: "انهض أيها الكسول وإلا لن يتبقى أي إفطار لك."

قفز (بيلبو) من مرقده وصاح: "الإفطار! أين الإفطار؟"

أجاب بعض الأقزام الآخرون الذين كانوا يتجولون في الردهة: "أغلبه في بطوننا، لكن المتبقي منه في الشرفة بالخارج. خرجنا لنبحث عن (بيورن) منذ أن سطعت الشمس، لكنه لا أثر له في أي مكان، رغم أن وجبة الإفطار كانت معدة بالخارج قبل أن نستيقظ."

سأل (بيلبو) وهو يتحرك بأسرع ما أمكنه ليجد ما يأكله: "وأين (جاندلف)؟"

أجاب الأقزام: "يبدو أنه في مكان ما بالخارج."

لم ير (بيلبو) الساحر طوال ذلك النهار، لكن في المساء، وتحديدًا قبل غروب الشمس مباشرة، وصل الساحر إلى الردهة ليجد حيوانات (بيورن) الرائعة –والتي قامت بخدمة الهوبيت والأقزام طوال النهار– تقدم لهم وجبة العشاء. وعن (بيورن) لم يسمع أو ير الأقزام أي شيء منذ الليلة السابقة لليلتهم هذه، وقد بدأت تتملكهم الحيرة.

سأل الأقزام: "أين مضيفنا، وأين كنت طوال اليوم أيها الساحر؟"

–"كل سؤال على حدة، لكنني لن أجيب على أية أسئلة حتى أتناول عشائي! إنني لم أتناول أي شيء منذ صباح اليوم."

وأخيرًا انتهى (جاندلف) من طعامه وشرابه، فقد تناول رغيفين كاملين من الخبز مع مقدار كبير من الزبد والعسل والقشدة، وشرب على الأقل ربع جالون من النبيذ، ثم أخرج غليونه من جيبه وقال: "سأجيب على السؤال الثاني أولاً... يا للروعة! إن هذه البقعة مناسبة تمامًا للتدخين وإطلاق حلقات الدخان في الهواء!"

وفعلاً ولمدة طويلة لم يعطهم الساحر أي إجابة عن تساؤلاتهم الكثيرة، فقد شغلته حلقات الدخان التي ظل يطلقها في سقف الردهة. تدور هذه حول العوارض الخشبية، وتتحول إلى حلقات مختلفة الأشكال والألوان، ثم في النهاية تطارد بعضها البعض إلى خارج فتحة السقف. من المؤكد أن منظر تلك الحلقات وهي تفرقع في الهواء واحدة تلو الأخرى قد بدا غريبًا للغاية لكل من رآه

خارج المنزل، وخصوصًا أنها جاءت بجميع الألوان: الأخضر والأزرق والأحمر والفضي والأصفر والأبيض، وكذلك جميع الأحجام: فمنها الكبير ومنها الصغير، ومنها حلقات صغيرة تعبر خلال حلقات كبيرة، وحلقات أخرى أخذت تتشابك لتكوّن أشكالاً وأرقامًا، ثم تنطلق مبتعدة في السماء كسرب من الطيور.

وأخيرًا قال (جاندلف) ردًا على تساؤلات الأقزام والهوبيت: "لقد خرجت لاقتفاء آثار الدببة، فمن الواضح أنها تعقد اجتماعًا دوريًا بالخارج هنا وأن موعده كان ليلة أمس. علمت على الفور أن كل تلك الآثار لا يمكن أن تكون لـ(بيورن) وحده، فقد كان هناك الكثير والكثير منها بمختلف الأحجام. لقد استطعت تمييز آثار دببة، منها الصغير والكبير، ومنها المتوسط الحجم، ومنها ذو الحجم الهائل؛ وجميعها كان يرقص بالخارج منذ ظلمة ليلة أمس وحتى أول أشعة لفجر اليوم. لقد اجتمعت الدببة بعد أن جاءت من كل اتجاه، باستثناء الجهة الغربية التي يعبر الطريق فيها فوق النهر وصولاً إلى الجبال. في هذا الاتجاه لم تكن هناك آثار أقدام سوى لدب واحد، ولم تكن آثار أقدام الدب تصل إلى هنا، بل كانت تبتعد عن المكان هنا.

تعقبت آثار ذلك الدب حتى بلغت الكاروك، وهناك اختفت الآثار بالقرب من النهر، لكن مياه النهر من خلف الصخرة كانت عميقة للغاية وسريعة التدفق بحيث لم أتمكن من عبور النهر. لقد تيسر لنا، كما تذكرون، عبور النهر من هذه الضفة والوصول إلى الكاروك عبر المخاضة، لكن عند الجانب الآخر من النهر لم يكن الأمر سهلاً، فهناك جرف ومن ورائه تجري المياه بتدفق ملتفة كالدوامة. اضطررت إلى السير لأميال عديدة قبل أن أجد مكانًا مناسبًا بحيث يكون النهر فيه متسعًا لكن ضحلاً بدرجة تمكنني من الخوض فيه. وبعد عبور النهر سباحةً كان عليّ السير مجددًا لأصل إلى مكان آثار الأقدام لأتعقبها من جديد، لكن الوقت كان قد تأخر، ولم أتمكن من تعقبها لمسافة طويلة، لكنني توصلت إلى أنها كانت تتجه مباشرة باتجاه غابة أشجار الصنوبر التي تقع شرق جبال الضباب، وهي المنطقة ذاتها التي شهدت حفلنا البهيج مع الوارج ليلة أول أمس. وبهذا أظنني لم أجب فقط عن سؤالكم الثاني، بل وعن الأول أيضًا."

وبهذا أنهى (جاندلف) حديثه، وجلس صامتًا لبعض الوقت. أما (بيلبو) الذي ظن أنه فهم ما قصده الساحر بحديثه صاح: "ماذا سنفعل إن قاد (بيورن) ذئاب الوارج والجوبلين إلى هنا؟ سنلقى حتفنا جميعًا! ظننتك قلت إنه عدو لهم!"

قال (جاندلف): "نعم، هذا ما قلته. لا تكن سخيفًا! من الأفضل أن تخلد إلى النوم، فمن الواضح أن قدرتك على الإدراك قد بدأت تشعر بالنعاس."

أحس الهوبيت بإحباط شديد. وبما أنه لم يكن هناك ما يفعله، فقد قرر أن يخلد فعلاً إلى النوم. شرع الأقزام في الغناء، وبينما كان النعاس قد بدأ يتملك (بيلبو)، أخذت تدور في رأسه الصغير أفكار غريبة بخصوص (بيورن) حتى راح في سبات عميق، فرأى في منامه مئات الدببة السوداء ترقص رقصات بطيئة لكن عنيفة، وتلف وتدور في ضوء القمر في الفناء الخلفي للمنزل. وحين استيقظ الهوبيت كان الجميع نيامًا، لكنه سمع أصوات تخبط وشجار وصياح بالخارج كالأصوات التي سمعها في الليلة السابقة.

في الصباح التالي، أيقظ (بيورن) الجميع بنفسه، وقال محدثًا إياهم: "إذن فمازلتم هنا جميعًا!"

ورفع الهوبيت قائلاً بوجه بشوش: "لم تلتهمكم ذئاب الوارج أو الجوبلين أو الدببة كما أرى!"

ووكز صُدرة السيد (باجنز) بطريقة يعوزها الاحترام، وقال ضاحكًا: "لقد بدأ الأرنب الصغير يسمن من جديد بعد تناوله الخبز والعسل. هيا، لنتناول المزيد!"

نهض الجميع لتناول وجبة الإفطار مع (بيورن) الذي يبدو أنه –من باب التغيير– كان حقًا في حالة مزاجية ممتازة وقد علت وجهه أمارات الابتهاج، حتى إنه أضحكهم جميعًا بالكثير من الحكايات المرحة التي أخذ يقصها عليهم، كما أنه أجاب عن التساؤلات التي دارت بخلدهم –من دون حتى أن يسألوها– بشأن اختفائه يوم أمس ومعاملته اللطيفة لهم هذا الصباح. أخبرهم (بيورن) بأنه عبَر النهر ومنه إلى منطقة الجبال، ودعونا لا ننسى أن بإمكانه التنقل بسرعة عالية، على الأقل حين يتخذ هيئة دب. وما إن رأى (بيورن) الأرض الفضاء مقر اجتماع الذئاب محترقة، علم على الفور أن جزءًا على الأقل من قصة الساحر والأقزام حقيقي، لكنه علم أكثر من ذلك أيضًا، فقد أمسك بأحد الوارج وأحد الجوبلين اللذين كانا يتجولان في الغابة، وعن طريقهما عرف المزيد من الأخبار: أن الحراس من الجوبلين كانوا مستمرين في البحث عن الأقزام بمساعدة من الوارج، وأنهم في حالة من الغضب الشديد بسبب مقتل كبيرهم، وأيضًا بسبب الحروق التي تسببوا فيها لزعيم الذئاب في أنفه؛ بالإضافة إلى موت الكثير من قادته بفعل الأكواز المشتعلة التي ألقى الساحر بها من فوق الشجرة. أخبرا (بيورن) بالكثير حين أجبرهما على هذا، لكن راوده شعور بأن هناك المزيد من الأمور الشريرة الأخرى التي يجري مجراها، وأن غارة كبيرة من جيش الجوبلين بأكمله بالتعاون مع حلفائهم من الذئاب سيتم شنها على الأراضي التي تستظل بظل الجبال للعثور على الأقزام، أو للأخذ بالثأر من البشر وبقية المخلوقات التي تسكن تلك البقعة عقابًا لهم على توفيرهم المأوى للأقزام، فمن الواضح أن هذا ما يظنه الجوبلين والذئاب.

قال (بيورن): "لقد كانت قصة جيدة تلك التي قصصتموها عليَّ، لكنها تعجبني أكثر الآن بعد أن تأكدت من صحتها. عليكم التماس العذر لي لعدم تسليمي بقصتكم فور أن سمعتها، فلو جربتم العيشة هنا عند حافة (ميركوود)، ستعرفون أنه لا يمكنكم التسليم بحديث أي شخص لا تعرفونه كمعرفتكم لإخوانكم أو أكثر قليلاً. جُل ما يمكنني قوله هو إنني انطلقت عائدًا إلى هنا بأسرع ما أمكنني لأتأكد من سلامتكم، ولأعرض عليكم أية مساعدة أستطيع تقديمها. عليَّ أن أقدر الأقزام أكثر من ذلك بدءًا من يومنا هذا، فقد قتلوا كبير الجوبلين... قتلوا كبير الجوبلين!"

وضحك (بيورن) بصوت مرتفع، ثم سأله (بيلبو) فجأة: "وماذا فعلت بالجوبلين والوارج؟"

أجابه (بيورن) قائلاً: "تعال معي لأريك!"

تبعه الجميع حول المنزل ليجدوا رأس الجوبلين معلقًا خارج البوابة، وعلى شجرة خلفها مباشرة رأوا فراء الوارج مثبت بمسامير. كان (بيورن) عدوًّا شرسًا بالفعل، لكن الآن بعد أن أصبح صديقًا لهم، رأى (جاندلف) أنه من الأفضل لهم أن يطلعوه على بقية قصتهم والهدف من وراء رحلتهم تلك حتى يتلقوا أقصى مساعدة يمكنه تقديمها لهم.

وعدهم (بيورن) بتقديم التالي: مهور لكل واحد منهم، وحصان لـ(جاندلف) من أجل رحلتهم التالية في الغابة، كما وعدهم بتزويدهم بطعام يكفيهم لأسابيع إن حافظوا عليه، كما تعهد بتزويدهم بالجوز والدقيق وجرار محكمة الغلق من الفاكهة المجففة، وقدور وأوان خزفية حمراء من العسل، وكعكات مخبوزة مرتين لتظل محفوظة لمدة طويلة، وهذه يكفيهم تناول فقط القليل منها لتزودهم بطاقة تساعدهم على السير لمسافات طويلة. طريقة صنع تلك الكعكات كانت أحد أسراره، لكن الأكيد أن العسل هو أحد مكوناتها، فهو أيضًا أحد مكونات جميع وصفاته الأخرى التي امتازت بالمذاق الطيب، رغم أنها تسبب لك العطش بعد تناولها. لكن (بيورن) أكد لهم أنهم ليسوا بحاجة لحمل قرب من المياه في هذا الجانب من الغابة، إذ إن هناك الكثير من الجداول والينابيع على طول الطريق.

-"لكن طريقكم عبر (ميركوود) سيكون مظلمًا ومحفوفًا بالمخاطر ومليئًا بالصعاب. لن يكون العثور على المياه سهلاً هناك، وكذلك الطعام أيضًا. لم يحن بعد وقت نضوج ثمار الجوز -رغم أنه من الممكن أن يكون قد فات أوانه بالفعل قبل وصولكم لتلك المنطقة بالجانب الآخر- وثمار الجوز هي الثمار الوحيدة الصالحة للأكل في تلك المنطقة، فهناك كل ما هو بري يمتاز بالغموض والتوحش ويبعث على الريبة. سأزودكم بقرب لحمل المياه، كما سأعطيكم بعض الأقواس

والسهام، لكنني أشك أن أيًا مما ستجدونه في (ميركوود) سيكون صالحًا للأكل أو الشرب. أعرف جدول مياه واحد هناك، وهو أسود ومتدفق ويقطع الطريق. لا يجب عليكم الشرب من هذا الجدول أو الاستحمام فيه، فقد سمعت أنه مسحور ويجعل المرء خمولاً كثير النسيان. ووسط الظلال والظلام في هذا المكان لا أعتقد أنكم ستتمكنون من صيد أي شيء -سواء كان صالحًا أو غير صالح للأكل- من دون أن تضطروا لأن تحيدوا عن طريقكم، وهذا هو ما عليكم ألا تفعلوه أبدًا لأي سبب من الأسباب. تلك هي جميع النصائح التي أستطيع أن أقدمها لكم، لكنني لا أستطيع مساعدتكم بداية من منطقة ما بعد حافة الغابة، فهناك سيكون عليكم الاعتماد على الحظ والشجاعة، بالإضافة إلى المؤن التي سأعدها لكم، لكنني أطلب منكم أن تبعثوا بحصاني ومهوري لدى وصولكم لمخرج الغابة، كما أتمنى لكم رحلة موفقة وسريعة، واعلموا أن بيتي مفتوح لكم في حال عدتم من هذا الطريق مرة أخرى."

هكذا أنهى (بيورن) حديثه، وشكر له الجميع -خاصة الأقزام- جميله بانحناءات عدة ورفع القلنسوات وكذلك عبارات شكر كثيرة كـ(نحن في خدمتك، يا سيد الأروقة الخشبية الواسعة!)

لكنهم في الوقت ذاته شعروا جميعًا بأن عزيمتهم قد انخفضت، أو بالأحرى غرقت وسط كلمات (بيورن) العميقة المقبضة، كما ساورهم شعور بأن مغامرتهم تلك هي أكثر خطورة بكثير مما ظنوا. وحتى إن نجوا من جميع مخاطر الطريق، فسيظل هناك تنين بانتظارهم في نهاية المطاف.

أمضى الجميع وقتهم هذا الصباح في الإعداد للرحلة المقبلة، وبحلول منتصف النهار تناولوا آخر وجباتهم مع (بيورن)، وبعد ذلك امتطوا الخيول التي أعارهم إياها. وبعد أن تبادلوا معه كلمات الوداع، انطلقوا بسرعة مناسبة في رحلتهم عبر بوابة منزله.

وما إن تخطى الركب الحاجز العالي الذي يطوق أراضي (بيورن) من ناحية الشرق، حتى اتجهوا ناحية الشمال، ثم انحرفوا قليلاً باتجاه الشمال الشرقي. وبفضل نصيحته، لم يقصدوا طريق الغابة الرئيس الواقع جنوب أراضيه. إن كانوا قد استمروا في طريقهم الذي خططوا لسلوكه منذ البداية، لوصلوا لنهاية ممر الجبال، ثم إلى جدول المياه الذي يتصل بالنهر العظيم على بعد أميال من جنوب الكاروك، وهناك كانوا سيضطرون إلى عبور مخاضة عميقة بالنهر -هذا إن كانت المهور لازالت بحوزتهم- ومن ورائها درب يصل إلى حافة الغابة، ومنه إلى مدخل طريق الغابة القديم. لكن (بيورن) حذرهم من أن الجوبلين قد بدءوا يستخدمون هذا الطريق بكثرة في الآونة الأخيرة، بينما طريق الغابة ذاته قد أصبح -حسبما سمع- مهجورًا بعد أن كسته النباتات

الكثيفة عند أطرافه الشرقية منذ فترة طويلة، وضاعت ممراته تحت مستنقعات لا سبيل لاجتيازها. هذا بالإضافة إلى أن أطرافه الشرقية تبعد كثيرًا عن جنوب الجبل الوحيد، وبالتالي كانوا سيضطرون إلى السير لمسافة طويلة في طرق وعرة باتجاه الشمال بعد وصولهم إلى الجانب الآخر من الجبال.

صحيح أن حافة (ميركوود) أقرب لحدود النهر العظيم عند منطقة شمال الكاروك، ورغم أن الجبال هنا تقترب كثيرًا من النهر، فإن (بيورن) قد نصحهم بأن يسلكوا هذا الطريق الآخر، فقد أوضح لهم أنه في مكان ما على بعد مسيرة بضعة أيام من شمال الكاروك تقع بوابة طريق غير معروف يمر عبر (ميركوود)، وقرب نهايته يصل مباشرة إلى الجبل الوحيد.

-"الجوبلين لا يجرؤون على عبور النهر العظيم على بعد مئات الأميال شمال الكاروك، ولا يجرؤون كذلك على التسلل بالقرب من داري، فهناك من يحمي أرضي جيدًا أثناء الليل. لكن عليكم أن تسرعوا، لأنهم إن انطلقوا في وقت قريب، فسوف يعبرون النهر من ناحية الجنوب، ويطوفون باحثين عنكم عند أطراف الغابة ليقطعوا عليكم الطريق، ولا تنسوا أن الوارج أسرع وأخف حركة من المهور. لكن في رأيي أنكم ستكونون أكثر أمانًا إن اتجهتم ناحية الشمال، حتى وإن بدا لكم أنكم تقتربون مرة أخرى من معقلهم، وهذا هو ما لن يتوقعوا حدوثه، وسيكون عليهم قطع مسافات أطول للإمساك بكم. والآن انطلقوا بأسرع ما يمكنكم!" هكذا أخبرهم (بيورن) قبل أن ينطلقوا من جديد في رحلتهم، ولهذا السبب كانوا يمتطون مهورهم في صمت، ويعدون أينما كانت الأراضي ممهدة ومكسوة بالحشائش.

ظهرت الجبال قاتمة على يسارهم، وظهر لهم في الأفق من بعيد النهر والأشجار من حوله بينما هم يقتربون منه أكثر وأكثر. كانت الشمس لتوها قد اتجهت غربًا حين بدءوا رحلتهم، وحتى قبيل غروبها كانت تبعث بأشعتها الذهبية على الأراضي من حولهم. كان من الشاق على أنفس الأقزام أن يفكروا في الجوبلين الذين يلاحقونهم، لكن بعد أن ابتعدوا عن منزل (بيورن) بأميال عديدة، بدءوا يتحدثون ويغنون من جديد، ويشغلون أنفسهم عن التفكير في طريق الغابة المظلم الذي سيصلون إليه آجلاً أم عاجلاً. لكن حينما حل المساء ولمعت قمم الجبال في مواجهة آخر أشعة للشمس الغاربة، نصبوا مخيمًا صغيرًا وعينوا حراسًا منهم، لكن أغلبيتهم كان نومه مضطربًا، وكثير منهم رأى في منامه أحلامًا مزعجة امتزج فيها عواء الذئاب المتوحشة بصرخات الجوبلين، لكن صباح اليوم التالي جاء مشرقًا وصفوًا من جديد.

ملأ الجو واليابسة ضباب خريفي أبيض، وكان الهواء باردًا إلى حد ما، لكن سرعان ما اختفى الضباب بعد أن أشرقت الشمس وبعثت بأشعتها الحمراء من المشرق. لكن قبل أن تعلو

الشمس في السماء، كانوا قد انطلقوا في طريقهم من جديد ليستكملوا مسيرة يومين آخرين. خلال رحلتهم لم يروا سوى اليابسة المكسوة بالحشائش والأزهار وبعض الأشجار هنا وهناك وطيور تحلق في السماء، وبين الفينة والفينة قطعان من الأيل الحمراء ترعى أو تجلس في الظلال. أحيانًا كان (بيلبو) يرى قرون ذكور الأيل من بين الحشائش الطويلة، حتى إنه ظنها في بادئ الأمر فروع أشجار جافة ساقطة على الأرض. وبحلول الأمسية الثالثة، كانوا جميعًا حريصين على أن يسرعوا، فقد أخبرهم (بيورن) أن عليهم الوصول إلى بوابة الغاب في الصباح الباكر لليوم الرابع، فأكملوا مسيرتهم في اليوم الرابع حتى ما بعد الغسق وفي ظلمة الليل تحت ضوء القمر الخافت. ووسط ظلمة الليل تخيل (بيلبو) أنه رأى على أحد جانبيه ظل دب ضخم يطوف خلسة في نفس اتجاههم، وحين أتته الجرأة لأن يذكر الأمر لـ(جاندلف)، أجابه الساحر قائلاً: "صه! لا تلق للأمر بالاً!"

وفي اليوم التالي، بدءوا رحلتهم قبل الفجر رغم أن ليلتهم كانت قصيرة. وما إن أنارت الشمس ما حولهم، أصبحوا يرون الغابة كأنها مقبلة عليهم أو على موعد معهم، تنتظرهم كجدار أسود عابس أمامهم. ظهر ميل لأعلى في طريقهم، وبدا للهوبيت أن الصمت قد بدأ يخيم على كل شيء. خفتت أصوات زقزقة العصافير، واختفت الغزلان وكذلك الأرانب من المشهد. وبحلول فترة ما بعد الظهيرة، كانوا قد وصلوا إلى أعتاب غابة (ميركوود)، وينالون قسطًا من الراحة تحت أفرع أشجارها العملاقة الخارجية. كانت جذوع الأشجار ضخمة ومتشابكة، وفروعها ملتوية، وأوراقها قاتمة وطويلة، ونمت نباتات اللبلاب على الأشجار وتدلت على الأرض.

-"حسن، تلك هي (ميركوود)! أضخم غابة في نصف العالم الشمالي. أرجو أن تعجبكم. والآن عليكم إرسال تلك المهور الممتازة التي استعرتموها." هكذا حدثهم (جاندلف)، لكنه حين شعر أن الأقزام يميلون إلى التنصل من وعدهم، أخبرهم أنه من السذاجة أن يفكروا في أمر كهذا، وأضاف قائلاً: "(بيورن) ليس بعيدًا عن مكاننا هذا كما تظنون، ومن الأفضل لكم أن تحافظوا على عهودكم بأية حال، فـ(بيورن) عدو شرس. إن بصر السيد (باجنز) أكثر حدة من بصركم إن كنتم لم تلاحظوا دبًا ضخمًا يعدو بنفس اتجاهنا كل ليلة وسط الظلام، أو يجلس بعيدًا في ضوء القمر يراقب مخيماتنا؛ ليس فقط بغرض حمايتكم وإرشادكم، بل ليطمئن على المهور أيضًا. قد يكون (بيورن) صديقًا لكم، لكن حبه لحيواناته يعادل حب الأب لأبنائه. أنتم لا تدركون كم كان كريمًا معكم حين سمح لكم أيها الأقزام بأن تمتطوا مهوره لكل تلك المسافة البعيدة وبهذه السرعة العالية، ولا تتصورون كذلك ماذا يمكنه أن يفعل بكم إن حاولتم أخذ مهوره إلى الغابة."

قال (ثورين): "وماذا عن الحصان إذن؟ أنت لم تذكر أي شيء بخصوص إرساله إلى

(بيورن)."

رد (جاندلف): "لم أذكر شيئًا بخصوص ذلك، لأنني لن أرسله إلى منزله."

-"وماذا عن وعدك إذن؟"

-"سأحفظه، فأنا لن أرسل الحصان، لأنني سأمتطيه إلى هناك!"

ووقتها فقط أدرك الأقزام والهوبيت أن (جاندلف) سيتركهم عند حافة (ميركوود)، فشعروا جميعًا بيأس شديد، لكن ما من شيء يقولونه كان ليجعل الساحر يغير من خططه.

استطرد الساحر حديثه قائلاً: "لقد تحدثنا في هذا الأمر من قبل حين حططنا على الكاروك، ولا فائدة من الجدال، فلدي كما أخبرتكم من قبل مسألة أخرى مُلحة، عليَّ تولي أمرها في أقصى الجنوب، وسأصل إلى هناك متأخرًا على أية حال بسبب مصاحبتي لكم. قد نلتقي مرة أخرى قبل أن تنتهي رحلتكم، لكن تبقى احتمالية ألا نلتقي، وهذا يعتمد على حظكم وشجاعتكم وذكائكم، ولهذا أرسلت السيد (باجنز) معكم. لقد أخبرتكم من قبل بأن لديه طاقات أكبر مما تتصورون، وأنكم ستكتشفون ذلك قريبًا، ولذا ابتهج يا (بيلبو) وامح الكآبة عن ملامحك. ابتهج يا (ثورين) وأنتم أيها الرفاق، فإنها رحلتكم أنتم في المقام الأول. صبوا اهتمامكم على الحصول على الكنز في نهاية المطاف، وانسوا أمر الغابة والتنين، على الأقل حتى صباح الغد."

وردد الساحر تلك الجملة الأخيرة في صباح اليوم التالي أيضًا.

والآن لم يتبق سوى أن يملؤوا قِربهم بالماء من نبع صاف قريب من بوابة الغابة، وأن يفكوا أغراضهم المحزومة على ظهور المهور. حاول الأقزام بقدر المستطاع تقسيم الأغراض بطريقة عادلة، ورغم ذلك شعر (بيلبو) أن حصته ثقيلة بشكل مرهق، ولم يرق له على الإطلاق أنه سيضطر إلى أن يسير مجهدًا لأميال وأميال بهذا الحمل على ظهره، لكن (ثورين) قال له: "قريبًا جدًا سيخف الحمل عن ظهرك، وسرعان ما سنتمنى جميعًا لو كانت حمولتنا أثقل مما هي الآن، وذلك حين يبدأ زادنا في النقصان."

وأخيرًا ودع الأقزام والهوبيت مهورهم، وأرشدوها لطريق منزل (بيورن)، فانطلقت المهور فرحة بسرعة كأنها مسرورة بابتعادها عن ظلال (ميركوود)؛ وكاد (بيلبو) يقسم إنه لمح طيفًا لدب يخرج من بين ظلال الأشجار وينطلق مسرعًا خلف المهور.

وحان موعد وداع (جاندلف) أيضًا، وأحس (بيلبو) بكآبة شديدة، فجلس على الأرض وتمنى لو يرحل معه على صهوة حصانه الكبير. دخلوا الغابة بعد تناولهم جميعًا لوجبة إفطار متواضعة للغاية، وبدت الغابة مظلمة في وضح النهار تمامًا كظلمتها في الليل، كما بدت شديدة

الغموض.

-"كأنها تشاهد وتترقب أمرًا ما." هكذا قال (بيلبو) في نفسه.

قال (جاندلف) قبل رحيله محدثًا (ثورين): "وداعًا!"

ثم وجه حديثه للجميع قائلاً: "وداعًا لكم جميعًا! لا تنسوا، شقوا طريقًا مستقيمًا في الغابة ولا تحيدوا عنه. إن حدث ذلك، فمن المستحيل أن تجدوه مرة أخرى، وبالتالي لن تخرجوا أبدًا من (ميركوود)، وحينها لا أعتقد أن أحدًا سيعثر عليكم من جديد، ولا حتى أنا."

تمتم الهوبيت قائلاً: "هل من الضروري حقًا عبور (ميركوود)؟"

أجاب الساحر: "نعم. إن أردتم الوصول إلى الجانب الآخر، فعليكم إما أن تعبروا (ميركوود) وإما أن تتراجعوا عن رحلتكم. لكنني لن أسمح لك بأن تتراجع الآن يا سيد (باجنز)، وأشعر بالخجل لأنك فكرت في ذلك. عليك أن تتولى حماية كل هؤلاء الأقزام بالنيابة عني."

وضحك الساحر، فقال (بيلبو): "لا، لا! لم أقصد ذلك. كنت فقط أتساءل إن كان هناك طريق آخر يدور حول (ميركوود) بدلاً من الطريق الذي يقطعها."

-"أجل هناك واحد، لكن فقط في حال قبولكم بأن تسيروا قرابة مائتي الميل باتجاه الشمال، ثم ضعف تلك المسافة باتجاه الجنوب. لكن حتى حينها لن يكون الطريق آمنًا، فليست هناك طرق آمنة في هذا الجزء من العالم. لا تنسوا أنكم وصلتم إلى حافة البراري، مما يعني أنكم معرضون لمواجهة ما لا تتوقعونه أينما ارتحلتم. وقبل أن تحوموا حول (ميركوود) سالكين طريق الشمال، ستجدون أنفسكم وسط منحدرات الجبال الرمادية، وهي ببساطة مكتظة بالجوبلين والهوبجوبلين، هذا بالإضافة إلى الكثير من المخلوقات الأخرى المروعة؛ وقبل أن تحوموا حول (ميركوود) سالكين طريق الجنوب، ستضطرون للمرور بأراضي النكرومانسر. وحتى أنت يا (بيلبو) من المؤكد أنك قد سمعت الكثير من الحكايات والأساطير التي تدور حول هذا المشعوذ الأسود. لا أنصحكم على الإطلاق أن تقتربوا من الأماكن التي يطل عليها برجه المظلم المخيف! إذن عليكم أن تلزموا طريق الغابة، وأن تُحمِّسوا أنفسكم وتتطلعوا إلى الأفضل، وبحظ وفير ستخرجون من الجانب الآخر يومًا ما لتروا بأعينكم المستنقعات الشاسعة على بعد قريب، ومن ورائها في أعالي الشرق تبصرون الجبل الوحيد حيث يعيش عزيزنا (سموج) العجوز. لكنني أحبذ ألا يكون قد علم بزيارتكم وتهيأ لاستقبالكم!"

قال (ثورين) محدثًا (جاندلف): "حديثك هذا مطمئن للغاية! وداعًا! إن كنت لن تأتي معنا، فمن الأفضل أن ترحل وأن توفر حديثك هذا!"

رد (جاندلف): "الوداع إذن! وداعًا!"

وأدار حصانه وامتطاه باتجاه الغرب، لكنه لم يستطع مقاومة الشعور أن الكلمة الأخيرة لابد وأن تكون له. وقبل أن يخرج عن نطاق سمعهم، التفت ورفع يديه حول فيه ليعلو صوته، وسمعه الأقزام والهوبيت من بعيد يقول: "الوداع! عودوا سالمين! اعتنوا بأنفسكم، ولا تحيدوا عن الطريق!"

ومن ثم انطلق الساحر مبتعدًا، وسرعان ما اختفى من أمام أعينهم.

شعر الأقزام بغضب شديد وتملكهم الرعب لفقدان الساحر، وقالوا في غيظ: "حسن، الوداع، ارحل!"

ثم حمل كل منهم حمولته الثقيلة وقربة الماء المخصصة له، وأداروا ظهورهم لنور الشمس الساطع على الأراضي خارج (ميركوود)، وشقوا طريقهم في الغابة.

لقد بدأ الجزء الأكثر خطورة في رحلتهم بأكملها.



الفصل الثامن

ذباب وعناكب

سار الأقزام والهوبيت في صف واحد، حيث كان مدخل طريق الغابة يشبه قنطرة تؤدي إلى نفق مظلم كونته شجرتان قديمتان ضخمتان تميلان باتجاه إحداهما الأخرى، بينما التفت حولهما نباتات اللبلاب والأشنة كأنما تحاول شنقهما بأوراقها المسودّة. أما الطريق ذاته، فكان ضيقًا وعميقًا بين جذوع الأشجار في قلب الغابة. سرعان ما أصبح ضوء الشمس الذي كان ساطعًا خارج بوابة الغابة كحفرة صغيرة بعيدة تضيء من ورائهم.

خيم هدوء غريب على المكان، وبدت جميع الأشجار كأنها تميل ناحية الأرض لتسمع وقع خطوات الأقزام الذي بدا عاليًا بالفعل من فرط الهدوء. وكما تعتاد أعين السارق بعد قليل على

العتمة، بالكاد تمكن الأقزام والهوبيت من أن يبصروا طريقًا في ضوء وميض أخضر خافت. أحيانًا كان خيط من أشعة الشمس الهزيلة يحالفه الحظ، فينسل بين أوراق أعالي الأشجار؛ هذا إن لم تدركه أغصان الأشجار المتشابكة أو الفروع المعتمة من تحتها، فتستحوذ عليه لترسله شعاعًا ضعيفًا لامعًا أمامهم، لكن تلك الأشعة لم تكن وفيرة الحظ، ونادرًا ما تمكنت إحداها من اختراق الأشجار المتشابكة الأفرع، حتى فشلت في ذلك تمامًا.

كانت هناك سناجب سوداء تسكن الغابة. وكما اعتادت عينا (بيلبو) الفضوليتان أن تبصرا أشياء لا تدركها كل العيون، كان باستطاعته أن يلمح السناجب تتحرك بسرعة هنا وهناك في الطريق وتختفي وراء جذوع الأشجار. سمع الأقزام والهوبيت أصواتًا غريبة أيضًا؛ أصوات حركات أقدام كأقدام الحيوانات بين الشجيرات النامية تحت الأشجار الضخمة وبين أوراق الأشجار الكثيرة المتساقطة والمكومة على الحشائش، لكن الهوبيت لم يستطع تمييز مصدر تلك الأصوات. لكن تبقى شباك العناكب أفظع ما رأوا بالغابة؛ شباك قاتمة كثيفة، خيوطها سميكة بصورة استثنائية، مشدودة بين شجرة وأخرى، أو متشابكة مع الأفرع السفلية على أحد جوانب الشجرة، لكن هذه الخيوط لم تكن مشدودة عبر الطريق ذاته، فلابد وأن عملاً سحريًا قد أبقاها بعيدة عن الطريق، أو أن هناك سببًا آخر وراء ذلك لم يستطيعوا تخمينه.

لم يمض وقت طويل حتى نمت في قلوب الأقزام والهوبيت كراهية مفرطة لتلك الغابة، تمامًا ككراهيتهم لأنفاق الجوبلين، بل إن الغابة أفقدتهم الأمل في أنهم سيخرجون منها في يوم ما. ومع ذلك، كان عليهم أن يستمروا في طريقهم لفترة طويلة، حتى بعد أن تاقوا إلى دفء أشعة الشمس وإلى منظر السماء، واشتاقوا لمداعبة الرياح لوجوههم. لم يكن الهواء يتحرك في تلك الغابة شبه المغلقة، وبدا كل شيء بها ساكنًا مظلمًا خانقًا. ورغم أن الأقزام معتادون على شق الأنفاق، وكذلك المعيشة فيها في بعض الأحيان من دون التعرض للكثير من أشعة الشمس، فإنهم قد أحسوا بفرق واضح بين ما داخل الغابة وبين خارجها؛ أما الهوبيت –وهو من يحب سُكنى الحفر لكن لا يحبذ قضاء أيام الصيف فيها– شعر كأنه بدأ يختنق ليموت ببطء.

قضاء فترة الليل في الغابة كان أسوأ ما واجهوه حتى الآن، فليالي الغابة كانت فاحمة. لا، هي لم تكن مجرد ليال مظلمة، بل كانت بالفعل ليالي فاحمة؛ قاتمة لدرجة أنك حقًا لا تبصر فيها شيئًا. حاول (بيلبو) تمرير يديه من أمام أنفه، لكنه فشل في أن يراهما.

حسن، ربما أكون مخطئًا بقولي إنهم لم يتمكنوا من رؤية أي شيء، فقد كان بإمكانهم رؤية أعين في الظلام. وفي الغابة، نام الأقزام والهوبيت ملتصقين ببعضهم البعض، وتناوبوا الحراسة فيما بينهم. وكلما حان دور (بيلبو)، كان يرى وميضًا في ظلام الليل من حولهم. كان

أحيانًا يرى أعينًا صفراء أو حمراء أو خضراء تحدق به من مسافة قريبة، ثم يبهت وميضها وتختفي، ثم تلمع من جديد في مكان آخر. وفي أحيان أخرى، كان وميض الأعين يأتيه نزولاً من الأفرع فوق رأسه، وكان ذلك مروعًا حقًا. لكن الأعين التي أزعجته حقًا كانت باهتة منتفخة وتثير القشعريرة.

–"لابد أنها أعين حشرات ما، فهي ليست أعين حيوان، فلهؤلاء أعين أكبر حجمًا من هذه." هكذا قال (بيلبو) لنفسه.

رغم أن الجو لم يكن قارص البرودة بعد، فإن الأقزام قد جربوا إشعال نيران للحراسة أثناء الليل، لكنهم سرعان ما تخلوا عن تلك الفكرة بعد أن لاحظوا أنها تجلب المئات والمئات من الأعين حولهم. لكن تلك المخلوقات –بغض النظر عن ماهيتها– كانت شديدة الحذر لأن لا تظهر في ضوء لهيب النار الخافت. لكن الأسوأ من ذلك كله كان عُث أسود ورمادي بحجم الكف جذبه ضوء النار إليهم، فأخذ يرفرف ويطن حول آذانهم. لم يتحملوا إزعاج هذا العُث، ولا إزعاج الوطاويط الضخمة السوداء، فعدلوا عن فكرة إشعال النيران، وجلسوا في الليل المظلم، وكذلك ناموا نومهم غير المريح في ظلام لا نهاية له.

شعر الهوبيت كأنما دهرًا قد مر به في تلك الغابة، وكان دائم الشعور بالجوع، فقد كانوا شديدي الحذر فيما يختص بالمؤن. ومع ذلك، مرت الأيام وطريقهم بالغابة لم يبد له نهاية حتى بدأ الجميع يشعرون بالقلق، فهم يعرفون تمامًا أن طعامهم لن يكفيهم إلى الأبد، ويعرفون أيضًا أنه قد صار بالفعل في نقصان مستمر. حاول الأقزام تصويب سهامهم على السناجب، وأهدروا الكثير منها هباءً، حتى تمكنوا في النهاية من اصطياد أحدها وإسقاطه على الأرض. لكن بعد شيه، وجدوا أن مذاقه كريه للغاية، ومن ثم كفوا عن محاولة اصطياد المزيد من السناجب.

شعر الأقزام والهوبيت بالعطش أيضًا، ولم تكن مياه الشرب متوفرة لديهم. وطوال رحلتهم في الغابة لم يصادفهم أي ينبوع أو جدول مياه. كانت تلك هي حالهم حينما قطع طريقهم في أحد الأيام مجرى مائي شديد التدفق، لكن عرضه لم يكن كبيرًا. كانت مياه المجرى سوداء –أو على الأقل بدا لونها كذلك من شدة الظلام– وهكذا كان تحذير (بيورن) للأقزام من هذا المجرى المائي أمرًا مفيدًا. فإن لم يحذرهم، لكانوا قد شربوا من مياهه، بغض النظر عن لونها، وملؤوا قربهم الفارغة منها. بدلاً من ذلك، أخذ الأقزام والهوبيت يفكرون في كيفية عبور المجرى من دون ملامستهم لمياهه. كانت هناك بقايا جسر خشبي يعبر من فوق المجرى المائي، لكن يبدو أن أخشابه قد تعفنت وسقطت، ولم يتبق منها سوى بعض العواميد عند ضفتي المجرى.

جثا (بيلبو) عند حافة المجرى وأمعن النظر، ثم صاح قائلاً: "هناك قارب على الجانب

الآخر من المجرى. لِمَ لم يتركه أحدهم على هذا الجانب من المجرى؟!"

وبعد أن جزموا بأن بصر الهوبيت هو الأحدّ بين أبصارهم، سأله (ثورين): "كم يبعد في اعتقادك عن هنا؟"

أجابه الهوبيت: "ليس بعيدًا على الإطلاق. تقديري أنه لا يبعد عن هنا بأكثر من اثنتي عشرة ياردة."

تعجب (ثورين) قائلاً: "اثنتا عشرة ياردة! لقد ظننت أن المسافة لا تقل عن ثلاثين ياردة، لكنني فقدت حدة بصري التي كنت أتمتع بها منذ مائة عام. تبقى الحقيقة أن اثنتا عشرة ياردة هي تمامًا كمسافة ميل بالنسبة لنا الآن. فلا يمكننا قفز تلك المسافة، ولا نجرؤ كذلك على خوض المياه أو السباحة فيها."

سألهم الهوبيت: "أيستطيع أيكم إلقاء الحبال؟"

قال (ثورين): "وما فائدة الحبال؟ فحتى إن تمكنا -وأنا أستبعد حدوث ذلك- من تصويب خطاف على القارب، فمن المؤكد أن القارب مربوط بالجانب الآخر من المجرى."

قال الهوبيت: "لا أعتقد أنه مربوط. بالطبع لا يمكنني الجزم بذلك في هذا الجو المعتم، لكنه يبدو لي أن المياه جرفته إلى الضفة الأخرى حيث تنخفض الأرض عند نقطة التقائها بالمياه."

قال (ثورين): "حسن، (دوري) هو أكثرنا قوة، لكن (فيلي) هو أصغرنا سنًّا، وبالتالي أحدنا بصرًا. اقترب يا (فيلي)، وحاول أن ترى القارب الذي يتحدث عنه السيد (باجنز)."

وبالفعل تمكن (فيلي) من رؤيته. وبعد أن حدق به طويلاً لتحديد مكانه، أحضر له بقية الأقزام حبلاً. كانت لديهم العديد من الحبال، فاختاروا أطولها، وثبتوا في طرفه أحد أكبر الخطاطيف الحديدية التي استخدموها لتثبيت أحمالهم على أكتافهم. أمسك (فيلي) بالحبل بين يديه، ووازنه قليلاً، ثم قذف طرفه بقوة عبر المجرى المائي.

لكن الخطاف سقط في المياه!

قال (بيلبو) الذي كان يحدق في القارب: "لم تقذفه بعيدًا بدرجة كافية! إن قذفته لأبعد من ذلك ببضعة أقدام فقط، سيسقط في القارب. حاول مرة أخرى. لا أعتقد أن السحر قوي بشكل كافٍ لأن يؤذيك إن لامست جزءًا من الحبل المبتل بمياه المجرى."

سحب (فيلي) الخطاف باتجاه الشط، والتقطه من المياه بتردد، ثم ألقى بطرف الحبل بقوة أكبر هذه المرة.

قال (بيلبو): "اثبت! لقد ألقيته الآن في الغابة عند الطرف الآخر من المجرى. اسحبه إليك برفق."

سحب (فيلي) الحبل بتأنٍ، وبعد قليل قال (بيلبو): "اسحبه بحذر الآن! الخطاف قد وصل إلى القارب. لنأمل أن يعلق به."

وبالفعل علق الخطاف بالقارب، وصار الحبل مشدودًا، لكن (فيلي) لم يتمكن من سحبه وحده، فاقترب (كيلي)، ثم (أوين) و(جلوين) لمساعدته، وحاولوا سحبه بقوة مرات ومرات. وفجأة سقطوا جميعًا على ظهورهم. لكن لحسن الحظ أن (بيلبو) كان يراقب في حذر، فأمسك بالحبل، وحاول تثبيت القارب الأسود الصغير الذي اندفع بسرعة عبر المجرى بعصا، وصاح: "ساعدوني!"

وصل (بالين) في الوقت المناسب ليمسك بالقارب قبل أن يسحبه التيار.

نظر القزم إلى الحبل المقطوع المتدلي، والذي يبدو أن القارب كان مربوطًا به وقال: "كان مربوطًا بالفعل. أحسنتم يا رفاق. أمر رائع أن حبلنا كان الأقوى."

سأل (بيلبو): "من سيعبر أولاً؟"

أجابه (ثورين): "أنا، وأنت ستأتي معي، وكذلك (فيلي) و(بالين). هذا أقصى ما يتحمله القارب في المرة الواحدة. وبعد ذلك يعبر (كيلي) و(أوين) و(جلوين) و(دوري)، ومن بعدهم (نوري) و(أوري) و(بيفر) و(بوفر)، وفي النهاية (دوالين) و(بومبر)."

قال (بومبر): "أنا دائمًا في النهاية، وهذا لا يعجبني. فليكن دور واحد غيري في النهاية اليوم."

قال (ثورين): "عليك إذن ألا تكون بدينًا هكذا! وبما أنك كذلك، يجب أن تعبر في النهاية بعد أن تخف حمولة القارب. لا تبدأ في التذمر من الأوامر الآن وإلا سيصيبك مكروه."

قال الهوبيت: "ليس للقارب أي مجاديف، فكيف سنعبر به لنصل إلى الضفة الأخرى؟"

قال (فيلي): "أعطوني حبلاً طويلاً وخطافًا آخر."

وبعد أن أعدوهما له، ألقى القزم بطرف الحبل المثبت به الخطاف إلى الأمام بأعلى ما أمكنه وسط الظلام. وبما أنهم لم يروه يسقط على الأرض، فقد توقعوا أنه علق بأفرع الأشجار.

قال (فيلي): "انزلوا إلى القارب الآن، ثم يسحب أحدكم الحبل المثبت في الشجرة على الجانب الآخر، وعلى آخر أن يمسك بالخطاف الذي استخدمناه في البداية، وحينما نصل سالمين

إلى الجانب الآخر، يقوم بتثبيته في القارب، وتقومون أنتم بسحب القارب."

وبهذه الطريقة سرعان ما وصلوا جميعًا سالمين إلى الجانب الآخر من المجرى. حمل (دوالين) لفة الحبال على كتفه ونزل من القارب، بينما استعد (بومبر) الذي كان لازال متذمرًا لأن يلحق به، وكان هذا حين حدث أمر سيئ. فجأة سمعوا صوت حوافر تتقدم ناحيتهم بسرعة رهيبة في الطريق من أمامهم. جاء فجأة باتجاههم من قلب الظلام ما بدا كأنه غزال طائر اتجه نحو الأقزام، ثم انطلق بخفة من فوقهم، ثم استعد لوثبة فوق المجرى، فوثب وثبة عالية وقطع مسافة كبيرة فوق المياه، لكنه لم يصل بوثبته هذه إلى الجانب الآخر. كان (ثورين) هو الوحيد الذي ظل ثابتًا ولم يشعر بالذعر، فسرعان ما نزل من القارب، وجهز قوسه وسهامه استعدادًا لظهور حارس للقارب يختبئ في مكان ما. وبالفعل أطلق (ثورين) سهمًا سريعًا باتجاه المخلوق الذي قفز لتوه، وقد كانت تسديدة موفقة، فحين وصل هذا المخلوق إلى الضفة الأخرى تعثر. اختفى المخلوق عن أعينهم، لكنهم سمعوا أصوات تعثره، ثم سكن الصوت. وقبل أن يهللوا ويمدحوا (ثورين) على تلك التسديدة الموفقة، سمعوا لـ(بيلبو) صرخة مروعة طردت من أذهانهم التفكير في لحم الغزال.

صرخ (بيلبو): "لقد سقط (بومبر)! إنه يغرق!"

وكان الهوبيت محقًا، فـ(بومبر) كان قد أخرج قدمًا واحدة فقط من القارب ليضعها على الأرض حين رأى الأيل يقفز باتجاهه ويثب من فوقه. تعثر القزم، ودفع القارب بعيدًا عن ضفة المجرى، ثم انقلب في مياه الجدول المظلمة بعد أن حاول التشبث بالجذور اللزجة عند الحافة بلا جدوى، أما القارب فقد جرفته مياه الجدول ببطء حتى اختفى.

ركض الجميع إلى حافة المجرى، فرأوا قلنسوة (بومبر) لازالت ظاهرة فوق سطح المياه، وبسرعة ألقوا خطافًا مثبت بطرف حبل باتجاهه فعلق بيده، فتمكنوا من سحبه إلى الشاطئ. بالطبع كان القزم غارقًا بالماء، وابتل من أطراف شعره وحتى أصابع قدميه، لكن ذلك لم يكن أسوأ ما حدث له، فحين أخرجوه من المياه ومددوه على ضفة المجرى، كان يغط في سبات عميق وقد قبض بيده على الحبل بإحكام، حتى إنهم لم يتمكنوا من تخليصه من قبضته. ظل القزم نائمًا ولم يستفق رغم محاولات الأقزام المستمرة.

كان الأقزام والهوبيت لايزالون يقفون بجانب (بومبر) يلعنون سوء حظهم وتصرفات القزم الخرقاء، ويرثون حالهم لضياع القارب من أيديهم -مما يعني استحالة رجوعهم إلى الشط الآخر ليتفقدوا الأيل- حين أدركوا أصوات بوق خافتة في الغابة، وكذلك أصوات بدت لهم كنباح

كلاب تأتي من بعيد. حينها جلسوا جميعًا في صمت يسمعون أصوات تبدو صادرة عن حملة صيد ضخمة تمر بشمال الطريق، لكنهم لم يروا ما يدل على ذلك.

ظل الأقزام جالسين في أماكنهم لا يجرؤون على القيام بأية حركة، بينما نام (بومبر) بابتسامة على وجهه السمين، كأنه لم يعد يبدي اهتمامًا بأي من المتاعب التي تؤرقهم. وفجأة، ظهر في الطريق من أمامهم غزال أبيض وأنثى أيل وبعض الظبيان. لونها كان شديد البياض ويبرق كالثلج في ظلام الغابة، بعكس الأيل الداكن اللون الذي وثب من فوقهم منذ قليل. وقبل أن ينبه (ثورين) الأقزام، كان ثلاثة منهم قد نهضوا مسرعين وألقوا بسهامهم باتجاه الحيوانات، لكنهم لم يصيبوا أيها، واستدارت الغزلان واختفت بين الأشجار بنفس الهدوء الذي ظهرت به، وبدد الأقزام المزيد من السهام عليها بلا جدوى.

صاح (ثورين) في الأقزام: "توقفوا! توقفوا!"

لكن بعد فوات الأوان، فحماسة الأقزام قد تسببت في فقدانهم لآخر السهام التي كانت لديهم، وصارت الأقواس التي أعطاها لهم (بيورن) بلا فائدة.

ساد جو من الكآبة بين الأقزام تلك الليلة، واستمر معهم أيضًا حتى في الأيام التي تلتها. صحيح أنهم عبروا المجرى المسحور، لكن الطريق من أمامهم كان لازال يبدو كأنما لا نهاية له، والغابة لا تبدو لهم مختلفة كثيرًا على هذا الجانب. لكن إن كانوا فقط أكثر دراية بتلك الغابة، وإن كانوا قد أدركوا ما تعنيه حملة الصيد تلك وظهور تلك الغزلان البيضاء بطريقهم، لعرفوا أنهم قد بدءوا أخيرًا يقتربون من الحدود الشرقية للغابة. لكنهم لم يتمالكوا أنفسهم ليدركوا أنهم في طريقهم للخروج من تلك الغابة إلى أراض فيها الأشجار ليست بهذه الضخامة، وأشعة الشمس تضيء وتنير ما حولها من جديد.

هم لم يعرفوا كل ذلك، كما أرهقهم جسد (بومبر) الثقيل الذي اضطروا إلى التناوب في عملية حَمله المتعبة بقدر استطاعتهم، بحيث يحمله أربعة منهم، بينما يقسم الآخرون أحمالهم التي إن لم تكن قد قلت كثيرًا في الأيام السابقة، لكانوا قد فشلوا تمامًا في القيام بذلك. لكن مع ذلك، كان وزن (بومبر) النعسان ذي الابتسامة العريضة لا يقارن بوزن أحمال من أثقل أنواع الطعام وزنًا. وبعد مرور بضعة أيام، جاء اليوم الذي لا يجدون فيه فعلاً طعامًا ولا شرابًا، ولا يجدون في الغابة أي نباتات سوى الفطر وعشب ذابل الأوراق كريه الرائحة وغير صالح للأكل.

وبعد مرور حوالي أربعة أيام منذ عبورهم المجرى، وصلوا إلى مكان تنمو وتنتشر فيه أشجار الزان. في البداية سَرهم التغيير، فلم يصاحب تلك الأشجار ظهور الشجيرات الكثيفة،

والظلام لم يكن حالكًا في هذا المكان. ظهر ضوء أخضر من حولهم، وفي أوقات كان بإمكانهم رؤية أجزاء من أحد جانبي الطريق، لكن مع ذلك أبصروا في هذا الضوء خطوطًا لا تنتهي من جذوع الأشجار الرمادية المستقيمة كأنها أعمدة ردهة ضخمة وقديمة. أحسوا بنسمة هواء، وسمعوا للرياح صوتًا حزينًا. تساقطت بعض أوراق الأشجار محدثة حفيفًا لتذكرهم بأن الخريف في الخارج قد بدأ يهل. أصدرت خطواتهم أصواتًا بين الأوراق المتساقطة في فصول خريف كثيرة سابقة، والتي لا بد وأنها تطايرت عبر جوانب الطريق من عمق الغابة.

ورغم مرور كل ذلك الوقت، ظل (بومبر) نائمًا حتى أعياهم حمله. في بعض الأحيان كانوا يسمعون أصوات ضحكات مقلقة، وفي أوقات أخرى سمعوا أصوات غناء بعيدة عنهم. كانت أصوات الضحكات صافية، مما يدل على أنها ليست ضحكات جوبلين، وكان الغناء أيضًا جميلًا، لكنه كان غريبًا ومخيفًا وغير مريح بالنسبة للأقزام، مما اضطرهم للإسراع بالبعد عن تلك الأماكن بما تبقى لهم من قوة.

وبمرور يومين آخرين، وجدوا أن طريقهم يميل إلى أسفل، ولم يمض وقت طويل حتى وصلوا إلى وادٍ تنتشر فيه بكثرة أشجار البلوط.

قال (ثورين): "متى سنجد مخرجًا من تلك الغابة اللعينة؟ ليتسلق واحد منكم شجرة ويحاول رفع رأسه لينظر حوله. لنختر أطول شجرة تشرف على الطريق."

وبالطبع وقع اختيارهم على (بيلبو)، بما أن على المتسلق أن يصل إلى أعالي الأشجار، ولذا عليه أن يكون خفيف الوزن بحيث تتحمله أعلى وأهزل الأفرع. لكن السيد (باجنز) المسكين لم يأخذ وقته في التدرب على تسلق الأشجار، والأقزام رفعوه فوق فرع سفلي لشجرة بلوط هائلة الحجم نمت في منتصف الطريق تمامًا، وكان عليه الوصول إلى أعلى فروع الشجرة قدر المستطاع. بذل الهوبيت قصارى جهده ليشق طريقه وسط الفروع المتشابكة التي تلقى صفعاتها في عينيه أكثر من مرة، وعانى الهوبيت من لحاء الشجرة القديمة ذات الفروع الكثيرة، وكادت قدميه تزلان أكثر من مرة، لكنه استعاد توازنه قبل أن يسقط. وأخيرًا، وبعد كفاح مروع بين أفرع الشجرة، وصل إلى مكان لم يعد به أفرع على الإطلاق. اقترب الهوبيت من قمة الشجرة. وهو يفكر طوال الوقت في أمرين: ما إن كان هناك عناكب تسكن الشجرة، وكيف سيتمكن من النزول عنها مرة أخرى... باستثناء أن يسقط منها بالطبع.

وفي النهاية، استطاع الهوبيت أن يدس رأسه بين أوراق الأشجار عند قمتها ليجد بالفعل عناكب، لكنها كانت عناكب صغيرة طبيعية الحجم وتتغذى على الفراشات. شعر (بيلبو) بأنه

سيفقد بصره من شدة الضوء الذي فاجأه حين أخرج رأسه من بين أوراق قمة الشجرة. كان بإمكانه أن يسمع الأقزام يحدثونه بصوت مرتفع عند أسفل الشجرة، لكنه لم يتمكن من أن يجيبهم، بل حاول التشبث والنظر بعينين نصف مفتوحتين إلى ما حوله. كانت أشعة الشمس براقة، واستلزم ذلك بعض الوقت ليعتاد عليها من جديد. وحين تمكن من الرؤية بصورة أوضح، رأى حوله أوراق الأشجار كأنها بحر من الخضرة يحرك النسيم أمواجه هنا وهناك، كما رأى مئات الفراشات منتشرة في كل مكان. أعتقدُ أنها كانت نوعًا من فراش الإمبراطور الأرجواني المعروف عنه تعلقه بقمم غابات البلوط، لكن ذلك الفراش لم يكن أرجواني اللون، بل كان أسود داكنًا مخمليًا، ولا تميز أجنحته أية علامات.

أخذ الهوبيت يراقب فراش (الإمبراطور الأسود) لبعض الوقت، فقد كان مستمتعًا بمرور النسيم بين شعره وأمام وجهه، لكن نداء الأقزام الذين غلبتهم قلة صبرهم عند أسفل الشجرة ذكره بالهدف من التسلق أصلًا. لم يُجد تسلق الهوبيت للشجرة نفعًا. فقد حدق طويلًا فيما حوله، لكنه لم ير نهاية للأشجار وأوراقها في أي اتجاه، وبعد أن أسره إحساسه بأشعة الشمس ونسمات الهواء، أصابته خيبة أمل، فهم لا يملكون طعامًا لينزل عن الشجرة ويتناوله.

في الواقع، وكما أخبرتكم منذ قليل، لم يكن الأقزام بعيدين عن حافة الغابة. وإن كان (بيلبو) أكثر دراية بالغابات، لعلم أن الشجرة التي تسلقها، رغم كونها عالية، تنمو في قاع وادٍ متسع. إذن فمن فوقها ترى الأشجار من حولك مرتفعة، كأنك بالضبط في قاع إناء ضخم والأشجار من حولك ترتفع عند الحواف، وبالتالي لا تتمكن من تحديد بالضبط المسافة المتبقية من الغابة. لكن الهوبيت لم يدرك ذلك، ونزل عن الشجرة وقد ملأه اليأس. وحين وصل أخيرًا إلى أسفلها، لم ير أي شيء في ظلمة الغابة، وكانت قد أصابته الخدوش ويشعر الآن بالحر والبؤس. وحين حكى للأقزام ما رأى، نقل للجميع نفس الشعور بالبؤس الذي شعر هو به.

قال الأقزام في غيظ كأنما يُحملون (بيلبو) المسؤولية: "تلك الغابة تمتد في كل الاتجاهات إلى اللانهائية وما بعدها! ماذا سنفعل؟ وماذا استفدنا حين أرسلنا الهوبيت؟"

ولم يبدوا أي اهتمام حين أخبرهم (بيلبو) عن الفراش، بل زادهم حديثه عن نسمات الهواء الصافية -التي لم يكن الأقزام ليصلوا إليها أعلى الشجرة لثقل وزنهم- غضبًا.

تناول الأقزام والهوبيت ليلتها آخر ما تبقى من فتات طعامهم، وحين استيقظوا في صباح اليوم التالي، كان أول ما لاحظوه هو أن شعورهم بالجوع لازال شديدًا، ثم بدءوا يلاحظون أن السماء كانت تمطر، وأن قطرات المياه المتساقطة هنا وهناك كانت تسبب ضجيجًا حين يسقط

بعضها على أرض الغابة. تذكر الأقزام حينها كم هم ظمأى، لكن بلا أمل في أن يرووا هذا الظمأ، فلا يمكنك أن تطفئ عطشك الشديد بقطرات ماء تنتظرها تحت شجرة بلوط عملاقة لتسقط على لسانك. لكن ذرة الارتياح الوحيدة أتتهم –بعكس توقعاتهم– من (بومبر)، فقد استيقظ على نحو مفاجئ وحك رأسه، ولم يدرك على الإطلاق أين كان أو سبب شعوره بالجوع الشديد. لقد نسي القزم كل ما مروا به منذ بداية رحلتهم في يوم من أيام مايو منذ فترة طويلة، ولا يتذكر سوى ذلك الحفل بمنزل الهوبيت، وواجه الأقزام صعوبة في محاولة إقناعه بحقيقة حكايتهم وبجميع المغامرات التي خاضوها منذ ذلك اليوم.

حين علم القزم بأنه لم يكن هناك ما يتناوله، جلس على الأرض يندب حظه، فقد كان يشعر بضعف شديد، وبخاصة في ساقيه.

صاح (بومبر): "لا أفهم لمَ استيقظت من نومي! لقد رأيت أحلامًا رائعة في منامي، فقد كنت أسير في غابة شبيهة بهذه، لكنها كانت مضاءة بمشاعل معلقة على الأشجار، ومصابيح تتدلى من أفرع الأشجار، ونيران مشتعلة على الأرض. كان هناك احتفال كبير في الغابة، ليس فقط يومها، بل يبدو أنه دائم إلى الأبد. رأيت ملكًا للغابة يرتدي تاجًا مصنوعًا من أوراق الأشجار، وسمعت غناءً مرحًا، ولم أستطع عد أو وصف أصناف الطعام والشراب التي رأيتها."

قال (ثورين): "لا تحاول إذن! في الواقع، إن لم تجد شيئًا آخرًا تتحدث عنه، فالزم الصمت. لقد أزعجتنا بما فيه الكفاية أثناء نومك، وإن لم تفق اليوم لكان يتوجب علينا تركك هنا في الغابة أنت وأحلامك السخيفة. اضطرارنا لحملك لم يكن بالأمر المسلي بالنسبة لنا، حتى بعد مرور أسابيع من قلة الطعام."

لم يكن هناك أمامهم الآن ما يفعلونه سوى شد أحزمتهم حول بطونهم الفارغة وحمل حقائبهم الخالية والتقدم في طريقهم من دون أي أمل في الخروج من تلك الغابة قبل أن يلقوا حتفهم أو يموتوا جوعًا. وهذا ما فعلوه طيلة هذا اليوم: ساروا ببطء شديد وهم يشعرون بإعياء وإجهاد، بينما ظل (بومبر) يتذمر من أن ساقيه المجهدتين بالكاد تحملانه، وأراد أن يستلقي على الأرض لينام.

قال له الأقزام في حدة: "لا، لن تفعل! دع ساقيك تنالا حظهما من التعب. لقد حملناك بما يكفي."

لكن رغم ذلك، فجأة رفض القزم أن يتحرك خطوة واحدة، وطرح بنفسه على الأرض قائلاً: "أكملوا أنتم طريقكم إن أصررتم على ذلك، أما أنا فسأنام هنا وأحلم بالطعام إن كانت تلك

هي الطريقة الوحيدة لأنال بعضًا منه. أتمنى ألا أصحو من نومي أبدًا."

وفي تلك اللحظة تحديدًا صاح (بالين) الذي كان يتقدم الأقزام قليلاً قائلاً: "ما هذا؟ أظن أنني رأيت وميضًا من الضوء في الغابة."

نظروا جميعًا، ورأوا على بعد مسافة كبيرة وميضًا أحمر يتلألأ في الظلام، ثم وميضًا آخر تلاه آخر بجواره. أسرعوا جميعًا –حتى (بومبر)– تجاه الوميض غير مبالين إن كان مصدره عمالقة أو حتى جوبلين. جاء الضوء من أمامهم لكن إلى يسار الطريق قليلاً، وحين وصلوا بالقرب منه بدا واضحًا أن مشاعل ونيران قد تم إشعالها تحت الأشجار، لكن في مكان يبعد كثيرًا عن طريقهم.

قال (بومبر) لاهثًا من خلف الجميع: "يبدو أن أحلامي تتحقق."

أراد القزم أن يسرع مباشرة باتجاه الأضواء، لكن إن كان هو قد نسي، فالآخرون لم ينسوا تحذيرات الساحر و(بيورن).

قال (ثورين): "لن يكون الاحتفال مفيدًا إن لم نخرج منه أحياء."

رد عليه (بومبر) ساخطًا: "لكن من دونه لن نبقى أحياءً لمدة طويلة على أية حال."

صدق (بيلبو) على كلام (بومبر)، ودار نقاش طويل حتى اتفقوا في النهاية على أن يبعثوا بعيون منهم: يزحفون قريبًا من الأضواء، ويكتشفون المزيد بخصوص أمر الاحتفال. لكن بعد أن اتفقوا على ذلك، اختلفوا مجددًا حول من سيقوم بهذا الدور، فلم يكن أي منهم متحمسًا لأن يُعرض نفسه لخطر فقدان الطريق فلا يجد أصدقاءه من جديد. وفي النهاية، ورغم التحذيرات، اتخذ جوعهم قرارهم عنهم بعد أن ظل (بومبر) يصف أصناف الطعام الشهية التي رآها في منامه تُقدَّم في احتفالية الغابة؛ فقرروا جميعًا أن يحيدوا عن الطريق ويخوضوا الغابة معًا.

وبعد مرور وقت طويل في محاولة الزحف والتسلل إلى المكان، نظروا خلسة من وراء جذوع الأشجار ليروا بقعة فضاء مقطوعة الأشجار ومستوية الأرض. كان المكان مزدحمًا بقوم يشبهون الإلفيين يرتدون ملابس خضراء وبنية، ويجلسون على حلقات مستوية من جذوع الأشجار المقطوعة في دائرة كبيرة. وفي منتصف هذه الدائرة رأى الأقزام والهوبيت نارًا مشتعلة، ومشاعل مثبتة ببعض الأشجار من حولهم، لكن أروع ما رأوه كان مشهد الإلفيين وهم يأكلون ويشربون ويضحكون ضحكات مرحة.

كانت رائحة اللحم المشوي الطيبة ساحرة لدرجة أنهم –من دون استشارة بعضهم البعض– نهضوا جميعًا، وهرولوا باتجاه حلقة الإلفيين، وما من فكرة تسيطر على عقولهم سوى

استجداء هؤلاء القوم للحصول على بعض الطعام.

وبمجرد أن خطا أولهم خطوة واحدة في الأرض الفضاء، انطفأت جميع الأضواء في اللحظة ذاتها كأنما بفعل حيلة سحرية. أطفأ أحدهم النيران، فانطلقت شرارات لامعة إلى أعلى ثم اختفت. وجد الأقزام أنفسهم وسط ظلام حالك، ولم يتمكنوا حتى من أن يعثروا على بعضهم البعض إلا بعد مضي وقت طويل. وبعد التخبط باهتياج في الظلام والتعثر بجذوع الأشجار المقطوعة والارتطام بالأشجار والصياح والصراخ الذي أيقظ بالتأكيد جميع مخلوقات الغابة على بعد أميال من مكانهم، تمكنوا أخيرًا من التجمع في دائرة صغيرة وعد أنفسهم بالتلامس. وبمرور كل هذا الوقت، كانوا بالتأكيد قد نسوا تمامًا أي اتجاه يقودهم إلى طريقهم من جديد، وشعروا بيأس حين أدركوا أنهم فقدوا طريقهم، على الأقل حتى صباح اليوم التالي.

لم يكن أمامهم من شيء يفعلونه سوى قضاء ليلتهم في مكانهم هذا، ولم يجرؤ أيهم حتى على محاولة البحث عن فتات الطعام على الأرض من حولهم خشية أن يتيهوا عن بعضهم البعض مرة أخرى. كان الأقزام قد رقدوا، وبدأ (بيلبو) يغلبه النعاس حين همس (دوري) -الذي كان أول من تولى الحراسة ليلتها- بصوت مسموع: "هناك أضواء جديدة اشتعلت هناك."

نهضوا جميعًا مسرعين، فقد برقت أضواء كثيرة في مكان ليس ببعيد عنهم، كما سمعوا أصوات وضحكات بوضوح شديد. تسلل الأقزام ببطء باتجاه الأضواء والأصوات في صف واحد، وكل منهم يلامس ظهر من أمامه.

وحين اقتربوا، قال (ثورين): "لا داع للاندفاع هذه المرة! ما من أحد يتحرك من مخبئنا حتى أسمح أنا بهذا. سأبعث بالسيد (باجنز) وحده أولاً ليتحدث إليهم، فلن يخافه هؤلاء القوم..."

دارت بخلد الهوبيت فورًا فكرة خوفه هو منهم، بينما كان (ثورين) يتابع: "... وعلى أية حال، أتمنى ألا يؤذوه على الإطلاق."

وحين وصلوا إلى حافة دائرة الضوء، قام الأقزام بدفع (بيلبو) على نحو مفاجئ من الخلف، وبالطبع لم يتسن له ارتداء الخاتم، فتعثر في ضوء وهج النيران والمشاعل. ومن جديد لم يكن وصولهم إلى هذا المكان ذا فائدة، فقد انطفأت الأضواء من جديد، وساد الظلام الحالك مرة أخرى. وإن كانت محاولتهم للتجمع في المرة السابقة قد اتسمت بالصعوبة، فإن محاولتهم تلك المرة كانت أسوأ بكثير، ولم يتمكن الأقزام هذه المرة من العثور على الهوبيت. كلما قاموا بعد أنفسهم، وجدوا أن عددهم ثلاثة عشر.

أخذوا يصيحون وينادون: "(بيلبو باجنز)! أيها الهوبيت! أين أنت أيها الهوبيت المزعج؟!"

وأشياء أخرى من هذا القبيل، لكنه لم يحر جوابًا.

كانوا قد بدءوا يفقدون كل أمل في العثور على (بيلبو) حين تعثر (دوري) -بمحض الصدفة- بما ظن أنه لوح خشبي، لكن القزم أدرك أنه تعثر بالهوبيت الذي كان يرقد ملتفًا حول نفسه وقد راح في سبات عميق.

اضطر الأقزام لهزه مرارًا ليستفيق، وحين أفاق بالطبع لم يسره ذلك، وقال متذمرًا: "كنت أرى في منامي حلمًا مبهجًا عن تناولي لوجبة عشاء رائعة."

قال الأقزام: "يا للسماء! لقد أصابه ما أصاب (بومبر). لا تخبرنا عن أحلامك، فأحلام الطعام لا تجلبه، ولا يمكننا تقاسمها."

غمغم الهوبيت: "إنها أفضل ما حدث لي في هذا المكان البغيض."

ثم رقد الهوبيت إلى جوار الأقزام، وحاول أن يخلد للنوم ويرى أحلامًا مماثلة مرة أخرى. لكن الأضواء لم تكن لتهدأ في تلك الليلة بالغابة، فبمضي منتصف الليل اقترب منهم (كيلي) -الذي كان يقوم بالحراسة حينها- وأيقظهم جميعًا مرة أخرى قائلاً: "لقد أضيئت أنوار أخرى منتظمة بالقرب من هنا. لابد وأن المئات من المشاعل قد تم إشعالها على نحو مفاجئ كالسحر. أتسمعون أصوات الغناء والقيثارة؟"

وبعد أن بقوا قليلاً في أماكنهم يصغون إلى تلك الأصوات، وجدوا أنهم لا يستطيعون مقاومة رغبتهم في الاقتراب من هذا المكان ومحاولة أن يتلقوا المساعدة مرة أخرى. نهضوا من جديد، لكن نتائج محاولتهم تلك المرة كانت كارثية. كان الاحتفال الذي رأوه الآن أكبر وأروع من سابقيه، وعلى رأس صف طويل ممن تجمعوا في هذه الوليمة جلس ملك الغابة، وبين شعره الذهبي ظهر تاج مصنوع من أوراق الأشجار، وكان ذلك الملك شبيهًا جدًا بالشخص الذي رآه ووصفه (بومبر) في أحلامه. كان الإلفيين يمررون أواني الطعام من يد ليد بجانب النيران، وكان بعضهم يعزف القيثارة، وكان الكثير منهم يغني. كان شعرهم اللامع مزينًا بالأزهار، وياقات قمصانهم وكذلك أحزمتهم مرصعة بالجواهر الخضراء والبيضاء، واتسمت وجوههم وأغانيهم بالمرح. غنى هؤلاء القوم أغاني بصوت عال وواضح وصاف... حتى خطا (ثورين) وسط حلقتهم.

وفي لمح البصر ساد الصمت الرهيب، وانطفأت الأضواء جميعًا، وكذلك النيران التي صارت دخانًا أسود، وانبعث الرماد والبقايا المحترقة منها في أعين الأقزام، وعلت أصوات صخبهم

وصيحاتهم في الغابة من جديد.

وجد (بيلبو) نفسه يركض في دوائر وينادي على الأقزام واحدًا تلو الآخر: "يا (دوري)، يا (نوري)، يا (أوري)... يا (أوين)، يا (جلوين)... يا (فيلي)، يا (كيلي)... يا (بومبر)، يا (بيفر)، يا (بوفر)... يا (دوالين)، يا (بالين)... أين أنت يا (ثورين أوكنشيلد)؟!"

سمع الهوبيت حوله أصواتًا تنادي مثلما نادى هو -مع إضافة اسم (بيلبو) للصيحات التي سمعها- لكنه لم يستطع رؤية أصحابها أو لمسهم. ثم بدأت صيحات الآخرين تخفت وتبعد بشكل منتظم، وبعد قليل خيل إليه أن الصيحات تغيرت إلى صرخات استغاثة من على بُعد، ثم هدأت الأصوات جميعًا بعدها مباشرة، ووجد الهوبيت نفسه وحيدًا وسط السكون والظلام الحالك.

كانت تلك إحدى أكثر لحظات البؤس التي مرت به في حياته، لكنه سرعان ما قرر أنه لن يحاول أن يجد حلاً حتى يضيء صباح اليوم التالي المكان قليلاً، وأنه سيكون خطأ فادحًا أن يجول في المكان حتى يشعر بالتعب من دون أي أمل في إفطار يعيد له نشاطه في صباح اليوم التالي. جلس الهوبيت على الأرض مسندًا ظهره إلى جذع شجرة، وبدأ يفكر -وليس للمرة الأخيرة- في حفرته البعيدة بحجراتها الجميلة، وبخاصة المخصصة للمؤن منها. كان الهوبيت متعمقًا في التفكير في اللحم المقدد والبيض والخبز المحمص والزبد حين شعر فجأة بشيء يلمس يده اليسرى؛ شيء كخيط سميك قوي ولزج. وحينما هم بالابتعاد، اكتشف أن خيطًا مثله قد التف بالفعل حول ساقيه، فسقط على الأرض حين حاول النهوض.

كان العنكبوت الضخم مشغولاً بتقييد الهوبيت بينما غلب الأخير النعاس، ثم جاء من خلفه وهاجمه. لم ير (بيلبو) أعين ذلك المخلوق، لكنه أحس بأرجل العنكبوت كثيرة الشعر تقف إلى جواره بينما كان ينسج خيوطه البغيضة حوله. ومن حُسن حظه أنه أفاق في الوقت المناسب، ففي وقت يسير كانت الخيوط ستمنعه تمامًا من الحركة. قاوم الهوبيت العنكبوت بيأس قبل أن يتمكن من أن يفلت من بين خيوطه. وبينما كان المخلوق يحاول تسميم الهوبيت كي يبقيه ساكنًا كما تفعل العناكب الصغيرة مع الذباب، ضربه الهوبيت بيديه ضربة قوية، ثم تذكر سيفه فأخرجه من غمده. قفز العنكبوت إلى الخلف، مما أتاح للهوبيت الفرصة لتخليص ساقيه، وحان وقت الهجوم بالنسبة لـ(بيلبو). من الواضح أن العنكبوت لم يكن معتادًا على اصطياد فرائس تحمل أسلحة في أحزمتها، وإلا لكان قد سارع بالفرار لدى رؤية السيف. لكن (بيلبو) هجم على العنكبوت قبل أن يختفي، وطعنه بسيفه في عينه مباشرة. جُن جنون العنكبوت، فقام بحركات راقصة، وقفز وقذف بنفسه بارتعاشة رهيبة حتى قتله الهوبيت بطعنة أخرى، ثم سقط وغاب عن الوعي لمدة طويلة.

حين أفاق الهوبيت، أبصر الغابة بضوئها الرمادي المعتم، ورأى العنكبوت ميتًا إلى جواره ونصل سيفه ملطخ بدم العنكبوت الأسود. وإلى حد كبير ترك قتل السيد (باجنز) للعنكبوت العملاق بنفسه في الظلام من دون أن يحتاج لمساعدة الساحر أو الأقزام أو غيرهم أثرًا عظيمًا في نفسه. مسح الهوبيت سيفه في الحشائش، ووضعه مرة أخرى في غمده وهو يشعر بأنه شخص مختلف، وبقوة وجرأة تسري بداخله، رغم معدته الخاوية.

قال الهوبيت محدثًا السيف: "سأعطيك اسمًا... سألقبك بـ(ستينج)*."

وبعد ذلك تجول ليستكشف المكان. بدت الغابة كئيبة وساكنة، لكن بالطبع كان عليه أولاً أن يبحث عن أصدقائه الذين من غير المحتمل أن يكونوا بعيدين عن هنا، إلا إن كانوا قد سقطوا أسرى لدى الإلفيين أو من هم أسوأ منهم.

أحس (بيلبو) بأنه سيكون في خطر إن نادى على أصدقائه، فوقف لمدة طويلة ليقرر أي طريق يسلك في بداية بحثه عن الأقزام.

قال الهوبيت بحزن: "إن كنا قد تذكرنا نصيحة (بيورن) و(جاندلف)، لما كنا جميعًا في هذا الموقف الصعب... كنا جميعًا! يا ليتنا كنا جميعًا معًا؛ إنه أمر رهيب أن تصبح وحيدًا."

وفي النهاية خمن الهوبيت الاتجاه الذي ظن أن صيحات استغاثة الأقزام قد جاءت منه، ولحسن حظه -فقد نال قدرًا وفيرًا من حسن الحظ عند ولادته- كان تخمينه صحيحًا إلى حد كبير كما سترون بعد قليل. بعد أن قرر اتجاهه، تسلل (بيلبو) بخفة قدر استطاعته، فكما أخبرتكم سابقًا، باستطاعة الهوبيت أن يتحركوا بهدوء شديد، وبخاصة في الغابات. كما أن (بيلبو) قد ارتدى خاتمه قبل أن يبدأ بحثه؛ ولهذين السببين لم تره أو تسمع خطواته العناكب.

وأثناء سيره، لاحظ (بيلبو) مكانًا شديد الظلمة -حتى بالنسبة لظلمة الغابة- كأنما هي رقعة من ظلمة منتصف الليل نُسيت في قلب النهار، فبدأ يسير بحذر أكبر وبخلسة أكثر. حين اقترب أدرك أنها أنسجة متشابكة من خيوط العنكبوت. وفجأة لاحظ أيضًا وجود عناكب عملاقة مرعبة تجلس على أفرع الشجرة فوق رأسه. وسواء كان يرتدي الخاتم أم لا، فقد سرت رعدة في جسده من شدة خوفه وخشيته من أن تكتشف العناكب أمره. اختبأ الهوبيت وراء شجرة، وأخذ يراقب مجموعة من العناكب لبعض الوقت، ثم نظرًا لهدوء وسكون الغابة، أدرك أن هذه المخلوقات كانت تتحدث مع بعضها البعض. جاء صوتها كأنه صوت صرير أو هسيس، لكنه تمكن من فهم بعض ما قالته.

* ستينج Sting = لدغة، لسعة، إصابة بألم حاد.

كانت العناكب تتحدث عن الأقزام!

سمع الهوبيت واحدًا من العناكب يقول: "كانت معركة حامية، لكنها تستحق المعاناة. يا له من جلد سميك كريه يغطي أجسادهم! لكنني أراهن أنهم كثيري العصارة."

قال آخر: "سيكونون وجبة شهية إن أبقيناهم معلقين لبعض الوقت."

وقال عنكبوت ثالث: "لا يجب أن نبقيهم معلقين لفترة طويلة، فهم ليسوا بالسمنة التي يبدون عليها، وهم بالتأكيد لم يأكلوا شيئًا مؤخرًا."

ثم قال رابع: "رأيي أن نقتلهم. لمَ لا نقتلهم الآن ونبقيهم معلقين بعد موتهم لبعض الوقت؟"

قال الأول: "أؤكد لكم أنهم قد ماتوا بالفعل."

رد عليه آخر: "لا، ليس بعد. لقد رأيت أحدهم يحاول الخلاص منذ قليل. يبدو أنه أفاق لتوه من نومة هنيئة. سأريكم."

وبهذا تسلق العنكبوت حبلاً معلقًا بشجرة، وبأعلاها كانت هناك الكثير من الحزم المنسوجة من خيوط العنكبوت المعلقة في صف واحد على فرع شجرة عالٍ. روع ذلك المشهد (بيلبو)، فكانت تلك هي أول مرة يلاحظ فيها تلك الحزم المتدلية في الظلام. وحين دقق النظر، رأى بالفعل قدم قزم تخرج من أسفل حزمة هنا، وأنف يخرج من جانب حزمة هناك، أو جزء من لحية أحد الأقزام، أو طرف قلنسوة أحدهم.

تقدم العنكبوت تجاه أكبر تلك الحزم و(بيلبو) يفكر في أنه (بومبر) المسكين، ثم قرص العنكبوت أنف القزم الذي علق بجانب الحزمة بشدة. سمع الهوبيت صوت صرخة مكتومة من داخل الحزمة، فركله القزم بإصبع قدمه ركلة مباشرة وقوية. إذن لازال (بومبر) مفعمًا بالحياة. صدر صوت كصوت ركل كرة قدم فارغة، وسقط العنكبوت غاضبًا عن فرع الشجرة، لكنه تمسك في الوقت المناسب بخيوطه التي نسجها من قبل.

ضحكت منه بقية العناكب ساخرة وقالت: "كنت محقًا بالفعل. يبدو أنهم أحياء وبكامل حيويتهم!"

قال العنكبوت الغاضب أثناء تسلقه إلى أعلى مرة أخرى: "لن يستمر هذا طويلاً."

رأى (بيلبو) أن الوقت قد حان لتدخله. لم يكن ليقاتل هذه المخلوقات، ولم تكن لديه أية

سهام ليصيبها بها، لكنه حين نظر حوله، رأى الكثير من الحجارة في قاع ما بدا له كجدول مياه صغير جاف. كان (بيلبو) محترفًا فيما يختص بقذف الأحجار، ولم يلزمه وقت طويل ليجد حجرًا أملس يبدو كالبيضة ومناسبًا تمامًا لحجم يده.

كان في صغره يحب التمرن على قذف الأشياء بالحجارة حتى صارت الأرانب والسناجب، بل حتى الطيور تختفي بسرعة البرق ما إن تراه يلتقط حجرًا. وحتى في شبابه، كان يقضي وقتًا طويلاً في حلقات رمي الرمح وإصابة أهداف الرماية، وكذلك كان يجيد دحرجة الكرات* وإصابة القناني الخشبية، وألعاب أخرى هادئة للتصويب والرماية. حقًا كان باستطاعة الهوبيت فعل أشياء أخرى عديدة غير إطلاق حلقات الدخان في الهواء وتأليف الألغاز والطبخ، أشياء لم يسعني الوقت لأذكرها لكم من قبل. حسن، ليس الآن بوقت مناسب على كل حال، فبينما كان (بيلبو) يلتقط الأحجار، كان العنكبوت قد وصل إلى (بومبر) بالفعل، واستعد لقتله. في تلك اللحظة، ألقى (بيلبو) بحجر على العنكبوت، وطار الحجر في الهواء ليسقط على رأس العنكبوت محدثًا رنينًا، فسقط من أعلى الشجرة مغشيًا عليه حتى ارتطم ظهره بالأرض رافعًا أرجله الملتفة إلى أعلى.

ألقى الهوبيت بحجر آخر ليصطدم بشبكة كبيرة فيقطع أنسجتها ويعبر خلالها، ويصيب عنكبوتًا جالس بداخلها ويصرعه على الفور. أصاب هذا مستعمرة العناكب بهياج شديد، وبالفعل نسيت أمر الأقزام لبعض الوقت. صحيح أنها لم تتمكن من رؤية (بيلبو)، لكنها استطاعت تخمين الاتجاه الذي تم إلقاء الأحجار منه. وبسرعة البرق أتت العناكب من كل مكان تجري وتتدلى باتجاه الهوبيت وتنسج خيوطها في كل اتجاه حتى امتلأ الهواء ذاته بأمواج من الشباك.

لكن (بيلبو) انسل إلى مكان مختلف، فكانت فكرته هي أن يقود العناكب الغاضبة بعيدًا عن الأقزام بقدر المستطاع، وأن يثير فضولها واهتياجها وغضبها أكثر وأكثر في الوقت ذاته. وحين اتجه حوالي خمسين منها إلى أول مكان قُذفت منه الأحجار، ألقى بالمزيد من الأحجار عليها وعلى بعضها الذي كان يقف بالخلف. ثم إنه بدأ يتراقص بين الأشجار، ثم شرع في الغناء، وهذا ليزيد من حنقهم فيتبعونه جميعًا من جانب، وليجعل الأقزام يسمعون صوته من جانب آخر.

وإليكم أغنيته:

عنكبوتٌ عجوزٌ سمينٌ يحيك خلال الشجرْ
عنكبوتٌ عجوزٌ سمينٌ ولا يستطيع النظرْ

*لابد أنها النسخة البدائية من لعبة البولينج التي تعرفها حاليًا.

العنكبوت! العنكبوت!
هل توقف؟
دع حياكة هذي الشجيرات وابحث إذن عني
الأحمق العجوز بجسم سمين
الأحمق العجوز وما قد رآني
العنكبوت! العنكبوت!
الأحمق العجوز سيسقط في جوف ذاك الكمين
ولم يستطع أبدًا أن يراني

نعم، أوافقكم أنها ليست من أفضل الأغاني التي سمعتموها، لكن لا تنسوا أنه ارتجلها بنفسه من وحي تلك اللحظة الغريبة، لكنه حقق منها غايته على أية حال. وأثناء غنائه، ألقى الهوبيت بالمزيد من الحجر ليسحق المزيد من العناكب. ما حدث فعليًا هو أن جميع العناكب في المكان تبعته: بعضها نزل إلى الأرض، والبعض الآخر أسرع على أفرع الأشجار، ثم تدلى من شجرة إلى أخرى أو نسج خيوطًا جديدة في الظلام. اتجهت العناكب نحو مكان الهوبيت بأسرع مما توقع، فقد كانت في شدة غضبها؛ فبعيدًا عن الأحجار التي ألقاها عليها الهوبيت، لا يحب أي عنكبوت أن يقال له (عجوز)، كما أن (أحمق) تعتبر كلمة مهينة لأي مخلوق.

ظل (بيلبو) يعدو من مكان إلى آخر، لكن العديد من العناكب كانت قد جرت الآن إلى الأماكن المختلفة التي تسكن فيها، وشغلت نفسها بنسج الشباك في أي فراغ بين جذوع الأشجار. كاد الهوبيت يعلق في تلك الشباك السميكة التي صارت الآن في كل مكان حوله، أو على الأقل كانت تلك هي خطة العناكب.

وبينما هو واقف بين الحشرات الغاضبة التي تدور حوله في كل مكان، استجمع (بيلبو) شجاعته، وشرع في غناء أغنية جديدة:

عنكبوت كسول وعنكبوت مجنون
ونسجوا شباكهم حتى يصيدوني
طعمي ألذ من لحوم أخريات

لكنهم لن يستطيعوا أبدًا، ولن يصيدوني
أنا هنا، شيء شقي صغير
أنتم كسالى خاملون
ولن تستطيعوا أن تصيدوني
مهما تحاولون

وبعد أن انتهى، التفت الهوبيت ليجد أن العناكب قد سدت آخر طريق للخروج من وسط كل تلك الشباك، لكن لحسن حظه أن آخر الشباك لم يكن محكم الصنع. كان فقط عبارة عن خيوط مجدولة من خيوط العنكبوت المزدوجة السمك، وقد تم نسجها بسرعة ذهابًا وإيابًا من جذع شجرة إلى آخر. أخرج الهوبيت سيفه الصغير، وقطع الخيوط إربًا، وخرج من وسطها وهو يغني.

رأت العناكب السيف. ورغم أنني لا أظنها تعرف شيئًا عن السيوف، فإنها في الحال أسرعت جميعها باتجاهه جريًا على الأرض وأفرع الأشجار، وبدت مخيفة بالفعل في شدة ثورتها بأرجلها كثيرة الشعر وكلّاباتها وأعينها الجاحظة، وتبعت العناكب (بيلبو) حتى ابتعد قدر ما أمكنه.

وبعد ذلك، وبهدوء شديد تسلل عائدًا. كان الهوبيت يعلم أن وقته ثمين وقليل قبل أن تمل العناكب وتعود إلى الأشجار التي تسكنها ويتدلى منها الأقزام، وفي أثناء ذلك كان على الهوبيت أن يسارع بإنقاذهم. كان أسوأ ما في الأمر هو تسلق الشجرة ليصل إلى الفرع الطويل الذي تدلت منه الحزم. لا أظنه كان ليتمكن من ذلك إن لم يستعمل ذلك الحبل الذي –من حسن الحظ- تركه أحد العناكب متدليًا؛ فبفضله، ورغم أنه التصق بيده أكثر من مرة وسبب له أذى، تسلق الهوبيت إلى أعلى، وهناك وجد أمامه عنكبوتًا سمينًا عجوزًا يبدو عليه الشر قد تخلف عن المجموعة ليحرس الغنائم. كان العنكبوت مشغولاً بقرص الأقزام ليرى من منهم كثير العصارة ليبدأ به. يبدو أن العنكبوت قد راودته فكرة أن يبدأ الاحتفالية في غياب الجميع، لكن السيد (باجنز) كان على عجلة من أمره. وقبل أن يدرك العنكبوت ما حدث، شعر بطعنة السيف تخترقه، فسقط عن فرع الشجرة ميتًا.

كانت مهمة (بيلبو) الآن هي تحرير أحد الأقزام، لكن كيف يفعل ذلك؟

إن قطع الخيط الذي يتعلق منه القزم، فسيسقط القزم المسكين لمسافة كبيرة، ثم يرتطم بشدة بالأرض. زحف الهوبيت على الفرع –مما جعل جميع الأقزام يهتزون ويرقصون كأنهم

فاكهة ناضجة معلقة في شجرة– حتى وصل إلى أول حزمة معلقة.

خمن (بيلبو) أن الحزمة لابد وأن من بداخلها هو (فيلي) أو (كيلي)، فقد استطاع تمييز قلنسوة زرقاء يخرج طرفها من أعلى الحزمة. وبالنظر مرة أخرى، بدا للهوبيت أنه على الأرجح (فيلي)، فقد كان أنف القزم الطويل يخرج أيضًا من بين الخيوط. مال الهوبيت باتجاه الحزمة، وتمكن من قطع معظم الخيوط اللزجة القوية التي التفت حول القزم، وبعد ذلك جاء دور القزم ليركل ويكافح حتى ظهر من قلب الحزمة. أخشى أن (بيلبو) قد انفجر ضاحكًا لدى رؤية (فيلي) يهز ذراعيه وساقيه المتيبسين كأنما يرقص مستندًا إلى خيوط العنكبوت تحت إبطيه، فقد ذكره المشهد بلعبة عفريت العلبة.

وبطريقة أو بأخرى، تمكن (فيلي) من الخلاص، واستقر على فرع الشجرة، ثم حاول جهده ليساعد الهوبيت في تخليص الآخرين، رغم شعوره بالإعياء والغثيان جراء تعرضه لسم العنكبوت، بالإضافة لتعلقه لساعات طويلة من الليل وحتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، وخيوط العنكبوت تلفه من أوله حتى آخره ما عدا أنفه ليتنفس.

فيما بعد أمضى القزم وقتًا طويلاً يحاول التخلص من تلك المادة الكريهة في عينيه وحاجبيه. أما بخصوص لحيته، فقد اضطر لأن يقص معظمها.

حسن، الآن تقاسم الهوبيت و(فيلي) المهمة، وأخذا يسحبان قزمًا وراء الثاني ليحررانه. لم يكن أي من الأقزام الآخرين أحسن حالاً من (فيلي)، بل كان بعضهم بحال أسوأ؛ بعض الأقزام بالكاد استطاع التنفس داخل الحزم العنكبوتية، وبخاصة من ليس له منهم أنف طويل كـ(فيلي)، وبعض الأقزام كان قد أصابه السم أكثر من الباقين. بهذه الطريقة حررا (كيلي) و(بيفر) و(بوفر) و(دوري) و(نوري). أما العجوز (بومبر) المسكين، والذي كان أثقلهم وزنًا، فقد صار الآن أكثرهم إرهاقًا. فالعناكب ظلت تقرصه وتوخزه، حتى إنه بعد أن حرره الهوبيت تدحرج من فوق فرع الشجرة وسقط مرتطمًا بالأرض، لكن من حسن حظه أن الأرض كانت مكسوة بأوراق الشجر المتساقطة. مكث (بومبر) في مكانه، أما الهوبيت فكان لازال أمامه خمسة أقزام معلقون بطرف الفرع عليه تحريرهم، وكان هذا حين بدأت العناكب تعود إلى أشجارها أكثر غضبًا. وعلى الفور اقترب (بيلبو) من طرف فرع الشجرة الأقرب لجذعها، وأخذ يبعد العناكب التي بدأت تتسلق الشجرة.

لم يكن الهوبيت مرتديًا الخاتم حينها، فقد خلعه من إصبعه حين حرر (فيلي)، ونسي أن يرتديه بعدها، فبدأت العناكب جميعها تقول بصوتها المزعج: "الآن نستطيع رؤيتك أيها

المخلوق الصغير الكريه! سنقوم بالتهامك ثم بتعليق عظامك وجلدك على الشجرة. إن لديه سلاحًا، لكن لا يهم، فسنمسك به على أية حال، ثم نعلقه من قدميه ليوم أو اثنين."

أثناء ذلك، كان الأقزام الآخرون يحاولون تحرير بقية الأسرى وقطع الخيوط الملتفة حولهم مستخدمين سكاكينهم. كادوا ينتهون من تخليص الجميع، لكن الذي كان ينتظرهم لم يكن واضحًا. لقد وقعوا أسرى لدى العناكب بسهولة شديدة في الليلة السابقة، لكن ذلك تم في غفلة من أمرهم وفي الظلام أيضًا؛ ولم يبد أن الأمر سيكون سهلا هذه المرة، بل بدا أن معركة رهيبة كانت على وشك أن تبدأ.

فجأة لاحظ (بيلبو) أن بعض العناكب قد اجتمعت حول (بومبر) العجوز على الأرض، وبدأت تقيده مرة أخرى وتسحبه بعيدًا. صرخ الهوبيت، ولوح بسيفه الصغير في وجه العناكب التي كانت أمامه، فابتعدت عن طريقه بسرعة، فأسرع إلى أسفل الشجرة وسقط عنها وسط مجموعة العناكب التي كانت على الأرض. كان سيفه بالفعل سلاحًا جديدًا عليها؛ كيف أنه يتحرك بسرعة إلى الأمام والخلف، وكيف يلمع حين يطعن العناكب. اضطر (بيلبو) لقتل ستة منها قبل أن تلوذ بقية العناكب التي كانت تسحب (بومبر) بالفرار تاركة إياه لـ(بيلبو).

لمح (بيلبو) عناكب تحتشد في جميع الأشجار المجاورة للشجرة التي يقف عليها الأقزام، وتتسلل عبر أفرع الأشجار لتصل إلى الأفرع التي فوق رؤوسهم، فصاح الهوبيت عاليًا ليسمعه الأقزام بأعلى الشجرة: "انزلوا عن الشجرة! انزلوا! لا تبقوا أعلاها فتقعون في الشراك مرة أخرى!"

نزل الأقزام الأحد عشر عن الشجرة في كومة واحدة، أو بالأحرى قفزوا وسقطوا عنها، وكان معظمهم لا يقوى على الوقوف على ساقيه. وأخيرًا تجمع الأقزام، اثنا عشر منهم متضمنين (بومبر) المسكين الذي كان يستند إلى ابن عمه (بيفر) وأخيه (بوفر)، بينما أخذ (بيلبو) يتحرك ويلوح بسيفه (ستينج).

أخذت العناكب الغاضبة تحملق فيهم من كل جانب، وبدت فرصة نجاتهم منعدمة.

وهنا بدأت المعركة...

بعض الأقزام كان يحمل سكاكين، والبعض الآخر يحمل عصيانًا، وجميعهم التقطوا الأحجار. أما (بيلبو)، فكان يحمل خنجره المصنوع بأيدي الإلفيين. انهزمت العناكب في البداية مرة تلو الأخرى، وسقط العديد منها صريعًا، لكن لم يكن هذا الوضع الإيجابي ليستمر لفترة طويلة، فـ(بيلبو) كان قد أعياه التعب، وأربعة فقط من الأقزام استطاعوا الوقوف بثبات، وبدا أنهم سيسقطون أسرى قريبًا كالذباب من شدة إرهاقهم. بدأت العناكب بالفعل في نسج شباك

جديدة بين الأشجار المحيطة، وفي النهاية لم يبد هناك حل آخر سوى أن يُطلع (بيلبو) الأقزام على سر خاتمه. كان أمرًا مؤسفًا بالنسبة له أن يضطر إلى ذلك، لكن لم تكن هناك طريقة أخرى.

قال الهوبيت: "سوف أختفي، وسأحاول جذب انتباه العناكب إن استطعت. عليكم أن تبقوا معًا، وأن تقصدوا الاتجاه المعاكس لاتجاهي. إلى اليسار هناك يقع الطريق إلى آخر مكان رأينا فيه نار الإلفيين."

لم تكن محاولة إفهامهم سهلة، فقد كانوا يشعرون بالدوار وسط كل تلك الصيحات وضربات العصيان وقذف الأحجار، لكن في النهاية شعر (بيلبو) أن عليه التحرك، فالحلقة التي كونتها العناكب حول الأقزام بدأت تضيق شيئًا فشيئًا. ارتدى الهوبيت خاتمه على نحو مفاجئ، واختفى وسط دهشة وذهول الأقزام.

وسريعًا سمعوا من ينادي بكلمات مثل (العنكبوت الكسول) و(العنكبوت المجنون) من بين الأشجار على يمينهم. أزعج هذا العناكب بشدة فتوقفت عن التقدم، وتوجه بعضها تجاه الصوت. كلمة (العنكبوت المجنون) على وجه الخصوص زادت من غضب العناكب وأفقدتها صوابها. ومن ثم قاد (بالين) حملة هجوم بما أنه كان أكثر استيعابًا لخطة (بيلبو) من الآخرين. تجمع الأقزام في زمرة واحدة، وألقوا بوابل من الأحجار على العناكب التي هاجمتهم من ناحية اليسار حتى انفتح لهم طريق عبر حلقة العناكب؛ ومن بعيد وراءهم توقف صوت الصياح والغناء فجأة.

تقدم الأقزام على أمل ألا تكون العناكب قد أمسكت بـ(بيلبو)، لكن شدة إجهادهم وتعبهم لم تمكنهم من الإسراع. ركض الأقزام بتمايل وبغير ثبات، رغم أن عناكب كثيرة كانت لازالت على مقربة منهم. وبين الحين والآخر، كانوا يضطرون إلى التوقف والالتفات لمحاربة تلك المخلوقات التي كادت تلحق بهم، بينما يتسلق بعضها الأشجار من فوقهم لتلقي بخيوطها اللاصقة الطويلة.

وحين ازدادت حالهم سوءًا، ظهر (بيلبو) فجأة وهاجم العناكب التي أصابها الذهول من جانبها على نحو مفاجئ، وصاح بالأقزام: "انطلقوا! انطلقوا! سأتولى أنا أمرها!"

وبالفعل تولى الهوبيت أمر العناكب، فأخذ يتحرك سريعًا إلى الأمام والخلف، ويقطع خيوط العناكب وكذلك أرجلها، ويطعن أجسادها السمينة إن اقتربت منه. كان غضب العناكب في ازدياد، وأخذت تزوم وتهس صابة لعناتها، لكنها صارت ترتعد لرؤية السيف، ولا تجرؤ على الاقتراب كثيرًا منه بعد أن عاد الهوبيت حاملاً إياه. وسواء تمتمت بلعنات أم لا، ففرائس العناكب كانت تتحرك بعيدًا عنها ببطء لكن بثبات. كان الأمر رهيبًا لأقصى درجة، وبدا أنه

سيستمر لساعات طويلة أخرى؛ لكن في النهاية، وحين شعر (بيلبو) بأنه لا يقوى على تسديد ضربة أخرى من سيفه، قررت العناكب الاستسلام، وتوقفت عن مطاردتهم، وقررت العودة إلى مستعمرتها تجر خيوط الفشل.

لاحظ الأقزام حينها أنهم وصلوا إلى حافة إحدى حلقات النار التي أضرمها الإلفيون. لم يقرروا إن كانت تلك الحلقة هي واحدة من الحلقات التي رأوها ليلة أمس أم لا، لكن من الواضح أن أمورًا سحرية تكمن في هذه المنطقة، ولذا لم تكن العناكب تود الاقتراب أكثر من ذلك. على أية حال، أنار ضوء أخضر المكان، وكانت الأغصان أقل سمكًا، وكذلك أقل تهديدًا، فكانت هذه فرصتهم ليستريحوا ويستردوا أنفاسهم.

رقد الأقزام في هذا المكان لبعض الوقت يلهثون بشدة، لكن سرعان ما بدءوا يتساءلون ويطلبون تفسيرًا لمسألة اختفاء الهوبيت. كان أمر عثور الهوبيت على ذلك الخاتم مشوقًا بالنسبة لهم، حتى إنهم قد نسوا متاعبهم لبعض الوقت. أصر (بالين) على الأخص أن يستمع لقصة (جولام) والألغاز التي تبادلاها وكل ما يختص بمغامرة الهوبيت في أنفاق الجوبلين مرة ثانية، لكن مع ذكر الخاتم في موضعه السليم بتسلسل الحكاية.

بمرور الوقت بدأت الأضواء تخفت، فبدأت سلسلة جديدة من الأسئلة تُطرح: أين كانوا؟ وبأي اتجاه يقع طريقهم الذي فقدوه؟ وأين يجدون طعامًا؟ وما هي الخطوة التالية؟

سأل الأقزام تلك الأسئلة مرارًا وتكرارًا، وكانوا يأملون أن تكون إجاباتها لدى (بيلبو). وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على أن نظرة الأقزام للهوبيت قد تغيرت كثيرًا، وأنهم بدءوا ينظرون له نظرة احترام جديدة لم يعرفها منهم من قبل، تمامًا كما أخبرهم (جاندلف). كانوا بالفعل ينتظرون منه الآن أن يفكر في خطة منظمة لينجوا جميعًا، ولم تكن أسئلتهم فقط بغرض التذمر. كانوا يعرفون جيدًا أنه سبب نجاتهم، وأن من دونه كانوا يلقون حتفهم، فأخذوا يرددون له عبارات الشكر كثيرًا، وبعضهم نهض لينحني له، لكنهم سقطوا من شدة الإعياء، ولم يتمكنوا من الوقوف على أرجلهم لبعض الوقت.

معرفة الأقزام لحقيقة أمر حيلة الاختفاء لم تقلل من شأن الهوبيت لديهم، فقد أدركوا أن لديه سرعة بديهة وبعض الحظ، بالإضافة إلى خاتم سحري، وأنه من المفيد أن يكون لديك ثلاثتهم. في الواقع، بعد كل ذلك المديح الذي امتدحه الأقزام له، بدأ الهوبيت يشعر أنه ربما يكون حقا بداخله مغامر مقدام، رغم أنه كان سيشعر بشجاعة أكثر من ذلك إن كان هناك ما يتناوله. لكن بالنظر حولهم، لم يكن هناك ما يمكن تناوله على الإطلاق، ولم يكن أيهم بحال تمكنه من التجول والبحث عن طعام أو حتى عن الطريق الذي فقدوه.

الطريق الذي فقدوه!

لم يتوقف رأس (بيلبو) المجهد عن التفكير به، وجلس يحدق في الأشجار من أمامه، وبعد برهة التزم الجميع الصمت مجددًا باستثناء (بالين). حتى بعد أن توقف الآخرون عن التحدث وأغلقوا أعينهم، أخذ هذا يدمدم ويضحك بصوت خفيض قائلاً: "(جولام)! حسن، إنني سعيد! إذن هكذا انسللت من أمامي، أليس كذلك؟ الآن فقط فهمت! فقط تسللت من أمامي بهدوء، أليس كذلك يا سيد (باجنز)؟ سقطت أزرارك عند درجات السلم أيها العزيز (بيلبو)... (بيلبووووو...)!"

ثم غاب في النوم، وساد جو من الصمت لمدة طويلة.

وفجأة، فتح (دوالين) عينيه بصعوبة، ونظر حوله وتساءل: "أين (ثورين)؟!"

وهبط عليهم قوله كالصاعقة. بالفعل كان عددهم فقط ثلاثة عشر، منهم اثنا عشر قزمًا وهوبيت واحد.

أين كان (ثورين) حقًا؟

تساءلوا إن كان مكروهًا ما قد أصابه، سواء كان بفعل سحر أو وحوش شريرة. وظل الأقزام في مكانهم، وأحسوا برعدة تسري في أجسادهم لمجرد التفكير في ذلك. ومن ثم، راحوا في سبات عميق مرة أخرى واحدًا تلو الآخر، لكن مع اشتداد ظلمة الليل، رأوا في منامهم أحلامًا رهيبة مزعجة.

نام الأقزام والهوبيت متعبين مجهدين، ولم يعينوا حراسًا منهم أو يتناوبوا المراقبة فيما بينهم؛ وهكذا سنتركهم الآن في سباتهم لبعض الوقت.

سقط (ثورين) أسيرًا بأسرع من بقية الأقزام بكثير.

أتذكرون حين غط (بيلبو) في سبات عميق كقطعة خشب بعد أن خطا في دائرة الضوء؟ خطا (ثورين) بعد ذلك في دائرة الضوء الأخرى، وحين انطفأت الأضواء سقط على الأرض مسحورًا كالحجر. الجلبة التي أحدثها الأقزام التائهون في الليل، وصرخاتهم حين تمكنت العناكب منهم، وأصوات المعركة في اليوم التالي؛ لم يسمع (ثورين) من ذلك كله شيئًا. ثم اقترب منه إلفيو الغابة وقيدوه وحملوه بعيدًا.

كان الذين حضروا تلك الاحتفالية بالطبع هم إلفيو الغابة، وهم ليسوا بقوم أشرار، وإن كان عيبهم الوحيد هو عدم الثقة بالغرباء. ورغم أنهم يملكون سحرًا فعالاً، فإنهم –حتى في تلك الأيام– يفضلون الاحتراس. كان هؤلاء القوم يختلفون عن الإلفيين العالين ساكني الغرب، وكانوا أشد خطرًا وأقل حكمة، فمعظمهم –بالإضافة إلى أقربائهم المنتشرين في التلال والجبال– ينحدر

من القبائل القديمة التي لم تطأ قدمها أبدًا أرض (فايري)* في الغرب. أما إلفيو النور، وإلفيو الأعماق، وإلفيو البحار فقد عاشوا هناك لعصور طويلة، وصاروا أكثر نقاءً وحكمة وثقافة، حيث أبدعوا في مجالات السحر والحرف اليدوية التي تتطلب مهارة وصنع أشياء خلابة. كل ذلك كان قبل أن يعود بعضهم إلى (العالم الواسع)**. وفي (العالم الواسع) اعتاد إلفيو الغابة التسكع في أوقات الشفق وفي ضوء القمر، لكنهم أحبوا النجوم بشكل خاص، كما اعتادوا التجول في الغابات الضخمة التي تنمو بكثافة في الأراضي غير المأهولة. في أغلب الأحوال، كان هؤلاء الإلفيون يقطنون أطراف الغابات، لكنهم كانوا يخرجون أحيانًا منها في رحلات صيد، أو للتجوال في الأراضي المفتوحة في ضوء القمر أو النجوم. لكن بعد مجيء بني البشر الأوائل، صاروا يفضلون ظلمة أوقات الغسق.

لقد كانوا ولازالوا من الإلفيين، والإلفيون قوم طيبون.

وفي داخل كهف ضخم يبعد بضعة أميال عن الأطراف الشمالية لحدود (ميركوود) دخولاً عاش في ذلك الوقت أعظم ملوك الإلفيين قاطني الغابة. أمام أبوابه الحجرية الضخمة يتدفق نهر من مرتفعات الغابة ويجري مارًّا بالمستنقعات أسفل أراضي الغابة المرتفعة. تنفتح من كلا جانبي هذا الكهف الضخم أعداد لا تحصى من الكهوف الصغيرة، ويتوغل كل منها تحت الأرض، وتتفرع منها ممرات وردهات واسعة. ومع ذلك، كان يصلها ضوء أكثر، بل كانت إجمالاً أكثر صلاحية للسكنى من أي كهف للجوبلين، ولم تكن كذلك شديدة العمق أو شديدة الخطورة. في الحقيقة، عاش معظم رعايا الملك ونظموا رحلات للصيد في الغابات المفتوحة، وسكنوا بيوتًا أو أكواخًا على الأرض أو على الأفرع، وكانت أشجار الزان هي المفضلة لديهم، أما كهف الملك فكان بمثابة قصره ومخبأ كنوزه، وكذلك حصنه وملاذ قومه في مواجهة أعدائهم.

وكان الكهف أيضًا زنزانة لسجنائه...

إلى هناك قاموا بسحب (ثورين) بطريقة ينقصها الاحترام، فهم لا يحبون الأقزام، وقد ظنوه عدوًّا لهم؛ فقديمًا خاض الإلفيون حروبًا ضد بعض الأقزام الذين اتهموهم بسرقة كنوزهم. لكن إحقاقًا للحق، فالأقزام لديهم رواية أخرى لنفس القصة: أنهم أخذوا فقط حصتهم حين استخدمهم ملك الإلفيين ليصوغوا له قدرًا من الذهب والفضة الخام، ثم امتنع بعد ذلك عن دفع أجورهم. ربما يكون حب ملك الإلفيين للكنوز هو نقطة ضعفه الوحيدة، وبخاصة الفضة

* هي أرض الإلفيين الواقعة غرب البحر في (أمان Aman)، وكلمة Faerie تنتمي إلى مرحلة مبكرة في كتابات (تولكين)، ولم يستخدمها في كتاباته سوى مرة واحدة.

** العالم الواسع Wide World يُعتبر الفكرة المبدئية لمسرح الأحداث، حيث لم يكن (تولكين) قد أدخل (الأرض الوسطى Middle-earth) كمكان رئيس لأحداث كتاباته بعد. لكن بعد (سيد الخواتم) أصبحت جميع قصصه –بما فيها هذه القصة– تدور فيها بشكل تلقائي.

والأحجار الكريمة البيضاء. ورغم أن حجراته امتلأت بالكنوز، فإنه كان دائمًا ما يرغب في المزيد بما أنه لم يكون ثروة بعد مثل التي كونها من سبقوه من ملوك الإلفيين القدامى. لم يشتغل قومه في التنجيم أو صياغة المعادن والجواهر، ولم تشغل بالهم كذلك التجارة أو حرث الأرض. كل ذلك معروف لأي قزم على وجه الأرض، لكن تبقى حقيقة أن قوم (ثورين) ليست لهم أية علاقة بذلك النزاع الذي أخبرتكم لتوي عنه. وبناءً على ذلك، لم يرض (ثورين) عن طريقة تعاملهم معه حين أفاقوه من تعويذتهم واسترد وعيه، فقرر القزم أنه لن ينبس بحرف واحد عن أي ذهب أو جواهر.

نظر الملك بوجه متجهم إلى (ثورين) حين تم إحضار القزم للمثول أمامه في الكهف، وسأله العديد من الأسئلة، لكن (ثورين) كان يجيب كل مرة قائلا إنه يتضور جوعًا.

سأله الملك: "لماذا هاجمت وقومك رعاياي ثلاث مرات أثناء وليمتهم؟"

أجاب (ثورين): "لم نهاجمهم، بل جئنا لنستجدي، لأننا كنا نتضور جوعًا."

سأل الملك: "أين أصدقاؤك الآن، وماذا يفعلون؟"

أجاب (ثورين): "لا أعلم، لكنني أظنهم لازالوا في الغابة يتضورون جوعًا."

-"ماذا كنتم تفعلون في الغابة؟"

-"كنا نبحث عن طعام وشراب، لأننا كنا نتضور جوعًا."

سأله الملك في غضب: "وماذا جلبكم إلى الغابة في المقام الأول؟"

وهنا توقف (ثورين) عن الكلام، ورفض أن يلفظ بكلمة أخرى، فقال الملك: "رائع! خذوه وأبقوه في مكان أمين حتى يرغب في قول الحقيقة، حتى وإن بقي لمئات السنين."

أخذه الإلفيون وكبلوه بسير جلدي، وحبسوه في أحد أوغل الكهوف ذات الأبواب الخشبية القوية، وتركوه هناك. أعطى الإلفيون (ثورين) الكثير من الطعام والشراب، فإلفيو الغابة ليسوا كالجوبلين، وكانوا يعاملون حتى ألد أعدائهم بقدر من الرأفة إن أمسكوا بهم. فقط الكائنات الحية الوحيدة التي لا تطمع في رحمة إلفيي الغابة هي العناكب الضخمة.

وهناك في زنزانة الملك رقد (ثورين) المسكين. وبعد أن شبع وأطفأ نار عطشه، بدأ يتساءل عما حل برفاقه التعساء.

لم يطل الوقت قبل أن يعرف إجابة هذا السؤال، لكن الإجابة تخص الفصل المقبل، وبداية مغامرة أخرى أظهر فيها الهوبيت مواهبه المفيدة.



الفصل التاسع

براميل طليقة

في اليوم التالي للمعركة مع العناكب قام (بيلبو) والأقزام بمحاولة أخيرة يائسة للعثور على طريق للخروج قبل أن يموتوا جوعًا وعطشًا. نهض الأقزام، وساروا في الاتجاه الذي خمن ثمانية منهم أنه قد يؤدي إلى طريقهم الذي فقدوه، لكنهم لم يعرفوا قط إن كانوا على صواب أم لا.

كان نور النهار يتضاءل وظلمة الليل تدنو عندما ظهرت فجأة أضواء مشاعل كثيرة تحيط بهم من كل اتجاه كأنها مئات من النجوم الحمراء، وظهر بعض إلفيي الغابات ومعهم أقواسهم

ورماحهم، وأمروا الأقزام بالتوقف.

لم تدر بخلد أي من الأقزام فكرة القتال، فحتى لو لم يكونوا في تلك الحالة السيئة التي تجعلهم في الحقيقة سعداء بوقوعهم في الأسر، فإن سكاكينهم الصغيرة -السلاح الوحيد الذي يحملونه- لم تكن لتفيدهم أمام سهام الإلفيين التي بإمكانها إصابة عين طائر بعيد في الظلام. هكذا تسمروا في أماكنهم، وجلسوا على الأرض منتظرين؛ كلهم فيما عدا (بيلبو) الذي وضع خاتمه، وانسل بسرعة جانبًا.

لهذا السبب لم يجد أو يحصي الإلفيون الهوبيت حين قيدوا الأقزام في صف طويل كل وراء الآخر، ولم يسمعوه أو يحسوا به كذلك وهو يهرول خلف أضواء مشاعلهم بمسافة كبيرة وهم يقودون الأسرى عبر الغابة. كان الأقزام كلهم معصوبي الأعين، لكن لم يكن هذا ليحدث فارقا كبيرًا، فحتى (بيلبو) الذي لم يكن معصوب العينين لم يكن بإمكانه أن يرى إلى أين يتجهون، بل لم يكن لا هو ولا الآخرون يعرفون حتى من أين انطلقوا. بذل (بيلبو) أقصى ما في وسعه من جهد كي لا يتخلف عن الإلفيين حاملي المشاعل، فقد كان الإلفيون يحثون الأقزام للسير بأسرع ما يمكنهم رغم الإعياء والإجهاد الذي هم عليه، وذلك لأن الملك قد أمرهم بالإسراع. فجأة توقف حملة المشاعل، وبالكاد استطاع الهوبيت اللحاق بهم قبل أن يبدءوا في عبور الجسر. كان هذا هو الجسر الذي يعبر النهر وصولاً إلى أبواب الملك. كانت المياه تجرى مظلمة ومسرعة وقوية أسفله، وفي الطرف الأقصى كانت هناك بوابات أمام مدخل كهف ضخم يمتد تحت منحدر حاد مكسو بالأشجار. هناك كانت أشجار الزان تمتد حتى ضفة النهر، حتى إن بعضها كان ينمو وسط تيار المياه. دفع الإلفيون أسراهم عابرين هذا الجسر، لكن (بيلبو) تردد في الخلف، فهو لم يحب إطلاقًا منظر مدخل الكهف، ولم يحزم أمره بعدم ترك أصدقائه إلا في آخر لحظة كان بإمكانه فيها العدو وراء الإلفيين سريعي الحركة قبل أن تُغلق بوابة الملك الكبيرة وراءهم برنين مسموع.

في الداخل كانت الممرات مضاءة بضوء مشاعل أحمر، وكان الحراس الإلفيون يغنون أثناء سيرهم عبر الدروب الملتوية المتقاطعة التي يتردد فيها صدى صوتهم. لم تكن هذه الممرات كممرات الجوبلين، بل كانت أصغر و أقل عمقًا من مستوى الأرض وجيدة التهوية. كان الملك الإلفي جالسًا على كرسي من الخشب المنقوش في قاعة كبيرة ذات أعمدة منحوتة في الصخر، ويرتدي على رأسه تاجًا من أوراق التوت وأوراق الشجر الحمراء، فقد كان الخريف قد حل مجددًا، أما في الربيع فقد كان يضع تاجًا من زهور الغابة، وكان يمسك في يده بعصا منقوشة من خشب البلوط.

قام الحراس بجلب الأسرى للمثول أمام الملك. ورغم أنه نظر إليهم بتجهُّم، فإنه أمر رجاله بحل قيودهم، وذلك بسبب شعورهم ولحاهم الشعثة والإعياء البادي عليهم، وقال

للحراس: "بالإضافة إلى أنه ليست هناك حاجة للحبال هنا، فلا مفر من أبوابي السحرية لمن جُلبوا إلى الداخل."

استجوب الملك الأقزام لمدة طويلة، ووجه إليهم أسئلة تفصيلية عن مقاصدهم ووجهتهم ومن أين أتوا، لكنهم لم يُعلموه بأكثر مما أعلمه (ثورين)، فقد كانوا عابسين وغاضبين، ولم يحاولوا حتى التظاهر بحسن الخلق.

قال (بالين) الذي كان أكبر سنًا من بقية الأقزام: "ماذا فعلنا يا جلالة الملك؟ أهي جريمة أن نضل في الغابة، وأن نجوع ونعطش، وأن تحيط بنا العناكب؟ هل العناكب حيواناتك المستأنسة أو المدللة لتغضب لقتلنا إياها؟"

بالطبع جعل هذا السؤال الملك يستشيط غضبًا، وأجاب قائلاً: "إنها جريمة أن تتجولوا في مملكتي من دون إذن. هل نسيتم أنكم في مملكتي، وأنكم تستخدمون الطريق الذي شقه قومي؟ ألم تطاردوا وتضايقوا قومي في الغابة ثلاث مرات، وتوقظوا العناكب بشغبكم وصخبكم؟ يحق لي بعد كل الاضطراب الذي تسببتم فيه أن أعرف ما الذي أتى بكم إلى هنا. وإن لم تخبروني الآن، فسأبقيكم جميعًا في الأسر إلى أن تتعلموا حسن الخلق وتستردوا عقولكم!"

ثم أمر الحراس بأن يُسجن كل قزم في زنزانة منفصلة، وأن يزودوهم بالطعام والشراب، وبعدم السماح لهم بتخطي أبواب زنزاناتهم الصغيرة، إلا إذا كان واحد منهم على الأقل على استعداد لإخباره بكل ما يود معرفته.

لكنه لم يقل لهم إن (ثورين) أيضًا أسير لديه، بل كان (بيلبو) هو من اكتشف هذا.

مسكين السيد (باجنز)...

لمدة طويلة ظل في هذا المكان وحيدًا تمامًا ومختبئًا دائمًا، ولم يجرؤ قط على خلع خاتمه أو النوم، ولا حتى محشورًا في أكثر الأركان التي كان بإمكانه العثور عليها ظلمة وأبعدها. اعتاد التجول في قصر الملك الإلفي تمضية للوقت، وكانت البوابات تُغلق بعمل سحري ما، لكنه أحيانًا كان يتمكن من الخروج إن كان سريعًا بما يكفي. كانت جماعات من إلفيي الغابة تخرج من حين إلى آخر -أحيانًا بقيادة الملك- للصيد أو في مهام أخرى في الغابات والأراضي الشرقية. حينها كان يمكن لـ(بيلبو) الانسلال خلفهم مباشرة -إن تحرك بالرشاقة اللازمة- رغم خطورة هذا العمل؛ فقد كاد أن يُقبض عليه أكثر من مرة عند الأبواب، وذلك عندما تلتقي الأبواب ثانية بعد مرور الإلفي الأخير. ورغم هذا، لم يكن يجرؤ على المسير وسطهم بسبب ظله الذي كان رفيعًا ومرتعشًا على ضوء المشاعل، أو بسبب خوفه من اصطدام أحدهم به فينكشف أمره. وعندما كان يُقدم على

الخروج –الأمر الذي لم يكن يحدث كثيرًا– لم يكن يفعل أي شيء مفيد، فهو لم يرغب في التخلي عن الأقزام، وبالفعل لم يكن يعرف أين يذهب من دونهم. لم يكن بإمكانه متابعة الإلفيين الذين يصطادون طوال رحلات صيدهم، ولهذا لم يعرف قط طريق الخروج من الغابة، فكان يتجول ببؤس في الغابة مرعوبًا من أن يضل طريقه إلى أن تتاح له فرصة العودة. كان أيضًا يشعر بالجوع وهو في الخارج، فهو لم يكن صيادًا، لكن في داخل الكهوف كان بإمكانه البقاء على قيد الحياة بسرقة الطعام من مخزن أو من على مائدة عندما لا يكون هناك أحد في الجوار.

فكر الهوبيت محدثًا نفسه: "مثلي كمثل لص لا يستطيع الهرب، بل حكم عليه بؤسه بأن يستمر في سرقة نفس البيت كل يوم! هذه هي أكثر مراحل هذه المغامرة المتعبة التعيسة المزعجة كآبة وبعثًا على الملل! ليتني أعود إلى حفرتي، وأجلس بجوار مدفأتي الدافئة والمصابيح مضاءة!"

كان أيضًا كثيرًا ما يتمنى أن يرسل برسالة إلى الساحر يطلب فيها المساعدة، لكن هذا بالطبع كان أمرًا مستحيلاً، وسرعان ما أدرك أنه إن أراد أن يخرج والجميع من هنا، فلن يحدث هذا إلا عن طريقه وحده ومن دون عون من أحد.

وأخيرًا، وبعد أسبوع أو اثنين من حياة التلصص هذه، استطاع أن يعرف مكان كل قزم، وذلك بتتبع الحراس وانتهاز الفرص التي سنحت له. وجد زنازينهم الاثنتي عشرة متفرقة في شتى أنحاء القصر، وبعد مضي بعض الوقت تمكن من معرفة طريقه بينها جيدًا. كانت مفاجأة الهوبيت كبيرة حين سمع حديث بعض الحراس في يوم من الأيام خلسة، وعلم أن هناك قزم آخر مسجون في مكان شديد العمق والظلمة. بالطبع قدَّر ساعتها أن هذا القزم هو (ثورين)، وبعد برهة علم أنه مصيب في تقديره. في النهاية، وبعد مصاعب كثيرة، استطاع الهوبيت أن يجد مكان زنزانة (ثورين) عندما لم يكن هناك أحد بالجوار، وأن يتحدث مع زعيم الأقزام الذي كان بائسًا لدرجة أنه لم يعد غاضبًا من البلاء الذي هو فيه، بل كان قد بدأ يفكر في أن يخبر الملك بكل ما يعرفه عن كنزه ومهمته –مما يوضح كم كانت روحه المعنوية في الحضيض– عندما سمع صوت (بيلبو) الخافت عبر ثقب المفتاح في باب زنزانته. عندها لم يكد القزم يصدق أذنيه، لكنه قرر سريعًا أنه من الصعب أن يكون على خطأ، واقترب من الباب وتحدث حديثًا هامسًا طويلاً مع الهوبيت الواقف على الجانب الآخر من الباب.

هكذا استطاع (بيلبو) إيصال رسالة شفهية من (ثورين) إلى كل واحد من الأقزام الآخرين المأسورين يقول لهم فيها إن (ثورين) زعيمهم أسير هو الآخر في مكان قريب منهم، ويأمرهم بألا يفشي أحد منهم أمر مهمتهم إلا إذا أمرهم هو بذلك. استرد (ثورين) شجاعته مجددًا بعد أن

سمع كيف أن الهوبيت قد أنقذ رفاقه من العناكب، وعزم على ألا يفدي نفسه بوعود يقدمها للملك لإعطائه نصيبًا من الكنز إلى أن يتبخر تمامًا كل أمل له في الهرب بأي وسيلة أخرى، أو في الواقع إلى أن يفشل تمامًا السيد (باجنز) غير المرئي –الذي علت مكانته كثيرًا لدى (ثورين)– في التوصل إلى حل بارع.

وافق الأقزام الآخرون على هذا عندما وصلتهم الرسالة، فقد اعتبروا جميعًا أن حصصهم في الكنز –على اعتبار أنها صارت ملكهم رغم المأزق الذي هم فيه والتنين الذي لم يُهزم بعد– ستنتقص بشدة إن ادعى إلفيو الغابة أن لهم نصيبًا فيه، كما أنهم باتوا جميعًا يثقون بـ(بيلبو)، تمامًا كما أخبرهم (جاندلف)؛ ولعل ذلك يكون السبب الذي دعا الساحر إلى تركهم والرحيل عنهم.

رغم ذلك، لم يكن (بيلبو) مفعمًا بالأمل مثلهم، فهو لم يكن يحب أن يعتمد الجميع عليه، وتمنى أن يكون الساحر معه، لكن هذا لم يكن هناك طائل من ورائه، فغالبًا تفصل بينهم الآن مساحة غابة (ميركوود) المظلمة كلها بأطرافها المترامية. جلس يفكر ويفكر إلى أن أوشك رأسه على الانفجار، لكنه لم يتمكن من التفكير في أي فكرة براقة. كان خاتمًا واحدًا يُخفي أمرًا جيدًا، لكنه ليس مجديًا كثيرًا مع أربعة عشر فردًا.

لكنه بالطبع –وكما قدرتم أنتم– استطاع في النهاية أن ينقذ أصدقاءه، وإليكم كيف فعلها:

ذات يوم، وأثناء تطفله وتجوله، اكتشف (بيلبو) أمرًا مثيرًا للغاية، وهو أن البوابة الكبيرة ليست هي المدخل الوحيد للكهوف، بل إن هناك جدولاً مائيًا يسري تحت بعض الأماكن الأكثر انخفاضًا من القصر، ويتحد مع نهر الغابة على مسافة ما شرقًا وراء المنحدر الحاد الذي يوجد به المدخل الرئيس. وحيث تخرج هذه القناة الواقعة تحت الأرض إلى جانب التل، كانت هناك بوابة مائية حيث ينخفض السقف الحجري ويقترب من سطح الماء، ومنها يمكن إلقاء شبكة حديدية تصل إلى قاع النهر لمنع أي شخص من الدخول أو الخروج من هذا الطريق. لكن الشبكة الحديدية هذه كانت مفتوحة في أغلب الأحيان، وذلك لأن حركة مرور كبيرة كانت تخرج وتدخل من البوابة المائية. وإن دخل أحد من هذا الطريق، فسيجد نفسه في نفق مظلم وعر يؤدي إلى أعماق التل، لكن في موضع منه يمر تحت الكهوف كان السقف قد أزيل، وغُطي بأبواب أفقية مصنوعة من خشب البلوط تُفتح لأعلى على أقبية الملك، وهنالك كان يوجد الكثير جدًا من البراميل، وذلك لأن إلفيي الغابة –وبخاصة ملكهم– كانوا مغرمين بالخمر، رغم عدم نمو أي أشجار كرم في تلك الأنحاء. كانت الخمر وسلع أخرى تُجلب من أماكن بعيدة، من أقربائهم في الجنوب أو من حدائق كَرْم بني البشر في البلاد البعيدة.

استطاع (بيلبو) وهو مختبئ خلف واحد من أكبر البراميل أن يكتشف الأبواب الأفقية وكيفية استعمالها، وباختبائه هناك ليستمع إلى أحاديث خدم الملك، عرف كيف أن الخمر والبضائع الأخرى تأتي عبر الأنهار أو برًا إلى البحيرة الطويلة، فيبدو أن بلدة لبني البشر كانت لازالت مزدهرة هناك، ومبنية على جسور في عرض الماء حماية لها من كافة الأعداء، وخاصة تنين الجبل. من بلدة البحيرة (إسجاروث) كانت تأتي البراميل عبر نهر الغابة، وكانت البراميل غالبًا ما تكون فقط مربوطة ببعضها البعض مثل أطواف كبيرة تُسحب أو تُوجَّه عبر تيار مياه النهر، وأحيانًا كانت تُنقل على قوارب مسطحة.

عندما كانت البراميل تفرغ، كان الإلفيون يلقون بها من الأبواب الأفقية، ويفتحون البوابة المائية فتطفو البراميل على سطح الجدول إلى أن يحملها التيار إلى مكان بمجرى النهر تكون فيه الضفة بارزة، وذلك بالقرب من حدود (ميركوود) الشرقية. هناك كان يتم تجميعها وربطها ببعضها البعض، فتطفو عائدة إلى بلدة البحيرة القريبة من النقطة التي يصب فيها نهر الغابة في البحيرة الطويلة.

جلس (بيلبو) لبعض الوقت يفكر في أمر تلك البوابة المائية، وتساءل إن كان بإمكانه استخدامها لتهريب أصدقائه؛ وفي النهاية توصل إلى بدايات يائسة لخطة.

كانت الوجبة المسائية قد تم جلبها للسجناء، وكان الحراس يتسكعون مبتعدين عبر الممرات آخذين ضوء المشاعل معهم ومغرقين كل ما وراءهم في ظلام دامس. ثم سمع (بيلبو) كبير خدم الملك يلقي تحية المساء على كبير الحراس، ثم يقول: "والآن تعال معي لتتذوق الخمر التي أتت مؤخرًا. سيكون أمامي عمل شاق الليلة لإخلاء الأقبية من الخشب الفارغ، ولذلك فلنتناول كأسًا من الشراب أولاً ليساعدنا على العمل."

ضحك كبير الحراس قائلاً: "رائع. سأتذوق بعضها معك، وأرى إن كانت مناسبة لمائدة الملك، فهناك مأدبة الليلة ولن يكون من الجيد إرسال خمر رديئة!"

عندما سمع (بيلبو) ذلك خفق قلبه في شدة، فقد رأى أن الحظ يحالفه. وأن لديه فرصة ليجرب خطته اليائسة فورًا. تبع الهوبيت الإلفيين إلى أن دخلا قبوًا صغيرًا وجلسا إلى مائدة عليها إبريقان كبيران، وبعد قليل بدآ في الشرب والضحك في مرح. عندها حالف (بيلبو) الحظ بطريقة غير عادية، فلم يكن هناك شيء قادر على جلب النعاس إلى أعين إلفيي الغابة سوى خمر قوية، لكن هذه الخمر كما يبدو كانت من الغلة المسكرة المجلوبة من حدائق عنب (دوروينيون)

الكبيرة، وليست بالطبع مخصصة لجنود الملك أو خدمه، بل لولائمه فقط؛ ولكؤوس أصغر حجمًا، وليس لأباريق كبير الخدم الكبيرة.

بعد برهة قصيرة جدًا مال رأس قائد الحرس على صدره، ثم وضعه على المائدة واستغرق في نوم عميق، بينما استمر كبير الخدم يتحدث ويضحك لبعض الوقت من دون أن يلاحظ ما حدث، لكن رأسه مال هو الآخر بعد قليل على المائدة، فغط في النوم بجانب صديقه. عندها تسلل الهوبيت مقتربًا منهما، وبعد قليل لم يكن قائد الحرس معه أي مفاتيح، بينما كان (بيلبو) يهرول بأسرع ما يمكنه عبر الممر المؤدي إلى الزنازين. كانت مجموعة المفاتيح ثقيلة جدًا على يده، وكانت أعصابه متوترة للغاية، فرغم ارتدائه لخاتمه، فهو لم يتمكن من منع المفاتيح من إصدار صليل عال كل حين وآخر، الأمر الذي كان يجعله يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

في البداية فتح الهوبيت قفل باب (بالين)، ثم أغلقه ثانية بعناية حالما خرج القزم. أصيب (بالين) بدهشة بالغة كما يمكنكم التخيل، وأراد أن يتوقف ويسأل أسئلة رغم فرحته بالخروج من الحجرة الصخرية المرهقة، وأن يعرف ما ينوي (بيلبو) فعله وكل ما يتعلق بهذا الأمر.

قال الهوبيت: "ليس هناك متسع من الوقت الآن! يجب أن تتبعني! علينا أن نبقى جميعا معًا ولا نخاطر بالتفرق، فإما أن نهرب جميعًا أو لا يهرب منا أحد. هذه هي فرصتنا الأخيرة، وإن تم اكتشافها، فلا أحد يعلم أين سيسجنكم الملك بعد ذلك. بحسب ظني سيقيد أيديكم وأرجلكم بالأغلال أيضًا. لا تجادل أيها الرفيق الطيب!"

وبعد ذلك انطلق (بيلبو) من باب إلى آخر حتى أصبح عدد من يتبعونه اثنا عشر لا يتمتع أي منهم بالرشاقة مع الظلام ومع بقائهم لفترة طويلة في الحبس. كان قلب (بيلبو) يقع في قدميه في كل مرة يرتطم أحدهم بآخر أو يصدر أحدهم صوتًا أو يهمس في الظلام.

قال الهوبيت في نفسه: "اللعنة على جلبة الأقزام هذه!"

لكن كل شيء سار على ما يرام، ولم يقابلوا أي حرس، ففي الحقيقة كانت هناك مأدبة خريفية كبيرة مقامة في الغابة تلك الليلة وفي القاعات في الأعلى، وكان تقريبًا كل رعايا الملك يستمتعون بوقتهم. في النهاية، وبعد تخبط كثير، وصلوا إلى زنزانة (ثورين) الواقعة على عمق كبير، ولحسن الحظ لم تكن بعيدة عن الأقبية.

قال (ثورين) عندما همس له (بيلبو) بأن يخرج وينضم لأصدقائه: "حقًا كان (جاندلف) محقًا كالعادة. يبدو أنك لص محترف إن تطلب الأمر ذلك. أنا واثق بأننا سنظل مدينين لك إلى الأبد مهما حدث بعد ذلك، لكن ماذا بعد؟"

رأى (بيلبو) أن الوقت قد حان لشرح فكرته قدر المستطاع، لكنه لم يكن واثقًا قط بكيفية تقبُّل الأقزام لها. وكانت مخاوفه في محلها، فلم تعجبهم الفكرة البتة، وبدءوا يتذمرون بصوت مرتفع رغم الخطر الذي هم فيه.

غمغم الأقزام قائلين: "سوف نصاب برضوض ونُسحق إلى قطع صغيرة، بل وسنغرق أيضًا بكل تأكيد! كنا نظن أن لديك فكرة معقولة عندما استطعت أن تستولي على المفاتيح. أما هذه ففكرة مجنونة!"

قال (بيلبو) باكتئاب شديد وببعض الانزعاج: "حسن! تعالوا إذن لأعيدكم إلى زنازينكم الجميلة، وسأغلق عليكم الأبواب مجددًا، ويمكنكم أن تجلسوا هناك براحة وتفكروا في خطة أخرى، لكنني لا أظن أنني سأتمكن من الاستيلاء على المفاتيح مرة أخرى حتى إن رغبت في المحاولة."

كان هذا كفيلاً بجعلهم يهدؤون. وفي النهاية كان عليهم بالتأكيد أن يفعلوا ما اقترحه (بيلبو) بالضبط، فقد كان من الواضح استحالة أن يحاولوا العثور على طريق للخروج من القاعات العلوية، أو أن يخرجوا من بوابة تُغلق بطريقة سحرية مقاتلين من يعترض طريقهم، ولم يكن من المفيد التذمر في الممرات إلى أن يقوم الحراس بالقبض عليهم مرة أخرى. هكذا تسللوا إلى الأقبية السفلية تابعين الهوبيت، ومروا بباب كان بإمكانهم أن يروا من خلاله قائد الحرس وكبير الخدم يغطان في النوم بسعادة والابتسامة مرتسمة على وجهيهما؛ فخمر (دوروينيون) تجلب أحلامًا عميقة ومبهجة، لكن بالطبع سيرتسم تعبير مختلف على وجه رئيس الحرس في اليوم التالي، وذلك رغم أن (بيلبو) قبل أن يمضوا قدمًا قد تسلل إلى الداخل، وأعاد المفاتيح إلى حزامه بطيبة قلب كبيرة.

قال السيد (باجنز) لنفسه: "سيجنبه ذلك بعض المتاعب التي تنتظره، فهو لم يكن إلفيًا سيئًا، وكان كريمًا مع السجناء. سيحيرهم جميعًا الأمر أيضًا، فسيظنون أن الأقزام بحوزتهم سحر قوي جدًا مكنهم من عبور كل هذه الأبواب المغلقة والاختفاء... الاختفاء! يجب أن نعمل بسرعة إن أردنا لهذا أن يتحقق!"

تم تعيين (بالين) لمراقبة الحارس وكبير الخدم، وإنذار بقيتهم إن أفاقا. أما بقية الأقزام فقد ذهبوا إلى القبو المجاور الذي توجد به الأبواب الأفقية. لم يكن هناك وقت لإضاعته، فقبل مرور وقت طويل -كما يعرف (بيلبو)- كان سيهبط بعض الإلفيين ممن لديهم أوامر بمساعدة كبير الخدم في التخلص من البراميل الفارغة في الجدول عبر الأبواب. كانت تلك البراميل في الحقيقة مرصوصة بالفعل في صفوف وسط القبو في انتظار الدفع بها. كان بعضها براميل خمر، ولم تكن مفيدة لهم لعدم إمكان فتحها من دون إصدار ضوضاء عالية ولا حتى إحكام غلقها بسهولة

بعد ذلك، لكن بينها كانت براميل كثيرة أخرى تُستخدم لجلب أشياء أخرى كالزبد والتفاح ومختلف الأصناف الأخرى إلى قصر الملك.

سرعان ما عثروا على ثلاثة عشر برميلاً كبير الحجم بما يكفي لأن يحوي كل منها قزمًا. في الواقع، كان بعض البراميل كبيرًا جدًا، ومع دخولهم فيها فكر الأقزام بقلق في الاهتزازات والارتطامات التي ستصيبهم وهم بالداخل، لكن (بيلبو) بذل قصارى جهده للعثور على بعض القش وأشياء أخرى ليحشرهم بالداخل بأقصى راحة ممكنة في وقت قصير كهذا، وأخيرًا تم تعبئة اثني عشر برميلاً باثني عشر قزمًا. لكن (ثورين) سبب متاعب كثيرة، وتقلب والتوى في برميله وتذمر ككلب كبير تم حبسه في بيت صغير، أما (بالين) الذي كان الأخير فقد أحدث جلبة كبيرة بسبب فتحات التهوية ببرميله، وقال إنه يختنق من قبل حتى أن يوضع الغطاء عليه. فعل (بيلبو) ما بوسعه لإغلاق الفتحات في جوانب البراميل، ولإحكام غلق أغطيتها قدر ما بإمكانه. والآن أصبح الهوبيت وحده مرة أخرى، وأخذ يجري ويضع اللمسات الأخيرة على التعبئة، آملاً أن تسير خطته كما رسمها.

لم تكد تمر دقيقة أو اثنتين بعد أن أغلق غطاء (بالين) حتى سمع (بيلبو) أصواتًا ورأى بصيصًا من النور. دخل عدد من الإلفيين إلى القبو وهم يتحدثون إلى بعضهم البعض ضاحكين ومغنين مقاطع من أغنية. لقد تركوا مأدبة مبهجة في أحد القاعات وينوون العودة لها بأسرع ما يمكن.

قال أحدهم: "أين العجوز (جاليون) كبير الخدم؟ لم أره على الموائد الليلة، والمفترض أن يكون هنا الآن ليرينا ما يتوجب علينا فعله."

قال آخر: "سأغضب إن تأخر هذا البطيء، فأنا لا أرغب في إضاعة الوقت هنا بالأسفل بينما هم يغنون بالأعلى!"

صاح أحدهم ضاحكًا: "ها! ها هو الشقي العجوز ورأسه في إبريق! كان يستمتع بمأدبة خاصة به هو وصديقه رئيس الحرس."

صاح الآخرون بنفاد صبر: "هزوه! أيقظوه!"

لم يكن (جاليون) سعيدًا على الإطلاق بهزه وإيقاظه بهذه الطريقة، ولا بأن يكون مدعاة للسخرية، وتذمر قائلاً: "إنكم جميعًا متأخرون، وها أنا في انتظاركم هنا بالأسفل وأنتم تشربون وتستمتعون بوقتكم وتنسون مهامكم. ليس غريبًا أن أنام من التعب!"

قالوا: "ليس غريبًا عندما يكون التفسير قريبًا وبداخل إبريق! هيا، أذقنا شرابك النوم قبل أن نبدأ في العمل! ليست هناك حاجة لإيقاظ هذا السجّان، فمن الواضح أنه قد نال نصيبه."

بعد ذلك شرب كل منهم مرة واحدة، وازدادت بهجتهم فجأة، لكنهم لم يثملوا.

صاح بعضهم: "ارحمنا يا (جاليون)! لقد بدأت مأدبتك مبكرًا فشوشت انتباهك! لقد كومت بعض البراميل الملآنة هنا بدلًا من الفارغة. هذا واضح من الوزن."

دمدم كبير الخدم قائلًا: "افعلوا ما تؤمرون! هذا الوزن ليس له معنى عندما يحس به ثملون مثلكم. هذه هي البراميل التي سيتم الإلقاء بها، وليس بينها شيء آخر. افعلوا ما أقوله!"

أجابوا وهم يدحرجون البراميل إلى الفتحة: "حسن، حسن. فليكن الأمر كذلك على مسؤوليتك إن دفعنا بأجود أنواع خمر الملك إلى النهر ليأخذها رجال البحيرة ويقيموا بها ولائم مجانية!"

دحرجوها، دحرجوها، دحرجوها!
دحرجوها، وأسقطوها عبر الفتحة!
ارفعوها لتسقط ويتناثر الماء!
أنزلوها ليحملها الماء!

هكذا غنوا وهم يدحرجون البراميل واحدًا تلو الآخر إلى الفتحة المظلمة، فسقطت في المياه الباردة الواقعة أسفلها ببضعة أقدام. كان بعض البراميل فارغًا بالفعل، وبعضها الآخر كان مملوءًا بقزم في كل برميل، لكنها سقطت جميعًا إلى الأسفل واحدًا تلو الآخر مصدرة أصوات ارتطام وتخبط، هابطة على براميل أسفلها، ثم مرتطمة بالماء ومحتكة بجدران النفق، ثم مرتطمة بعضها ببعض ومنجرفة بعيدًا مع تيار المياه.

في تلك اللحظة فقط اكتشف (بيلبو) فجأة نقطة الضعف في خطته. أغلب الظن أنكم قد أدركتموها منذ بعض الوقت وكنتم تضحكون من غفلته، لكنني لا أظن أنه كان بوسعكم فعل نصف ما فعله لو كنتم في مكانه. بالطبع لم يكن هو نفسه في برميل، ولم يكن هناك من يُدخله في واحد ويُغلق عليه حتى وإن كانت هناك فرصة!

شعر الهوبيت بأنه من المؤكد أنه سيفقد أصدقاءه هذه المرة، فقد اختفى معظمهم بالفعل عبر الباب الأفقي المظلم، وسيُترك هو كلية، وسيكون عليه أن يظل متواريًا كلص دائم في كهوف الإلفيين مرة أخرى. حتى وإن استطاع الفرار عبر البوابة العليا، ففرصته في العثور على أصدقائه من الأقزام تكاد تكون منعدمة، لأنه لم يكن يعرف الطريق البري الذي يؤدي إلى مكان تجمع البراميل. تساءل ماذا يمكن أن يحدث لهم من دونه، فلم يكن هناك ما يكفي من الوقت لأن يخبر

الأقزام بكل ما عرفه أو ما كان ينوي فعله بمجرد أن يخرجوا من الغابة.

وبينما كانت كل هذه الأفكار تمر في ذهنه، بدأ الإلفيون الذين كانوا في غاية السعادة يغنون أغنية حول باب النهر. كان بعضهم قد ذهب بالفعل لجذب الحبال التي تسحب الشبكة الحديدية عند البوابة المائية كي تتمكن البراميل من الخروج حالما تطفو كلها بالأسفل.

عبر تيار سريع مظلم تمشي بعيدًا
لأراضٍ كنت تعرفها تمام المعرفة
وكهوف سوف تمضي تاركًا وحشتها بظهرك
وجبال الشمس تبدو عالية
وبعيدًا سوف تمشي
حيث غابات الظلام الواسعة
والخمائل على الظل الرمادي ترنو قائمة
ما وراء العشب يبدو فزعًا، يطفو على أنهار موت مظلمة
اترك الأنسام خلفك
تبدأ الآن دجى المستنقعات
وضبابٌ أبيض يرمي علامات الممات
في ظلام الليل يأتي صاعدًا من جوف مجهول المياه
امش خلف النجم لما أشرقا
وسماوات تشع البرد يأتي صاعقا
عندما يأتي ضياء الفجر
وترى الضوء يمر مسرعًا فوق الرمال
فإلى أقصى الجنوب ابتعد، شد الرحال
وعن الشمس ستبحث
وعن الضوء ستبحث
عُد إلى المرعى، إلى الخمر المعتقة، عُد
عُد إلى الثيران، عُد
عد إلى المرج على أعلى التلالْ
حيث أشجارٌ تستمري بالثمار وبالجمال
تحت ضوء الشمس
تحت صبح وحفيف الهمس
فإلى أقصى الجنوب ابتعد، شد الرحال

عبر تيار سريع مظلم نمشي بعيدًا
لأراضٍ كنت تعرفها تمام المعرفة

والآن رأى (بيلبو) آخر برميل يتدحرج عبر الباب!

وبيأس شديد أمسك (بيلبو) الذي لم يعرف ماذا يفعل غير ذلك بالبرميل، فسقط معه من حافة الباب، ووقع في الماء البارد المظلم والبرميل من فوقه. صعد الهوبيت ثانية ممسكًا بخشب البرميل كالفأر، لكنه -رغم كل ما بذله من جهد- لم يتمكن من الصعود إلى أعلاه. وفي كل مرة كان يحاول فيها فعل ذلك، كان البرميل يتدحرج ويدفع به إلى أسفل مجددًا. كان البرميل فارغًا، مما جعله خفيف الوزن كالفلين. كان بإمكان (بيلبو) سماع الإلفيين وهم مستمرون في غنائهم في القبو من فوقه رغم امتلاء أذنيه بالماء، ثم فجأة انغلق الباب الأفقي مصدرًا صوتًا عاليًا وتلاشت أصواتهم. كان في النفق المظلم طافيًا في مياه باردة جدًا ووحيدًا تمامًا، فلا يمكنك أن تحسب أصدقاء محشورين في براميل.

سريعًا رأى بقعة رمادية في الظلام الواقع أمامه، وسمع صرير البوابة المائية وهي تُرفع إلى أعلى، ووجد نفسه وسط مجموعة من البراميل المتمايلة المتخبطة المضغوطة بالقرب من بعضها البعض لتعبر من تحت القنطرة وتخرج إلى عرض الجدول. فعل كل ما في إمكانه ليتفادى الارتطام بخشب البراميل الخشن أو التمزق إلى قطع صغيرة، لكن في النهاية بدأت المجموعة المحتكة المزدحمة في التفرق والانتشار واحدًا تلو الآخر من تحت القنطرة الصخرية وإلى بعيد. ثم إنه رأى أنه لم يكن ليفيده إن كان قد استطاع ركوب برميله، فلم تكن هناك مساحة تكفي لذلك -حتى بالنسبة لهوبيت- بين سطح البرميل والسقف الذي ينخفض فجأة حيث توجد البوابة.

خرجت البراميل من تحت أغصان الأشجار المتدلية من كلتا الضفتين، وتساءل (بيلبو) عما أحس به الأقزام، وإن كان ماء كثير قد تسرب إلى براميلهم. كانت بعض البراميل التي تتمايل بجانبه في الظلام تبدو غائصة جدًا في الماء، مما جعله يخمن أن بداخلها أقزام.

فكر قائلًا لنفسه: "آمل أن أكون قد أحكمت غلق الأغطية كما ينبغي!"

لكن سرعان ما انشغل الهوبيت بالقلق على نفسه، مما جعله ينسى أمر الأقزام لبرهة. استطاع (بيلبو) إبقاء رأسه فوق الماء، لكنه كان يرتعد بردًا، وتساءل إن كان سيموت بسبب ذلك قبل أن ينقلب حظه، وكم من الوقت يمكنه أن يظل متماسكًا، وإن كان الأمر يستحق أن يخاطر

بترك البرميل ومحاولة السباحة إلى الضفة.

انقلب الحظ بالفعل قبل مضي وقت طويل، فقد حمل التيار المعاكس الكثير من البراميل قريبًا من الشاطئ في نقطة ما، وهناك ظلت لبعض الوقت عالقة بجذور غير مرئية. عندها انتهز (بيلبو) الفرصة، واعتلى برميله وهو مستند على آخر. زحف أعلى البرميل كفأر غارق، واستلقى على سطحه ليحافظ على التوازن قدر المستطاع. كان الهواء باردًا، لكن ليس كبرودة المياه، وكان يأمل في ألا ينزلق فجأة مجددًا حين تعاود البراميل الانطلاق مرة أخرى. وقبل مرور وقت طويل تحررت البراميل ثانية، وانعطفت مع تيار المياه إلى التيار الرئيس، وعندها صدقت ظنونه في صعوبة أن يتشبث بأعلى البرميل، لكنه استطاع أن يفعل ذلك بطريقة ما رغم أن ذلك كان غير مريح إطلاقًا. ولحسن حظه، كان الهوبيت خفيف الوزن والبرميل كبير الحجم، وقد دخله مقدار قليل من الماء. رغم ذلك، كان الأمر يشبه محاولة ركوب حصان مستدير الخصر يفكر دائمًا في التدحرج على العشب من دون لجام أو ركاب. على هذه الحال وصل السيد (باجنز) أخيرًا إلى المكان الذي تصبح فيه الأشجار أقل كثافة على كلا الجانبين، واستطاع رؤية السماء الباهتة من بينها. ازداد فجأة عرض النهر، وفي ذلك الموضع اتصل بالمجرى الأساسي لنهر الغابة الذي يجري مسرعًا من أبواب الملك الكبيرة. كانت هناك صفحة من المياه التي لم تعد مظللة، وعلى سطحها المنزلق كانت هناك انعكاسات راقصة ومتكسرة لسحب ونجوم. عندها جرفت مياه نهر الغابة المندفعة كل البراميل بعيدًا إلى الضفة الشمالية حيث يوجد خليج واسع له شاطئ كثير الحصا تحت ضفتين متدليتين، ومسوّر عند الطرف الشرقي بنتوء من الصخر الصلب الغائر في المياه. استقرت معظم البراميل على الشاطئ الضحل، وقليل منها انجرف مرتطمًا بالجدار الصخري.

كان هناك من ينتظر البراميل على كلتا الضفتين، وسرعان ما جذبوا ودفعوا كل البراميل وجمعوها في المنطقة الضحلة. وبعد أن أحصوا عددها ربطوها معًا وتركوها حتى الصباح.

يا للأقزام من مساكين!

لم يكن (بيلبو) في وضع سيئ جدًا الآن، فقد انسل من برميله، وتقدم بجهد إلى الشاطئ، وبعد ذلك تسلل إلى بعض الأكواخ التي كان بإمكانه رؤيتها قرب حافة المياه. لم يعد يفكر مرتين في سرقة عشاء من دون أن تتم دعوته إن لاحت له الفرصة، فقد كان عليه فعل ذلك لمدة طويلة، وكان يعرف جيدًا ما يعنيه كون المرء في غاية الجوع وليس فقط مهتمًا بأدب بأطايب الطعام الموجودة في مخزن مكتظ عن آخره بها. لمح أيضًا نارًا عبر الأشجار، وراق له ذلك بملابسه

المتهرئة الرطبة الملتصقة به والتي يقطر منها الماء.

ليست هناك حاجة تدعو لإخباركم بالكثير عن مغامراته في تلك الليلة، فقد كان الآن يقترب من نهاية الرحلة الشرقية ومن آخر المغامرات وأكبرها، ولذلك فعلينا الإسراع. هو بالطبع قد تأقلم جيدًا في البداية باستخدام خاتمه السحري، لكن في النهاية فضحته خطواته المبتلة وخط النقاط الذي كان يتركه أينما ذهب أو جلس، وكان أنفه أيضًا قد بدأ يسيل، وحيثما حاول الاختباء كان يتم العثور عليه عن طريق الانفجارات الضخمة لعطساته المكبوتة. سرعان ما حدث اضطراب كبير في القرية الواقعة بجانب النهر، لكن (بيلبو) هرب إلى الغابة حاملاً معه رغيفًا من الخبز وزجاجة خمر جلدية وفطيرة، ولم يكن أي من هذا ملكه. اضطر لأن يقضي بقية الليلة مبتلاً كما هو وبعيدًا عن أي نار، لكن الزجاجة ساعدته على فعل ذلك، بل إنه غفا قليلاً على بعض أوراق الأشجار الجافة، رغم أن العام قد قارب على الانتهاء وأن الهواء كان شديد البرودة.

استيقظ مجددًا بعطسة شديدة. بدا الصباح قاتمًا، وكانت هناك جلبة بهيجة عند النهر. فقد كانوا يصنعون طوفًا من البراميل سيبحر به إلفيو الطوف بعد قليل إلى بلدة البحيرة. عطس (بيلبو) مجددًا، وصحيح أن ملابسه لم تعد تقطر منها المياه، لكنه أحس بالبرد في كل موضع من جسده. زحف الهوبيت إلى أسفل بأسرع ما مكنته قدماه المتيبستان، واستطاع في الوقت المناسب أن يصعد إلى كومة البراميل من دون أن يلحظه أحد وسط الجلبة العامة. لحسن الحظ لم تكن هناك شمس في ذلك الوقت لتجعل له ظلاً فاضحًا، ومن رحمة القدر به أنه لم يعطس ثانية إلا بعد مرور فترة طويلة.

كان هناك الكثير من الدفع بالعصي، فالإلفيون الواقفون في المياه الضحلة رفعوا ودفعوا البراميل حتى ثبتت معًا، وعندها أخذت تحدث أصوات صرير مزعجة.

تذمر بعض الإلفيين قائلين: "هذا حمل ثقيل! إنها غائصة جدًا في المياه، مما يعني أن بعض البراميل ليس فارغًا. إن كانت وصلت إلى الشاطئ في ضوء النهار، فلربما كان بإمكاننا حينها أن نلقي بنظرة بداخلها."

صاح سائق الطوف: "ليس هناك وقت الآن! ادفعوا!"

وهكذا انطلقوا أخيرًا، ببطء في البداية، حتى عبرت البراميل النقطة الصخرية التي كان بعض الإلفيين الآخرين واقفين عندها ليقوها من الارتطام بها مستخدمين عوارض خشبية. وبعد ذلك ازدادت سرعتها مع سريانها مع التيار الرئيس، وأبحرت البراميل متجهة إلى البحيرة.

لقد فر الأقزام والهوبيت بنجاح من زنازين الملك وعبروا الغابة، لكن يبقى أن نعرف إن كانوا قد فعلوها أحياء أم موتى بعد كل ما مر بهم.



الفصل العاشر

استقبال حار

ازداد النهار دفئًا وسطوعًا، وحملت مياه النهر البراميل التي تأوي الأقزام؛ وبعد قليل ظهر إلى يسار البراميل بمجرى النهر مرتفع أرضي شديد الانحدار تلتف مياه النهر حوله. تحت سفح المرتفع الصخري الذي يشبه جرفًا داخليًا، تدفقت المياه بأعمق مجرى لها وهي تفور و تزبد. وفجأة، اختفى الجرف وانخفضت الشواطئ، واختفت الأشجار من المشهد، وعندها شاهد (بيلبو) هذا المنظر:

الأراضي متسعة من حوله وممتلئة بمياه النهر الذي انقسم وتفرع إلى مئات من المجاري الفرعية، أو استقرت مياهه في مستنقعات وبرك مزركشة بجزر صغيرة عند كل جانب، لكن مياه

النهر تدفقت بثبات وقوة في وسط كل ذلك.

وبعيدًا ظهرت وسط سحابة مارَّة قمة الجبل الداكنة...

الجبال المجاورة بالأطراف الشمالية الشرقية، وكذلك الأراضي غير المستوية التي تصله ببقية الجبال لم تبد للعيان، لكن ما ظهر وحده وأطل على مستنقعات الغابة كان بالفعل الجبل المنعزل.

لقد أتى (بيلبو) من بعيد، وخاض الكثير من المغامرات ليرى هذا الجبل، لكن مع ذلك، لم تسره رؤيته على الإطلاق.

أصغى (بيلبو) لحديث سائقي الطوف، وجمع من حديثهم فتات معلومات تناثر من أفواههم هنا وهناك، وسرعان ما أدرك أن الحظ قد حالفه لمجرد رؤية الجبل، حتى وإن فعل من على مسافة بعيدة. صحيح أن موقفه كان صعبًا وأن وضعه كان سيئًا -ناهيك عن الأقزام المدفونين أحياء أسفله- لكنه مع ذلك اعترف بأن الحظ قد حالفه أكثر مما كان يتخيل. دار حديث سائقي الطوف حول التجارة المارة ذهابًا وإيابًا بالطرق المائية وازدهار النهر كوسيلة نقل بعد أن اختفت الطرق القادمة من الشرق والمتجهة إلى (ميركوود) أو بطل استخدامها. تحدث السائقون أيضًا عن النزاعات القائمة بين رجال البحيرة وإلفيي الغابة حول صيانة نهر الغابة والعناية بضفافه.

لقد تغيرت تلك الأراضي كثيرًا عما كانت عليه في الأيام التي عاش فيها الأقزام في الجبل؛ تلك الأيام التي لايزال معظم القوم يذكرونها كمجرد ذكريات بعيدة تحفها الظلال. بل إن تلك المنطقة قد تغيرت أيضًا خلال السنوات القليلة الماضية، وتغيرت أيضًا منذ أن سمع (جاندلف) بها آخر مرة، فقد زادت الفيضانات العاتية وكذلك مياه المطر من منسوب مياه النهر المتدفق شرقًا، كما أن زلزالًا أو اثنين قد ضربا المنطقة بعدها؛ تلك الزلازل التي يرجع البعض سببها إلى التنين الذي يلعنونه في أغلب الأوقات حين يُذكر اسمه، ويشيرون باتجاه الجبل بإيماءة حزينة. وأيضًا زادت مساحة المستنقعات -الكبير منها والصغير- أكثر وأكثر على كلا الجانبين. طرق كثيرة اختفت أيضًا، واختفى معها الكثير ممن حاولوا إيجاد الطرق من الرحالة. أما طريق الإلفيين الذي سلكه الأقزام عبر الغابة بنصيحة من (بيورن)، فقد صارت نهايته عند الطرف الشرقي للغابة مريبة، مما جعله قليل الاستخدام. هكذا أصبح النهر بمثابة الطريق الآمن الوحيد من حافة (ميركوود) في الشمال وحتى السهول التي تستظل بظل الجبل، وتولى ملك إلفيي الغابة حراسة هذا النهر.

إذن ففي النهاية اتضح أن (بيلبو) قد وصل إلى الطريق السليم الوحيد. ولربما كان السيد (باجنز) ليتوقف عن الارتجاف فوق البراميل ويشعر ببعض الراحة إن كان قد علم بأن أخبارهم قد وصلت بعيدًا إلى (جاندلف) وأصابت الساحر بقلق شديد، وأنه كان على وشك أن ينتهي من تلك المسألة الملحة الأخرى التي تركهم من أجلها -والتي لن يتم ذكر تفاصيلها في هذه الرواية-

ويستعد للعودة والبحث عن (ثورين) ورفاقه.

لكن (بيلبو) لم يكن يعرف شيئًا عن ذلك كله.

كل ما كان يعرفه هو أن النهر يتدفق بلا نهاية، وبدأ الهوبيت يشعر بالجوع وبزكام في أنفه، كما أن منظر الجبل جعله يشعر بأن الجبل عابس بوجهه -وهذا بالطبع لم يعجبه- كأنما يهدده كلما قصرت المسافة بينهما. على أية حال، اتخذ مجرى المياه بعد قليل طريقًا جنوبيًّا، فتراجع منظر الجبل مرة أخرى. وقرب نهاية اليوم، تقلقلت المياه قرب السواحل، وبدا كأن النهر قد جمع مياهه المتفرعة من كل اتجاه في مد عميق سريع، فتدفقت بسرعة كبيرة.

كانت الشمس قد بدأت تغرب حين انعطفت مياه النهر في منحدر آخر يتجه شرق نهر الغابة ويصل إلى البحيرة الطويلة. كان النهر يصب في البحيرة عبر مدخل واسع ذي بوابتين من الحجر تشبهان الجروف على كلا الجانبين، وكان أسفلهما مدعما بألواح خشبية.

إنها حقًا بحيرة طويلة!

لم يتخيل (بيلبو) أن أي سطح مائي غير البحر يمكن أن يكون بهذه المساحة الشاسعة. كانت مساحة عرض البحيرة كبيرة للغاية، وحتى إن وقفت عند أحد شاطئيها ترى الشاطئ الآخر صغيرًا بعيدًا. أما عن طولها، فقد كانت طويلة لدرجة أن أطرافها الشمالية -التي تنتهي عند الجبل- لم تبد للعيان. كان (بيلبو) يعرف من خلال قراءاته للخرائط أن بعيدًا هناك، تحت سماء تتلألأ بنجوم (وين)*، يصب النهر المتدفق من وادي (ديل) في البحيرة، كما تجتمع معه مياه نهر الغابة، والذي لابد أنه كان واديًا صخريًّا عميقًا ضخمًا في الماضي. وعند الأطراف الجنوبية، يصب كلا المجريين مياهه في شلالات مياه عالية، ثم تتدفق بسرعة لتصل إلى أراض غير معروفة. وفي هذا الجو الساكن، كان بإمكانك أن تسمع هدير شلالات المياه كصوت زئير مرتفع بعيد.

بالقرب من مصب نهر الغابة تقع البلدة الغريبة التي سمع الهوبيت الإلفيين يتحدثون عنها في أقبية قصر الملك. لم تُشيد البلدة عند الشاطئ، لكن مع ذلك ظهرت بالقرب من الشاطئ بعض الأكواخ والمباني الأخرى، لكنها كانت بعيدة عن مستوى البحيرة وآمنة وبعيدة عن دوامات مياه النهر التي تصب في البحيرة، حيث يحميها جرف ناتئ من الصخور يكوِّن خليجًا هادئًا وراءه. كان هناك أيضًا جسر عظيم مصنوع من الأخشاب يمتد إلى بلدة مزدحمة، مبانيها من الخشب وقاعدتها من عواميد مصنوعة من جذوع أشجار الغابة. لم تكن بلدة يسكنها الإلفيون، بل عاش فيها من بني البشر من تحلى بجرأة كافية تمكنه من سُكنى تلك البلدة التي استظلت بظل

* نجوم (وين Wain) اسم يُطلقه سكان المناطق الشمالية من (الأرض الوسطى) على ما نعرفه بمجموعة الدب الأكبر.

الجبل البعيد الذي يسكنه التنين. كان أهل البلدة يشتغلون بالتجارة المارة بالنهر العظيم من ناحية الجنوب، ثم يتم نقلها عبر الشلال وصولاً إلى بلدتهم. لكن في السابق، حين عم الرخاء بلدة (ديل) التي كانت في أوج ازدهارها، كان سكان تلك المنطقة يشتهرون بالقوة والغنى، كما امتلكوا أسطولاً من المراكب، بعضها امتلأ بالذهب والبعض الآخر بالمحاربين، وتلك هي الأيام التي كان تُشن فيها الحروب التي نسمع عنها الآن فقط في الأساطير. أما عند الشاطئ الآخر، كان بإمكانك عندما ينخفض مستوى الماء أن ترى عواميد من الأخشاب المتعفنة، والتي لابد أنها كانت قاعدة لبلدة أكبر.

لكن ما من أحد الآن يذكر ذلك سوى قلة من القوم الذين لازالوا يتغنون بأغان قديمة عن ملوك الأقزام ساكني الجبال مثل (ترور) و(ترين) سليلا (دورين)، وعن مجيء التنين إلى المنطقة وسقوط بلدة (ديل). تغني آخرون بأغان تدور حول عودة (ترور) و(ترين) في يوم ما، فيتدفق الذهب أنهارًا عبر بوابات الجبل، وعندها تعلو أصوات الضحكات والغناء في تلك الأراضي، لكن تلك الأسطورة السارة لم تؤثر كثيرًا على نشاطات السكان اليومية.

بمجرد أن صار الطوف بالبراميل من فوقه ظاهرًا لأهل البلدة، نزل بعض سكانها إلى القوارب، وجدفوا حتى اقتربوا منه، وتعالت الصيحات محيية سائقيها. رموا لهم الحبال، وسرعان ما تم سحب الطوف بنجاح من تيار نهر الغابة وجره حول صخرة عالية في المياه حتى خليج بلدة البحيرة الصغير، حيث قام الرجال بربط الطوف بالقرب من مدخل الشاطئ بالجسر الكبير. قريبًا سيأتي الرجال من الجنوب لأخذ بعض البراميل، وسيملؤون بعضها ببضائع أخرى أحضروها معهم ليتم نقلها عبر المياه إلى ديار إلفيي الغابة. لكنهم في الوقت الحالي تركوا جميع البراميل في مكانها، وذهب الإلفيون سائقو الطوف والبحارة ليمرحوا في بلدة البحيرة.

كانوا سيصابون جميعًا بالذهول إن رأوا ما حدث هناك عند الشاطئ بعد رحيلهم عنه وحلول المساء بظلمته.

أولاً، حرر (بيلبو) برميلاً ودفعه إلى الشاطئ، ثم فتحه، فخرج منه قزم بائس وهو يئن. كان القزم متيبسًا ومتقرحًا وامتلأت لحيته بالقش الرطب، وكان جسده مليء بالرضوض وآثار الصدمات، وبالكاد استطاع الوقوف، فتعثر في المياه الضحلة حتى وصل إلى الشاطئ ورقد هناك. بدت على القزم آثار الجوع والتوحش، ككلب كبّله ونسيه أصحابه في بيته الصغير لمدة أسبوع. كان أول من حرره (بيلبو) هو (ثورين)، لكنك لم تكن لتتعرفه لو لم يكن القزم لازال يرتدي السلسلة الذهبية حول عنقه وقلنسوته ذات اللون الأزرق السماوي -التي صارت قذرة الآن- والشُرّابة الفضية التي فقدت بريقها بالطبع. لم يتمكن القزم من أن يبدي تهذيبًا مع الهوبيت الذي حرره إلا بعد مرور بعض الوقت.

سأل الهوبيت (ثورين) في ضيق: "حسن، هل أنت حي أم ميت؟"

ويبدو أن الهوبيت قد نسي أن الأقزام لم يتناولوا مثل تلك الوجبة الشهية الأخيرة التي تناولها الهوبيت، ونسي أن ذراعيه وساقيه كانت حرة أثناء تلك الرحلة الطويلة بعكس الأقزام، وبالطبع أنه هو الوحيد الذي لم يعان من قلة الهواء مثلما عانى الأقزام في البراميل.

قال الهوبيت للقزم: "أمازلت في السجن أم أنك حر الآن؟ حسن، إن كنت ترغب في الطعام، وإن كنت تريد إكمال تلك المغامرة السخيفة التي بدأناها -والتي هي مغامرتكم في المقام الأول وليست مغامرتي أنا- فمن الأفضل أن تنفض ذراعيك وتفرك ساقيك وتحاول مساعدتي في إخراج الآخرين بينما الفرصة سانحة!"

وبالطبع أدرك (ثورين) أن الهوبيت محق، وبعد أن أمضى القليل من الوقت في الأنين، نهض ليساعده قدر ما استطاع. ووسط هذا الظلام، ووسط تعثرهما في المياه الباردة، كان أمام كل من الهوبيت و(ثورين) مهمة شاقة وكريهة لأقصى حد، وهي أن يحاولا العثور على البراميل الصحيحة. وبعد أن أمضيا بعض الوقت في الدق على البراميل من الخارج والنداء على الأقزام، نجحا في اكتشاف ستة من الأقزام هم فقط من أجابوا النداء. قام الهوبيت والقزم بإخراجهم من البراميل ومساعدتهم للوصول إلى الشاطئ حيث جلسوا أو رقدوا يئنون ويغمغمون. كانت ملابسهم شديدة الابتلال، وأصابت أجسادهم الرضوض والتشنجات، حتى إنهم بالكاد أدركوا أنهم خرجوا من البراميل، وبالتالي لم يبدوا أي امتنان.

كان (دوالين) و(بالين) أكثر المتضررين، ولم يبد مفيدًا محاولة طلب المساعدة منهما. أما (بيفر) و(بوفر)، فقد أصابتهما رضوض أقل، وكذلك كانت ملابسهما أقل ابتلالاً، لكنهما رقدا ولم يقوما بأي شيء. أما عن (فيلي) و(كيلي) -اللذين كانا لازالا شابين بالنسبة للأقزام- فقد احتوى برميلاهما على قش أكثر وشراب أقل من بقية البراميل، وكانا سعيدين لدى خروجهما منهما، وأصابتهما رضوض بسيطة جدًا في أجسادهما وتيبُّس سرعان مازال عنهما.

قال (فيلي): "أرجو ألا أشم رائحة التفاح في حياتي أبدًا! برميلي كان مليئًا بشراب التفاح، وكدت أجن من فرط تنشقي لرائحته لساعات طويلة وشعوري بالبرد والجوع الشديد وعدم قدرتي على التحرك. أستطيع أن أتناول أي شيء يمكن أكله في هذا الكون الفسيح لساعات وساعات، لكنني لا أستطيع تناول تفاحة واحدة!"

وبعد أن تطوع (فيلي) و(كيلي) للمساعدة، تمكنوا جميعًا من اكتشاف البراميل التي تحوي بقية الأقزام، ثم أخرجوهم منها. كان (بومبر) السمين المسكين نائمًا أو فاقدًا للوعي، أما (دوري) و(نوري) و(أوين) و(جلوين) فقد كانوا منقوعين في الماء، وبدوا كأنهم أنصاف أحياء. اضطر الهوبيت ومساعدوه لحمل الأقزام إلى الشاطئ واحدًا تلو الآخر وإنزالهم على الأرض حيث

رقدوا جميعًا في ضعف.

وبعد قليل قال (ثورين): "إذن ها نحن أولاء! أعتقد أننا مدينون بالشكر لحظنا الوافر وللسيد (باجنز). وأنا أوافقه إن كان يتوقع شكرًا منا، رغم أنني كنت أتمنى لو أنه قد خطط لرحلة أكثر راحة من هذه. لكننا ممنونون لك، وسنبقى في خدمتك يا سيد (باجنز). ولاشك أننا سنعبّر أفضل عن شكرنا بعد أن يتم إطعامنا وتطبيب جراحنا. لكن في الوقت الحالي، ماذا تقترح؟"

قال (بيلبو): "أقترح أن نتجه إلى بلدة البحيرة، فماذا هناك غيرها؟"

وبالفعل لم يكن هناك اقتراح غيره، فترك الهوبيت و(ثورين) و(فيلي) و(كيلي) رفاقهم على الشاطئ، وتوجهوا إلى الجسر الكبير. تولى حراسة الجسر بعض الحراس، لكنهم لم يراقبوه جيدًا، فقد مر وقت طويل منذ أن اضطروا إلى ذلك. وفيما عدا بعض الخلافات حول رسوم عبور النهر، كانت تربطهم صداقة بقوم الغابة. لم يسكن بالقرب من بلدتهم قوم آخرون، بل إن الأغرب من ذلك أن بعض شباب البلدة كانوا يشككون في وجود أي تنين بالجبل، وكانوا يضحكون من كبار السن الذين رووا لهم حكايات عن رؤية التنين يطير في السماء أيام شبابهم. ولهذا لم يكن أمرًا مفاجئًا أن تجد الحراس يقضون ليلتهم يضحكون ويتناولون الشراب بجانب نار المدفأة في كوخهم، وبالتالي لم يسمعوا أصوات قطع حبال البراميل وإخراج الأقزام منها، وكذلك أصوات خطوات الكشافة الأربعة، فأصابتهم حالة من الذهول الشديد حين خطا (ثورين أوكنشيلد) عبر باب كوخهم.

هب الحراس واقفين، وشهروا أسلحتهم وصرخوا في القزم: "من أنت، وماذا تريد؟"

أجاب القزم بصوت عال واثق: "أنا (ثورين ابن ثرين ابن ثرور) ملك ما تحت الجبل!"

ورغم ملابسه الممزقة وقلنسوته المتهرئة، لم يبد أحد من الحراس شكًا في كلامه. ولمعت السلسلتان الذهبيتان حول رقبته وخصره، وبرقت عيناه الداكنتان وهو يتابع: "لقد عدت، وأرغب في مقابلة حاكم بلدتكم!"

وعندها ساد حماس مشبوب. جرى بعض البُلهاء منهم إلى خارج الكوخ متوقعين أن يستحيل الجبل في ظلمة الليل إلى ذهب ويتغير لون مياه البحيرة إلى الأصفر على الفور، بينما تقدم رئيس الحرس من القزم، وقال مشيرًا إلى (فيلي) و(كيلي) و(بيلبو): "ومن هؤلاء؟"

أجاب (ثورين) "إنهما ابنا أختي: (فيلي) و(كيلي) سليلا (دورين)، وهذا هو السيد (باجنز) رفيقنا في رحلتنا من الغرب."

قال رئيس الحرس: "إن كنتم قد جئتم في سلام، فاتركوا أسلحتكم على الأرض."

فقال (ثورين): "ليس معنا أسلحة."

وكان (ثورين) يقول الحقيقة، فإلفيو الغابة قد جردوهم من سكاكينهم، وكذلك سيف (أوركريست) العظيم. كان (بيلبو) يحتفظ بسيفه القصير مخبأ بين ملابسه، لكنه لم يذكر أمره.

أكمل (ثورين) قائلاً: "نحن لا نحتاج لأسلحة، فقد عدنا أخيرًا لأرضنا، وبالطبع لا يمكننا قتالكم وأنتم وفيرو العدد. خذونا لحاكم البلدة!"

فقال رئيس الحرس: "إنه مشغول بالاحتفال."

انفجر فيه (فيلي) الذي لم يتحمل المزيد من هذا هاتفًا: "وهو سبب أدعى لأن تأخذنا إليه، فنحن متعبون ونتضور جوعًا بعد رحلتنا الطويلة، ولدينا رفاق مرضى. لتسرع الآن وكف عن سؤالنا وإلا سنشكوك لحاكم البلدة!"

قال رئيس الحرس: "اتبعوني إذن."

أحاط ستة رجال بالأقزام والهوبيت، وقادهم رئيس الحرس فوق الجسر عبر البوابات وصولاً إلى سوق البلدة. كانت السوق عبارة عن حلقة من الماء الساكن محاطة بعواميد عالية هي قواعد بعض البيوت الضخمة، وبأرصفة لها سلالم كثيرة تنزل حتى سطح مياه البحيرة. في قاعة ضخمة لمعت أضواء كثيرة وعلت أصوات عديدة، وعبروا أبواب القاعة، وبعد أن أغشت الأضواء أعينهم، وقفوا في مكانهم، ونظروا إلى الموائد الطويلة التي جلس إليها قوم كثيرون.

صاح (ثورين) بصوت عال عند مدخل الباب قبل أن يتمكن رئيس الحرس من أن يقول أي شيء: "أنا (ثورين ابن ثرين ابن ثرور) ملك ما تحت الجبل، وقد عدت!"

وثب الحضور جميعًا، وهب حاكم البلدة من كرسيه الضخم، لكن ما من أحد أصابته دهشة أشد من دهشة سائقي الطوف من الإلفيين الذين كانوا يجلسون عند أطراف القاعة.

أسرع الإلفيون أمام مائدة حاكم البلدة وصاحوا: "إنهم سجناء هاربون من قصر ملكنا، أقزام متجولون ومتشردون لم يتمكنوا من تقديم أنفسهم، بل كانوا يتسللون في الغابة ويزعجون رعايا الملك!"

سأل حاكم البلدة: "أصحيح هذا؟"

في الواقع بدا كلام الإلفيين أكثر قابلية للتصديق من قصة (ثورين) عن عودة ملك ما تحت الجبل، إن كانت تلك القصة بها شيء من الصحة.

أجاب (ثورين): "صحيح أننا هوجمنا بطريق الخطأ بواسطة رعايا ملك الإلفيين، وكذلك تم سجننا من دون وجه حق أثناء رحلة عودتنا إلى أراضينا. لكن ما من أقفال أو قضبان زنازين يمكنها أن تمنعنا من العودة لديارنا القديمة، ولا حتى هذه البلدة التابعة لملكة الإلفيين ستمنعنا

من ذلك. وأنا الآن أوجه حديثي إلى حاكم بلدة البحيرة، وليس إلى سائقي طوف الملك."

تردد حاكم البلدة، ونظر حوله من جانب إلى جانب، فسلطة ملك الإلفيين في هذه المناطق كانت نافذة، ولم يرغب الحاكم في أي عداوة معه. لم يكن الحاكم يهتم كثيرًا بالأغاني القديمة، وكان يصب تركيزه على التجارة وفرض الضرائب والبضائع المحملة وزكائب الذهب، وعادته تلك هي التي أمنت له موقعه كحاكم للبلدة. لكن ضيوفه الآخرين لم يفكروا بنفس الطريقة، وفي لمح البصر حُسم الأمر من دون اللجوء إليه. انتشر الخبر في البلدة عبر أبواب الردهة كانتشار النيران في كومة قش جاف، وهتف الجميع داخل الردهة وخارجها. ازدحمت الأرصفة بالأقدام المسرعة، وبدأ البعض في غناء مقاطع من أغنية قديمة تدور حول عودة ملك ما تحت الجبل. وسواء كان حفيد (ثرور) أو (ثرور) ذاته هو الذي عاد، لم يبد على أهل البلدة أي انزعاج من هذا الأمر.

ورفع آخرون عقيرتهم بالأغنية، حتى إنك كنت لتسمعها من كل أطراف البلدة عالية عبر البحيرة:

ملكُ ما تحت الجبل
ملك الصخرِ المنحوت
سيد منبع كل الفضة
سوف يعودِ إلى مملكته
يرفع تاج الملك لأعلى
تعود قيثارته للعزف
وتعود أغاني الماضي
تصدر أنغامًا كرنين الذهبِ
يشدو مثل الماضي
وعلى الجبل تلوح الغابات
وستلمع أضواء الأعشاب
الأنهار في مرح تنساب
والآبار على فرح ستسري
تحت الشمس يلوح العشب
يبعث أنغامًا في القلب
سوف يزول طريق الحزن
إن عاد مليك الجبل الأعلى

هكذا تغنى الجميع بالأغنية، أو على الأقل معظمهم، فقد علت أصوات عديدة أخرى أيضًا كالصراخ وأصوات موسيقى القيثارة والكمان. كان الهياج شديدًا في البلدة، هياج لم تعرفه البلدة قديمًا وقت أن سكنها أسلافهم، حتى إن إلفيي الغابة أنفسهم قد بدءوا يتساءلون ويشعرون بالخوف. لم يعرفوا بالطبع كيف فر (ثورين) من القصر، وبدءوا يفكرون ما إن كان ملكهم قد ارتكب خطأً فادحًا. أما حاكم البلدة فلم ير حلاً غير أن يطيع الرأي العام، على الأقل في الوقت الراهن، وأن يتظاهر بأنه يصدق قصة (ثورين). هكذا أجلسه على كرسيه الضخم، وأجلس (فيلي) و(كيلي) إلى جواره في مكانين شرفيين، بل وأجلس (بيلبو) إلى المائدة العالية. لم يوجه أحد لـ(ثورين) أي سؤال وسط هذا الصخب والهياج، رغم أنه ما من وصف لهذا الملك العائد قد جاء في الأغاني القديمة، ولو حتى من بعيد.

وبعد ذلك بقليل، تم إحضار بقية الأقزام إلى البلدة وسط مشاهد من الحماسة البالغة. تم تطبيب جراحهم جميعًا، وإطعامهم وإيواؤهم وتدليلهم بأكثر الوسائل راحة وإرضاءً. تم إخلاء منزل واسع ليسكنه (ثورين) ورفاقه، وتم تعيين بعض البحارة والقوارب ليكونوا في خدمتهم، واحتشد الكثير من أهل البلدة خارج المنزل، فمكثوا طوال اليوم يغنون ويهتفون إن لمحوا فقط طرف أنف أحد الأقزام.

كانت بعض الأغاني التي تغنوا بها قديمة، لكن بعضها كان حديثًا، وتحدثت بثقة عن الموت المفاجئ للتنين، وعن حمولات من الهدايا الثمينة تعبر النهر لتصل إلى بلدة البحيرة. كانت تلك الأغاني من وحي حاكم البلدة، وبالطبع لم ترق للأقزام على الإطلاق. لكنهم في الوقت الراهن أسعدهم استردادهم لوزنهم وصحتهم من جديد. وبالفعل في خلال أسبوع واحد كان الأقزام قد استردوا صحتهم، وارتدوا ملابس جديدة بألوانهم المحببة، وتم تهذيب وتمشيط لحاهم، واستعادوا ثقتهم بأنفسهم. كان (ثورين) ينظر ويخطو كأنه قد استرد مملكته ومزق (سموج) إلى إرب صغيرة فعلا.

وتمامًا كما قال الساحر، فإن محبة الهوبيت الصغير في قلوب الأقزام قد ظلت على حالها، إن لم تكن قد زادت مع مضي الأيام. لم يعد هناك من يتذمر منه، بل كان الجميع يربتون على كتفه ويشربون نخبه ويحكون قصصًا عنه؛ ولا بأس بكل هذا، فهو لم يكن بالضرورة مبتهجًا. هو لم ينس منظر الجبل ولا وجود التنين، وفوق ذلك كله، أصابه برد شديد.

ظل الهوبيت يعطس ويسعل لمدة ثلاثة أيام لم يتمكن خلالها من الخروج، وحتى بعد ذلك اقتصر حديثه في الولائم والمآدب على: "شكنًا جزيئًا نكم!"

وفي أثناء ذلك، كان الإلفيون قد انطلقوا في نهر الغابة بحمولاتهم، وأثاروا هياجًا في قصر

الملك. لم أسمع بالطبع عما حدث لرئيس الحراس والخادم في القصر، وبالطبع لم ينطق أحد بكلمة عن المفاتيح أو البراميل أثناء إقامة الأقزام في بلدة البحيرة، كذلك لم يرتد (بيلبو) الخاتم هناك. لكن أعتقد أن ما تم تخمينه كان أكثرَ مما قيل، رغم أن السيد (باجنز) ظل لغزًا مبهمًا.

على أية حال، كان الملك الآن على دراية بمهمة الأقزام، أو على الأقل ظن هذا، وقال في نفسه: "أمر رائع! سنرى! لن يمر كنز بغابة (ميركوود) من دون أن أبت في الأمر. لكنني أتوقع أن نهايتهم ستأتي سيئة، وسيرضيني هذا!"

لم يكن يصدق على أية حال إمكانية قتل أقزام لتنين كـ(سموج)، وكانت لديه شكوكه في أن الأقزام ينوون القيام بعمليات سرقة أو ما شابه، مما دل على إنه كان إلفيًّا حكيمًا، بل أكثر حكمة من رجال البلدة، لكن ذلك لم يكن صحيحًا بالضرورة كما سنرى في النهاية. أرسل ملك الإلفيين جواسيس عند شواطئ البحيرة، وآخرين ليصلوا قدر استطاعتهم باتجاه الجبال في الشمال، وانتظر.

بعد مضي أسبوعين كاملين بدأ (ثورين) الإعداد للرحيل، فقد أراد طلب المساعدة من أهل البلدة الآن قبل أن تقل حماستهم، فلن يفيده التأخير إن سمح للأمر بأن يهدأ. تحدث (ثورين) في هذا الشأن مع حاكم البلدة ومستشاريه، وأخبرهم بأنه سرعان ما سيضطر هو ورفاقه لأن يرحلوا إلى الجبل.

ولأول مرة شعر حاكم البلدة بالمفاجأة وبقليل من بالخوف، فهو لطالما تساءل إن كان (ثورين) هو سليل هؤلاء الملوك حقًا. لم يفكر قط في أن الأقزام قد تصل بهم الجرأة لأن يحاولوا الاقتراب من عرين (سموج)، فقد ظنهم مخادعين وسرعان ما سيتم اكتشاف أمرهم ويرحلون. لكن حاكم البلدة كان مخطئًا، فـ(ثورين) هو حقًا حفيد ملك ما تحت الجبل، ولا يتصور أحد ما قد يتجرأ ويفعله قزم للانتقام واسترداد ماله.

لكن الحاكم، رغم ذلك، لم يندم على السماح لهم بالرحيل، فقد كانت كلفة استضافتهم عالية، كما أن وصولهم إلى البلدة قد أحال أيام أهل البلدة إلى عطلة طويلة صار فيها العمل في توقف تام.

قال الحاكم في نفسه: "فليذهبوا ويضايقوا (سموج)، ولنر كيف سيرحب بهم!"

لكنه قال لـ(ثورين): "نعم، بالطبع يا (ثورين) يا سليل (ثرين) سليل (ثرور)! عليك أن تطالب بحقك، فقد حان الوقت لتفعل. ما سنتمكن من مساعدتكم به هو لكم، ونحن نثق بعرفانكم للجميل حين تستردون مملكتكم."

هكذا، وفي يوم من أيام الخريف ذات الرياح الباردة وأوراق الأشجار المتساقطة، رحلت

ثلاثة قوارب كبيرة عن بلدة البحيرة وعلى متنها الأقزام والهوبيت والكثير من البحارة والمؤن، كما تم إرسال خيول ومهور عبر طرق غير مباشرة لتوافيهم عند مكان مرساهم المتفق عليه.

ودع حاكم البلدة ومستشاروه الأقزام من فوق السلالم العظيمة لمجلس البلدة المطل على البحيرة، وغنى أهل البلدة على الأرصفة وخارج نوافذ منازلهم. جدف البحارة فارتفعت وانخفضت المجاديف البيضاء، واتجهت القوارب الكبيرة ومعها الأقزام شمالاً في آخر مرحلة لهم في رحلتهم الطويلة.

الوحيد الذي كان يشعر بالتعاسة هو (بيلبو).



الفصل الحادي عشر

على عتبة الباب

أبحروا طيلة يومين في البحيرة الطويلة، وعبروا إلى النهر المتدفق، واستطاعوا الآن رؤية الجبل الوحيد يرتفع متجهمًا شامخًا أمامهم. كان التيار قويًا وتقدمهم بطيئًا، وفي اليوم الثالث على بعد بعض الأميال في النهر اقتربوا من الضفة اليسرى أو الغربية وترجلوا؛ وهناك انضموا إلى الخيول المزودة بالمؤن والاحتياجات الأخرى، علاوة على أن المهور التي سيستخدمونها في طريقهم كانت في انتظارهم.

حزموا ما استطاعوا حزمه على ظهور المهور، وخزنوا الباقي تحت خيمة، لكن أحدًا من رجال البلدة لم يرض بالبقاء معهم ولا حتى خلال هذه الليلة فقط على هذا القرب الشديد من ظل الجبل.

قالوا: "مُحال أن يحدث ذلك قبل أن تتحقق الأغاني!"

كان من السهل أن يؤمنوا بوجود التنين، وأقل سهولة أن يثقوا بـ(ثورين) في هذه الأنحاء البرية، وكان مخزون الرفاق بغير حاجة إلى أي حراسة فعلية، فقد كانت كل هذه المنطقة منعزلة خالية. وهكذا غادرهم مرافقوهم سريعًا عبر النهر والطرق الشاطئية، رغم أن الليل كان لازال وليدًا. قضوا ليلة وحيدة باردة بروح معنوية منخفضة، وتحركوا في اليوم التالي من جديد. سار (بالين) و(بيلبو) في المؤخرة، وكل منهما يقود مهرًا آخر محملاً بالأثقال، وكان الآخرون متقدمين عنهم قليلاً، ويشقون طريقًا بطيئًا، فلم تكن هناك ممرات صالحة للحركة. اتجهوا إلى الشمال الغربي مبتعدين عن النهر المتدفق، واقتربوا أكثر فأكثر من كتلة بارزة ضخمة للجبل الذي كان يرتفع ناحيتهم من الجنوب.

كانت رحلة مرهقة صامتة قطعوها في سكون. لم يكن هناك ضحك أو أغان أو صوت لقيثارة، والفخر والأمل اللذان انتعشا في قلوبهم مع ترديد الأغاني القديمة عند البحيرة استحال الآن إلى كآبة ثقيلة. كانوا يعرفون أنهم يقتربون من نهاية رحلتهم، وأنها قد تكون نهاية شنيعة. صارت الأرض حولهم سوداء يبابًا، رغم أنها كانت خضراء جميلة ذات يوم كما قال لهم (ثورين). كان هناك القليل من العشب يكسو الأرض، ولم يمض وقت طويل حتى اختفت الأجمات والأشجار كلية، ولم يعد هناك سوى أجذال مسودة مكسورة هي كل ما تبقى في هذا المكان.

لقد وصلوا إلى معزل التنين، ووصلوا إليه مع ذبول العام.

بلغوا أطراف الجبل من دون أن يلقوا أي خطر أو يشاهدوا أي علامة على وجود التنين سوى الدمار الذي أحدثه حول عرينه. امتد الجبل مظلمًا صامتًا أمامهم، وبدا أعلى من أي وقت سابق. أقاموا معسكرهم الأول على الجانب الغربي من الكتلة الجنوبية الضخمة، والتي انتهت بمرتفع يسمى (رافينهيل)، والذي كانت عليه نقطة مراقبة قديمة، لكنهم لم يجرؤوا على تسلقه في الوقت الحالي، حيث كان مكشوفًا للغاية.

قبل الخروج للبحث في البروزات الغربية للجبل عن الباب المخفي الذي تنعقد عليه آمالهم كلها، بعث (ثورين) بفرقة استكشاف لتقصي الأرض الواقعة جنوبًا حيث توجد البوابة الأمامية. اختار لهذه المهمة (بالين) و(فيلي) و(كيلي)، وذهب معهم (بيلبو). تحركوا أسفل

الجروف الرمادية الصامتة إلى سفح (رافينهيل)، وهناك كان النهر يبتعد عن الجبل، ويتدفق بسرعة وصخب في طريقه إلى البحيرة بعد أن يعقد أنشوطة واسعة حول وادي (ديل). كانت ضفافه صخرية عارية، وطويلة ومنحدرة فوق التيار. نظروا منها عبر المجرى الضيق الهادر الذي ترتطم مياهه بالجلاميد هنا وهناك، ورأوا في الوادي الواسع أطلال البيوت والبروج والأسوار التي كانت هنا ذات يوم والتي يظللها الجبل.

قال (بالين): "هذا هو كل ما تبقى من (ديل). كانت جوانب الجبل تظللها الغابات الخضراء، والوادي المحمي غني يسر العين في الأيام التي كانت فيها الأجراس ترن في تلك البلدة."

بدا حزينًا عابسًا وهو ينطق بهذه الكلمات. كان أحد رفاق (ثورين) في اليوم الذي جاء فيه التنين.

لم يجسروا على اتباع النهر أكثر من ذلك باتجاه البوابة، لكنهم تجاوزوا طرف الكتلة الجنوبية، ثم تواروا وراء صخرة، واختلسوا النظر من خلفها، ورأوا فتحة مظلمة غائرة في حائط جرفي ضخم بين ذراعي الجبل تنبثق منها مياه النهر المتدفق. ومنها أيضًا يخرج بخار ودخان أسود. لم يتحرك أي شيء في المنطقة القاحلة سوى البخار والماء، ومن حين إلى آخر يطير غراب أسود ينذر بالشؤم. الصوت الوحيد المسموع كان صوت المياه المتلاطمة بالصخور، ومن حين إلى آخر نعيق خشن لطائر ما.

قال (بالين) مرتجفًا: "فلنعد. لا يوجد ما يمكننا فعله هنا، وهذه الطيور السوداء لا تروق لي. إنها تبدو كجواسيس للشر."

قال الهوبيت: "مازال التنين حيًّا إذن في القاعات أسفل الجبل، أو أن الدخان يجعلني أتخيل ذلك."

قال (بالين): "هذا لا يُثبت شيئًا، رغم أنني لا أشك في أنك محق. لكن من المحتمل أنه خرج في وقت ما، أو لعله جاثم على جانب الجبل يراقب؛ ومع ذلك، فأنا مازلت أتوقع خروج الأبخرة والأدخنة من البوابة، فلابد أن جميع القاعات بالداخل مفعمة بدخانه القذر."

بتلك الأفكار الكئيبة التي يصاحبها نعيب الغربان المحلقة فوقهم عادوا إلى المعسكر. فقط في يونيو كانوا ضيوفًا معززين مكرمين في دار (إلروند) الجميلة. ورغم أن الخريف كان يزحف الآن صوب الشتاء، فقد بدا ذلك الوقت المبهج لهم الآن كأنه كان منذ سنوات طوال. كانوا وحدهم في هذه الأرض القفر من دون أمل في يد تمد إليهم المساعدة. كانوا في نهاية رحلتهم بالفعل، لكن

كل شيء كان يشي بأن نهاية مسعاهم مازالت بعيدة كالقمر.

ولم تتبق عزيمة في قلب أي منهم...

لكن من الغريب الآن أن نقول إن السيد (باجنز) كان يتمتع بعزيمة أكثر منهم. كان كثيرًا ما يستعير خريطة (ثورين) ويدرسها ويتأمل في الحروف السحرية ورسالة الحروف القمرية التي قرأها (إلروند)، وكان هو من جعل الأقزام يبدون عملية بحث خطيرة في المنحدرات الغربية عن الباب السري. نقلوا مخيمهم إلى واد طويل أضيق من الوادي العظيم في الجنوب حيث بوابات النهر، وتطوقه بروزات الجبل. كان هناك بروزان يمتدان غربًا من الكتلة الرئيسة في ضلعين منحدري الجوانب يتجهان إلى أسفل ناحية السهل. في هذا الجانب الغربي كانت هناك آثار أقل لقدمي التنين، وكان هناك بعض العشب من أجل مهورهم. من هذا المخيم الغربي المظلل طيلة النهار بالجروف والجدران حتى تبدأ الشمس في الغرق ناحية الغابة كانوا يكدحون يومًا بعد يوم في جماعات في البحث عن ممرات في جانب الجبل. إن كان ما بالخريطة صحيحًا، فالباب السري موجود في مكان ما هناك بالأعلى عند قمة الوادي.

ويومًا بعد يوم عادوا إلى مخيمهم بخفي حنين...

لكنهم في النهاية، وعلى غير توقع، عثروا على ما كانوا يبحثون عنه. ذات يوم عاد (فيلي) و(كيلي) والهوبيت إلى الوادي، وتسلقوا بين الصخور المتداعية في زاويته الجنوبية. وعند الظهيرة زحفوا وراء صخرة ضخمة واقفة كعامود، وعندها رأى (بيلبو) ما يشبه درجات وعرة تصعد إلى أعلى. تتبعها في حماس هو والقزمان، وعثروا على آثار لطريق ضيق كثيرًا ما ضاع وكثيرًا ما اكتُشف من جديد يرتفع إلى قمة الضلع الجنوبي، ويقودهم في النهاية إلى إفريز صخري ضيق يتحول شمالاً عبر وجه الجبل. نظروا إلى أسفل ليجدوا أنهم على قمة الجرف الواقع عند رأس الوادي، وأنهم يتطلعون إلى مخيمهم بالأسفل. تحركوا صامتين في صف واحد عبر الإفريز متشبثين بالحائط الصخري إلى يمينهم حتى انفتح الحائط ووجدوا أنفسهم في خليج معشوشب هادئ ومحاط بالجدران المرتفعة. لم تكن رؤية مدخله الذي عثروا عليه ممكنة من أسفل بسبب تدلي الجرف، ولا كانت ممكنة من بعيد، لأنه كان يبدو عندها كمجرد شق مظلم لا أكثر. لم يكن كهفًا، وكان مفتوحًا على السماء أعلاه، لكن عند طرفه الداخلي ارتفع حائط مسطح بحيث كان جزءه السفلي القريب من الأرض أملسًا مستقيمًا كعمل بنّاء محترف، لكن من دون وصلات أو شقوق يمكن رؤيتها على الإطلاق. لم تكن هناك علامة على وجود سارية أو عتبة أو حد ما، ولا علامة على وجود مزلاج أو مقبض أو ثقب مفتاح؛ لكنهم مع ذلك لم يشكوا لحظة في أنهم عثروا

أخيرًا على الباب السري.

طرقوا ونقروا عليه ودفعوه، وتوسلوا إليه أن ينفتح، وتحدثوا بكلمات ركيكة من تعاويذ قديمة للفتح؛ ولم يتحرك أي شيء قيد أنملة. وفي النهاية عندما أصابهم الإرهاق والقنوط، استراحوا على العشب أسفل الحائط، ومع حلول المساء بدءوا في تسلقهم الطويل إلى أسفل.

عم الحماس المخيم تلك الليلة. تحركوا في الصباح مرة أخرى، ولم يُترك سوى (بوفر) و(بومبر) لحراسة المهور وما إلى ذلك من المؤن التي جلبوها معهم من عند النهر. نزل الآخرون إلى الوادي وصعدوا الطريق المُكتشف، ومن ثم اتجهوا إلى الإفريز الضيق. بالطبع لم يستطيعوا حمل حزم أو حقائب عبره لضيقه الشديد، ووجود مسقط يبلغ مائة وخمسين قدمًا إلى صخور حادة أسفله، لكن كل واحد منهم أخذ معه لفة طويلة من الحبال رابطًا إياها حول خصره؛ وهكذا وصلوا في النهاية إلى الخليج المعشوشب الصغير بلا معوقات. أقاموا هناك مخيمهم الثالث، ورفعوا ما احتاجوا إليه من أسفل بواسطة الحبال. بالطريقة نفسها كان بإمكانهم أحيانًا إنزال أحد الأقزام الأكثر سرعة ونشاطًا –مثل (كيلي) على سبيل المثال– لاستطلاع الأخبار أو المشاركة في الحراسة بالأسفل، بينما كان (بوفر) يُرفع إلى المعسكر الأعلى. أما (بومبر) فرفض الصعود سواء عن طريق الحبل أو الممر.

قال: "أنا أسمن من أن أخوض طرقًا كهذه. سوف يصيبني الدوار وأتعثر في لحيتي، وعندها سيصبح عددكم ثلاثة عشر مرة أخرى. كما أن الحبال المعقودة أنحل من احتمال ثقلي."

ولحسن حظه لم يكن ذلك صحيحًا كما سترون.

في تلك الأثناء استكشف بعضهم ما وراء الفتحة من الإفريز، وعثروا على طريق يقود إلى أعلى الجبل، لكنهم لم يجرؤوا على المخاطرة بالتقدم في ذلك الاتجاه أبعد من هذا، كما أنه لم تكن هناك فائدة من سلوكه على كل حال. ران صمت تام لا يخرقه صياح طائر أو أي صوت سوى صوت الرياح بين صدوع الصخور. تحدثوا بصوت خفيض، ولم ينادوا أو يغنوا مع كمون الخطر خلف كل حجر. لم يحالف الحظ هؤلاء الذين شغلوا أنفسهم بسر الباب حتى الآن. كانوا في أشد الحاجة لتفسير معنى الحروف القمرية، لكنهم حاولوا من دون كلل اكتشاف المكان الذي يتوارى فيه الباب في الحائط الأملس بالتحديد. كانوا قد جلبوا معهم من بلدة البحيرة معاول وأدوات من أنواع شتى، وحاولوا استخدامها في البداية، لكنهم عندما طرقوا بها على الحجر، تحطمت المقابض وآذت أذرعهم بشدة، بينما انكسرت الرؤوس الفولاذية أو انبعجت كالرصاص. رأوا بوضوح تام أن أعمال التنقيب المعتادة في المناجم غير ذات نفع ها هنا مع السحر الذي أغلق الباب وأوصده؛ كما أن

صدى صوت الضربات أصابهم بالتوتر الشديد.

وجد (بيلبو) الجلوس على عتبة الباب متعبًا مملاً، و... أحب فقط أن أنوه أنها لم تكن عتبة باب بالمعنى المعروف، لكنهم اتفقوا ضمنيًا على تسمية المساحة المعشوشبة الصغيرة بين الحائط والفتحة (عتبة باب) على سبيل المرح وقد تذكروا كلمات (بيلبو) منذ وقت طويل في الحفل غير المتوقع في حفرته الهوبيتية عندما قال إنه يمكنهم ملازمة عتبة الباب لبعض الوقت حتى يفكروا في وسيلة ما. وبالفعل جلسوا وفكروا، وأحيانًا طافوا في المكان بلا هدف، وازدادت الكآبة في قلوبهم.

كانت روحهم المعنوية قد ارتفعت بعض الشيء مع اكتشاف الممر، لكنها انخفضت الآن من جديد حتى مست أحذيتهم، وإن لم يكن بإمكانهم الاستسلام والمغادرة. لم يعد ذكاء الهوبيت يفوق ذكاء الأقزام في هذا الموقف، ولم يعد يفعل شيئًا سوى الجلوس مسندًا ظهره إلى الصخرة ويحدق بعيدًا في الغرب عبر الفتحة، ويتجاوز بناظريه الجرف وحائط (ميركوود) الأسود إلى المسافات الواقعة خلفه حيث خُيل إليه أحيانًا أنه يلمح جبال الضباب صغيرة بعيدة.

وعندما كان الأقزام يسألونه عما يفعل، كان يجيب: "قلتم إن الجلوس على عتبة الباب والتفكير هو مهمتي، ناهيكم عن الدخول، وها أنذا جالس أفكر."

لكنني أخشى أنه لم يكن يفكر كثيرًا في مهمته، بل فيما يقع وراء المسافات الزرقاء: الأراضي الغربية الهادئة والتل وحفرته أسفله.

كان هناك حجر رمادي ضخم مستقر في مركز الأرض العشبية، وكان هو يرمقه في تعاسة أو يراقب حركة الحلزونات الكبيرة. بدت أنها تحب الخليج المغلق بجدرانه الصخرية الباردة، وكان الكثير منها كبير الحجم ويزحف في بطء ولزوجة هنا وهناك.

قال (تورين) ذات يوم: "غدًا يبدأ آخر أسبوع في الخريف."

وقال (بيفر): "والخريف يتبعه الشتاء."

وقال (دوالين): "ثم يأتي العام الجديد، وستنمو لحانا حتى تتدلى من الجرف في الوادي قبل أن يحدث أي شيء هنا. ما الذي يفعله لصنا من أجلنا؟ بما أنه يملك خاتمًا سحريًا، ومن المفترض أن يلعب دورًا فعالاً الآن، فمن رأيي أن عليه الدخول من البوابة الأمامية واستطلاع الأمور!"

كان الأقزام واقفين على الصخور التي تعلو السياج الذي يجلس عليه، ومع سماعه لهذه العبارة الأخيرة، قال في نفسه: "يا للسماوات! هكذا بدءوا يفكرون إذن؟ لا يوجد سواي أنا

المسكين الذي يخرجهم من مآزقهم، على الأقل منذ تركنا الساحر. ماذا أفعل؟ كان يجب أن أعرف أن شيئًا شنيعًا سيحدث لي في النهاية. لا أظنني أستطيع رؤية وادي (ديل) التعيس مرة أخرى، ولا تلك البوابة البخارية!"

تضاعف بؤسه كثيرًا تلك الليلة، وبالكاد استطاع النوم. في اليوم التالي ذهب الأقزام كلهم يتجولون في اتجاهات مختلفة. بعضهم كان يمرن المهور بالأسفل، وبعضهم كان يجول حول جوانب الجبل. جلس (بيلبو) طيلة اليوم في الخليج العشبي يحدق في كآبة في الحجر أو غربًا عبر الفتحة الضيقة.

كان شعور غريب يراوده بأنه ينتظر شيئًا ما، وقال لنفسه: "لعل الساحر سيعود فجأة اليوم."

إن رفع رأسه، كان بإمكانه رؤية لمحة خافتة من الغابة البعيدة، ومع اتجاه الشمس إلى الغرب كان هناك وهج أصفر فوق سقفها البعيد، كأن الضوء علق بآخر أوراق الشجر الشاحبة، وسرعان ما رأى قرص الشمس البرتقالي ينخفض إلى مستوى عينيه. نهض واتجه إلى الفتحة، وهناك رأى فوق حافة الأرض القمر الجديد شاحبًا خابيًا.

في تلك اللحظة بالذات سمع صوت تشقق حاد من خلفه. على الحجر الرمادي المغروس في العشب كان هناك طائر سُمنة ضخم للغاية لونه في سواد الفحم، وتغطي صدره الأصفر الشاحب نقاط داكنة كثيرة.

الشق!

كان الطائر قد التقط حلزونًا بمنقاره وأخذ يضرب به على الحجر...

الشق! الشق!

فهم (بيلبو) كل شيء فجأة. أنساه حماسه الشديد الخطر وواجب الحذر، فوقف على الإفريز وصاح ينادي على الأقزام وهو يلوح بذراعيه. جاء الأقرب منهم إليه يتعثرون في الصخور بأقصى سرعة لديهم عبر الإفريز وهم يتساءلون ما الأمر، بينما صاح الآخرون ليتم رفعهم بالحبال، ما عدا (بومبر) الذي كان نائمًا بالطبع.

شرح لهم (بيلبو) الأمر بسرعة، بينما لاذوا جميعًا بالصمت. كان الهوبيت واقفًا عند الحجر الرمادي والأقزام واقفين بلحاهم المهتزة يراقبون بصبر نافد. انخفضت الشمس أكثر فأكثر، وبدأ أملهم يتلاشى من جديد. ثم غابت الشمس في حزام من السحب الحمراء وتوارت.

همهم الأقزام في إحباط، لكن (بيلبو) ظل واقفًا كما هو لا يتحرك تقريبًا. كان القمر الصغير يتخذ مكانه في الأفق والمساء يحل، وانخفضت معدلات الأمل إلى أدناها عندما فر شعاع أحمر من الشمس كإصبع صغير عبر شق من بين السحب، وجاء وهج من الضوء عبر فتحة الخليج مباشرة وسقط على الحائط الصخري الأملس. وعندها أطلق طائر السُمنة الذي كان يراقب من مجثم عال بعينين خرزيتين ورأس منتصب صيحة مفاجئة. سمعوا صوت تشقق مرتفعًا، وانفصلت رقاقة من الحجر عن الحائط وسقطت، وظهر ثقب فجأة على ارتفاع ثلاثة أقدام من الأرض.

وبسرعة شديدة اندفع الأقزام مرتجفين خشية أن تضيع الفرصة الأخيرة صوب الحائط ودفعوا بأكتافهم... بلا نتيجة.

صاح (بيلبو): "المفتاح! المفتاح! أين (ثورين)؟"

هرع إليه (ثورين)، فكرر (بيلبو) صائحًا: "المفتاح! المفتاح الذي كان مع الخريطة! جربه الآن بينما مازال هناك وقت!"

تقدم (ثورين) وسحب المفتاح في سلسلته من حول عنقه ووضعه في الثقب. وفعلًا، دخل المفتاح في الثقب ودار. وفي تلك اللحظة اختفى الوهج، وغابت الشمس تمامًا، وتوارى القمر، وبسط المساء أجنحته في السماء.

دفعوا معًا، وببطء انفتح جزء من الحائط الصخري، وظهرت شقوق طولية طويلة واتسعت، وظهر باب بارتفاع خمسة أقدام وعرض ثلاثة، وببطء ومن دون صوت انفتح إلى الداخل. بدا كأن الظلمة تدفقت إلى الخارج كالدخان من الفتحة في جانب الجبل، وامتدت عتمة عميقة لا يمكن رؤية شيء خلالها أمام أعينهم كفم متثائب يقود إلى أسفل.



الفصل الثاني عشر

معلومات داخلية

لوقت طويل وقف الأقزام في الظلام أمام الباب وتجادلوا، حتى تحدث (ثورين) في النهاية وقال: "الآن حان وقت السيد (باجنز) المحترم الذي أثبت أنه رفيق طيب في طريقنا الطويل وهوبيت مليء بالشجاعة والدهاء بما يتجاوز حجمه بكثير، وليسمح لي أن أقول إنه حليف لحظ حسن يفوق المقاييس المعتادة. الآن حان وقته ليؤدي المهمة التي انضم من أجلها إلى جماعتنا، والآن حان وقته ليستحق مكافأته."

لابد أن أسلوب (ثورين) الخطابي في المناسبات الهامة قد بات مألوفًا لكم، ولهذا لن أصدع رؤوسكم بالمزيد منه، رغم أنه استطرد وقال ما يفوق هذا بكثير. كانت بالتأكيد مناسبة هامة، لكن (بيلبو) شعر بالضجر ونفاد الصبر. هو أيضًا أصبح معتادًا على أسلوب (ثورين) الآن، وكان يعرف إلام يرمي.

قال في صراحة: "إن كنت تعني أنك تعتقد أن مهمتي هي دخول ذلك الممر السري أولاً يا (ثورين أوكنشيلد) يا ابن (ثرين) -عسى أن تستطيل لحيتك أكثر فأكثر- فقلها مباشرة ومن دون مراوغة! يمكنني أن أرفض، فقد أخرجتكم بالفعل من محنتين لم تكونا في الصفقة الأساسية، وهكذا أظن أنني استحققت مكافأتي بالفعل. لكن الثالثة ثابتة كما كان أبي يقول، وبشكل ما لا أظن أنني سأرفض. لعلي بدأت أثق بحظي أكثر مما كنت أفعل في الأيام القديمة... (كان يقصد الربيع الماضي قبل أن يغادر بيته، لكن ذلك بدا له كأنه منذ قرون) ... لكنني على كل حال سأذهب وأختلس نظرة في الحال وأنتهي من هذا الأمر. من سيأتي معي؟"

لم يكن يتوقع جوقة من المتطوعين، وهكذا لم يصبه الإحباط. (فيلي) و(كيلي) بديا متململين ووقفا على ساق واحدة، لكن الآخرين لم يتظاهروا برغبتهم في عرض المساعدة ما عدا (بالين) المراقب الذي كان مولعًا بالهوبيت. قال إنه سيدخل معه على الأقل، ولربما يسلك معه القليل من الطريق كذلك مع استعداده لطلب العون إن تطلب الأمر.

جُل ما يمكن قوله عن الأقزام هو هذا: كانت نيتهم دفع مكافأة سخية للغاية لـ(بيلبو) لقاء خدماته، وقد جلبوه ليقوم بمهمة شديدة الخطورة من أجلهم، ولم يمانعوا في أن ينفذها المسكين الصغير إن استطاع؛ لكنهم كانوا ليبذلون كل ما بوسعهم لإخراجه من المتاعب إن سقط في واحدة كما فعلوا مع العمالقة في بداية مغامرتهم، وقبل أن تكون لديهم أسباب معينة تجعلهم ممتنين أو مدينين له.

هكذا الأمر إذن. الأقزام ليسوا بأبطال، بل قوم عمليون يقدرون المال حق قدره. بعضهم مخادع خائن وبه مساوئ كثيرة، وبعضهم ليس كذلك، بل قوم لطفاء مهذبون على شاكلة (ثورين) ورفاقه، فقط إن لم تتوقع الكثير منهم.

كانت النجوم من خلفه تثقب ثوب السماء الشاحب المخطط بالأسود عندما زحف الهوبيت عبر الباب المسحور ودخل الجبل. كان الدخول أسهل مما توقع بكثير، فهذا لم يكن مدخلاً للجوبلين أو كهفًا لإلفيي الغابة، بل كان ممرًا شقه الأقزام في أوج قوتهم وثرائهم وحرفيتهم التي لا تُضاهى. كان مستقيمًا كالمسطرة وناعم الأرضية والجوانب، ويتجه في منحدر لا ينحرف مباشرة

إلى... إلى نهاية بعيدة في السواد الذي بالأسفل.

بعد قليل تمنى (بالين) لـ(بيلبو) حظًا طيبًا، وتوقف حيث كان لازال يستطيع رؤية محيط الباب الباهت وسماع همسات الآخرين بالخارج بحيلة ما من أصداء النفق. ثم وضع الهوبيت الخاتم في إصبعه، وأوصى نفسه بأن يأخذ أكثر من حذر الهوبيت المعتاد في عدم إصدار أي صوت بعد سماعه لأصواتهم بالخارج، ثم زحف من دون أدنى صوت إلى أسفل فأسفل فأسفل في قلب الظلمة. كان يرتجف فرقًا، لكن وجهه الصغير كان ثابتًا حازمًا. لقد أضحى بالفعل هوبيتًا مختلفًا للغاية عن ذلك الذي هرع من (باج إند) من دون منديل منذ وقت طويل، والحقيقة أنه لم يملك منديلاً منذ زمن.

أرخى خنجره في غمده، وشد حزامه، وواصل الزحف.

قال لنفسه: "ها أنتذا وصلت إلى قلب الخطر أخيرًا يا (بيلبو باجنز). لقد وضعت قدمك فيه بنفسك في ليلة الحفل، والآن عليك سحبها منه ودفع الثمن! كم أنا مسكين! أي أحمق كنت ومازلت؟ (الجملة الأخيرة قالها الجزء التوكي الأقل منه) ليست بي أدنى حاجة للكنوز التي تحرسها التنانين، ويمكن للكنز كله أن يبقى هنا إلى الأبد، فقط إن استيقظت ووجدت أن هذا النفق الكريه ليس إلا ردهتي الأمامية في بيتي!"

بالطبع لم يستيقظ، لكنه استمر مع ذلك في التقدم حتى اختفت آخر العلامات التي تدل على وجود الباب من خلفه. كان وحيدًا تمامًا الآن، وسرعان ما بدأ يظن أن الدفء قد بدأ يسود المكان، وفكر قائلاً: "أهذا وهج الذي أراه قادمًا من أسفل؟"

كان وهجًا بالفعل، وأخذ يتزايد مع تقدمه إلى الأمام حتى لم يعد هناك شك في وجوده. كان ضوءًا أحمر تتزايد حمرته بثبات، كما أن حرارة النفق قد ازدادت كثيرًا بالفعل. طفت أبخرة كثيفة فوقه وتجاوزته وبدأ يعرق، وفي الوقت ذاته بدأ يسمع صوتًا ما ينبض في أذنيه كأنه بقبقة ماء يغلي في إناء كبير على النار تختلط بها قعقعة تشبه قرقرة هر هائل الحجم. ثم اتضح الصوت بصورة لا شك فيها وأصبح صوت حيوان ضخم يغط في النوم بالأسفل في الوهج الأحمر أمامه.

وعند هذه النقطة توقف (بيلبو). كان التقدم بعدها هو أشجع شيء فعله في حياته على الإطلاق، ولم يكن هناك مجال لمقارنة الأشياء المذهلة التي حدثت بعدها بهذا الموقف. المعركة الحقيقية خاضها هو في النفق وحيدًا قبل حتى أن يرى الخطر الرهيب الذي يرقد منتظرًا. بعد توقف قصير بدأ يتحرك مرة أخرى، ولك أن تتخيله وهو يصل إلى نهاية النفق التي كانت عبارة عن فتحة تشبه الباب الذي بالأعلى في المساحة والهيئة.

عبر الفتحة يمد الهوبيت رأسه الصغير ليختلس النظر، وأمامه يمتد القبو الأدنى أو قاعة زنازين قدماء الأقزام عند سفح الجبل مباشرة. الظلمة تحول من دون تقدير اتساع المكان بدقة، لكن من الجانب الأقرب للأرضية الحجرية يأتي وهج شديد.

وهج (سموج)!

كان هناك...

تنين أحمر ذهبي ضخم يغط في نوم عميق، تنساب نسالة من بين فكيه، ومن ثقبي أنفه تخرج دفقات من الدخان، لكن نيرانه كانت خامدة. تحته، وأسفل كل أطرافه وذيله الملفوف الضخم، وحوله من جميع الجهات على الأرضية الواسعة امتدت أكوام وأكوام بلا عدد من الأشياء الثمينة؛ ذهب مشغول وغير مشغول، جواهر وأحجار كريمة وحلي، فضيات مصبوغة بالأحمر في الضوء المتورد.

استلقى (سموج) بجناحين مطويين كوطواط هائل الحجم يميل على جانب واحد، واستطاع الهوبيت رؤية أجزائه التحتية وبطنه الطويلة الشاحبة المكسوة بقشرة من الجواهر وشظايا الذهب إثر جثومه الطويل على فراشه النفيس. وخلفه حيث كانت الجدران أقرب، استطاع الهوبيت على نحو غامض رؤية سترات واقية وخوذات وفؤوس وسيوف ورماح معلقة، وفي صفوف مرصوصة وقفت جرار ضخمة وأوعية مليئة بثروة لا يمكن تقديرها.

إن قلت الآن إن المشهد قد خلب لب (بيلبو)، فهذا ينقص من قدر الموقف كثيرًا. لم تعد هناك كلمات متبقية تصف انبهاره منذ استبدل البشر اللغة التي تعلموها من الإلفيين في الأيام التي كان العالم فيها بهيًّا نضرًا. سمع (بيلبو) حكايات وأغاني عن ذخائر التنانين من قبل، لكن لم يحدث قط أن شعر بروعة وشهوة وفخامة كنز كهذا على الإطلاق. ثُقب قلبه بافتتان ورغبة الأقزام وامتلأ بهما، وتسمر مكانه ناسيًا الحارس المرعب وهو يحدق في الذهب الذي لا يقدر بثمن.

ظل يحدق طيلة ما بدا له كعصر كامل قبل أن يجبر نفسه –ضد إرادته– على التسلل في تؤدة حذرة من ظل المدخل وعبر الأرضية إلى أقرب حواف الأكوام المكتنزة. فوقه كان التنين النائم جاثمًا؛ خطر مميت حتى في نومه. أمسك بكأس ثقيلة ذات مقبضين، ورفع عينًا خائفة إلى أعلى. حرك (سموج) أحد جناحيه حركة خفيفة، وفتح أحد مخالبه، وتغير إيقاع غطيطه المنتظم.

وعندها فر (بيلبو). لكن التنين لم يستيقظ –ليس بعد على كل حال– بل غاب في أحلام

أخرى من الجشع والعنف وهو مستلق هناك في قاعته المسلوبة، بينما عاد الهوبيت الصغير زاحفًا في النفق الطويل. كان قلبه يدق في عنف، وساقاه ترتجفان أكثر مما كانتا وهو يهبط النفق، لكنه قبض على الكأس في قوة، وكانت الفكرة الرئيسة في ذهنه تقول: "فعلتها! سيريهم هذا. يقال أكثر من لص بالفعل! حسن، انتهى عهد هذا الكلام الفارغ."

وقد كان. شعر (بالين) بسعادة غامرة لرؤية الهوبيت مرة أخرى، واختلطت سعادته بالدهشة الشديدة. رفع (بيلبو) عاليًا وحمله إلى الهواء الطلق في الخارج. كان منتصف الليل قد جاء بالفعل، والسحب غطت النجوم، لكن (بيلبو) استلقى بعينين مغلقتين وهو يلهث مستمتعًا بشعوره بالهواء الخارجي مرة أخرى، ولم يلق انتباهًا كبيرًا لحماس الأقزام ومديحهم له وتربيتهم على ظهره ووضع أنفسهم وعائلاتهم لأجيال طويلة قادمة في خدمته.

كان الأقزام لازالوا يمررون الكأس من يد لأخرى ويتحدثون في حبور عن استعادتهم لكنزهم عندما دوى فجأة صوت هادر في الجبل بالأسفل كأن بركانًا قديمًا قد قرر أن يثور من جديد. كاد الباب خلفهم ينغلق لولا أن حال حجر موضوع بينه وبين إطاره من دون ذلك، لكن صدى مخيفًا لأصوات خوار عنيف وتحطيم غاضب جاء عبر النفق الطويل من أعماق الجبل وجعل الأرض تحت أقدامهم ترتجف. عندها نسي الأقزام بهجتهم وتباهيهم الواثق منذ لحظات وانكمشوا على أنفسهم خائفين. كان مازال عليهم التعامل مع (سموج) ووضعه في الحسبان، فلا يُعقل أن تُسقط تنينًا حيًّا من حساباتك إن كان يعيش بالقرب منك. قد لا تستغل التنانين ثرواتها استغلالاً حقيقيًّا، لكنها تعرف كل قطعة صغيرة منها كقاعدة، بالذات بعد مرور فترة طويلة على استحواذها عليها، و(سموج) لم يكن باستثناء للقاعدة. كان قد بدأ يستفيق من حلم مضطرب – وفيه رأى محاربًا ضئيل البنية، وإن كان يمتشق سيفًا بتارًا ويتحلى بشجاعة كبيرة– إلى نعاس خفيف، ومن النعاس الخفيف إلى اليقظة الكاملة. كانت هناك نسمة من هواء غريب في كهفه. هل يمكن أن يكون تيارًا من الهواء الرطب قد تسلل من تلك الفتحة الصغيرة؟ هي لم ترق له من قبل قط، رغم أنها كانت في غاية الصغر، والآن رمقها في ريبة، وتساءل لماذا لم يسدها من قبل. لقد تخيل مؤخرًا أنه سمع أصوات طرقات مكتومة من بعيد بالأعلى تصل إلى عرينه عبرها. تحرك من مكانه، ومد عنقه إلى الأمام يتشمم الهواء.

وعندها أدرك اختفاء الكأس!

لصوص! نيران! قتل!

لم يحدث ذلك قط منذ جاء إلى الجبل، وكانت غضبته تفوق الوصف. هي غضبة تشبه

غضبة الأغنياء الذين يملكون أكثر مما يمكنهم الاستمتاع به في ألف عام، وفجأة يفقدون شيئًا احتفظوا به لوقت طويل، وإن لم يحدث أن استخدموه أو حتى رغبوا فيه أصلاً. اشتعلت نيرانه، وامتلأت القاعة بالدخان، واهتز الجبل من جذوره. دفع برأسه عبثًا إلى الفتحة الصغيرة، ثم استجمع قواه وزأر كالرعد تحت الأرض، واندفع من عرينه العميق عبر بابه الكبير إلى ممرات القصر الجبلي الضخمة، وعبرها إلى البوابة الأمامية.

الفكرة الوحيدة التي سيطرت على كيانه الآن هي تمشيط الجبل كله والعثور على اللص وتمزيقه إربًا.

انطلق خارجًا من البوابة، واضطربت المياه مصدرة أبخرة عنيفة، وحلق متوهجًا في الهواء، واستقر فوق قمة الجبل في دفقة من اللهب الأخضر القرمزي. كان الأقزام قد سمعوا صوت تحليقه المخيف، والتصقوا بجدران المصطبة العشبية، وانكمشوا تحت جلاميدها وهو يأملون أن ينجوا بشكل ما من عيني التنين الباحث المريعتين.

كان يمكن أن يُقتلوا لولا (بيلبو) مرة أخرى، فقد قال لهم لاهثًا: "أسرعوا! أسرعوا! الباب! النفق! لا فائدة من البقاء هنا!"

جعلتهم هذه الكلمات ينهضون من أماكنهم، وكانوا على وشك البدء في الزحف داخل النفق عندما صاح (بيفر): "ابني عمي (بومبر) و(بوفر)! لقد نسيناهما... إنهما تحت في الوادي!"

قال الآخرون في ألم: "سوف يُقتلا مع المهور، وستضيع المؤن كلها. لا يوجد ما يمكننا فعله."

قال (ثورين) في حزم وقد استرد إحساسه بالكرامة: "هراء! لا يمكننا تركهما هناك. والآن فليدخل السيد (باجنز) و(بالين) و(فيلي) و(كيلي) أيضًا. لن يقتلنا التنين جميعًا. فليحضر الآخرون الحبال. أسرعوا!"

كانت هذه أصعب وأسوأ لحظات مرت بهم حتى الآن. صوت خوار (سموج) الشنيع كان يتردد في التجاويف بالأعلى، وفي أي لحظة الآن سيهبط مشتعلاً أو يطوف بالجبل محلقًا ويجدهم هناك بالقرب من حافة الجرف يسحبون الحبال في لهفة.

صعد (بوفر)، وكانوا لازالوا في أمان مؤقت...

صعد (بومبر) لاهثًا والحبال تصر، وكانوا لازالوا في أمان مؤقت...

صعدت بعض الأدوات وحزم المؤن، ولم يعودوا في أمان!

سمعوا ضجة كالأزيز، ومس ضوء أحمر أطراف الصخور حولهم، وجاء التنين. لم يكن لديهم سوى القليل جدًا من الوقت لسحب وجر حزمهم عندما جاء (سموج) مندفعًا من الشمال لاعقًا جوانب الجبل باللهب خافقًا بجناحيه العظيمين بصوت كالرياح الهادرة. أنفاسه الساخنة جعلت العشب أمام الباب يذبل، وسرت في الشق الذي تركوه ولفحتهم حيث تواروا. ارتفعت نيران مضطرمة وتراقصت ظلال الصخور السوداء، ثم حل الظلام إذ مر. صرخت المهور في رعب ومزقت الحبال التي تربطها، وانطلقت تعدو في هياج. انقض التنين عليها، واندفع يطاردها واختفى.

قال (ثورين): "هذه نهاية مهورنا المسكينة ولا شك. لا شيء يمكنه الفرار من (سموج) بمجرد أن يراه هذا. ها نحن أولاء، وهنا سنضطر للبقاء، ما لم يكن أحدكم يرغب في قطع الأميال الطويلة عائدًا إلى النهر و(سموج) طليق!"

لم تكن فكرة مشجعة على الإطلاق!

زحفوا إلى أسفل أكثر في النفق، وربضوا هناك مرتجفين، رغم أن هواءه كان دافئًا خانقًا حتى جاء الفجر الشاحب عبر شق الباب. بين الفينة والفينة طيلة الليل كانوا يسمعون زئير التنين المحلق يتزايد، ثم يمر ويختفي وهو يدور في حلقات لانهائية حول الجبل. كان قد خمن من وجود المهور ومن آثار المخيمات التي اكتشفها أن رجالاً قد جاؤوا عبر النهر والبحيرة واستكشفوا جانب الجبل من الوادي من حيث كانت المهور واقفة ترعى، لكن الباب صد عينه الباحثة، وقاوم الخليج العالي الجدران نيرانه الحامية. استمر في البحث لوقت طويل حتى جاء الفجر ليبرِّد غضبه المشتعل، وعاد إلى أريكته الذهبية لينام، وبهذا يستجمع قواه من جديد. لم يكن لينسى أو يغفر السرقة حتى وإن حولته ألف سنة إلى حجر يحترق بلا دخان، وكان بإمكانه الانتظار. ببطء وهدوء زحف عائدًا إلى عرينه، وأغلق عينيه نصفيًا.

خفَّ خوف الأقزام مع مجيء الصباح. أدركوا أن هذا النوع من الأخطار حتمي ما داموا يتعاملون مع حارس كهذا، وأن التخلي عن مسعاهم غير وارد الآن؛ كما أنه لم يكن في وسعهم الخروج الآن بأية حال كما قال (ثورين). مهورهم إما ضاعت أو قُتلت، وعليهم الآن الانتظار لبعض الوقت حتى يهدأ بحث (سموج) عنهم بشكل يكفي لخروجهم على الطريق الطويل سيرًا على الأقدام، ولحسن الحظ كانوا قد أنقذوا من مؤونتهم ما يكفيهم لبعض الوقت.

تجادلوا لوقت طويل فيما سيفعلون، لكنهم لم يستطيعوا التفكير في أي طريقة للتخلص من (سموج)، والذي كان في الحقيقة نقطة ضعف دائمة في خطتهم. وقد شعر (بيلبو) بأنه مدفوع إلى

الإشارة إلى هذا بوضوح. وعندها، وكما هي طبيعة القوم الذين يشعرون بالارتباك والحيرة الشديدين، بدءوا يعنفون الهوبيت ويلومونه على ما أسعدهم في بادئ الأمر: جلبه لكأس وإثارة غضب (سموج) مبكرًا.

قال (بيلبو) غاضبًا: "وماذا تظنون عمل اللص بالضبط؟ أنا لم أشترك في هذه المهمة لقتل التنانين، فهذا عمل محارب، بل لأسرق الكنز. لقد فعلت أفضل ما استطعت كبداية. هل توقعتم أن أهرول عائدًا وأنا أحمل كنز (ثرور) كله على ظهري؟ إن كنتم تتذمرون عليَّ لهذا السبب، فلابد من توضيح شيء ما. كان يجب عليكم جلب خمسمائة لص لا واحد فقط. أنا واثق أن هذا يعكس فخركم الشديد بجدكم، لكنكم لا تستطيعون التظاهر بأنكم بينتم لي مقدار ثروته جيدًا. سوف أحتاج لمئات من الأعوام لآتي بها كلها، وهذا إن كان حجمي أكبر خمسين مرة و(سموج) وديعًا كأرنب!"

وبالطبع طلب الأقزام معذرته بعد هذه الكلمات، وسأله (ثورين) في أدب: "وما الذي تقترح علينا فعله يا سيد (باجنز)؟"

-"ليست لدي فكرة في الوقت الحالي إن كنت تقصد عملية نقل الكنز. من الواضح أن هذا يعتمد بالكامل على محالفة الحظ لنا والتخلص من (سموج). التخلص من التنانين ليس من اختصاصاتي على الإطلاق، لكنني سأبذل قصارى جهدي للتفكير في طريقة. شخصيًا أنا لا أملك أي أمل، وأتمنى لو أنني كنت آمنًا في بيتي."

-"انس هذا الآن! ماذا سنفعل الآن، اليوم؟"

-"حسن، إن كنتم تريدون نصيحتي حقًا، فسأقول إننا لا نستطيع فعل أي شيء سوى الجلوس حيث نحن. بالنهار يمكننا ولا شك الزحف للخارج لاستنشاق الهواء النقي، وربما لن يمر وقت طويل حتى نختار اثنين منا للعودة إلى مخزوننا عند النهر وتزويدنا بمؤونة جديدة. في جميع الأحوال، يجب أن نبقى جميعًا في الوقت الحالي داخل النفق ما دام الوقت ليلاً.

والآن سأقدم لكم عرضًا. إن خاتمي معي، وسوف أزحف هابطًا في النفق هذه الظهيرة - وحينها من المفترض أن يكون (سموج) غافيًا- وأرى ماذا يفعل، ولعلي أتبين شيئًا. فكل أفعى لها نقطة ضعف كما كان أبي يقول، رغم أنني واثق بأنه لم يقل هذا بدافع تجربة شخصية."

وقبل الأقزام العرض في حرارة بطبيعة الحال، ونظروا إلى (بيلبو) نظرة احترام. بات هو الآن القائد الحقيقي في مغامرتهم، وبدأ يفكر ويضع الخطط بمفرده. وعندما جاءت الظهيرة، استعد لرحلة جديدة في قلب الجبل. بالطبع لم يرق له الأمر برمته، لكنه بشكل ما كان يدرك أن

ما ينتظره ليس سيئًا إلى هذه الدرجة. والحقيقة أنه إن كان يعرف المزيد عن التنانين وطرقها الماكرة، لأمسى أكثر خوفًا وأقل أملاً في أن يجد هذا التنين غافيًا.

كانت الشمس مشرقة عندما بدأ في الزحف، لكن ظلمة النفق كانت حالكة كالليل، وسرعان ما اختفى الضوء الآتي من الباب المغلق مع هبوطه المستمر. كانت حركته ساكنة للغاية، حتى إن سكون الدخان الذي يحمله النسيم يكاد يكون ضوضاء صاخبة مقارنة به؛ وشعر الهوبيت بالفخر بنفسه وهو يقترب من الباب الأدنى حيث كان الوهج خابيًا ويكاد يكون منعدمًا.

قال في نفسه: "(سموج) العجوز متعب ونائم. لا يمكنه رؤيتي ولن يسمعني. ابتهج يا (بيلبو)!"

كان قد نسي حاسة الشم لدى التنانين، أو أنه لم يسمع بها قط. وأيضًا هناك حقيقة غريبة تقول بأنها تستطيع إبقاء عيونها نصف مفتوحة للمراقبة أثناء نومها إن كانت تشعر بالشك في شيء ما.

عندما اختلس (بيلبو) النظر مرة أخرى من المدخل، بدا (سموج) غارقًا بالفعل في نوم عميق كأنه جثة هامدة، ولا يتجاوز غطيطه زفرة من البخار غير المرئي. كان على وشك أن يخرج ليخطو على الأرضية عندما رأى شعاعًا ثاقبًا رفيعًا من تحت جفن عين (سموج) اليسرى الساقط عليها.

كان التنين يتظاهر بالنوم، وكان يراقب مدخل النفق!

هرع (بيلبو) عائدًا وهو يبارك الخاتم الذي يحمل حسن الحظ، وعندها تكلم (سموج).

-"حسن أيها اللص، إنني أشم رائحتك وأشعر بهوائك وأسمع صوت أنفاسك. هلُم! ساعد نفسك مرة أخرى، فهناك الكثير مما لا أحتاجه هنا."

لكن (بيلبو) لم يكن جاهلاً إلى هذه الدرجة بالتنانين، وإن كان (سموج) يأمل في أن يجعله يقترب منه بتلك البساطة، فستصيبه خيبة الأمل.

أجاب (بيلبو): "لا، شكرًا لك أيا (سموج) المهيب. أنا لم آت من أجل الهدايا والكنوز، بل أملت فقط أن ألقي عليك بنظرة، وأن أرى إن كنت بالفعل عظيمًا كما تقول الحكايات، فلم أكن أصدقها."

-"وهل تصدقها الآن؟" قالها التنين في شيء من الغرور، رغم أنه لم يصدق حرفًا مما قيل.

أجاب (بيلبو): "الأغاني والحكايات لا تساوي شيئًا أمام الحقيقة أيا (سموج) الأكبر

والأضخم بين كل الكوارث."

قال التنين: "تملك أسلوبًا لبقًا بالنسبة للص كذاب. من الواضح أن اسمي معروف لك، لكنني لا أذكر شم رائحتك من قبل. هل تسمح أن أسأل من أنت ومن أين أتيت؟"

-"بالتأكيد! لقد أتيت من تحت التل، وتحت التلال وفوقها قادتني خطاي، وفي الهواء طرت. أنا الذي يمشي غير مرئي."

قال (سموج): "واضح، لكن ذلك ليس اسمك الحقيقي."

-"أنا حلَّال الألغاز، قاطع الشباك، الذبابة التي تلدغ. أنا الذي تم اختياره من أجل الرقم المحظوظ."

قال التنين ساخرًا: "ألقاب رائعة! لكن الأرقام المحظوظة لا تنجح دائمًا."

-"أنا الذي يؤلم أصدقاءه ويُغرقهم، ثم يسحبهم من الماء أحياء. جئت من قاع كيس*، لكن كيسًا لم يُغطِّني."

ضحك (سموج) في تهكم وقال: "لا تبدو هذه ألقابًا مشرفة."

واصل (بيلبو) وقد بدأ يشعر بالسرور من لعبة الأحاجي هذه: "أنا صديق الدببة وضيف النسور. أنا الفائز بالخاتم ومرتدي الحظ وراكب البرميل."

قال (سموج): "هذا أفضل، لكن لا تجعل خيالك يجرفك بعيدًا!"

هذه بالطبع هي طريقة التحدث إلى التنانين إن لم تكن تريد الإفصاح عن اسمك الحقيقي، وهو تصرف حكيم، أو إغضابها بأن ترفض ذكره صراحة، وهذا أيضًا تصرف حكيم. لا يوجد تنين يمكنه مقاومة إغراء الحديث الملغز أو تضييع الوقت في محاولة فهمه. هناك الكثير مما لم يفهمه (سموج) البتة، وإن كنت أتوقع أنكم فهمتموه، بما أنكم تعرفون كل شيء عن مغامرات (بيلبو) التي كان يشير إليها، لكنه ظن أنه فهم ما يكفي، وضحك في قرارة نفسه، وقال مبتسمًا: "كما حسبت ليلة أمس. رجال البحيرة، مكيدة قذرة من رجال البحيرة البائسين، وإلا فأنا سحلية. لم أذهب إلى تلك النواحي منذ زمن طويل، لكنني سأفعل قريبًا."

ثم قال بصوت عال: "ليكن يا راكب البرميل. ربما كان اسمك مهرك هو (برميل)، وربما

* حفرة (بيلبو) تسمى (باج إند Bag End)، والاسم مستمد من بيت مزرعة بنفس الاسم في قرية (دورمستون) الصغيرة التي كانت تعيش بها عمة (تولكين)، ويمكن رؤية الاسم على ضوء التورية أو التلاعب بلفظة Cul-de-sac التي تعني حرفيًا (قاع الكيس). وقيل أيضًا إن اسم قرية Bag Enderby الصغيرة في (لينكولنشاير) قد ألهم (تولكين) بالاسم.

لا، رغم أنه كان سمينًا بما يكفي. ربما تسير غير مرئي، لكنك لم تقطع الطريق كله سيرًا. دعني أقل لك إنني التهمت ستة مهور ليلة أمس، وسأمسك بالمهور الباقية وألتهمها قريبًا؛ ومقابل هذه الوجبة اللذيذة، سأعطيك نصيحة واحدة من أجل مصلحتك: لا تتورط في أعمال الأقزام بما يفوق قدراتك!"

قال (بيلبو) في دهشة زائفة: "الأقزام؟"

صاح (سموج): "لا تتظاهر بالدهشة! إنني أعرف رائحة ومذاق الأقزام أكثر من أي كائن آخر. لا تقل لي إنني أكلت مهرًا امتطاه قزم من دون أن أعرف هذا! ستكون نهايتك سيئة إن استمررت مع أصدقاء كهؤلاء يا راكب البرميل اللص. لا أمانع أن تعود وتبلغهم بهذا."

لكنه لم يخبر (بيلبو) بأنه كانت هناك رائحة واحدة لم يستطع تمييزها على الإطلاق. رائحة الهوبيت ذاته كانت خارج نطاق خبراته وحيرته بشدة.

واصل التنين: "أعتقد أنك نلت ثمنًا مناسبًا لقاء تلك الكأس ليلة أمس؟ هلُم، قل لي! لا شيء على الإطلاق، أليس كذلك؟ حسن، تلك هي شيمة الأقزام المعتادة. وأفترض أيضًا أنهم متوارون بالخارج، بينما مهمتك أنت هي القيام بكل الأعمال الخطيرة والحصول على كل ما تستطيع وأنا غافل... من أجلهم هم بالطبع. هل قالوا لك إنك ستحصل على حصة سخية؟ لا تصدقهم! سيكون من حسن طالعك أن تخرج من كل هذا حيًّا."

بدأ (بيلبو) يشعر بالتوتر الشديد. متى ومضت عين (سموج) الجائلة الباحثة عنه بين الظلال عبره كان يرتجف وتسيطر عليه رغبة عجيبة بالاندفاع إلى الأمام وإظهار نفسه وإخبار (سموج) بالحقيقة كاملة. وفي الحقيقة، كان (بيلبو) في خطر شديد بالفعل من الوقوع تحت سحر التنين، لكنه تمالك نفسه واستجمع شجاعته وتحدث مرة أخرى وقال: "لست تعرف كل شيء يا (سموج) القوي، فليس الذهب وحده هو ما جاء بنا إلى هنا."

قال (سموج) ضاحكًا في انتصار: "تقر إذن بأنكم مجموعة. لمَ لا تقول إنكم أربعة عشر أيضًا وتنتهي يا صاحب الرقم المحظوظ؟ يسرني أن أسمع أن لكم أغراضًا أخرى في هذه الأنحاء بجانب ذهبي، ففي هذه الحالة ربما لا تضيعون وقتكم بالكامل. لا أدري إن كان قد خطر لكم أنه حتى لو استطعتم سرقة الذهب قطعة قطعة -الأمر الذي يتطلب مائة عام تقريبًا- فكيف ستنقلونه؟ هل من فائدة له على جانب الجبل؟ هل من فائدة له في الغابة؟ عجبًا! ألم تفكروا قط في الحصيلة النهائية؟ لابد أن الشروط كانت تنص على نسبة واحد إلى أربعة عشر من نسبة الربح الكلي أو ما شابه، أليس كذلك؟ لكن ماذا عن التسليم؟ ماذا عن أجرة النقل؟ ماذا عن الحرس

المسلحين والرسوم؟"

قال هذا وأطلق ضحكة ظافرة طويلة. كان يملك قلبًا ماكرًا شريرًا، وكان يعرف أن تخميناته لم تكن مجانبة كثيرًا للصواب، رغم أنه ظن أن رجال البحيرة هم العقل المخطط الرئيس وراء كل هذا، وأن معظم عمليات السرقة والنهب كان يتم التدبير لها في البلدة الواقعة عند الشاطئ التي كان اسمها (إسجاروث) في شبابه.

ربما لن تصدقوا هذا، لكن (بيلبو) كان مأخوذًا تمامًا ومصدومًا. حتى الآن كانت أفكاره وطاقاته كلها منصبة على الوصول إلى الجبل والعثور على المدخل السري. لم يتساءل قط ولو لمرة عن وسيلة نقل الكنز، ولم تراوده فكرة واحدة عن كيفية نقل حصته منه على طول الطريق الطويل إلى حفرته (باج إند) تحت التل. والآن بدأ شك من نوع جديد ينمو في عقله.

هل نسي الأقزام أيضًا تلك النقطة المهمة، أم أنهم كانوا يسخرون منه في سرهم طيلة الوقت؟

ذلك هو تأثير حديث التنانين على من لا يملك خبرة سابقة معها. كان من الضروري أن يظل (بيلبو) حذرًا، لكن (سموج) كان يملك شخصية كاسحة بالفعل. جاهد الهوبيت كي يظل مخلصًا لرفاقه ومسيطرًا على أعصابه، وقال: "أؤكد لك أن الذهب كان مجرد فكرة خطرت لنا مؤخرًا. لقد جئنا من فوق التلال وتحتها يحملنا الماء وتحملنا الرياح من أجل الانتقام. ألا تدرك يا (سموج) -الذي لا يدفع ضرائب عن ثروته- أن نجاحك قد كوّن لك أعداء قساة؟"

وعندها رددت الجدران ضحكة (سموج) الساخرة الطويلة؛ صوت كريه هز (بيلبو) حتى النخاع، بينما في النفق بالأعلى انكمش الأقزام على أنفسهم وتخيلوا أن الهوبيت قد لاقى نهاية مؤسفة.

أضاء ضوء عيني التنين القاعة من الأرض إلى السقف كبرق قرمزي، وقال في ازدراء: "الانتقام! ملك ما تحت الجبل مات، فأين نسله الآن ليسعى إلى الانتقام؟ (جيريون) حاكم (ديل) مات، والتهمتُ شعبه كذئب بين قطيع من الخراف، فأين أبناء أبنائه الذين يجرؤون على الاقتراب مني؟ إنني أقتل حيثما شئت، ولا يوجد من يمكنه مقاومتي. لقد أطحت بالمحاربين القدماء، ولم يعد من هم مثلهم في العالم اليوم؛ ووقتها كنت شابًا رقيقًا، أما اليوم فأنا عجوز قوي... قوي أيها اللص المختفي في الظلال."

ثم قال في غطرسة: "درعي أقوى عشرة مرات من الفولاذ، أسناني سيوف، مخالبي رماح، ضربة ذيلي صاعقة، جناحاي إعصار، وأنفاسي موت!"

قال (بيلبو) في صوت متحشرج: "لطالما تصورت أن التنانين أضعف من أسفل، بالذات في منطقة الـ... الصدر، لكن لابد أن واحدًا قويًا مثلك قد فكر في هذا."

توقف التنين عن تباهيه، وقال في عنف: "معلوماتك قديمة. إنني محصن من أعلى وأسفل بقشور حديدية وجواهر صلبة. لا يوجد نصل يمكنه اختراقي."

قال (بيلبو): "لعل تخميني كان خطأ. بالطبع لا يوجد مثيل لـ(سموج) المنيع. من الرائع أن تملك غطاءً للخصر مصنوعًا من الماس!"

قال التنين في سرور سخيف: "أجل، هو شيء نادر ورائع بالتأكيد."

لم يكن يعرف أن الهوبيت قد رأى لمحة من غطائه السفلي في زيارته السابقة، وكان الآن متلهفًا على إلقاء نظرة أقرب عليه لسبب ما.

انقلب التنين على ظهره وقال: "انظر! ما رأيك في هذا؟"

-"مدهش! رائع! عظيم!" صاح بها (بيلبو)، بينما كانت أفكاره تقول: "أحمق! الجزء الأيسر من صدره مكشوف كحلزون خارج قوقعته!"

وبعد أن رأى ذلك، كانت الفكرة الوحيدة في رأس السيد (باجنز) الآن هي الابتعاد سريعًا. هكذا قال: "حسن، لا يجدر بي تعطيلك أكثر من هذا أو حرمانك من الراحة. المهور تحتاج إلى الكثير من الجهد للإيقاع بها... وكذلك اللصوص!"

أضاف الجملة الأخيرة، واندفع عائدًا إلى النفق.

كان قولاً في غير محله بالمرة، فقد نفث التنين في الحال بلهب هائل خلفه؛ ورغم أنه انطلق بأقصى سرعة لديه صاعدًا المنحدر، فهو لم يبتعد كثيرًا بما يكفيه للشعور بالاطمئنان قبل أن يدفع (سموج) برأسه البشع في الفتحة خلفه. لحسن حظه لم يكن التنين يستطيع اعتصار رأسه وفكيه ليدخلهما في الفتحة، لكن فتحتا أنفه أطلقتا نارًا ودخانًا خلف الهوبيت كادا يلحقان به، وتعثر كالأعمى من فرط خوفه وألمه. كان مسرورًا بالبراعة التي أدار بها محادثته مع (سموج)، لكن هذا الخطأ الذي ارتكبه في النهاية رده إلى صوابه.

قال لنفسه: "إياك أن تسخر من تنين حي أبدًا أيها الأحمق!"

وأصبح هذا قوله المفضل فيما بعد، ولاحقًا تحول إلى مثل.

وأضاف: "أنت لم تقترب ولو قليلاً من نهاية هذه المغامرة بعد."

وكان ذلك صحيحًا تمامًا.

كان الأصيل يستحيل إلى مساء عندما خرج مرة أخرى، وسقط مصابًا بدوار شديد. أنعشه الأقزام وعالجوا حروقه السطحية قدر المستطاع، لكن الحقيقة أن وقتًا طويلاً قد مر قبل أن ينمو شعر مؤخرة رأسه أو كعبيه بصورة مناسبة من جديد، إذ كان محترقًا تمامًا حتى الجلد. في الوقت الحالي، بذل رفاقه قصارى جهدهم للتخفيف عنه، وكانوا يتحرقون شوقًا لسماع قصته ومعرفة السبب الذي دعا التنين لإصدار تلك الضجة المريعة على وجه التحديد وكيف استطاع (بيلبو) الفرار.

لكن الهوبيت كان قلقًا وغير مستريح، ولاقى الأقزام صعوبة في استخراج أي شيء منه. كان الآن نادمًا على بعض الأشياء التي قالها للتنين، ولم يكن يريد تكرارها. طائر السُّمنة العجوز كان جاثمًا على صخرة قريبة برأس منتصب ويصغي لكل ما يقال، وأظهر هذا الحالة المزاجية السيئة التي كان (بيلبو) فيها، فقد التقط حجرًا وقذفه ناحية الطائر الذي رفرف مبتعدًا ثم عاد سريعًا.

قال (بيلبو) في غيظ: "تبًا لهذا الطائر! أراهن أنه يتنصت علينا، وهيئته لا تورق لي على الإطلاق."

قال (ثورين): "دعه وشأنه. طيور السُّمنة مسالمة وودودة. هذا طائر عجوز للغاية، ولعله الأخير من سلالة قديمة كانت تعيش في هذه الأنحاء وقد روضتها يد أبي وجدي. كان جنسًا سحريًا طويل الحياة، وقد يكون هذا واحدًا من الطيور التي كانت حية وقتها منذ ما يربو على المائتي عام. كان بشر (ديل) يتمتعون بموهبة فهم لغة هذه الطيور، وكانوا يستخدمونها كرسل طائرة إلى رجال البحيرة وأماكن أخرى."

قال (بيلبو) في عصبية: "حسن، ستكون لديه أخبار يطير بها إلى بلدة البحيرة بالفعل إن كان ذلك هو غرضه، رغم أنني واثق بأنه لم يعد هناك ناس يزعجون أنفسهم بتعلم لغات الطيور."

صاح الأقزام: "ماذا حدث بحق السماء؟ قص علينا ما لديك!"

وهكذا أخبرهم (بيلبو) بكل ما استطاع تذكره، واعترف لهم بأن شعورًا بغيضًا انتابه بأن التنين قد خمن أكثر من اللازم من أحاجيه بالإضافة إلى الخيمات والمهور.

-"أنا واثق بأنه يعرف أننا جئنا من بلدة البحيرة، وأن مساعدة قد جاءتنا من هناك، ويراودني شعور مرعب بأن خطوته التالية قد تكون في ذلك الاتجاه. ليتني لم أذكر شيئًا عن ركوب البراميل. أي أرنب أعمى كان ليربط هذا برجال البحيرة."

قال (بالين) محاولاً طمأنته: "من العسير ألا ينزلق لسانك وأنت تتحدث إلى تنين كما

سمعت دائمًا، هذا صعب فعلاً. أظنك أبليت بلاءً حسنًا إن طلبت رأيي. لقد اكتشفت نقطة مفيدة في جميع الأحوال، وعدت حيًا، وهذا أكثر بكثير مما يحدث مع معظم من تحدثوا مع أمثال (سموج). قد تكون رحمة ونعمة أن نعرف بأمر الرقعة المكشوفة في درع الأفعى العجوز الماسي."

حوَّل هذا مسار المحادثة، وبدءوا جميعًا في مناقشة وقائع قتل التنانين من الناحية التاريخية والأسطورية والخرافية، والأنواع المختلفة من الطعنات والوخزات وقطع الأجزاء السفلية، والفنون والأدوات والحيل التي تم هذا بها. كان الرأي الشائع بينهم هو أن إدراك تنين وهو نائم ليس سهلاً كما يبدو، وأن نتيجة طعن واحد نائم تتساوى مع نتيجة هجوم مباشر واضح عليه؛ كلتاهما كارثيتان. طيلة حديثهم أصغى إليهم طائر السُّمنة حتى بدأت النجوم تظهر في السماء، وعندها فرد جناحيه في صمت وحلق مبتعدًا؛ وطيلة حديثهم وامتداد الظلال ازداد قلق (بيلبو) وتجهمه.

في النهاية قاطعهم قائلاً: "نحن غير آمنين هنا، ولا أرى فائدة من البقاء حيث نحن. لقد أحرق التنين كل الأخضر هنا، والليل جاء والجو يزداد برودة، وأشعر بأن هذا المكان سوف يهاجَم مرة أخرى. (سموج) يعرف الآن كيف استطعت النزول إلى قاعته، ويمكنكم الثقة بأنه سيعرف أين تقع نهاية النفق الأخرى. سوف يدمر هذا الجانب من الجبل إن لزم الأمر ليسد مدخلنا، وسيسره أن يحطمنا معه."

قال (ثورين): "أنت مكتئب للغاية يا سيد (باجنز). لماذا لم يغلق (ثورين) الطرف السفلي إذن إن كان تواقًا إلى منعنا من الدخول؟ هو لم يفعل ذلك، وإلا لكنا سمعناه."

-"لا أدري، لا أدري. لقد حاول في البداية إغوائي بالنزول مرة أخرى، ولعله الآن ينتظر بدء مطاردة جديدة الليلة، وربما لا يريد تحطيم غرفة نومه إن استطاع. أتمنى فقط ألا تجادلوني. سيخرج (سموج) في أي لحظة الآن، وأملنا الوحيد هو دخول النفق وإغلاق الباب."

بدا جادًا تمامًا، حتى إن الأقزام فعلوا كما قال، رغم أنهم أجلوا خطوة إغلاق الباب. بدت لهم خطة يائسة، فلا أحد فيهم كان يعرف إن كان سيمكنهم فتح الباب مرة أخرى من الداخل، وفكرة أن يُحبسوا في مكان المهرب الوحيد منه يقود إلى عرين التنين لم تكن محببة على الإطلاق، بالإضافة إلى أن كل شيء بدا لهم هادئًا بالخارج وفي داخل النفق. وهكذا جلسوا لفترة طويلة بالداخل في مكان غير قصي عن الباب نصف المفتوح، واستمروا في حديثهم.

كان الحديث الآن يدور حول كلمات التنين الشريرة عن الأقزام. كان (بيلبو) يتمنى لو أنه لم يسمعها قط، أو على الأقل أن يشعر بالثقة التامة بأن الأقزام كانوا صرحاء معه عندما أكدوا

أنهم لم يفكروا البتة فيما سيحدث بعد استردادهم للكنز.

قال (ثورين): "كنا نعرف أنها مغامرة يائسة، ولازلنا نعرف ذلك، ومازلت أحسب أنه سيكون هناك ما يكفي من الوقت للتفكير عندما نسترده. بالنسبة لحصتك يا سيد (باجنز)، فأنا أؤكد لك أننا في غاية الامتنان لك، وأنك ستختارها بنفسك بمجرد أن نضع يدنا على ما يمكن تقسيمه. أنا آسف إن كنت قلقًا بشأن عملية النقل، وأقر بأن صعوباتها كثيرة، فالأراضي لم تصبح أقل خطورة مع مرور الوقت، بل العكس؛ لكننا سنفعل أي شيء يمكننا فعله من أجلك، وسنتحمل معك الثمن عندما يحين الوقت. صدقني أو لا تصدقني، هذا من شأنك أنت."

ومن هذه النقطة تحول مسار الحديث إلى الكنز نفسه والأشياء التي تذكرها (ثورين) و(بالين) منه. تساءلوا إن كان كل شيء مازال يرقد سليمًا في القاعة بالأسفل: الرماح التي صُنعت لجيوش الملك (بلادورثين) -الذي كان ميتًا منذ زمن طويل الآن- كان رأس كل منها يبلغ ثلاثة أضعاف رأس الرمح العادي، وقصبة كل منها مرصعة بالذهب، لكنها لم تُسلَّم قط أو يُدفع ثمنها؛ دروع لمحاربين غادروا هذا العالم منذ عصور؛ كأس (ثرور) الذهبية العظيمة. هذه الأخيرة كانت ذات مقبضين ومطروقة ومزخرفة بطيور وزهور عيونها وبتلاتها من الجواهر. هذا بالإضافة إلى قمصان واقية مطلية بالذهب والفضة وغير قابلة للاختراق؛ وقلادة (جيريون) سيد (ديل) المصنوعة من خمسمائة زمردة خضراء كالعشب، والتي منحها لجيوش ابنه الأكبر مع قميص من الحلقات القزمية لم يُصنع مثله قبلها قط، فقد كان منسوجًا من الفضة الخالصة وأقوى من الفولاذ ثلاثة مرات. لكن أجمل ما في الكنز على الإطلاق كان الجوهرة البيضاء العظمى التي عثر عليها الأقزام تحت جذور الجبل. قلب الجبل كان اسمها، حجر (ثرين) الأركيني*.

غمغم (ثورين) في الظلام كالحالم وهو يسند ذقنه إلى ركبتيه: "الحجر الأركيني! كان ككرة ذات ألف وجه؛ يتألق كالفضة في ضوء النيران، كالماء في نور الشمس، كالثلج تحت النجوم، كالمطر فوق القمر."

لكن رغبة (بيلبو) السحرية في الكنز كانت قد غادرته. طيلة حديثهم كان يسمعهم بنصف عقل، وكان جالسًا بالقرب من الباب بأذن مرهفة تنتظر بداية أي صوت بالخارج، وأذنه الأخرى تبحث عن أي صدى وراء همس الأقزام، عن أي صوت لحركة بالأسفل. تعمقت الظلمة

* الحجر الأركيني Arkenstone إرث ملوك قوم (دورين)، ويعني حرفيًا (الحجر المقدس). كلمة Arken مشتقة من الكلمة الإنجليزية القديمة Eorcan بمعنى (مقدس). قد يبدو هذا اشتقاقًا غريبًا. فرغم جماله وأهميته الفائقة للأقزام، يصعب الزعم أن الحجر الأركيني كان مقدسًا عند الأقزام؛ والأرجح أنه اكتسب اسمه من كلمة Eorclanstánas الإنجليزية القديمة بمعنى (الأحجار المقدسة).

أكثر فأكثر، وتنامى توتره.

قال لهم متوسلاً: "أغلقوا الباب! إنني أخشى هذا التنين حتى النخاع، وهذا الصمت يخيفني أكثر من ضجة ليلة أمس. أغلقوا الباب قبل فوات الأوان!"

الطريقة التي قالها بها أثارت توتر الأقزام. نفض (ثورين) أحلامه، ونهض راكلاً الحجر المثبت بين الباب وإطاره، وبعدها دفعوه بأكتافهم حتى انغلق بصوت مكتوم، ولم يتبق أثر لثقب مفتاح من الداخل.

هكذا أصبحوا محتجَزين داخل الجبل!

ولم يأت احتجازهم مبكرًا لحظة واحدة...

لم يكونوا قد ابتعدوا لمسافة معقولة داخل النفق عندما هوت ضربة على جانب الجبل كأنها كرة مصنوعة من سنديان الغابة سددها مارد بكل ما لديه من قوة. ارتجفت الصخور وتشققت الجدران وسقطت أحجار السقف فوق رؤوسهم، وأؤكد لكم أنني لا أحبذ أن أتخيل ما كان يمكن أن يحدث إن كان الباب مازال مفتوحًا. اندفعوا يهبطون النفق إلى أسفل وهم يشعرون بالسعادة لكونهم على قيد الحياة، بينما سمعوا خلفهم بالخارج صوت غضبة (سموج) الكاسحة. كان يحطم الصخور إلى قطع صغيرة، ويهدم الجدران والجروف بضربات من ذيله الضخم إلى أن استحال مخيمهم والعشب المحترق وحجر السُمنة والإفريز الضيق وكل شيء آخر إلى فتات منثور، وانهارت الصخور الممزقة من الجرف في الوادي بالأسفل.

(سموج) تسلل خارجًا من عرينه في صمت، وفي الهواء ارتفع في هدوء، ثم حلق بثقل وبطء في الظلمة كغراب وحشي تجاه الجانب الغربي من الجبل وهو يأمل أن يهاجم شيئًا أو شخصًا هناك على حين غرة، وأن يكشف مخرج الممر الذي استخدمه اللص. كان هذا هو نتاج تفجر ثورته عندما لم يجد أحدًا أو يسمع شيئًا، رغم أنه خمن المكان الذي لابد وأن يكون المخرج فيه.

وبعد أن أخرج غضبه بهذه الطريقة، شعر بالتحسن، واطمأن في قلبه إلى أن إزعاجًا لن يأتيه من ذلك الجانب بعد الآن. أما في الوقت الحالي، فقد كان أمامه عمل انتقامي آخر.

قال لنفسه حانقًا: "راكب البرميل! قدماك جاءتا من عند الشاطئ، ومن الماء جئت من دون شك. لست أعرف رائحتك، لكن إن لم تكن أحد رجال البحيرة، فقد نلت عونهم. الآن سيرونني ويتذكرون من هو ملك ما تحت الجبل الحقيقي."

وارتفع بين نيرانه المضطرمة، وحلق متجهًا إلى الجنوب ناحية النهر المتدفق.



الفصل الثالث عشر

ليس هناك

في هذا الوقت كان الأقزام جالسين في الظلام وقد ران عليهم الصمت التام. لم يأكلوا أو يتحدثوا إلا قليلاً، ولم يستطيعوا حسبان الوقت المار. نادرًا ما جرؤوا على الحركة، فقد كان لهمساتهم صدى في النفق. إن غفوا، كانوا يستيقظون على ظلمة حالكة وصمت سرمدي. وأخيرًا بعد أيام وأيام من الانتظار -كما بدا لهم- بعد أن أصابهم الاختناق والدوار من قلة الهواء النقي، لم يعد في مقدورهم الاحتمال أكثر.

كانوا ليرحبون بأصوات التنين بالأسفل، أما هذا الصمت التام فكان نذيرًا مستمرًا بحيلة شيطانية يدبر لها هذا في سكون، ولم يستطيعوا الجلوس حيث هم إلى الأبد.

قال (ثورين): "دعونا نجرب الباب. يجب أن أشعر بالرياح على وجهي وإلا سأموت. خير لي أن يسحقني (سموج) في مكان مفتوح على أن أختنق هنا!"

وهكذا نهض معظم الأقزام، وتحسسوا طريقهم إلى المكان الذي كان فيه الباب، لكنهم وجدوا أن طرف النفق الأعلى قد تحطم وسُد بصخرة مكسورة. لم يعد ممكنًا أن ينفتح الباب بمفتاح أو حتى بالسحر الذي أطاعه من قبل.

قالوا في يأس: "لقد حُبسنا. إنها النهاية. سنموت هنا."

لكن بطريقة ما، وعندما تمكن اليأس أخيرًا من قلوب الأقزام، شعر (بيلبو) بخفة غريبة في قلبه، كأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عنه.

قال في حماسة عجيبة: "تعالوا! كان أبي يقول إن هناك أمل طالما هناك حياة، والثالثة ثابتة. سأنزل في النفق مرة أخرى. لقد عبرت ذلك الطريق مرتين وأنا أعرف أن هناك تنينًا قابعًا عند نهايته، وسأجازف بزيارة ثالثة بعد أن لم يعد هذا مؤكدًا الآن. الطريق الوحيد للخروج يقود إلى أسفل في جميع الأحوال، ومن الأفضل أن تأتوا معي جميعًا هذه المرة."

وافقوا في قنوط، وكان (ثورين) هو أول من تقدم إلى الأمام بجانب (بيلبو).

همس الهوبيت: "والآن توخوا الحذر الشديد، وتحركوا في هدوء تام. قد يكون (سموج) موجودًا وقد لا يكون، فلا داعي لمخاطرات غير ضرورية."

وهكذا بدءوا في النزول إلى أسفل. بالطبع لم تكن مقارنة براعة الأقزام بالهوبيت في التسلل ممكنة، وصدرت عنهم أصوات تخبط وزمجرة ضخمتها أصداء النفق على نحو مقلق. لكن رغم أن (بيلبو) كان يتوقف من حين إلى آخر ويصغي، لم يبدر أي صوت من أسفل. وضع (بيلبو) خاتمه بالقرب من قاع النفق وتقدم إلى الأمام، لكنه لم يكن بحاجة إليه في الواقع. كان الظلام دامسًا، وكانوا جميعًا مختفين بخاتم أو من دون خاتم. في الحقيقة، كان الأسود سائدًا لدرجة أن الهوبيت وصل إلى الفتحة من دون أن يدري، وقبضت يده على الهواء، وانكفأ إلى الأمام، وسقط في القاعة مباشرة!

تمدد ورأسه يواجه الأرض، ولم يجرؤ على النهوض أو حتى التقاط أنفاسه، لكن شيئًا لم يتحرك. لم يكن هناك بصيص واحد لضوء سوى... عندما رفع رأسه أخيرًا ببطء، بدا له أن هناك بريق أبيض شاحب فوقه، لكنه بعيد للغاية وسط العتمة. إلا أنه لم يكن وهجًا لنيران التنين بالتأكيد، رغم أن رائحة الأفعى النتنة كانت تفعم المكان، ومذاق أبخرتها كان على لسانه.

ثم لم يستطع السيد (باجنز) الاحتمال أكثر من هذا...

صرخ بأعلى صوته: "سُحقًا لك يا (سموج) أيها الأفعى! كف عن لعب الأستغماية هذه! امنحني ضوءًا، ثم التهمني إن استطعت الإمساك بي!"

ترددت أصداء خافتة في أنحاء القاعة المتوارية في الظلمة، لكن لم تأت إجابة. نهض (بيلبو)، واكتشف أنه لا يعرف في أي اتجاه يذهب.

غمغم: "أتساءل ما الذي يفعله (سموج) بالضبط. هو ليس هنا اليوم -أو الليلة أو أيًا كان الوقت- كما أحسب. لو لم يفقد (أوين) و(جلوين) علب الصوفان، فربما يمكننا إشعال ضوء صغير والقاء نظرة قبل دوران عجلة الحظ."

ثم صاح: "ضوء! هل يمكنكم إشعال ضوء؟"

طبعًا كان الأقزام قد أصيبوا بفزع شديد عندما سقط (بيلبو) واصطدم بأرض القاعة بصوت واضح، وجلسوا منكمشين حيث تركهم عند نهاية النفق.

صدر عنهم هسيس عندما سمعوا صوته، ورغم أن ذلك ساعد الهوبيت على معرفة مكانهم، فقد مضى بعض الوقت قبل أن يستطيع الحصول على أي شيء آخر منهم. لكن في النهاية، عندما بدأ (بيلبو) في الدق على الأرض بقدميه ويصيح طالبًا الضوء بصوته الحاد الرفيع، استسلم (ثورين)، وأرسل بـ(أوين) و(جلوين) إلى حزمهم المكومة عند الطرف الآخر من النفق.

مر بعض الوقت قبل أن يُظهرهما ضوء متلألئ وهما عائدان؛ (أوين) بمشعل مخروطي صغير في يده، و(جلوين) بكومة من المشاعل الأخرى تحت ذراعه. هرول (بيلبو) بسرعة إلى الباب وأخذ المشعل، لكنه لم يستطع إقناع الأقزام بإشعال المشاعل الأخرى والانضمام إليه بعد. وكما شرح (ثورين) في حذر، كان السيد (باجنز) مازال محققهم ولصهم المحترف، وإن أراد المخاطرة بإشعال ضوء، فهذا شأنه وحده. أما هم، فسوف ينتظرون تقريره في النفق، وهكذا جلسوا بالقرب من الباب وراقبوا.

رأوا شبح الهوبيت الصغير يتحرك عبر الأرضية حاملاً المشعل إلى أعلى. من حين إلى آخر، عندما كان لازال قريبًا منهم، كانوا يرون وميضًا ويسمعون رنينًا مع تعثره بشيء ذهبي ما على الأرض. خفت الضوء مع ابتعاده في القاعة الواسعة، ثم بدأ يتصاعد وهو يتراقص في الهواء. كان (بيلبو) عندها يتسلق كومة الكنز الهائلة، وسرعان ما بلغ القمة، واستمر في التحرك. ثم رأوه يتوقف وينحني للحظة، لكنهم لم يعرفوا السبب.

كان الحجر الأركيني، قلب الجبل. هكذا خمن (بيلبو) من وصف (ثورين) له، وبالتأكيد

لا يمكن أن تكون هناك جوهرتان بهذا الشكل حتى في كنز مذهل كهذا، بل حتى في العالم كله. مع تسلقه المستمر، كان ذات الضوء الأبيض يتوهج أمامه ويجذب قدميه ناحيته، وببطء استحال إلى كرة صغيرة من الضوء الشاحب. والآن مع اقتراب (بيلبو)، كانت الجوهرة مشبعة بتألُّق ألوان شتى على سطحها انعكست وتشتتت هنا وهناك في ضوء المشعل المتذبذب. ثم تطلع إلى الجوهرة وحبس أنفاسه. تألقت الجوهرة الرائعة أمام قدميه بضوئها الداخلي، ومع ذلك، وقد نحتها وصممها الأقزام الذين استخرجوها من قلب الجبل منذ عصور، امتصت كل الضوء الذي سقط عليها، وحولته إلى عشرة آلاف شرارة تتألق بألوان قوس قزح.

امتدت ذراع (بيلبو) فجأة نحو الجوهرة وقد جذبته فتنتها. لم تستطع كفه الصغيرة الانغلاق حولها، فقد كانت جوهرة ثقيلة كبيرة، لكنه رفعها وأغلق عينيه، ووضعها في جيبه الداخلي.

قال لنفسه: "الآن أصبحت لصًّا بالفعل! ربما عليَّ إخبار الأقزام بأمر هذه الجوهرة في وقت ما. قالوا إنني أستطيع اختيار حصتي بنفسي، وأظن أنني سأختار هذه حتى لو أخذوا باقي الكنز كله."

ومع ذلك، راوده شعور غير مريح بأن الاختيار لم يكن ليتضمن تلك الجوهرة الخلابة، وأن المتاعب ستترتب على اختياره هذا.

تحرك من جديد، وهبط من الجانب الآخر للكومة الضخمة، وتوارى ضوء مشعله عن أعين الأقزام المراقبة، لكنهم سرعان ما رأوه بعيدًا مرة أخرى، وكان (بيلبو) يعبر أرضية القاعة في هذه اللحظة. استمر في طريقه حتى وصل إلى الأبواب الكبيرة على الجانب الآخر، وهناك شعر بنفحة من الهواء تبث فيه بعض الانتعاش، لكنها كادت تطفئ المشعل في الوقت ذاته. اختلس النظر في خوف، ورأى لمحة من ممرات ضخمة وبداية درجات واسعة تصعد لتختفي في الظلام، وحتى الآن لم يكن هناك أي أثر لوجود (سموج). كان (بيلبو) يلتفت ليعود عندما انقض عليه شيء أسود واحتك بوجهه، وعندها صرخ وقد فقد أعصابه بغتة، وتعثر إلى الخلف وسقط، وسقط المشعل معه وانطفأ.

قال الهوبيت في تعاسة: "أظنه مجرد وطواط، أو آمل أنه كذلك. ماذا أفعل الآن؟ أين الشرق أو الجنوب؟ أين الشمال أو الغرب؟"

ثم صاح بأعلى صوت يمكن أن يخرج من حنجرته المرتجفة: "(ثورين)! (بالين)! (أوين)! (جلوين)! (فيلي)! (كيلي)! لقد انطفأ المشعل! فليأت أحدكم ويساعدني!"

كانت شجاعته قد انهارت تمامًا.

سمع الأقزام صرخاته التي بدت لهم خافتة من بعيد، والكلمة الوحيدة التي استطاعوا تمييزها كانت (يساعدني).

قال (ثورين): "ماذا حدث هذه المرة بحق السماء؟ إنه ليس التنين بالتأكيد، وإلا لما كان صراخه استمر."

انتظروا قليلاً، ولم يسمعوا أي صوت يدل على وجود التنين، فقال (ثورين) آمرًا: "فليشعل أحدكم أو بعضكم ضوءًا. يبدو أن علينا الذهاب ومساعدة لصنا."

قال (بالين): "إنه دورنا لنساعده، وأنا مستعد تمامًا للذهاب. يبدو المكان آمنًا في الوقت الحالي على كل حال."

أشعل (جلوين) المزيد من المشاعل، ثم زحفوا جميعًا خارجين من النفق واحدًا بعد الآخر، وتحركوا بمحاذاة حائط القاعة بأسرع ما أمكنهم. لم يمض وقت طويل حتى لاقوا (بيلبو) نفسه عائدًا صوبهم، فقد عادت إليه أعصابه التالفة بمجرد أن رأى ضوء مشاعلهم.

قال مجيبًا على أسئلتهم الملهوفة: "مجرد وطواط ومشعل مطفأ، لا شيء أسوأ."

لك أن تتوقع أنه رغم أنهم تنفسوا الصعداء، إلا أنهم تذمروا من أجل إخافتهم بهذه الصورة من أجل لا شيء، لكنني لا أدري في الحقيقة ما الذي كان يمكن أن يقولوه في تلك اللحظة إن كان قد أخبرهم بأمر الحجر الأركيني. اللمحات العابرة التي رأوها وهم يمرون أشعلت نيران الشهوة في قلوبهم القزمية؛ وعندما يُستثار قلب قزم –حتى الأكثر احترامًا بينهم– ببريق الذهب والمجوهرات، يصبح صاحبنا هذا وقحًا، وربما يتصرف بعنف.

لم يكن الأقزام بالطبع بحاجة إلى المزيد من الجدل. كلهم كان متلهفًا الآن على استكشاف القاعة والفرصة لازالت سانحة، وكلهم كان مستعدًا في هذه اللحظة لتصديق أن (سموج) ليس هناك. قبض كل منهم على مشعل مشتعل، ومع نظرهم من جانب إلى جانب، نسوا الخوف وواجب الحذر. تحدثوا بصوت مرتفع، وصاحوا لبعضهم البعض عاليًا وهم يلتقطون الكنوز القديمة من الكومة الضخمة أو من على الحائط ويرفعونها في الضوء ويربتون عليها ويتحسسونها.

كان (فيلي) و(كيلي) في مزاج شبه مرح، ومع عثورهما على قيثارات ذهبية كثيرة مزودة بأوتار فضية، أخذوها وضربوا عليها. ولأنها قيثارات سحرية –وأيضًا لم يمسها التنين الذي لم يكن يهوى الموسيقى– فقد كانت لازالت مضبوطة النغمات. امتلأت القاعة المظلمة بأنغام لم تتردد فيها منذ ردح من الزمن، لكن معظم الأقزام كانوا عمليين كما هي عادتهم. أخذوا يجمعون

الجواهر ويحشون جيوبهم بها، وتركوا كل ما لم يستطيعوا حمله منها يسقط مرة أخرى وهم يتنهدون في حسرة. لم يكن (ثورين) أقل حماسة منهم، لكنه كان يبحث هنا وهناك عن شيء واحد لم يستطع العثور عليه. كان يبحث عن الحجر الأركيني بالطبع، لكنه لم يخبرهم بذلك.

التقط الأقزام ثيابًا حربية وأسلحة معلقة على الجدران وسلحوا أنفسهم، وبدا (ثورين) ملكيًّا مهيبًا بالفعل وهو يرتدي معطفًا من الحلقات الذهبية المصقولة ويحمل بلطة فضية المقبض في حزام محلى بأحجار كريمة قرمزية اللون.

صاح (ثورين): "سيد (باجنز)، ها هي الدفعة الأولى من مكافأتك! تخلص من قميصك القديم وارتد هذه!"

ووضع حول كتفي (بيلبو) سترة واقية صغيرة كانت منسوجة لأمير إلفي شاب منذ زمن طويل. كانت من الفولاذ الفضي الذي يسميه الإلفيون بالميثريل*، ومعها كان حزام من اللؤلؤ والبلور النقي. ووُضعت على رأس الهوبيت خوذة خفيفة من الجلد المدبوغ مدعمة من الأسفل بأطواق من الفولاذ ومزينة حول الحافة بجواهر بيضاء.

قال (بيلبو) لنفسه: "أشعر بأنني رائع، لكنني أتوقع أنني أبدو سخيفًا. لابد أنهم سيسخرون مني في الوطن إن رأوني هكذا! أتمنى لو كانت هناك مرآة هنا رغم ذلك!"

لكن السيد (باجنز) حافظ على رباطة جأشه وقاوم افتتانه بالكنز أكثر من الأقزام. قبل مضي وقت طويل على تعب الأقزام من فحص الكنز، شعر هو بالسأم، وجلس على الأرض، وبدأ يتساءل في عصبية عن نهاية كل هذا، وغمغم: "يمكنني التنازل عن هذه الكؤوس الثمينة كلها مقابل شراب منعش من أحد آنية (بيورن) الخشبية!"

ثم صاح بصوت أعلى: "(ثورين)! والآن ماذا؟ نحن مسلحون، لكن هل كان لأي سلاح فائدة من قبل ضد (سموج) المرعب؟ نحن لم نسترد هذا الكنز بعد، فنحن لا نبحث عن الذهب الآن، بل عن طريق للفرار، ولقد اختبرنا حظنا أكثر من اللازم."

قال (ثورين) مستعيدًا حصافته: "حقًا تقول. هيا بنا، سأقودكم. لا يمكنني نسيان طرقات هذا القصر ولو بعد ألف عام."

ثم نادى على الآخرين، واحتشدوا معًا. رفعوا مشاعلهم فوق الرؤوس، وعبروا من الأبواب

---

* اسم الميثريل Mithril يأتي من جذرين إلفيين: Mith بمعنى (ضباب)، وRil بمعنى (تألق). هكذا يكون المعنى الحرفي للكلمة هو (الضباب المتألق).

المنفرجة غير ناسين أن يلقوا بنظرة حنين إلى الخلف بين اللحظة والأخرى.

كانوا قد غطوا ستراتهم الواقية بعباءاتهم القديمة، وأسدلوا القلنسوات البالية على خوذاتهم اللامعة، وساروا واحدًا بعد الآخر وراء (ثورين)؛ صف من الأضواء الصغيرة يتحرك في الظلمة وكثيرًا ما يتوقف ويصغي في خوف لأي صوت ينبئ بعودة التنين.

رغم أن كل الزخارف كانت بالية أو محطمة، ورغم أن كل شيء كان ملوثًا فاسدًا بفعل ذهاب وإياب الوحش المستمر، كان (ثورين) يعرف كل ممر وكل منعطف. صعدوا درجات طويلة، ثم انعطفوا وهبطوا في طرق واسعة ذات أصداء، ثم انعطفوا مرة أخرى وصعدوا المزيد من الدرجات، ثم المزيد والمزيد منها. كانت درجات ملساء محفورة في الصخر الحي، وإلى أعلى صعد الأقزام والهوبيت من دون أن يلقوا أي كائن حي؛ فقط ظلال ماكرة لاذت بالفرار مع اقتراب ضوء المشاعل المتذبذب.

لكن الدرجات لم تكن مصنوعة لقدمي الهوبيت، وكان (بيلبو) يشعر بأنه لا يستطيع الاستمرار أكثر عندما ارتفع السقف فجأة عاليًا بعيدًا عن مجال إضاءة المشاعل. استطاعوا رؤية وهج أبيض يأتي عبر فتحة عالية ما بالأعلى، وأصبح الهواء أكثر نقاءً. من أمامهم جاء ضوء عبر أبواب ضخمة ظلت معلقة على مفصلاتها الملتوية ونصف المحترقة.

قال (ثورين): "هذه قاعة (ثرور) العظمى، قاعة الولائم والمستشارية. البوابة الأمامية ليست بعيدة عن هنا."

مروا عبر القاعة الخربة، وكانت الموائد تتعفن هناك، والمقاعد والأرائك ملقاة مقلوبة ومتفحمة؛ الجماجم والعظام متناثرة بين الآنية والأباريق وقرون الشراب المكسورة والغبار. مع عبورهم خلال المزيد من الأبواب في الطرف الآخر، تناهى إلى مسامعهم صوت ماء يجري، وتزايد الضوء الرمادي.

قال (ثورين): "هنا يولد النهر المتدفق، ومن هنا يُسرع إلى البوابة الأمامية. دعونا نتبعه."

من فتحة مظلمة في حائط صخري انبثق ماء هائج، وتدفق ملتفًا في دوامات في قناة ضيقة محفورة عميقًا بشكل مستقيم بحرفية الأيادي القديمة. بجوارها امتد طريق مرصوف بالأحجار يتسع بما يكفي ليسير فيه كثيرون جنبًا إلى جنب. تحركوا بسرعة عبر هذا الطريق، واتخذوا منعطفًا واسعًا، وإذا بهم يصلون إلى ضوء النهار الصافي. أمامهم ارتفعت قنطرة طويلة لازالت الزخارف القديمة واضحة فيها، وإن كان معظمها مسودًّا الآن. بعثت الشمس الغائبة وراء

السحب بضوئها الشاحب بين ذراعي الجبل، وسقطت أشعة ذهبية على عتبة البوابة الأمامية المرصوفة.

حلقت دوامة من الخفافيش التي أيقظتها المشاعل من نومها فوقهم في اضطراب، ومع اندفاعهم إلى الأمام انزلقت أقدامهم على الأحجار الملوثة بالوحل من قدمي التنين. والآن كانت المياه تسقط بضجة عالية إلى الخارج وتزبد متجهة صوب الوادي. ألقوا بمشاعلهم على الأرض، ووقفوا ينظرون إلى الخارج بعيون مبهورة.

لقد وصلوا إلى البوابة الأمامية، ويتطلعون الآن إلى وادي (ديل).

قال (بيلبو): "حسن! لم أتوقع قط أن أنظر من هذا الباب، ولم أتوقع قط أن أسعد برؤيتي للشمس مرة أخرى والشعور بالرياح على وجهي. لكن آه! تلك الرياح باردة جدًا!"

كانت كذلك بالفعل. الهواء الشرقي البارد كان يهب منذرًا بدنو الشتاء؛ يدور في دوامات حول الجبل ويتنهد بين الصخور، وبعد الوقت الطويل الذي قضوه في أعماق الكهوف الحارَّة التي يحتلها التنين، كانوا يرتجفون الآن في الشمس.

اكتشف (بيلبو) فجأة أنه لم يكن متعبًا فحسب، بل يتضور جوعًا كذلك.

قال: "يبدو أننا في نهاية الصباح، وهذا على الأرجح هو وقت تناول الإفطار، هذا إن كان هناك أي إفطار يمكن تناوله، لكنني لا أشعر بأن عتبة بوابة (سموج) الأمامية هي المكان الأمثل لتناول الوجبة في جميع الأحوال. فلنذهب إلى مكان نستطيع الجلوس فيه بهدوء لبعض الوقت."

قال (بالين): "هذا صحيح. أظنني أعرف إلى أين يجب أن نذهب. يجدر بنا أن نتجه إلى نقطة المراقبة القديمة في الجانب جنوب الغربي للجبل."

سأله الهوبيت: "وكم يبعد ذلك المكان؟"

-"مسيرة خمس ساعات تقريبًا. ستكون مسيرة صعبة، فالطرق الممتدة من البوابة عبر حافة المجرى اليسرى تبدو كلها محطمة. لكن انظروا هناك. النهر يتجه شرقًا مكونًا حلقة حول (ديل) أمام البلدة المتهدمة. كان هناك جسر في هذا المكان من قبل يقود إلى درجات مرتفعة تصعد الضفة اليمنى، ومنها إلى طريق يتجه إلى تل (رافينهيل). هناك -أو كان هناك- طريق فرعي يترك الطريق الرئيس ويصعد إلى نقطة المراقبة. هذا أيضًا تسلُّق صعب حتى لو كانت الدرجات سليمة."

صاح الهوبيت متذمرًا: تبًا! المزيد من السير والتسلق من دون إفطار! أتساءل كم وجبة

إفطار ووجبات أخرى فاتتنا في تلك الحفرة اللعينة التي يتوقف فيها الزمن!"

في واقع الأمر، كانت ليلتان ويوم هم كل ما مر عليهم بالداخل، ولم يمض الوقت بأكمله من دون طعام إن شئنا تحري الإنصاف منذ حطم التنين الباب المسحور، لكن مرور ليلة واحدة أو أسبوع كامل سيان بالنسبة له.

قال (ثورين) ضاحكًا وهو يعبث بالأحجار الثمينة في جيبه وقد بدأ يستعيد معنوياته: "تعال، تعال! لا تنعت قصري بالحفرة اللعينة. انتظر فقط حتى يتم تنظيفه وترميمه وسترى!"

قال (بيلبو) في كآبة: "لن يحدث ذلك قبل موت (سموج). وأين هو الآن؟ يمكنني التنازل عن وجبة إفطار شهية مقابل أن أعرف. أتمنى أنه ليس جالسًا على قمة الجبل الآن يتطلع إلينا من أعلى!"

أزعجت الفكرة الأقزام بشدة، وقرروا بسرعة أن (بيلبو) و(بالين) على حق.

قال (دوري): "يجب أن نبتعد عن هنا. أشعر كأن عينيه مسلطتان على مؤخرة عنقي!"

وقال (بومبر): "إنه مكان بارد موحش. قد يكون هناك شراب، لكنني لا أرى ما يدل على وجود أي طعام، ولابد أن التنين يشعر بالجوع المزمن في هذه الأنحاء."

صاح الآخرون: "هيا بنا، فلنتبع طريق (بالين)!"

لم يكن هناك طريق تحت الحائط الصخري إلى اليمين، وهكذا مشوا مجهدين بين الأحجار والصخور على الجانب الأيمن من النهر، وجعل الفراغ والإقفار الجميع يثوبون إلى رشدهم من جديد، بما فيهم (ثورين). وجدوا أن الجسر الذي ذكره (بالين) قد سقط منذ وقت طويل، وأضحت معظم أحجاره الآن مجرد جلاميد ساقطة في المجرى الثائر الضحل، لكنهم خاضوا في الماء من دون مشقة، وعثروا على الدرجات العتيقة، وتسلقوا الضفة العالية. بعد مسيرة قصيرة بلغوا الطريق القديم، وقبل مضي وقت طويل وصلوا إلى واد صغير عميق تحميه الصخور، واستراحوا هناك لبعض الوقت، وتناولوا شيئًا من طعام الإفطار، يتكون أغلبه من الكرام والماء. والآن، إن كنتم تريدون معرفة ماهية هذا الكرام، فلا يمكنني أن أقول سوى إنني لا أعرف الوصفة، لكنه نوع من الطعام يشبه البسكويت يبقى صالحًا للأكل لفترة طويلة، ومن المفترض أن يكون مغذيًا، لكن التلذذ بالتهامه ليس ضروريًّا، فهو في الأساس يُستخدم كحلوى تُمضغ كالعلكة، وقد صنعه رجال البحيرة من أجل الرحلات الطويلة.

تحركوا من جديد بعد هذه الوجبة غير الممتعة، واتجه الطريق الآن غربًا مبتعدًا عن

النهر، واقترب منكب الكتلة الجنوبية للجبل منهم، وفي النهاية بلغوا طريق التل. كان يصعد إلى أعلى بانحدار حاد، وتهادوا صاعين إياه واحدًا وراء الآخر حتى وصلوا مع نهاية الأصيل إلى قمة الإفريز، ورأوا الشمس الشتوية تنخفض في الغرب.

عثروا هناك على مساحة مسطحة بلا جدران من ثلاثة جوانب، لكنها مدعمة من الشمال بجدار صخري توجد فيه فتحة كالباب، ومن ذلك الباب كان هناك مشهد واسع يطل على الشرق والجنوب والغرب.

قال (بالين): "هنا في الأيام القديمة كنا نضع حراسة دائمة، وهذا الباب في الخلف يقود إلى غرفة محفورة في الصخر كنا نستخدمها كغرفة للحرس. كانت هناك أماكن كثيرة مشابهة حول الجبل، لكن المراقبة والحراسة بدت غير ذات أهمية كبيرة في أيام قوتنا وازدهارنا، وأصيب الحرس بلعنة الراحة والكسل. ربما إن لم يحدث ذلك، لكان التحذير من مجيء التنين وصلنا في وقت أقرب، ولربما كانت الأوضاع مختلفة الآن. على كل حال، هنا يمكننا التواري والشعور بالأمان لبعض الوقت، ويمكننا أن نرى الكثير من دون أن يرانا أحد."

-"لا فائدة من ذلك إن رآنا أحد بالفعل ونحن آتون إلى هنا." قالها (دوري) الذي كان يتطلع دائمًا إلى قمة الجبل كأنه يتوقع أن يرى (سموج) جاثمًا هناك كطائر فوق برج.

قال (ثورين): "يجب أن نخاطر، فلا يمكننا التقدم خطوة واحدة اليوم."

-"رائع!" صاح بها (بيلبو)، وألقى بنفسه على الأرض.

كانت الغرفة الحجرية تتسع لمائة فرد، وكانت هناك غرفة أخرى أصغر بالداخل محمية أكثر من البرد الآتي من الخارج. كان المكان مهجورًا تمامًا، وكان باديًا أن لا حيوان أليف أو بري قد استخدمه طيلة سنين سيادة (سموج). هناك وضعوا أحمالهم، وألقى بعضهم بنفسه أرضًا كـ(بيلبو)، وراح في نوم عميق في الحال، لكن الآخرين جلسوا بالقرب من الباب الخارجي وناقشوا خططهم.

كان حديثهم كله يعود دائمًا إلى النقطة ذاتها: أين (سموج)؟

نظروا غربًا، ولم يكن هناك شيء. نظروا شرقًا، ولم يكن هناك شيء. في الجنوب لم يكن هناك أثر للتنين، لكن كان هناك احتشاد لمئات ومئات من الطيور. نظروا إليها متسائلين، لكنهم لم يفهموا لتجمعها هذا مغزى قط حتى كشفت السماء عن نجومها الباردة.



الفصل الرابع عشر

الماء والنار

والآن إن كنتم -كما الأقزام- ترغبون في معرفة أخبار (سموج)، فيجب علينا العودة معًا إلى الليلة التي حطم فيها الباب المسحور، وحلّق بعيدًا في ثورة منذ يومين فاتا.

كان معظم سكان بلدة البحيرة (إسجاروث) داخل بيوتهم، فالهواء كان يهب باردًا من الشرق الأسود، لكن بعضهم كان يتجول على أرصفة الميناء، ويراقب النجوم تتألق على سطح البحيرة كما هي هوايتهم المفضلة.

كانت معظم كتلة الجبل الوحيد محجوبة عن بلدتهم عند طرف البحيرة البعيد بسلسلة من التلال المنخفضة يأتي النهر المتدفق من الشمال عبر ثغرة فيها، ولم يكونوا يستطيعون رؤية

أي شيء منه سوى قمته العالية من بعيد عندما يكون الطقس صحوًا، ولم يكونوا ينظرون إليها إلا نادرًا، فقد كانت دائمًا ما تبدو لهم مقبضة كريهة حتى في ضوء النهار؛ والآن كانت غائبة في الظلمة.

وفجأة توهجت القمة، وبدت ظاهرة للعيان عندما مسها وهج عابر قبل أن يختفي.

قال أحد الرجال: "انظروا! إنها الأضواء من جديد. ليلة أمس رآها الحرس تشتعل وتنطفئ من منتصف الليل وحتى الفجر. شيء ما يحدث هناك."

قال آخر: "لعله ملك ما تحت الجبل يصوغ الذهب. لقد مضى وقت طويل منذ أن ذهب إلى الشمال، وحان الوقت لأن تُثبت الأغاني صحتها."

قال ثالث ذو صوت متجهم: "أي ملك؟ إنها على الأرجح نيران التنين، الملك الوحيد الذي عرفناه تحت الجبل."

قال الآخرون: "دائمًا تتنبأ بأشياء كئيبة يا (بارد)! أي شيء من الفيضانات إلى السمك المسموم. فكر في شيء مبهج بحق السماء!"

لكن فجأة ظهر ضوء عظيم في النواحي الدنيا من التلال، واستحال لون الطرف البعيد للبحيرة ذهبيًا، وعندها صاح الرجال: "إنه ملك ما تحت الجبل! ثروته عظيمة كالشمس، فضته كالنافورة، ويتدفق من عنده الذهب بلا حساب! النهر يجري ذهبيًا من الجبل!"

انتقل صياحهم من مكان إلى مكان، وانفتحت النوافذ في كل بيت، وهرول القوم هنا وهناك. ساد حماس وإثارة ليس لهما مثيل مجددًا، لكن الرجل ذا الصوت المتجهم هرع في سرعة إلى الحاكم هاتفًا: "التنين قادم لا محالة! اقطعوا الجسر! إلى الأسلحة! إلى الأسلحة!"

وعندها قُرعت أجراس الإنذار، ودوت أصوات الأبواق المحذرة بين صخور الشواطئ. توقف الهتاف، واستحال المرح في ثوان إلى رعب. وهكذا، ولحسن حظهم، لم يجدهم التنين في حالة عدم استعداد تامة. وقبل مضي وقت طويل، وبسرعته الهائلة، استطاعوا رؤيته كشرارة من النار يندفع صوبهم وحجمه وبريقه يتزايدان، وعندها لم يشك الأكثر حماقة بينهم في أن النبوءات قد ذهبت أدراج الرياح. كان لديهم القليل من الوقت مع ذلك. كل وعاء في البلدة مُلئ بالماء، كل محارب قبضت يده على سلاحه، كل سهم ورمح أصبح جاهزًا، وحُطم الجسر القائد إلى اليابسة قبل أن يقترب زئير (سموج) الرهيب أكثر فأكثر وتتموج مياه البحيرة بالأحمر تحت ضربات جناحيه المرعبة.

بين صراخ وعويل وصياح الرجال جاء ليهبط على الجسر، ولم يجده هناك!

كان الجسر قد اختفى، وأعداؤه كانوا على جزيرة في مياه عميقة، أعمق وأكثر ظلمة وبرودة مما يحبذ. إن كان قد اندفع خائضًا فيها، كان ليتصاعد منها بخار ودخان يكفيان لتغطية المنطقة كلها لأيام طويلة، لكن البحيرة كانت أقوى منه، وكانت لتطفئ نيرانه كلها قبل أن يتمكن من المرور. قفز من مكانه زائرًا فوق البلدة، واندفع وابل من السهام السوداء ليرتطم بالقشور والجواهر التي تغطي جسده، وسقطت مقابضها مشتعلة بأنفاسه لتنطفئ بصوت كالفحيح في البحيرة. أي ألعاب نارية شاهدتها في حياتك لم تكن لتضاهي المشهد تلك الليلة. بلغت غضبة التنين أقصاها مع رنين الأقواس وقرع النواقيس حتى أعمته تمامًا. لم يجرؤ أحد على مواجهته في معركة مفتوحة لعصور وعصور، ولم يكن هؤلاء ليجرؤوا الآن لولا (بارد) ذو الصوت المتجهم والوجه المتجهم الذي أخذ يذرع البلدة جيئة وذهابًا يشجع الرماة ويحمس الحاكم على أن يدعوهم للقتال حتى آخر سهم.

انبعثت النيران من بين فكي التنين، وأخذ يدور في حلقات فوقهم ليضيء البحيرة كلها. تألقت الأشجار على الشواطئ كالنحاس الدامي، وتراقصت الظلال أسفلها سوداء كثيفة. ثم انقض التنين عبر عاصفة السهام مباشرة غير عابئ في غمرة الغضب بأن يدير أجزاءه المحصنة صوب أعدائه، وغير ساعٍ إلى شيء سوى إشعال البلدة بأسرها.

تصاعدت ألسنة اللهب من الأسقف المصنوعة من القش والعوارض الخشبية وهو يندفع بعنف نحوها ثم يرتفع ثم يندفع مرة أخرى، رغم أن السكان رشوا كل ركن في البلدة بالماء قبل أن يأتي، ومرة أخرى قذف الماء بمائة يد في أي بقعة تظهر فيها شرارة.

ضربة من ذيله قوضت دعائم المنزل الكبير ليسقط منهارًا تمامًا...

لهب لا ينطفئ اشتعل في كل حدب وصوب وتصاعد في سماء الليل...

انقضاضة أخرى وأخرى، وبيت آخر وآخر يشتعل ويتهاوى؛ ولا سهم أعاق (سموج) أو آذاه أكثر من لدغة ذبابة.

ساد الهرج والمرج، وكان الرجال يقفزون بالفعل في الماء من كل جانب، واحتشدت النساء والأطفال في قوارب في بركة السوق، وطُرحت الأسلحة أرضًا. شاع البكاء والندب في المكان الذي منذ أيام قليلة امتلأ بأغاني الفرح والمرح القادم عن طريق الأقزام، والآن كان الرجال يلعنون أسماءهم. الحاكم نفسه هرع إلى قاربه المطلي بالذهب آملاً في الفرار وسط هذه الفوضى وإنقاذ نفسه، فسرعان ما ستحترق البلدة كلها وتُسوّى بسطح البحيرة.

وكان ذلك هو أمل التنين...

فليركبوا القوارب جميعًا، لا بأس. سوف يستمتع كثيرًا بمطاردتهم إن لم يتوقفوا في أماكنهم حتى يموتوا جوعًا. دعهم يحاولون الوصول إلى اليابسة، وسيكون في انتظارهم، سيان. قريبًا سيشعل النيران في الغابات الشاطئية كلها، ويحرق كل حقل ومرعى.

كان يتلذذ الآن بمهاجمة البلدة أكثر من أي شيء آخر فعله لسنوات طوال...

لكن كانت هناك جماعة من الرماة مازالت صامدة بين البيوت المحترقة. كان قائدها هو (بارد) متجهم الصوت والسحنة الذي اتهمه رفاقه بالتنبؤ بالفيضانات والسمك المسموم، رغم أنهم كانوا يعرفون قيمته ومبلغ شجاعته جيدًا. كان سليلاً عبر أجيال كثيرة لـ(جيريون) سيد (ديل) الذي فرت زوجته وابنه عبر النهر المتدفق من الدمار منذ زمن طويل؛ والآن كان يقذف بالسهام من قوس كبير من خشب الطقسوس* حتى نفدت سهامه كلها إلا واحدًا. كان اللهب يقترب منه ورفاقه بدءوا يهجرونه، وشد قوسه للمرة الأخيرة.

وفجأة خرج من قلب الظلمة شيء ما ورفرف فوق كتفه. أجفل (بارد)، لكنه كان مجرد طائر سُمنة عجوز؛ ومن دون خوف حط هذا بالقرب من أذنه وهمس إليه بأخبار، ومبهورًا وجد (بارد) أنه يستطيع فهم لغته، فقد كان من جِنس (ديل).

قال الطائر: "انتظر... القمر يصعد في السماء. ابحث عن البقعة العارية في يسار صدره وهو يطير ويدور فوقك."

وإذ لاذ (بارد) بالصمت المندهش، نقل إليه الطائر الأنباء القادمة من الجبل وكل شيء سمعه هناك. ثم شد (بارد) وتر القوس حتى أذنه، وكان التنين يدور عائدًا ويحلق على ارتفاع منخفض، ومع مجيئه ارتفع القمر فوق الشاطئ الشرقي وطلا جناحيه بالفضي.

صوب الرامي سهمه وهو يقول: "السهم الأسود. أبقيتك للنهاية، فلم تخذلني قط، ودائمًا استعدتك في كل مرة قذفتك فيها منذ أخذتك من أبي وهو من آبائه. إن كنت آتيًا من مصانع ملك ما تحت الجبل حقًا، فانطلق يصحبك التوفيق!"

انقض التنين من جديد على انخفاض شديد. ومع دورانه وهبوطه السريع إلى أسفل، تألقت بطنه ببياض الجواهر في ضوء القمر... لكن بقعة واحدة كانت مكشوفة.

رن القوس، وانطلق السهم مباشرة من الوتر نحو البقعة المكشوفة من الصدر حيث كان قائم التنين الأمامي منفرجًا؛ وانغرس السهم وغابت شوكته وقصبته وريشته السوداء داخل صدر

* خشب الطقسوس Yew Wood نوع من الخشب البني أو الأحمر المتين يُستخدم بالذات في صناعة الأثاث وأقواس الرماية.

الوحش بالكامل. بصرخة تصم الآذان وتشق الحجر وتقلع الشجر اندفع (سموج) في الهواء، ثم انقلب على ظهره وسقط كجلمود من الصخر من علٍ.

سقط بكامل ثقله فوق البلدة، وفي آلام احتضاره حطم البقية الباقية منها. فارت مياه البحيرة، وتصاعد بخار كثيف منها بضوء أبيض في الظلام الذي ساد فجأة تحت أشعة القمر البعيدة. كان هناك صوت فحيح، ثم صوت دوران عنيف، ثم الصمت التام.

وهكذا كانت نهاية (سموج) و(إسجاروث) معًا، لكنها لم تكن نهاية (بارد).

ارتفع القمر أعلى وأعلى، وأصبحت الرياح صاخبة باردة، وجدلت الضباب الأبيض في عواميد ملتوية وسحب مسرعة، وحركته إلى الغرب ليتمزق ويتبعثر فوق المستنقعات أمام غابة (ميركوود). عندها لاحت القوارب الكثيرة كنقاط داكنة على سطح البحيرة، وحملت الرياح أصوات سكان (إسجاروث) الراثية لبلدتهم وبضائعهم ومنازلهم المحطمة. لكن في الحقيقة، كان هناك الكثير مما يجب أن يشعروا بالامتنان له إن فكروا في الأمر بترو، رغم أنه من غير المتوقع أن يحدث ذلك الآن. كان ثلاثة أرباع سكان البلدة على الأقل قد فروا أحياء، وغاباتهم وحقولهم ومراعيهم وماشيتهم ومعظم القوارب ظلت سليمة لم يمسها ضرر، والتنين لاقى حتفه. لكنهم لم يدركوا بعد معنىً لذلك.

احتشدوا في جماعات بائسة عند الشواطئ الغربية يرتجفون في الهواء البارد، وانصبت شكاواهم وبوادر غضبهم الأولى على الحاكم الذي سارع بالفرار من البلدة قبل الجميع، بينما كان هناك من لايزالون يدافعون عنها.

غمغم البعض في سخط: "قد يملك البراعة في تسيير الأعمال، بالذات أعماله الخاصة، لكن لا فائدة منه عندما يجد الجد!"

وأثنوا جميعًا على شجاعة (بارد) وضربته الأخيرة، وقالوا: "كنا لننصبه ملكًا علينا إن لم يُقتل. (بارد) قاتل التنين سليل (جيريون). يا للخسارة أنه ضاع!"

وفي قلب حديث الناس، خطا شبح طويل من بين الظلال. كان غارقًا تمامًا، وخصلات شعره السوداء المبتلة ملتصقة بوجهه وكتفيه، بينما تتألق عيناه ببريق قوي؛ وقال في حزم: "(بارد) لم يضع. لقد جاء سباحة من (إسجاروث) عندما سقط العدو. أنا (بارد) سليل (جيريون)، أنا قاتل التنين."

–"الملك (بارد)! الملك (بارد)!" هتف بها الناس في حماس، لكن الحاكم ضغط على أسنانه المرتجفة، وقال: "(جيريون) كان ملك (ديل) لا (إسجاروث). في بلدة البحيرة دائمًا ما انتخبنا

حاكمًا من بين الكبار الحكماء، ولم نخضع لحكم مجرد رجال محاربين. فليعد الملك (بارد) إلى مملكته إن أراد، فقد تحررت (ديل) الآن بشجاعته، ولا شيء يعوق عودته. يمكن لكل الراغبين أن يذهبوا معه إن كانوا يفضلون الصخور الباردة تحت ظل الجبل على شواطئ البحيرة الخضراء. سيبقى العقلاء هنا، وسيساعدون في إعادة بناء بلدتنا ويستمتعون بسلامها وثرواتها من جديد."

هتف القريبون منه مجيبين: "نريد الملك (بارد)! لقد اكتفينا من الكبار وعدادات المال! يحيا الرامي وتسقط زكائب النقود!"

وانتقل الهتاف من القريبين إلى الأبعد منهم حتى تردد صداه عبر الشاطئ كله.

قال الحاكم في حذر وقد وقف (بارد) الآن بالقرب منه: "أنا آخر من يستخف بـ(بارد) الرامي، فقد احتل الليلة مكانًا بارزًا بين من أسدوا لبلدتنا الخدمات الجليلة، ويستحق مكانه في أغانٍ كثيرة خالدة، لكن لماذا يا قوم؟"

وهنا نهض على قدميه، وتحدث بصوت عالٍ واضح: "لماذا ينصب عليَّ اللوم كله؟ أي ذنب ارتكبت يستأهل عزلي؟ من الذي أيقظ التنين من مهجعه؟ من حصل منا على هدايا ثمينة ومساعدة سخية وجعلنا نصدق أن الأغاني القديمة يمكن أن تتحقق؟ من استغل قلوبنا الطيبة وأمانينا الصغيرة؟ أي ذهب أرسلوه عبر النهر كمكافأة لنا؟ الذهب الوحيد الذي أرسلوه هو لون نيران التنين! ممن يجب أن نحصل على تعويض لخسائرنا وعون للأرامل واليتامى؟"

كما ترون، لم يحتل الحاكم منصبه هذا عبثًا. كانت نتيجة كلماته هي نسيان القوم لفكرة الملك الجديد في الوقت الحالي تمامًا، واتجهت أفكارهم الغاضبة نحو (ثورين) ورفاقه. صدرت كلمات قاسية من بين الجموع، وبعض الذين غنوا الأغاني القديمة في حماس من قبل كانوا يهتفون الآن قائلين إن الأقزام أطلقوا عليهم التنين عمدًا!

قال (بارد): "حمقى! لمَ تبددون كلماتكم وغضبكم على هؤلاء التعساء؟ لابد أنهم هلكوا أولاً بنيران التنين قبل أن يهاجمنا."

وبينما هو يتحدث، مست شغاف قلبه فكرة كنز الجبل الأسطوري الراقد الآن من دون حارس أو مالك، وتوقف فجأة عن الحديث. فكر في كلمات الحاكم وإعادة بناء (ديل) وملئها بالأجراس الذهبية إن استطاع فقط إيجاد العدد الكافي من الأيدي العاملة. وفي النهاية تحدث مرة أخرى وقال: "ليس هذا وقت الكلمات الغاضبة أيها الحاكم أو التفكير في خطط التغيير الحاسمة. ثمَّة عمل يجب القيام به، وسأظل في خدمتك، رغم أنني قد أضع كلماتك في الاعتبار بعد فترة، وأذهب إلى الشمال مع من يريد اتباعي."

ثم اندفع ليشارك في تنظيم المخيمات والعناية بالمرضى والجرحى، بينما رمقه الحاكم بنظرة نارية وظل جالسًا مكانه على الأرض. فكر كثيرًا وتحدث قليلاً، ولم يفعل شيئًا سوى المناداة على الرجال ليأتوا إليه بالنار والطعام. وأينما تحرك (بارد)، كان يجد الكلام يسري بين القوم كالنار في الهشيم عن الكنز الضخم الذي بات الآن متاحًا للجميع. تحدث الناس عن التعويض الذي سينالونه قريبًا عن البلاء الذي حل بهم، وعن ثروات بلا نهاية ينفقونها في شراء أشياء ثمينة من الجنوب، وبثت فيهم هذه الأفكار الكثير من السرور في محنتهم. وكان هذا في الوقت المناسب، فالليل كان قاسيًا ويثير البؤس. لم تكف الملاجئ سوى القليلين -والحاكم منهم بالطبع- ولم يكن هناك سوى القليل من الطعام، وحتى الحاكم نفد منه طعامه. أصيب كثيرون بالمرض جراء البرد والبلل والأسى تلك الليلة، ووافتهم المنية بعد فترة قصيرة، وكان منهم من فروا من دون إصابات من أطلال البلدة؛ وفي الأيام التالية انتشر المرض والجوع أكثر.

وفي هذه الأثناء تولى (بارد) القيادة، ونظَّم الأوضاع حسب إرادته، رغم أن هذا كان يتم دائمًا باسم الحاكم، وواجهته صعوبات كثيرة في حكم الناس والإشراف على إعدادات حمايتهم وتسكينهم. كان معظمهم ليهلك بالفعل في الشتاء الذي جاء مهرولاً في أعقاب الخريف لو لم تكن النجدة قريبة. لكن النجدة جاءت لحسن الحظ سريعًا، حيث كان (بارد) قد أرسل في الحال برسل أسرعوا إلى (ميركوود) لطلب معاونة ملك إلفيي الغابة، ووجد هؤلاء الرسل جيشًا يتحرك بالفعل، رغم أنه لم يكن سوى اليوم الثالث فقط بعد سقوط (سموج).

كان الملك الإلفي قد تلقى الأخبار من رسله الخاصين ومن الطيور التي كانت تحب قومه، وهكذا عرف الكثير بالفعل مما حدث. الاضطراب الذي ساد بين جميع المخلوقات المجنحة الساكنة على حدود معزل التنين كان عظيمًا بالفعل، وامتلأت الأجواء بأسراب محلقة، وانطلقت رسلها مسرعين إلى هنا وهناك عبر السماء الواسعة. فوق حدود الغابة كان هناك صفير وصياح ولغط، وعبر (ميركوود) انتشر خبر مصرع التنين، وحفت الأوراق وأصغت الآذان المندهشة؛ وقبل حتى أن يتحرك الملك الإلفي مع جيشه، طارت الأخبار غربًا إلى غابات الصنوبر الواقعة عند سفوح جبال الضباب، وسمعها (بيورن) في بيته الخشبي، واجتمع الجوبلين في كهوفهم يتشاورون.

وقال الملك: "أخشى أن هذا هو آخر شيء نسمعه عن (ثورين أوكنشيلد). كان أفضل له أن يظل ضيفًا عندي."

وأضاف: "إنها رياح شريرة تلك التي تهب من دون أن تحمل فائدة لأحد."

هو أيضًا لم يكن قد نسي أسطورة ثروة (ثرور)، وهكذا عثر عليه رسل (بارد) يزحف بعدد كبير من حملة الرماح والرماة، وكانت الغربان تحتشد فوقهم في كثافة وقد لاحت لها بوادر

الحرب التي لم تنشب في هذه الأنحاء منذ زمن طويل جدًّا.

لكن الملك شعر بالشفقة عندما بلغته توسلات رسل (بارد)، فهو رغم كل شيء كان سيدًا لقوم أخيار طيبين، وهكذا غير طريقه الذي كان متجهًا في البداية إلى الجبل، وأسرع عبر النهر إلى البحيرة الطويلة. لم يكن يملك قوارب أو أطواف كافية لحمل جيشه كله، واضطر لقطع الطريق البطيء سيرًا على الأقدام، لكنه بعث بمخزون ضخم من الطعام والشراب يسبقه عبر الماء. الإلفيون رغم ذلك قوم خفاف الحركة، ورغم أنهم لم يكونوا معتادين في تلك الأيام على المستنقعات والأراضي الخادعة بين الغابة والبحيرة، إلا أن تقدمهم كان سريعًا. كانت خمسة أيام فحسب قد مضت على مقتل التنين عندما وصلوا إلى الشواطئ وطالعتهم أطلال البلدة. كان استقبالهم حسنًا كما هو متوقع في ظرف كهذا، وكان الرجال وحاكمهم مستعدين لعقد أي صفقة مستقبلية معهم لقاء عون الملك الإلفي.

وسرعان ما تم إحكام الخطط والتدابير. ظل الحاكم في الخلف مع النساء والأطفال وكبار السن والعاجزين، ومعه كان بعض الحرفيين والإلفيين المهرة، وشغل هؤلاء أنفسهم بقطع الأشجار وجمع الأخشاب التي جاءت من الغابة. ثم إنهم عكفوا على تشييد أكواخ كثيرة على الشاطئ لتحميهم من الشتاء القادم، وأيضًا تحت توجيهات الحاكم بدءوا في التخطيط لبناء بلدة جديدة تصميمها أكبر وأكثر بهاءً من قبل، لكن ليس في المكان ذاته. انتقلوا شمالاً بعيدًا عن الشاطئ، فإلى الأبد لازمهم الخوف من المياه حيث يرقد جثمان التنين. هو لم يعد قط إلى فراشه الذهبي، بل تمدد باردًا كالحجر فوق سطح المياه الضحلة. طيلة عصور كان بالإمكان رؤية عظامه الضخمة في الجو الصحو بين أطلال البلدة القديمة الخربة، لكن قلائل جرؤوا على عبور البقعة الملعونة، ولم يجرؤ أي منهم على السباحة في المياه الباردة للاستيلاء على الجواهر الثمينة التي سقطت من جثته المتحللة.

والآن استعد كل الرجال المسلحين ومعظم الجنود الإلفيين للزحف شمالاً صوب الجبل.

وهكذا في اليوم الحادي عشر بعد سقوط التنين وخراب البلدة، مرت طليعة الجيش عبر البوابات الصخرية عند طرف البحيرة، وعبرت إلى الأراضي المنعزلة.



الفصل الخامس عشر

احتشاد السُّحُب

والآن فلنعد من جديد إلى (بيلبو) والأقزام.

تولوا المراقبة بالتبادل طيلة الليل، لكن مع مجيء الصباح، لم يكن أحدهم قد سمع أو رأى أي علامة على الخطر. لكن جموع الطيور أخذت تحتشد أكثر وأكثر في كثافة شديدة، وجاءت أسراب وأسراب منها من الجنوب، والغربان التي كانت لا تزال تقطن حول الجبل أخذت تحوم وتنعق فوقهم بلا توقُّف.

قال (ثورين) في توتر: "شيء غريب يحدث. لقد مضى وقت الجولات الخريفية، وهذه

طيور تعيش دائمًا عند اليابسة. هناك أسراب من طيور الزرزور والعصافير، وبعيدًا هناك جماعات من الطيور آكلة الجيفة كأن هناك معركة تدور!"

أشار (بيلبو) فجأة صائحًا: "ها هو ذا طائر السُّمنة العجوز من جديد. يبدو أنه فر عندما حطم (سموج) جانب الجبل، لكنني لا أظن أن القواقع قد فعلت!"

كان هو طائر السُّمنة العجوز بالفعل، ومع إشارة (بيلبو) إليه، طار ناحيتهم وحط على حجر قريب؛ ثم إنه رفرف بجناحيه وغرد، ثم رفع رأسه كأنه ينصت في إمعان، ثم أخذ يغرد مرة أخرى، ثم أنصت من جديد، وهكذا دواليك.

قال (بالين): "أظنه يحاول إخبارنا بشيء ما، لكنني لا أستطيع ملاحقة لغة تلك الطيور. إنها سريعة للغاية وعسيرة الفهم. هل تفهم شيئًا مما يقول يا (باجنز)؟"

غمغم (بيلبو): "ليس الكثير، لكن هذا الرفيق العجوز يبدو متحمسًا للغاية."

وبالطبع لم يكن يفهم أي شيء على الإطلاق.

قال (بالين): "ليته كان رُخًّا!"

-"ظننتك تكره تلك الطيور. لقد بدوت نافرًا منها للغاية عندما كنا هنا من قبل."

-"تلك كانت غربانًا؛ كائنات قذرة تثير الريبة والنفور، ووقحة كذلك. كان يجدر بك أن تسمع الأسماء القبيحة التي نادتنا بها. لكن طيور الرُّخ* مختلفة، وكانت هناك صداقة دائمة بينها وبين قوم (ثرور)، وكثيرًا ما كانت تأتي لنا بالأخبار السرية من هنا وهناك، وكنا نكافئها بأشياء لامعة رغم ميلها إلى التواري في أعشاشها. إنها تحيا لسنوات طويلة، وذاكرتها قوية للغاية، وتنقل الحكمة إلى أفراخها الصغيرة. كنت أعرف الكثير منها وأنا صبي، وهذا المرتفع بالذات كان يُدعى (رافينهيل)**، لأنه كان هناك زوجان حكيمان شهيران يقطنان فوق غرفة الحرس، (كارك) العجوز وزوجته. لكنني لا أعتقد أن تلك السلالة القديمة مازالت تقطن هنا."

وبمجرد أن أتم حديثه، أطلق طائر السُّمنة العجوز صيحة عالية، ثم حلق بعيدًا في الحال، فقال (بالين): "ربما لا نفهمه نحن، لكنني أقسم إن ذلك الطائر العجوز يفهمنا. راقبوا الآن وشاهدوا ما سيحدث."

---

* طيور الرُّخ Ravens هنا تختلف عن طيور الرُّخ الأسطورية الضخمة كما في أسطورة (بروميثيوس) الإغريقية على سبيل المثال، هنا هي طيور سوداء صغيرة تشبه الغربان، ويُطلق عليها أيضًا اسم طيور الغُداف.

** (رافينهيل Ravenhill) أي تل طيور الرُّخ.

لم يمض وقت طويل حتى سمعوا صوت أجنحة تخفق، وعاد طائر السُّمنة ومعه طائر آخر طاعن في السن. كان باديًا أن العمى قد بدأ يصيبه، وكان يستطيع الطيران بالكاد، وكانت قمة رأسه صلعاء تمامًا. كان طائر رُخ عجوز كبير الحجم، وحط على الأرض بثبات أمامهم، وخفق بجناحيه في بطء، ثم أحنى رأسه لـ(ثورين).

تحدث الطائر، واستطاع (بيلبو) فهمه، لأنه كان يستخدم اللغة العامة لا لغة الطيور.

قال الرُّخ العجوز: "تحية يا (ثورين ابن ثرين) و(بالين ابن فوندين). أنا (روك ابن كارك). لقد مات (كارك)، لكنه كان معروفًا لديكم ذات يوم. لقد مضت مائة وثلاثة وخمسون عامًا منذ خرجت من البيضة، لكنني لا أنسى ما قاله لي أبي. والآن أنا زعيم طيور الرُّخ في الجبل. عددنا قليل الآن، لكننا مازلنا نذكر الملك القديم؛ ومعظم قومي في الخارج الآن، فهناك أخبار عظيمة من الجنوب، بعضها سيسركم كثيرًا، وبعضها لن يروق لكم.

انظروا! الطيور تحتشد مجددًا عند الجبل و(ديل) من الجنوب والشمال والشرق، فقد مات التنين (سموج)."

صاح الأقزام: "مات؟ مات؟! إذن فقد كنا خائفين بلا داع، والكنز أصبح لنا!"

وأخذوا يهللون ويتقافزون في فرحة، بينما قال الرُّخ: "أجل، مات. السُّمنة -عسى ألا يتساقط ريشه أبدًا- رآه يموت، ويمكننا أن نثق بصحة أخباره. لقد رآه يسقط في معركة مع رجال (إسجاروث) منذ ليال ثلاثة مع ظهور القمر."

مر بعض الوقت قبل أن يستطيع (ثورين) دفع الأقزام إلى التزام الصمت والإصغاء لأخبار الرُّخ، وفي النهاية عندما قص عليهم قصة المعركة كلها، استطرد قائلًا: "لم يحن وقت الاحتفال بعد يا (ثورين أوكنشيلد). يمكنكم العودة إلى قاعاتكم آمنين وقد بات الكنز كله ملكًا لكم الآن، لكن هذا وضع مؤقت. ثمَّة كثيرون يحتشدون هنا بالإضافة إلى الطيور، فأخبار مصرع الحارس انتشرت بعيدًا في كل مكان تقريبًا، وأسطورة ثروة (ثرور) لم تختف من الحكايات والأغاني طيلة السنين الماضية، وكثيرون يطمعون في نصيب من الغنيمة. ثمَّة جيش من الإلفيين في الطريق بالفعل، وطيور الجيفة تتحرك فوقهم آملة في معركة تنال بعدها وجبة شهية من الجثث. وعند البحيرة يقول الناس إن مصيبتهم كانت بسبب الأقزام، فقد شُرِّدوا ومات كثيرون منهم، و(سموج) دمر بلدتهم. هم أيضًا يطمعون في تعويض من كنزكم أحياء كنتم أو موتى.

يجب أن تقرروا بحكمتكم ما ينبغي عليكم فعله، لكن ثلاثة عشر عدد ضئيل للغاية لمن تبقوا من قوم (دورين) العظام الذين كانوا يقطنون هنا من قبل، والآن باتوا مشتتين. إن كنتم

ترغبون في الأخذ بنصيحتي، فلا تثقوا بحاكم بلدة البحيرة، لكن ثقوا بالذي صرع التنين بقوسه. اسمه (بارد)، وهو من قوم (ديل) وسليل (جيريون)، وهو رجل متجهم لكنه صادق. قد نرى أيام السلام تحل مرة أخرى بين الأقزام والبشر والإلفيين، لكن هذا سيكلفكم الكثير من الذهب. لقد قلت ما لدي."

وعندها انفجر (ثورين) صائحًا في سخط: "نشكرك يا (روك) يا ابن (كارك)، ولن ننساك أنت وقومك. لكن اللصوص لن يأخذوا قطعة واحدة من ذهبنا ونحن أحياء. إن كنتم تريدون نيل المزيد من امتناننا، فاجلبوا لنا أخبار عن كل من يقتربون من هنا. وأناشدكم أيضًا، إن كان منكم من لايزال صغيرًا قويًّا، أن تبعثوا برسل إلى أقربائنا في جبال الشمال الذين يقطنون شرقًا وغربًا من هنا، ويبلغوهم بمحنتنا. اذهبوا بالذات إلى ابن عمي (داين) في التلال الحديدية، فلديه قوم مسلحون، وهو الأقرب إلينا هنا. اجعلوه يأتي مسرعًا!"

قال (روك): "لن أقول إن كانت هذه خطة جيدة أم سيئة، لكنني سأفعل كل ما بوسعي."

ثم حلق مبتعدًا في بطء، وقال (ثورين): "يجب أن نعود إلى الجبل في الحال. لا يوجد وقت نضيعه."

فصاح (بيلبو): "ولا طعام نأكله!"

كان عمليًّا دائمًا عندما يتعلق الأمر بالطعام. كان يشعر بأن المغامرة قد انتهت أخيرًا بموت التنين —وهو الأمر الذي كان مخطئًا فيه— وأنه مستعد للتخلي عن معظم حصته من الأرباح مقابل أن توضع اللمسات الأخيرة وينتهي كل شيء. لكن الأقزام صاحوا منادين بالعودة إلى الجبل كأنهم لم يسمعوا ما قال، وهكذا اضطر للعودة معهم.

بما أنكم تعرفون بعض الأحداث الجارية بالفعل، فسترون أن الأقزام مازالوا يملكون بعض الوقت. استكشفوا الكهوف مرة أخرى، ووجدوا كما توقعوا أن البوابة الأمامية كانت الوحيدة المفتوحة في الجبل كله، أما جميع البوابات الأخرى —ما عدا الباب السري الصغير بالطبع— كانت محطمة منذ وقت طويل أو مغلقة بواسطة (سموج)، ولم يتبق لها أثر. هكذا بدءوا يعملون في همة على تحصين المدخل الرئيس وتكوين طريق جديد يقود منه وإليه، وبالطبع عثروا على الكثير من الأدوات التي كان يستخدمها عمال المناجم والمحاجر والبنائين قديمًا؛ وفي عمل من هذا النوع لم يكن هناك للأقزام من منافس.

جاءت إليهم طيور الرُخ أثناء عملهم بأنباء مستمرة، وبهذا عرفوا أن الملك الإلفي توجه صوب البحيرة، وأن مازال لديهم متسع من الوقت. والأفضل من هذا أنهم عرفوا أن ثلاثة من

مهورهم قد هربوا ويهيمون الآن عند ضفاف النهر المتدفق البعيدة على مقربة من المكان الذي تركوا فيه بقية مؤنهم. وهكذا، وبينما استمر الآخرون في عملهم، ذهب (فيلي) و(كيلي) يقودهما رُخ للعثور على المهور وجلب كل ما يستطيعان من مؤن.

غابا أربعة أيام، ومع مضي هذا الوقت، عرف الأقزام أن جيشي رجال البحيرة والإلفيين يتقدم الآن صوب الجبل، لكن روحهم المعنوية كانت أكثر ارتفاعًا من ذي قبل، فقد توفر لديهم طعام يكفيهم لعدة أسابيع إن التزموا الحرص في تناوله —وكان أغلبه من الكرام بالطبع، وكانوا قد سئموا منه تمامًا، لكنه كان أفضل من لا شيء— وأُغلقت البوابة بسور من الأحجار المربعة التي وُضعت جافة، لكنها في الوقت نفسه كانت سميكة ومرتفعة وتسد المدخل، وكانت هناك فتحات في السور يستطيعون عبرها رؤية —أو إصابة— القادمين، لكنها لم تكن تكفي للدخول ولو زحفًا. كانوا يتسلقون إلى الداخل أو الخارج عن طريق سلالم، وكانوا يرفعون الأشياء إلى أعلى عن طريق الحبال. أما بالنسبة لمنبع النهر، فقد أقاموا قنطرة صغيرة واطئة تحت السور الجديد، لكن بالقرب من المدخل غيروا المجرى الصغير ليكون بركة واسعة تمتد من حائط الجبل إلى رأس الشلال الذي يتدفق منه النهر صوب (ديل). أصبح الوصول إلى البوابة الآن —من دون سباحة— ممكنًا فقط عن طريق إفريز ضيق يقع على يمين الناظر من وراء السور. كانوا قد جلبوا المهور حتى نهاية الدرجات فوق الجسر القديم، وخففوها من حمولها، وأمروها بالعودة إلى سادتها في الجنوب.

وجاءت ليلة اشتعلت فجأة فيها نيران مشاعل كثيرة جنوبًا في (ديل) أمامهم.

قال (بالين) منبهًا الباقين: "لقد جاؤوا، ومعسكرهم كبير للغاية. لابد أنهم دخلوا الوادي تحت ستار الغسق على ضفتي النهر."

لم ينم الأقزام تلك الليلة إلا قليلاً، وكان الصباح لازال شاحبًا عندما رأوا جماعة تقترب. رأوهم من وراء سورهم يصعدون إلى رأس الوادي ويتسلقون الجبل في بطء، وقبل مضي وقت طويل تبينوا أنهم من رجال البحيرة المسلحين والرماة الإلفيين. وفي النهاية تسلقت طليعة هؤلاء الصخور المتداعية وظهر أفرادها عند قمة الشلالات، وكانت دهشتهم عظيمة عندما رأوا البركة أمامهم والبوابة مغلقة بسور من الأحجار الحديثة.

وبينما وقفوا يشيرون في حيرة ويتحدثون فيما بينهم، خاطبهم (ثورين) بصوت مرتفع للغاية وقال: "من أنتم يا من تأتون كأن الحرب في نيتكم إلى بوابات (ثورين ابن ثرين) ملك ما

"تحت الجبل، وما غرضكم؟"

لكنهم لم يجيبوا. استدار بعضهم عائدًا في سرعة، بينما ظل الآخرون يتطلعون إلى البوابة ودفاعاتها لبعض الوقت، ثم سرعان ما تبعوهم. انتقل المعسكر تلك الليلة إلى ضفة النهر الشرقية بين ذراعي الجبل مباشرة، وعندها رددت الصخور أصوات الغناء الذي لم يُسمع في هذه المنطقة منذ دهر، وترددت أيضًا أصوات القيثارات الإلفية ذات الألحان العذبة. ومع تصاعد الأنغام إلى الأقزام بالأعلى، بدا لهم أن الهواء البارد قد اكتسب بعض الدفء، ومس أنوفهم شذى زهور الغابة التي تتفتح فقط في الربيع.

عندها تمنى (بيلبو) لو يفر من هذه القلعة المظلمة ويهبط إليهم ليستمتع بالمرح والغناء والولائم قرب النار. واختلجت أيضًا قلوب بعض الأقزام الأصغر سنًّا، وغمغموا قائلين إنهم يتمنون لو أن الأمور قد اتخذت منحنى مختلفًا، وإنهم قد يرحبون بقوم كهؤلاء كأصدقاء لهم، لكن (ثورين) عقد حاجبيه في عبوس.

ثم إن الأقزام أنفسهم جاؤوا بقيثارات وآلات موسيقية أخرى استعادوها من الكنز، وعزفوا موسيقى للتسرية عن (ثورين)، لكن أغنيتهم لم تكن أغنية إلفية، وكانت تشبه الأغنية التي غنوها في حفرة الهوبيت الصغيرة منذ شهور إلى حد كبير.

تحت الجبل العالي المظلم
عاد الملك إلى قصره
وعدو الملك يموت
دومًا، دومًا يسقط خصم الملك الأعظم
فالحصن قوي، والسيف مخيفٌ ومريع
والرمح طويل جدًّا، والسهم سريع
قلب لا يخشى شيئًا يبحث عن ذهب أصفر
ويحرر كل الأقزام من الظلم الأكبر
ما أعظم ترنيمة أقزام الماضي الخفاق
لما تهوي المطرقة بصوت عملاق
في أقبية مظلمة وسحيقة
حيث تنام المخلوقات السرية
يتدلى ضوء النجم على تيجان الفضة

يصدرُ أنوارًا جدَّ أنيقة
تنطفئ نار التنين
ومن القيثارة تأتي الأنغام
عرش الجبل تحرر من جيش الإظلام
أقبل، أقبل وبكل قواك
إن الملك يعاني الضيق
إن الملك ينادي كل صديق
الآن ستأتي للجبل البارد
للزنزانات المخفية
وهنا عند الباب، الملك سينتظرك
بيديه الكنز الأقدم
عاد الملك إلى قصره
وعدو الملك يموت
دومًا، دومًا يسقط خصم الملك الأعظم

وبدا أن هذه الأغنية أثارت سرور (ثورين)، وابتسم من جديد وابتهج قليلاً، وبدأ يحسب المسافة من هنا إلى التلال الحديدية، وكم سيمضي من الوقت قبل أن يصل (داين) إلى الجبل الوحيد إن كان قد تحرك بمجرد أن وصلت إليه رسائل طيور الرُّخ. لكن قلب (بيلبو) كان مثقلاً بفعل الأغنية والحديث؛ كلاهما كان ينذر بأجواء حرب لا مفر منها.

وفي صباح اليوم التالي الباكر شوهدت جماعة من حملة الحراب تعبر النهر وتتحرك صعودًا في الوادي. كانوا يحملون معهم راية الملك الإلفي الخضراء وراية البحيرة الزرقاء، وتقدموا إلى أن وقفوا أمام سور البوابة مباشرة.

ومرة أخرى خاطبهم (ثورين) بصوت مرتفع: "من أنتم يا من تأتون مسلحين للحرب إلى بوابات (ثورين ابن ثرين) ملك ما تحت الجبل؟"

وهذه المرة جاءته إجابة...

تقدم رجل طويل خطوة إلى الأمام، وكان فاحم الشعر متجهم الوجه، وقال: "تحية يا (ثورين). لماذا تحبس نفسك كلص في سجنه؟ نحن لسنا أعداء بعد، ويسعدنا أن نراك حيًّا عكس توقعاتنا. جئنا من دون أن نحسب أن هناك من هو حي هنا، لكن الآن وقد التقينا، فهناك ما

يجب التفاوض والتشاور بشأنه."

-"من أنت، وما الذي تريد التفاوض عليه؟"

-"أنا (بارد)، وبيدي قُتل التنين وأُنقذ كنزكم. ألا يهمك أمر كهذا؟ والأهم من هذا هو أنني الوريث الشرعي لـ(جيريون) سيد (ديل)، ويختلط كنزكم بثروة قصوره وبيوته التي سرقها (سموج) من قديم. ألا يدفعك أمر كهذا إلى الحديث؟ الأكثر من هذا هو أن (سموج) في معركته الأخيرة دمر منازل رجال (إسجاروث)، وأنا مازلت خادمًا لحاكمهم، ودوري أن أتكلم نيابة عنه وأسألك إن كنت تكترث للكارثة التي حلت بقومه. لقد أعانوكم في وقت حاجتكم، والمقابل الذي نالوه منكم كان الدمار ولا شيء سوى الدمار، رغم أننا واثقون بأن تلك لم تكن نيتكم."

كانت هذه كلمات عادلة وصحيحة، وإن كانت قد قيلت بأسلوب متغطرس متجهم، وحسب (بيلبو) أن (ثورين) سيقر في الحال بما فيها من حقيقة. لم يتوقع الهوبيت بالطبع أن يتذكر أحد أنه هو الذي اكتشف وحده نقطة ضعف التنين؛ وهذا ما حدث بالفعل: لم يتذكر أحد هذا قط. لكنه لم يحسب حسابًا للقوة التي يملكها كنز أطال تنين السيطرة عليه، ولا كان يفهم قلوب الأقزام جيدًا كذلك. طيلة الأيام الفائتة قضى (ثورين) ساعات طوال بين أكوام الكنز، وكانت شهوته متقدة في قلبه. ورغم أنه كان يبحث عن الحجر الأركيني بالذات، إلا أن عينيه لاقت أشياء رائعة كثيرة أخرى تحفها ذكريات قديمة تحمل جهود ونكبات قومه.

أجاب (ثورين): " تضع دافعكم الرئيس للقدوم في النهاية، وتحيطه بالكلام المعسول. لكن دعني أقل لك إن كنز قومي لا حق لبشري فيه. لأن الكنز الذي سرقه منا قد حرمه في النهاية من الحياة، والكنز لم يكن ملكًا له حتى ندفع تعويضات منه عن أفعال التنين الشريرة. ثمن البضائع والمساعدة التي نلناها من رجال البحيرة سندفعه بسخاء في الوقت المناسب، لكننا لن نمنح شيئًا ولو كان مقدار رغيف خبز تحت التهديد بالقوة. طالما يقف جيش مسلح أمام أبوابنا، فأنتم بالنسبة لنا أعداء ولصوص.

وأود أن أسألكم عن الحصة التي كنتم ستدفعونها لقومي إن كنتم قد عثرتم على الكنز من دون حراسة ووجدتمونا قتلى."

قال (بارد): "سؤال عادل، لكنكم أحياء، ونحن لسنا بلصوص. والأهم أن الأثرياء قد يشفقون بعيدًا عن حدود الحق والباطل على المحتاجين الذين ساعدوهم من قبل وهم في شدة. لكنك لم ترد على مطالبي الأخرى بعد."

-"كما قلت، لن أتفاوض طالما يقف جيش مسلح أمام بوابتي، وبالطبع لا تفاوُضَ مع قوم

الملك الإلفي الذين أذكرهم بالقليل من الود. هم ليس لهم مكان في هذا النقاش. ارحلوا الآن قبل أن تتطاير سهامنا في الهواء! وإن أردت التحدث معي مرة أخرى، فاصرفوا الجيش الإلفي أولاً إلى الغابة حيث ينتمي، ثم عودوا خافضين أسلحتكم قبل الوصول إلى عتبة الباب."

-"الملك الإلفي صديق لي، ولقد عاون رجال البحيرة في حاجتهم الماسة، رغم أنهم لم يطالبوه بشيء سوى الصداقة. سنمنحك بعض الوقت لتغيير رأيك. فكر بحكمة قبل عودتنا!"

ثم غادر (بارد) عائدًا إلى المعسكر، ولم تمض ساعات كثيرة قبل أن يعود حملة الرايات ويتقدم النافخون في الأبواق ليطلقوا نغمة طويلة، وصاح واحد منهم: "باسم (إسجاروث) والغابة، نتحدث إلى (ثورين أوكنشيلد) ابن (ثرين)، ونناشده أن يفكر جيدًا في المطالب التي قدمناها، وإلا سنعتبره عدوًا لنا. يجب عليه على الأقل تسليم نسبة واحد على اثني عشر من الكنز لـ(بارد)، بما أنه قاتل التنين ووريث (جيريون)، ومن هذه الحصة سيساهم (بارد) بنفسه في إعادة بناء (إسجاروث). لكن إن أراد (ثورين) التمتع بصداقة وتكريم الأراضي المحيطة كما كان أسلافه، فسوف يمنح أيضًا جزءًا من أرضه عونًا لرجال البحيرة."

وعندها جذب (ثورين) قوسًا، وأطلق منه سهمًا على المتحدث، فانغرس السهم في درعه وأخذ يهتز بصوت رنان، فقال المتحدث: "طالما هذه إجابتكم، فإنني أعلن الحصار على الجبل. لن ترحلوا منه حتى تطالبوا من جهتكم بهدنة ومفاوضة. لن نحمل أسلحة ضدكم، لكننا سنترككم لذهبكم. يمكنكم التهامه إن أردتم!"

وبهذا غادر الرسل سريعًا، وترك الأقزام للتفكير في موقفهم. ازداد عبوس (ثورين) كثيرًا، حتى إن الآخرين لم يجرؤوا على معارضته على الإطلاق، لكن كان من الواضح أن الآخرين يشاركونه الرأي، ما عدا (بومبر) السمين و(كيلي) و(فيلي). أما (بيلبو) فقد استنكر التحول الجديد للأحداث بالطبع. كان قد اكتفى الآن وزيادة من الجبل، وأن يحاصَر داخله لم يكن أمرًا يروق له على الإطلاق.

قال لنفسه في حنق: "رائحة التنين النتنة مازالت تفعم المكان كله وتصيبني بالغثيان، وهذا الكرام اللعين بدأ يلتصق بحلقي!"



الفصل السادس عشر

لص في الليل

مرت الأيام بطيئة مرهقة، وقتل معظم الأقزام الوقت في تنظيم أكوام الكنز؛ وتحدث (ثورين) عن حجر (ثرين) الأركيني، وطلب منهم في حرارة أن يبحثوا عنه في كل ركن.

قال: "حجر أبي الأركيني يساوي وحده نهرًا من الذهب، ولا يُقدَّر عندي بثمن. من بين الكنز كله هذا الحجر لي وحدي، وسوف أنتقم ممن يعثر عليه ويحجبه عني."

ارتجف (بيلبو) خوفًا وهو يسمع هذه الكلمات، وتساءل ما الذي قد يحدث إن عُثر على

الحجر ملفوفًا في حزمة قديمة من أشياء بالية يستخدمها كوسادة. لكنه رغم ذلك لم يذكر لهم أنه قد عثر على الحجر، فمع تزايد ثقل الأيام، كانت بدايات خطة تتكون في رأسه الصغير. استمرت الأمور على هذا المنوال لبعض الوقت، ثم جاءت طيور الرُّخ بأخبار تقول إن (داين) ومعه أكثر من خمسمائة قزم قد خرجوا من التلال الحديدية، وتفصلهم الآن مسيرة يومين عن (ديل) من الشمال الشرقي.

وقال (روك): "لكنهم لا يستطيعون بلوغ الجبل من دون أن يلاحظهم أحد، وأخشى من وقوع معركة في الوادي. ليست هذه خطة جيدة. هم قوم أقوياء، لكنهم لن يستطيعوا التغلب على الجيش الذي يحاصركم. وحتى إن فعلوا، فماذا ستغنمون؟ الشتاء والجليد على مرمى حجر، فكيف ستحصلون على طعامكم وبضائعكم من دون صداقة الأراضي المحيطة بكم؟ سيكون في هذا الكنز هلاككم حتى بعد هلاك التنين!"

لكن (ثورين) لم يتأثر، وقال: "الشتاء والجليد قاسيان على البشر والإلفيين معًا، وسيجدون بقاءهم في العراء صعب الاحتمال. مع وجود أصدقائي من خلفهم والبرد يحيط بهم، ربما يجدون في أنفسهم نزعة للتفاوض."

وفي تلك الليلة حزم (بيلبو) أمره. كانت السماء سوداء بلا قمر، وبمجرد أن ساد الظلام التام، ذهب إلى ركن غرفة داخلية وراء البوابة، وأخرج من لفافته حبلًا ومعه الحجر الأركيني ملفوفًا في خرقة. ثم إنه تسلق إلى قمة السور، وكان (بومبر) وحده هناك يتولى نوبة مراقبته؛ وكان الأقزام يتناوبون المراقبة فرادى.

قال (بومبر) بأسنان مصطكة: "البرد شديد للغاية! أتمنى لو كانت لدينا نار هنا مثلما لديهم في معسكرهم."

قال (بيلبو): "الجو دافئ بالداخل."

غمغم القزم: "أظن هذا، لكنني مقيد هنا حتى منتصف الليل. الأمر برمته مؤسف، والآن وقد جرؤت على الاختلاف مع (ثورين)، فهو مازال القزم متصلب الرأي الذي كانه دومًا."

قال (بيلبو): "هو ليس متصلبًا كساقي اللتين أتعبتهما الدرجات والأحجار. يمكنني التنازل عن الكثير مقابل أن أشعر بملمس العشب بين أصابع قدمي مرة أخرى."

-"وأنا يمكنني التنازل عن الكثير مقابل أن أشعر بشراب قوي في حلقي، وفراش وثير بعد وجبة عشاء شهية!"

-"لا يمكنني منحك هذا مادام الحصار مستمرًا، لكن وقتًا طويلًا قد مر منذ توليت

المراقبة، وسأتولاها مكانك الآن إن أردت، فلست أشعر بالرغبة في النوم الليلة."

-"أنت رفيق طيب يا سيد (باجنز)، وسأرحب بعرضك بحرارة. فقط أيقظني أولاً إن كان هناك ما يستدعي هذا. سأستلقي في الغرفة الداخلية إلى اليسار بالقرب من هنا."

هز (بيلبو) رأسه قائلاً: "اذهب. سأوقظك عند منتصف الليل، ويمكنك أنت إيقاظ المراقب التالي."

بمجرد أن غادر (بومبر)، وضع (بيلبو) خاتمه وفرد الحبل، وانزلق على الجانب الآخر من السور، وذهب. كان يملك ما يقارب الساعات الخمس قبل انتصاف الليل، وكان (بومبر) سينام طيلة هذا الوقت -وفي الحقيقة، كان القزم البدين يستطيع النوم في أي وقت كان، ومنذ تلك المغامرة في الغابة وهو يحاول استعادة الأحلام الجميلة التي زارته حينها- وكان الآخرون جميعًا منشغلين مع (ثورين)، وكان من غير الوارد أن يخرج أحدهم -حتى (فيلي) و(كيلي) قبل أن يحين موعد مراقبته.

كان الظلام تامًا، وبعد قليل، بعد أن ترك الممر الجديد ونزل إلى المجرى الأدنى للنهر، أصبح الطريق غريبًا عليه. في النهاية وصل إلى منعطف يتوجب عليه عنده عبور المياه إن أراد بلوغ المعسكر كما يروم. كان النهر في هذه البقعة ضحلاً، لكنه واسع، والخوض فيه في الظلمة لم يكن هينًا على الهوبيت الصغير. كان قد عبره تقريبًا عندما انزلقت قدمه على صخرة مستديرة، وسقط في الماء البارد محدثًا رشاشًا من المياه؛ وصعد الضفة البعيدة مرتجفًا كريشة في مهب الريح عندما ظهرت مجموعة من الإلفيين في العتمة تحمل قناديل براقة تبحث عن مصدر الضجة.

قال أحدهم: "لم يكن ذلك صوت سمكة. ثمة جاسوس في الجوار. أخفوا أضواءكم، فسوف تساعده أكثر منا إن كان ذلك الكائن الصغير الغريب الذي يخدم الأقزام."

قال (بيلبو) في حنق: "خادمهم بالفعل!"

ومع قوله هذا، عطس بصوت مرتفع، واتجه الإلفيون في الحال صوب مصدر الصوت، وعندها قال (بيلبو): "لا تطفئوا الأنوار. أنا هنا."

وخلع خاتمه، وخرج من وراء صخرة.

حاصروه سريعًا رغم دهشتهم، وسألوه واحدًا تلو الآخر: "من أنت؟ أأنت هوبيت الأقزام؟ ماذا تفعل؟ كيف استطعت قطع كل هذه المسافة من دون أن يراك حراسنا؟"

أجابهم: "أنا السيد (بيلبو باجنز) رفيق (ثورين) إن كنتم تريدون معرفة هذا. إنني أعرف ملككم شكلاً جيدًا، رغم أنه لا يعرفني، لكن (بارد) يعرفني، و(بارد) هو من أريد

التحدث إليه بالتحديد."

قالوا: "بالتأكيد، لكن لأي غرض؟"

أجاب مرتعشًا: "هو غرضي وحدي أيًا كان أيها الإلفيون الطيبون. لكن إن كنتم ترغبون في العودة إلى غابتكم وتتركون هذا المكان الموحش البارد، فيجب عليكم أخذي في الحال إلى نار أجف عندها، ثم عليكم جعلي أتحدث إلى قادتكم بسرعة، فليس لدي سوى ساعة أو ساعتين."

وهكذا بعد ساعتين من فراره من البوابة، كان (بيلبو) جالسًا الآن بجوار نار ساخنة أمام خيمة كبيرة، وهناك جلس أيضًا الملك الإلفي و(بارد) يتطلعان إليه في فضول. مشهد الهوبيت الذي يرتدي درعًا إلفيًا وملفوفًا في دثار قديم كان جديدًا عليهما تمامًا.

كان (بيلبو) يقول بأفضل أسلوب عملي لديه: "كما تعرفان، الوضع يبدو مستحيلاً. أنا شخصيًا سئمت الأمر كله، وأتمنى لو أنني عدت إلى بيتي في الغرب حيث القوم أكثر عقلانية؛ لكن لي مصلحة في هذا الأمر: نسبة واحد إلى أربعة عشر على وجه التحديد طبقًا لرسالة مازلت أحتفظ بها لحسن الحظ."

ومن سترته القديمة -التي كان لازال يرتديها فوق القميص الواقي- أخرج ورقة مجعدة مطوية طيات كثيرة. كانت رسالة (ثورين) التي وُضعت تحت الساعة على رف المدفأة في مايو.

تابع: "حصة من الأرباح، هذا واضح لي. بالنسبة لي، فأنا مستعد تمامًا للتفكير في مطالبكم كلها بحرص شديد، ومستعد لأن أقتطع النسبة العادلة من النسبة الإجمالية قبل حتى أن أطالب بنصيبي. لكنكم لا تعرفون (ثورين أوكنشيلد) مثلما أعرفه أنا الآن. أؤكد لكم أنه مستعد للجلوس على كومة من الذهب والموت جوعًا مادمتم هنا."

قال (بارد): "فليفعل إذن! أحمق كهذا يستحق الموت جوعًا."

قال (بيلبو): "أجل، وأنا أتفهم وجهة نظركم. لكن الشتاء بدأ يحل بسرعة شديدة في الوقت ذاته، وقبل مضي وقت طويل سيحيط بكم الجليد وخلافه، وسيكون الحصول على المؤن صعبًا حتى على الإلفيين في رأيي. ستكون هناك صعوبات أخرى أيضًا، أم أنكم لم تسمعوا بمجيء (داين) وأقزام التلال الحديدية؟"

قال الملك: "سمعنا منذ فترة طويلة، لكن ماذا سيفعل معنا؟"

-"لقد فكرت في هذا. أرى أن لدي معلومة لم تبلغكم بعد: (داين) يبعد الآن أقل من يومين عن هنا، ومعه على الأقل خمسمائة من الأقزام الأقوياء، وكثيرون منهم لديهم خبرة لا يستهان بها في حروب الأقزام والجوبلين الرهيبة التي سمعتم بها من دون شك. ستكونون في مشكلة

عويصة عندما يصلون."

قال (بارد) في تجهم: "لماذا تخبرنا بهذا؟ هل قررت خيانة رفاقك أم أنك تهددنا؟"

صاح (بيلبو): "عزيزي (بارد)، لا تتسرع! لم ألتق بقوم شكاكين مثلكم من قبل قط. إنني أحاول فقط منع وقوع كارثة لجميع الأطراف المعنية، والآن سأقدم لكم عرضًا."

قالا: "دعنا نسمعه."

فقال: "بل يمكنكم رؤيته! ها هو ذا!"

وأخرج الحجر الأركيني من جيبه، وألقى باللفافة.

الملك الإلفي ذاته الذي كانت عيناه معتادتين على الأشياء الجميلة الرائعة هب واقفًا في ذهول، وحملق (بارد) في الجوهرة بعينين متسعتين في صمت. كأن كرة قد مُلئت بضوء القمر وعُلقت أمامهما في شبكة منسوجة من وهج النجوم.

قال (بيلبو): "هذا هو حجر (ثرين) الأركيني، قلب الجبل، وكذلك قلب (ثورين) الذي يعتبره أثمن من نهر من الذهب. إنني أمنحكم إياه. ستساعدكم في عقد صفقتكم."

ثم من دون أن يطرف له جفن، ومن دون أن تلوح في عينه نظرة حنين واحدة، ناول الجوهرة الفاتنة لـ(بارد) الذي أمسك بها في يده كالمسحور.

ثم قال أخيرًا بأنفاس مبهورة: "لكن كيف أصبح ملكك لتمنحنا إياه؟"

قال الهوبيت في ارتباك: "آه... حسن، هو ليس كذلك بالضبط، لكنني مستعد لمبادلته بنصيبي كله. قد أكون لصًا، أو هكذا يقولون، فأنا شخصيًا لم أشعر بأنني واحد قط، لكنني لص أمين، أو هكذا آمل على الأقل. على كل حال، يجب أن أعود الآن، ويمكن للأقزام أن يفعلوا بي ما يشاؤون. أتمنى أن تجدوه ذا فائدة."

نظر الملك الإلفي إلى (بيلبو) نظرة عجب جديدة، وقال: "(بيلبو باجنز)! أنت تستحق ارتداء قميص الأمير الإلفي أكثر من كثيرين ناسبهم مقاسه أكثر. لكنني أتساءل إن كان (ثورين أوكنشيلد) سيملك الرأي ذاته. إنني أملك معرفة أكبر بالأقزام أكثر منك، وأنصحك بأن تبقى معنا، وهنا ستُعامل بتكريم واحتفاء."

قال (بيلبو) منحنيًا: "أنا واثق بهذا، وأشكرك كثيرًا، لكنني لا أستطيع ترك أصدقائي هكذا بعد كل ما مررنا به معًا. كما أنني وعدت بإيقاظ (بومبر) عند منتصف الليل! يجب أن أذهب في الحال."

لم يستطيعا إقناعه بالبقاء، فكلفا حرسًا بمرافقته، وحياه الملك و(بارد) باحترام وهو يمضي. ومع مروره مع الحرس عبر المعسكر، نهض رجل عجوز ملفوف في عباءة داكنة من أمام خيمة وجاء ناحيتهم، وقال مربتًا على ظهر (بيلبو): "أحسنت يا سيد (باجنز)! أنت تتمتع حقًا بما لا يتوقعه أحد."

كان (جاندلف)!

وللمرة الأولى منذ أيام طويلة شعر (بيلبو) بسعادة حقيقية، لكن لم يكن هناك وقت للإجابة على الأسئلة التي أراد طرحها في الحال.

قال (جاندلف): "ستعرف كل شيء في وقته المناسب. الأمور تقترب الآن من نهايتها ما لم أكن مخطئًا، وهناك أوقات عصيبة مازالت تنتظرك، لكن فلتتحل بالأمل، فمازال بإمكانك الخروج من هذا الموقف على خير. ثمّة أخبار جديدة لم تسمعها طيور الرُخ نفسها. طابت ليلتك."

أسرع (بيلبو) عائدًا وهو يشعر بسعادة حائرة. قاده الحرس إلى مخاضة آمنة، وعبرها من دون أن يبتل، ثم ودع الإلفيين وشرع يتسلق في حذر عائدًا إلى البوابة. كان يشعر بإرهاق شديد، لكن منتصف الليل لم يكن بهذا القرب بعد عندما تسلق الحبل الذي وجده كما هو إلى أعلى. فكه وأخفاه، ثم جلس بجوار السور وهو يتساءل في قلق عما سيحدث بعد هذا.

عند منتصف الليل أيقظ (بومبر)، ثم تمدد بدوره في الركن من دون أن يصغي إلى كلمات القزم الشاكرة التي شعر أنه لا يستحقها بالكاد. سرعان ما غاب في نوم عميق ناسيًا كل قلقه حتى الصباح.

في الحقيقة، كان يحلم بوجبة شهية من البيض واللحم.



الفصل السابع عشر

انفجار السُحُب

نُفخ في الأبواق في المعسكر مبكرًا في الصباح التالي، وسرعان ما شوهد عداء واحد يهرول عبر الممر الضيق. وقف على بُعد معقول، ونادى على الأقزام سائلاً إن كان (ثورين) سيستمع الآن إلى كلام بعثة أخرى مع مجيء أخبار جديدة وتغيُّر في الأوضاع.

قال (ثورين) عندما سمعه: "إنه (داين). لابد أن أخبار مجيئه قد بلغتهم، ولابد أن هذا غير رأيهم كما حسبت."

ثم خاطب المبعوث بصوت مرتفع قائلاً: "دعهم يأتون بعدد قليل ومن دون أسلحة، وسأسمعهم."

وعند الظهيرة لاحت رايات الغابة والبحيرة من جديد، وكانت جماعة تتكون من عشرين فردًا تدنو، وعند بداية الممر الضيق وضعوا سيوفهم وحرابهم أرضًا، واقتربوا من البوابة. ولدهشتهم، رأى الأقزام أن (بارد) والملك الإلفي بينهم، وأمامهما كان رجل عجوز يرتدي عباءة ذات قلنسوة مسدلة على وجهه، ويحمل علبة خشبية ذات حواف من الحديد.

قال (بارد): "تحية يا (ثورين). هل مازلت على الرأي ذاته؟"

أجاب (ثورين): "رأيي لا يغيره شروق وغروب بضع شموس. هل جئتم لتسألوني أسئلة معدومة الجدوى؟ الجيش الإلفي لم يرحل بعد كما طلبت. وحتى يرحل، فمجيئكم للتفاوض معي بلا طائل."

-"أما من شيء إذن يمكنك التخلي عن جزء من ذهبك من أجله؟"

-"ما من شيء يمكنكم وأصدقاؤكم عرضه."

قال العجوز: "وماذا عن حجر (ثرين) الأركيني؟"

وفي اللحظة ذاتها فتح العلبة وحمل الجوهرة عاليًا، وسطع نورها في يده أبيض أخاذًا في ضوء النهار.

وكأن (ثورين) أصيب بصاعقة من الذهول والحيرة، لاذ بالصمت التام كمن شُل لسانه، ولم ينطق أحد لوقت طويل.

ثم كسر (ثورين) الصمت، وكان صوته محتقنًا بالغضب الشديد وهو يقول: "هذا الحجر كان ملكًا لأبي، والآن هو ملكي. كيف لي أن أشتري شيئًا أملكه بالفعل؟"

ثم امتلأت نفسه دهشة وهو يضيف: "لكن أنى لكم بإرث عائلتي إن كانت بي حاجة لإلقاء سؤال كهذا على مجموعة من اللصوص؟"

أجاب (بارد): "لسنا لصوصًا، وسنمنحك ما لك لقاء أن تمنحنا ما لنا."

صرخ (ثورين) في ثورة: "أنى لكم به؟"

هتف (بيلبو) الذي كان ينظر معه من وراء السور في رعب عارم: "أنا أعطيتهم إياه!"

-"أنت؟ أنت!" صاح بها (ثورين) وهو يلتفت إليه ويمسك به بكلتا يديه، وصرخ بصوت مخنوق وهو يرج (بيلبو) المسكين كالأرنب: "أيها الهوبيت التعس! أيها اللص الحقير!"

ثم رفع (بيلبو) من ذراعيه وهو يواصل: "بحق لحية (دورين)! ليت (جاندلف) كان هنا! فلتحل به اللعنة على اختياره لك، وعسى أن تذبل لحيته! أما أنت أيها البائس، فسأهشم عظامك على الصخور!"

وعندها قال صوت: "لا تفعل، فقد تحققت أمنيتك!"

وخلع العجوز الذي يحمل العلبة عباءته والقلنسوة وهو يتابع: "ها هو (جاندلف)، وفي الوقت المناسب أيضًا. إن كان لصي لا يروق لك، فلا تؤذه من فضلك. ضعه أرضًا واسمع ما لديه أولاً."

قال (ثورين) وهو يُسقط (بيلبو) على قمة السور: "يبدو أنكم جميعًا متحالفون ضدي! لن أتعامل أبدًا مع السحرة وأصدقائهم. ماذا لديك لتقوله يا سليل الجرذان؟"

قال (بيلبو) مرتجفًا: "رفقًا! رفقًا! أنا واثق بأن هذا وضع غير مريح بالمرة. هل تذكر قولك إنني أستطيع اختيار حصتي بنفسي؟ لعلي أخذت كلمتك حرفيًا أكثر من اللازم. لقد قيل لي إن الأقزام مهذبون في أقوالهم أكثر من أفعالهم. كان هذا عندما بدا أنك تحسبني ذا فائدة لكم. سليل الجرذان؟ أهذه هي خدماتك وخدمات عائلتك التي عهدت لي بها يا (ثورين)؟ اعتبر أنني تخليت عن حصتي واكتف بهذا."

قال (ثورين) عابسًا: "سأفعل، وسأدعك تذهب، وعسى ألا نلتقي مرة أخرى أبدًا!"

ثم التفت وتحدث من وراء السور قائلاً: "سُحقًا للخيانة! كنتم على حق عندما خمنتم أنني لن أصبر على دفع ثمن الحجر الأركيني، كنز عائلتي. مقابله سأمنحكم واحد على أربعة عشر من الكنز ذهبًا وفضة، لكن من دون الجواهر، لكن هذه ستكون النسبة التي وعدنا بها هذا الخائن، وسيرحل مع هذه المكافأة، ويمكنكم تقسيمها كما شئتم. ليس عندي شك بالطبع في أنه سينال بعضها. خذوه إن أردتم أن يعيش، وليذهب من دون صداقتي."

ثم قال لـ(بيلبو): "اذهب الآن إلى أصدقائك وإلا ألقيتك إليهم بنفسي."

سأله (بيلبو): "وماذا عن الذهب والفضة؟"

أجاب في جمود: "سيتبعك هذا لاحقًا عند ترتيبه. اذهب!"

صاح (بارد): "سنحتفظ بالحجر معنا حتى ذلك الوقت."

وقال (جاندلف): "أنت لا تضرب مثالاً جيدًا لملك ما تحت الجبل، لكن الأوضاع قد تتبدل."

قال (ثورين) في برود: "قد تتبدل بالفعل."

ومع تأثير الكنز القوي عليه، كان يتساءل إن كان بمعاونة (داين) يستطيع الاستيلاء على الحجر الأركيني والاحتفاظ بالحصة المفترض اقتطاعها من المكافأة.

وهكذا هبط (بيلبو) على الناحية الأخرى من السور بلا شيء لقاء متاعبه كلها ما خلا سترة الميثريل الواقية التي كان (ثورين) قد منحه إياها، بينما شعر أكثر الأقزام بالخزي والشفقة من الطريقة التي ذهب بها.

وصاح لهم الهوبيت: "وداعًا، وعسى أن نلتقي مرة أخرى كأصدقاء."

هتف (ثورين): "اغرب عن وجهي! أنت ترتدي قميصًا واقيًا صنعه قومي، وهو يفوقك قدرًا بمراحل. السهام لا تخترقه، لكن إن لم تسرع مبتعدًا الآن، فسوف أطلق السهام على قدميك! ارحل!"

قال (بارد): "ليس بهذه السرعة. سنمنحك فرصة حتى الغد، وسنعود عند الظهيرة ونرى إن كنت قد جهزت الحصة التي سيتم استبدالها بالجوهرة. إن حدث ذلك من دون خداع أو مراوغة، فسنرحل وسيعود جيش الإلفيين إلى الغابة. إلى اللقاء إذن."

وبهذا عادوا إلى معسكرهم، بينما بعث (ثورين) برسل عن طريق (روك) لإخبار (داين) بما حدث وتوصيته بأن يأتي بسرعة حذرة.

ومر النهار ومر الليل. جاءت رياح اليوم التالي غربية، وكان الهواء مظلمًا كئيبًا. كان الصباح لازال باكرًا عندما سُمعت صيحة في المعسكر، وجاء عداؤون يقولون إن حشدًا من الأقزام قد ظهر عند الحافة الشرقية للجبل ويتجه سريعًا إلى (ديل). كان (داين) قد تحرك مسرعًا أثناء الليل، وهكذا وصل إليهم بأسرع مما توقعوا. كان كل واحد من قومه يرتدي عباءة طويلة من الحلقات المعدنية تصل إلى الركبتين، بينما كانت السيقان مغطاة بسروال ضيق من الشباك المعدنية المرنة التي لا يعرف سر صنعها سوى قوم (داين). الحقيقة أن الأقزام أقوياء للغاية بالنسبة لطولهم، لكن معظمهم كان قويًا جدًا حتى بالنسبة للأقزام. في المعركة يحملون معاول ذات مقبضين، لكن كل واحد منهم أيضًا يحمل سيفًا قصيرًا عريضًا يتدلى من حزامه وترسًا مستديرًا معلق على ظهره. كانت لحاهم طويلة مضفرة ومدسوسة في أحزمتهم، وخوذاتهم كانت من الحديد ومزودة بإطارات حديدية، ووجوههم كانت صارمة متجهمة.

دوت أصوات الأبواق تنادي البشر والإلفيين لحمل الأسلحة، ولم يمض وقت طويل قبل أن يستطيعوا رؤية الأقزام يدخلون الوادي بسرعة شديدة. توقف الأقزام بين النهر وحافة الجبل

الشرقية، لكن بعضهم استمر في التقدم، وعبر هؤلاء النهر مقتربين من المعسكر، وهناك وضعوا أسلحتهم أرضًا، ورفعوا أيديهم كعلامة على مجيئهم في سلام. تقدم (بارد) للقائهم، ومعه ذهب (بيلبو).

قال الأقزام عندما سُئلوا: "نحن مبعوثو (داين ابن ناين). إننا مسرعون إلى أقربائنا في الجبل بعد أن بلغنا أن المملكة القديمة تجددت. لكن من أنتم يا من تمكثون في السهل كأعداء أمام أسوار محمية؟"

طبعًا هذا الذي قيل بأسلوب مهذب عتيق الطراز يناسب مواقف كهذه كان يعني ببساطة: "ليس لديكم شأن هنا. سوف نستمر في طريقنا، فأفسحوا لنا الطريق وإلا سنقاتلكم!"

كانوا ينوون التقدم ما بين الجبل وعقدة النهر، فالأرض الضيقة هناك لم تبد محمية بقوة. لكن (بارد) رفض بالطبع أن يسمح للأقزام بالتقدم مباشرة إلى الجبل، وكان عازمًا على الانتظار حتى يأتي الذهب والفضة لإجراء المبادلة بالحجر الأركيني، فهو كان واثقًا بأن ذلك لن يحدث بمجرد أن تدعم القلعة جماعة مسلحة كبيرة كهذه. كان الأقزام قد جلبوا معهم مخزونًا ضخمًا من المؤن، فالأقزام يستطيعون حمل أحمال ثقيلة للغاية؛ وكان كل رجال (داين) تقريبًا يحملون حقائب ضخمة على ظهورهم بالإضافة إلى أسلحتهم ومعداتهم. كان بإمكانهم مقاومة الحصار لأسابيع وأسابيع، ومع مرور ذلك الوقت، سيأتي المزيد والمزيد من الأقزام. فأقارب (ثورين) كانوا كُثر بالفعل. وعلاوة على هذا، كان بإمكانهم إعادة فتح وحراسة بوابة أخرى، وبهذا يضطر المحاصرين لمحاصرة الجبل بأكمله، الأمر الذي لا تكفي أعدادهم لفعله حتمًا.

كانت هذه هي خطة الأقزام بالفعل، حيث كانت طيور الرُّخ مشغولة بين (ثورين) و(داين)، لكن الطريق كان مغلقًا في الوقت الحالي؛ وهكذا بعد تبادل بعض الكلمات الغاضبة، عاد رسل الأقزام وهو يغمغمون ساخطين من وراء لحاهم. ثم إن (بارد) بعث برسل في الحال إلى البوابة، لكنهم لم يجدوا ذهبًا أو أي شيء آخر عندها. تطايرت السهام من وراء السور بمجرد أن وصلوا إلى مرماها، وهرولوا عائدين في فزع. ساد الهرج والمرج في المعسكر استعدادًا لمعركة دانية، وتقدم أقزام (داين) أكثر عبر الضفة الشرقية.

قال (بارد) ضاحكًا في سخرية: "حمقى! يدخلون هكذا تحت ذراع الجبل مباشرة. إنهم لا يفهمون الحرب فوق سطح الأرض أيًا كانت مهارتهم الحربية في المناجم. عشرات من رماتنا وحملة الرماح يتوارون الآن بين الصخور عند ميسرة حشدهم. قد تكون دروع الأقزام منيعة، لكنها لن تحميهم إلى الأبد. دعونا نطوقهم من الجانبين قبل أن يجدوا فرصة للراحة."

لكن ملك الإلفيين قال: "سأنتظر وقتًا طويلاً قبل أن أبدأ حربًا كهذه من أجل الذهب. الأقزام لا يمكنهم اجتياز صفوفنا من دون أن نسمح لهم، ولا يمكنهم فعل شيء لا نراه. دعنا نأمل في حدوث شيء يؤدي إلى صُلح. تفوقنا العددي كاف إن كان ولابد أن نخوض معركة مريرة في النهاية."

لكنه لم يضع الأقزام أنفسهم في الحسبان. كانت معرفتهم بوجود الحجر الأركيني في يد المحاصرين تلهب أفكارهم، كما أنهم لاحظوا تردد (بارد) وأصدقائه، وقرروا الهجوم مباشرة بينما هم يتجادلون.

وفجأة ومن دون سابق إنذار، اندفعوا في صمت إلى الأمام مهاجمين. رنت الأقواس وصفرت السهام، وكانت المعركة على وشك الاشتعال.

وفجأة أيضًا، وبصورة أذهلت الجميع، حل الظلام بسرعة مخيفة!

غطت سحابة سوداء السماء، ودوى هزيم الرعد كالزئير وتردد صداه في صخور الجبل، بينما أضاء البرق القمة. وتحت الرعد حامت دوامات ودوامات سواء من نوع آخر، لكنها لم تأت مع الرياح، بل جاءت من الشمال؛ سحابة مترامية الأطراف من الطيور معتمة إلى درجة لا تستطيع رؤية الضوء من بين أجنحتها.

-"توقفوا!" صاح بها (جاندلف) الذي ظهر فجأة ووقف وحده رافعًا ذراعيه بين الأقزام المتقدمين والصفوف التي تنتظرهم.

-"توقفوا!" هتف بها بصوت أقوى من الرعد، وتألقت عصاه كوميض البرق. "لقد حل عليكم الخوف جميعًا، ويا للخسارة! لقد جاء بأسرع مما توقعت. الجوبلين يهاجمونكم! (بولج) قد جاء من الشمال يا (داين)، (بولج)* الذي صرعت أبوه في (موريا). انظروا، فالوطاويط تغطي جيشه كبحر من الجراد. إنهم يمتطون الذئاب، والوارج في أعقابهم!"

حل بهم جميعًا الذهول والارتباك الشديدان، وتزايدت الظلمة أكثر وأكثر و(جاندلف) يتحدث. توقف الأقزام وحملقوا في السماء، وصاح الإلفيون بأصوات راجفة.

هتف (جاندلف) في قوة: "تمهلوا! مازال هناك وقت لوضع خطة. فليأتي (داين ابن ناين) إلينا بسرعة!"

وهكذا بدأت المعركة التي لم يتوقعها أحد قط، معركة الجيوش الخمس التي كانت رهيبة

* هو ابن (أزوج) الذي ذكر في الفصل الأول.

بالفعل. في جانب كان الجوبلين والذئاب المتوحشة، وفي الجانب الآخر كان الإلفيون والبشر والأقزام.

وهكذا كان الأمر: منذ سقوط الجوبلين الأكبر في جبال الضباب، تنامى حقد جنسه على الأقزام حتى بلغ ثورة مشتعلة، وتناقلت الرسائل جيئة وذهابًا بين جميع مدنهم ومستعمراتهم ومعاقلهم، وصمموا على السيطرة التامة على الشمال كله. أخذوا يجمعون الأنباء من هنا وهناك بطرق سرية، وأخذوا يسلحون أنفسهم في الجبال كلها. زحفوا واحتشدوا في التلال والوديان، وتحركوا دائمًا في أنفاق مستترين بالظلام حتى احتشد حول وتحت جبل (جونداباد) العظيم في الشمال –حيث كانت عاصمتهم– جيش ضخم مستعد لاكتساح الجنوب مع مجيء العواصف. ثم إن أخبار سقوط (سموج) قد بلغتهم، وامتلأت قلوبهم بالبهجة، وأسرعوا ليلة بعد ليلة عبر الجبال، وجاؤوا في النهاية على حين غرة من الشمال في أعقاب حشد (داين). لم تعرف طيور الرُّخ حتى بمجيئهم حتى خرجوا إلى الأراضي المحطمة التي تفصل الجبل الوحيد عن التلال التي خلفه؛ ولا يمكننا تخمين قدر المعلومات التي كان (جاندلف) يعرفها عن هذا، لكن كان من الجلي أنه لم يتوقع هذا الهجوم المباغت.

هذه هي الخطة التي أعدها مع الملك الإلفي و(بارد) و(داين) عندما انضم إليهم السيد القزم: الجوبلين أعداء الجميع، ومع مجيئهم نُسيت جميع النزاعات الأخرى. كان أملهم الوحيد هو محاصرة الجوبلين بين ذراعي الجبل، وأن يحصنوا حافتيه الشرقية والغربية، لكن هذه كانت خطة محفوفة بالمخاطر إن كان الجوبلين يملكون الأعداد الكافية لاجتياح الجبل ذاته، وهكذا يستطيعون مهاجمتهم من الخلف ومن أعلى، لكن لم يكن هناك وقت لوضع خطط أخرى أو طلب العون من أحد.

سرعان ما مر الرعد، واتجه ناحية الجنوب الشرقي، لكن سحابة الوطاويط جاءت تحلق منخفضة فوق الجبل، وأخذت تحوم فوقهم ليغيب عنهم الضوء وتمتلئ قلوبهم بالخوف، وهتف (بارد): "إلى الجبل! إلى الجبل! فلنتخذ مواقعنا والوقت سانح!"

استقر الإلفيون فوق الحافة الجنوبية للجبل وعلى منحدراتها وبين صخورها، وعلى الحافة الشرقية كان البشر والأقزام، بينما تسلق (بارد) ومعه مجموعة من أرشق الرجال والإلفيين إلى الكتلة الشرقية ليستطيع أن يكشف الشمال. سرعان ما رأوا الأراضي أمام سفوح الجبل تعج بحشود مسرعة، وسرعان ما دارت طليعة جيش الجوبلين حول طرف الكتلة ودخلت (ديل). كان هؤلاء أسرع راكبي الذئاب، ومزق الصياح والنباح الهواء حول الجبل. واجهتهم

مجموعة من الرجال الشجعان تتظاهر بالمقاومة، وسقط كثيرون منهم قبل أن ينسحب الباقين ويفروا إلى الجانبين. وكما أمل (جاندلف)، احتشد جيش الجوبلين وراء الطليعة المهاجمة، وتدفق في غضب على الوادي يشق طريقه بين ذراعي الجبل باحثًا عن العدو. كانت راياتهم سوداء وحمراء، وجاؤوا كفيضان غاضب مضطرب.

كانت معركة رهيبة حقًا، والتجربة الأكثر رهبة في تجارب (بيلبو) كلها، والتجربة التي كرهها بشدة وقتها، رغم أنها كانت أكثر شيء أغرم به وبتذكره بعد هذا بوقت طويل، مع أن دوره فيها لا يُذكر. في الحقيقة، سأقول من الآن إنه وضع الخاتم مبكرًا، وتوارى عن الأنظار كلها، بل وعن الأخطار كذلك. خاتم سحري كهذا لا يمثل حماية كاملة في نزال مع جوبلين، ولا يستطيع إيقاف السهام المتطايرة والحراب الثاقبة، لكنه يساعد في الاختفاء عن الأنظار، ويحول من دون أن يختار سيف لجوبلين الإطاحة برأسك بالذات.

كان الإلفيون هم أول من هاجم. كراهيتهم للجوبلين كانت قاسية باردة كالثلج، وتألقت سيوفهم ورماحهم في العتمة بشرارات من اللهب البارد، وكان غضب الأيدي التي تحملها مميتًا. بمجرد أن احتشد جيش أعدائهم في الوادي، أمطروه بوابل من السهام، وومض كل سهم وهو ينطلق كأنه مشتعل بنار قاسية، وبعد السهام انقض ألف من حملة الرماح والتحموا. كانت الصرخات تصم الآذان، وتلطخت الصخور بدماء الجوبلين السوداء.

لم يكن الجوبلين قد تمالكوا أنفسهم بعد من هجوم الإلفيين الضاري عندما دوت في الوادي صرخة حلقية عميقة، واندفع أقزام التلال الحديدية هاتفين باسمي (موريا) و(داين) وهم يحملون معاولهم، ومعهم جاء رجال البحيرة حاملين سيوفًا طويلة.

استولى الفزع على الجوبلين، ومع التفاتهم للقاء هذا الهجوم الجديد، انقض عليهم الإلفيون مرة أخرى بأعداد متجددة. حاول الكثيرون من الجوبلين الفرار إلى النهر والنجاة من الفخ، وانقلبت معظم ذئابهم عليهم بالفعل، وأخذت تمزق جثث الموتى والجرحى بأنيابها ومخالبها.

بدا النصر وشيكًا عندما دوت صرخة جديدة في المرتفعات العالية...

كان الجوبلين قد تسلقوا الجبل خلسة من الجانب الآخر، وكان الكثيرون منهم على المنحدرات التي تعلو البوابة بالفعل، بينما كان آخرون يتدفقون على جوانب الجبل في هياج لمهاجمة أطرافه من أعلى من دون أن يبالوا برفاقهم الذين سقطوا صارخين من فوق جرف أو هوة. كل طرف كان يمكن بلوغه عن طريق ممرات تتفرع من مركز كتلة الجبل ذاته، وكان عدد

المدافعين أقل من سد هذه الطرق لوقت طويل.

لم يصدوا سوى الموجة الأولى من المد الأسود، وغاب الأمل في النصر...

شارف النهار على الانتهاء، واحتشد الجوبلين من جديد في الوادي، ومعهم جاء حشد من الوارج يبحثون عن فرائس، ومعهم حرس (بولج) الشخصيون؛ جوبلين ضخام الجثة يحملون سيوفًا فولاذية معقوفة. بدأ الظلام الطبيعي ينتشر في السماء العاصفة، بينما ظلت الوطاويط تحوم حول رؤوس وآذان الإلفيين والبشر، وتهاجم الجرحى كما يفعل مصاصو الدماء. كان (بارد) الآن يقاتل للدفاع عن طرف الجبل الشرقي، وإن كان يتقهقر ببطء، بينما كان قادة الإلفيين في موقف لا يحسدون عليه وهم يدافعون عن ملكهم فوق الطرف الجنوبي بالقرب من نقطة مراقبة (رافينهيل).

ومن جديد دوت فجأة صرخة أخرى، ومن البوابة ارتفع صوت نفير...

لقد نسوا (ثورين)!

سقط جزء من السور الذي حركته الروافع من الداخل بصوت صاخب في البركة، ومن داخل الجبل قفز ملك ما تحت الجبل ومعه رفاقه. اختفت القلنسوات والعباءات، والآن كانوا يرتدون دروعًا لامعة، وتألقت عيونهم بوهج أحمر؛ وفي الظلمة توهج (ثورين) كالذهب المصهور في النيران.

ألقى الجوبلين أعلى البوابة عليهم بالصخور، لكنهم واصلوا التقدم، ووثبوا إلى سفح الشلالات، واندفعوا إلى قلب المعركة. سقطت الذئاب وراكبوها أمامهم أو فرت منهم، وسدد (ثورين) ببلطته ضربات قاتلة، ولم يمسه شيء بسوء.

وصرخ بصوت هز صخور الوادي: "إليّ! إليّ أيها الإلفيون والبشر! إليّ أيها الأقزام!"

وفورًا اندفع جميع أقزام (داين) لمؤازرته من دون اكتراث بتنظيم أنفسهم، ومعهم اندفع أكثر رجال البحيرة الذين لم يستطع (بارد) كبحهم، ومن الجانب الآخر انقض عشرات من حملة الرماح الإلفيين. مرة أخرى أُجهز على الجوبلين في الوادي، وتكوموا بالمئات حتى صار وادي (ديل) مظلمًا بشع المنظر بجثثهم الممزقة. تشتتت صفوف الوارج، وتقدم (ثورين) مباشرة حيث حرس (بولج) الشخصيون، لكنه لم يستطع اختراق صفوفهم. خلفه بين جثث الجوبلين سقط الكثير من الرجال والأقزام موتى، وكثيرون من بني الأصالة والحسن الذين كان يمكن أن يعيشوا حياة أطول بكثير في الغابة.

مع اتساع الوادي، أصبح تقدم (ثورين) أبطأ كثيرًا. أعداد من معه كانت قليلة للغاية، وجوانبهم كانت غير محمية، وسرعان ما هوجم المهاجمون، ودُفعوا إلى حلقة واسعة يواجهون فيها من كل اتجاه الأعداء الذين عادوا جوبلين وذئاب إلى مهاجمتهم. جاء حرس (بولج) الشخصيون نابحين في وجوههم، وانقضوا على صفوفهم كما تنقض الأمواج على القلاع الرملية. لم يستطع أصدقاؤهم مساعدتهم مع تجدد الهجوم من الجبل بأعداد مضاعفة، ومن الجانبين بدأ البشر والإلفيون يتقهقرون في بطء.

وتطلع (بيلبو) إلى كل هذا في بؤس وألم. كان قد اتخذ مكانه فوق (رافينهيل) بين الإلفيين؛ ربما لأن فرصة الفرار من تلك النقطة كانت أكبر، وربما -مع علو نبرة الجانب التوكي في وجدانه- لأنه إن كان ولابد من الوقوف وقفة أخيرة، فقد كان يفضل الدفاع عن الملك الإلفي من دون الجميع. (جاندلف) أيضًا كان هناك جالسًا على الأرض مستغرقًا في تفكير عميق، وعلى الأرجح يعد لضربة سحرية أخيرة قبل النهاية.

ولم تبد النهاية بعيدة، وقال (بيلبو) في نفسه: "لن يطول الوقت قبل أن ينال الجوبلين البوابة، وقبل أن نُذبح جميعًا أو نُطرد من هنا أو نقع في الأسر. لكم يثير هذا الحزن إلى حد البكاء بعد كل ما مررنا به. كنت أفضل أن يبقى (سموج) جاثمًا على الكنز الملعون على أن تستولي عليه تلك الكائنات الوضيعة وأن تكون نهاية (بومبر) المسكين و(بالين) و(فيلي) و(كيلي) والآخرين كلهم بهذه القسوة؛ و(بارد) أيضًا ورجال البحيرة والإلفيين. كم أنا مسكين! لقد سمعت حكايات وأغاني عن معارك كثيرة، ولطالما تصورت أن الهزيمة يمكن أن تكون مشرفة. كل هذا يبدو شنيعًا ومثيرًا للإحباط الآن، وأتمنى لو أنني لم أكن هنا."

مزقت الرياح السُحُب، وسقط وهج الغروب الأحمر على الغرب كالسوط اللاسع، ونظر (بيلبو) حوله مع رؤيته للوهج المفاجئ، وإذا به يصيح صيحة عالية وهو يرى مشهدًا جعل قلبه يثب في صدره: نقاط مظلمة لكن مهيبة آتية في النور الأحمر البعيد.

هتف: "النسور! النسور! النسور قادمة!"

نادرًا ما أخطأت عينا (بيلبو)، والنسور كانت قادمة في قلب الرياح صفًا بعد صف في حشد اجتمع من جميع أوكار الشمال.

-"النسور! النسور!" هتف بها (بيلبو) وهو يرقص ويلوح بذراعيه. لم يره الإلفيون، لكنهم سمعوه، وسرعان ما أخذوا يهتفون هم أيضًا، ودوت هتافاتهم في الوادي. نظرت أعين

مندهشة كثيرة إلى أعلى، رغم أن لا شيء كان واضحًا في السماء سوى من جوانب الجبل الجنوبية.

-"النسور!" هتف بها (بيلبو) مرة أخرى، لكن في تلك اللحظة ارتطم حجر مقذوف بعنف من أعلى بخوذته، وعندها سقط أرضًا، وغاب تمامًا عن الوعي.



الفصل الثامن عشر

رحلة العودة

عندما استعاد (بيلبو) وعيه، وجد نفسه وحيدًا تمامًا. كان ممددًا على أرض مرتفع (رافينهيل) الحجرية المسطحة، ولم يكن هناك أحد بالجوار على الإطلاق. كان محاطًا بنهار بارد بلا سحب، وكان يرتجف بردًا كأنه مدفون في قلب الثلوج، بينما كان رأسه يحترق بنيران مستعرة.

قال لنفسه: "ماذا حدث؟ من الواضح أنني لست من الأبطال الساقطين في المعركة، وإن كان

مازال هناك وقت كاف لحدوث ذلك!"

اعتدل جالسًا في ألم، وتطلع إلى الوادي من دون أن يرى أي أثر لجوبلين أحياء. بعد قليل وقد صفا رأسه قليلاً، خُيل إليه أنه يرى إلفيين يتحركون بين الصخور بالأسفل. فرك عينيه ليزيل عنهما آثار الإغماءة، ووجد أن هناك بالفعل معسكرا لازال منصوبًا في السهل على مسافة بعيدة نوعًا، و... أهذه حركة نشطة عند البوابة؟

بدا الأقزام منهمكين في إزالة السور، لكن كل شيء كان صامتًا كالقبر. لم يكن هناك هتاف أو صياح أو صدى لأغنية، وبدا الهواء مفعمًا بالأسى.

غمغم متحسسًا رأسه الموجوع: "أظنه النصر! كان هذا وقتًا عصيبًا للغاية بالفعل."

وفجأة أدرك رجلاً يتسلق إلى أعلى ويتجه ناحيته، فصاح بصوت مهتز: "مرحبًا! ما الأخبار؟"

توقف الرجل وتلفت حوله على مقربة من مكان (بيلبو) وقال: "صوت من هذا الذي يتكلم من بين الأحجار؟"

وعندها تذكر (بيلبو) أنه مازال يرتدي الخاتم!

تمتم: "حسن، أعتقد أنني شخص محظوظ، لكن التخفي له عيوبه رغم كل شيء. كان يمكن أن أقضي ليلة دافئة مريحة في الفراش!"

ثم صاح وهو يخلع الخاتم بسرعة: "أنا (بيلبو باجنز) رفيق (ثورين)."

قال الرجل وهو يتقدم ناحيته بخطوات واسعة: "أخيرًا عثرنا عليك! إنهم بحاجة إليك، ونحن نبحث عنك منذ وقت طويل. كان يمكنك أن نحسبك من قتلى المعركة -وهم كُثر- لو لم يقل الساحر (جاندلف) إن صوتك قد سُمع لآخر مرة في هذا المكان. لقد أرسلوني للبحث عنك هنا للمرة الأخيرة. هل أنت مصاب؟"

قال (بيلبو): "حجر لعين أصابني في رأسي كما أظن، لكنني أرتدي خوذة وجمجمتي صلبة. فقط أشعر بالغثيان، وأشعر كأن ساقي أصبحتا كعودين من القش."

قال الرجل وهو يرفعه في خفة: "سأحملك إلى المعسكر في الوادي."

كان الرجل سريعًا وواثق الخطى، ولم يطل الوقت قبل أن يضع (بيلبو) أمام خيمة في (ديل)، وكان (جاندلف) هناك بذراع معلقة في عصابة. حتى الساحر لم يخرج من القتال من دون إصابات، والذين لم يمسهم جرح في الجيش كله كانوا قلائل.

وعندما رأى (جاندلف) الهوبيت، صاح في سعادة: "(باجنز)! غير معقول! أنت حي إذن، وهذا يسعدني. كنت بدأت أتساءل إن كان حظك سينجيك هذه المرة أيضًا. كانت هذه ساعات حرجة وشبه كارثية، لكن الأخبار الأخرى يمكنها الانتظار."

ثم قال بأسلوب أكثر تجهمًا: "تعال معي، فأنت مطلوب."

وقاد الهوبيت إلى داخل الخيمة، وقال وهو يدخل: "تحية يا (ثورين). لقد جئت به."

وكان (ثورين أوكنشيلد) راقدًا هناك جريحًا بجراح كثيرة، ودرعه الممزقة وبلطته المكسورة كانتا ملقاتين على الأرض. رفع ناظريه مع وقوف (بيلبو) إلى جانبه، وقال: "وداعًا أيها اللص الطيب. الآن أذهب إلى ديار الأبدية لأجلس بجوار آبائي إلى أن يتجدد العالم. والآن وقد أصبحت أملك الذهب والفضة، وسأذهب إلى حيث لا قيمة لهما، فأود أن أرحل وبيننا صداقة، وأود أن أعتذر عن كلماتي وأفعالي عند البوابة."

جثا (بيلبو) على ركبة واحدة والحزن يغمره، وقال: "وداعًا يا ملك ما تحت الجبل. إنها لمغامرة قاسية تلك التي تنتهي هكذا، ولا جبل من ذهب يمكنه التعويض عنها. لكنني سعيد لأنني شاركتك ساعات الخطر، وهذا أكثر مما يستحقه أي من آل (باجنز)."

قال (ثورين) بضعف: "لا. ثمَّة خير وطيبة فيك أكثر مما تحسب يا ابن الغرب الطيب، وبك شجاعة وحكمة ممتزجتان بلا حدود. كان عالمنا ليصبح أجمل إن كان فينا من يقدرون الطعام والرفقة الطيبة والأغاني فوق تقديرهم للذهب المكتنز. لكن سواء كان العالم جميلاً أم قبيحًا، فيجب أن أغادره الآن. وداعًا."

ثم ابتعد (بيلبو)، وجلس في ركن وحده ملفوفًا بدثار، وسواء صدقتم هذا أم لا، وجد نفسه يبكي في حرارة حتى احمرت عيناه وبُح صوته. كان يملك روحًا صغيرة طيبة بالفعل، ولقد انقضى وقت طويل قبل أن يراوده قلبه عن إلقاء دعابة مرحة من جديد.

وقال في النهاية لنفسه: "إنها لرحمة أنني أفقت عندما فعلت. أتمنى حقًّا لو كان (ثورين) حيًّا، لكنني سعيد بافتراقنا على خير. أنت أحمق يا (بيلبو باجنز)، ولقد تسببت في الكثير من الأذى بتصرفك الأخرق مع الجوهرة؛ والمعركة وقعت رغم كل مجهوداتك لشراء السلام والهدوء شراءً، وإن كنت لن تجد من يلومك على فعلتك هذه."

علم (بيلبو) لاحقًا بكل ما حدث وهو فاقد للوعي، وإن كان هذا لم يمنحه سوى الحزن أكثر من البهجة، ووصل الآن إلى مرحلة من السأم والكلل التام من مغامرته. كانت كل خلية في جسده الآن تتحرق شوقًا للعودة إلى وطنه، لكن ذلك تأخر لبعض الوقت. دعوني في الوقت الحالي

إذن أخبركم ببعض الأحداث التي وقعت. كانت النسور تشك لوقت طويل في احتشاد الجوبلين، ولم تخف عن أعينهم اليقظة الحركات المستمرة لهم في الجبال. هكذا احتشدت النسور أيضًا بأعداد ضخمة تحت قيادة نسر جبال الضباب الأكبر، وفي النهاية مع رائحة المعركة التي أفعمت الأجواء، جاءت لتنضم إلى المعركة التي دارت رحاها في الوادي والجبل في اللحظة الأخيرة. كانت النسور هي التي أزاحت الجوبلين من على منحدرات الجبل، وألقت بهم من فوق الجروف أو قادتهم في غمرة رعبهم إلى أيدي أعدائهم. لم يمض بعدها وقت طويل قبل تحرير الجبل الوحيد، وعندها استطاع الإلفيون والبشر على الجانبين الانضمام إلى رفاقهم الأقزام في المعركة بالأسفل في النهاية.

لكن حتى مع تدخُّل النسور، كان الجوبلين مازالوا يفوقون أبطالنا عددًا. وفي تلك الساعة الحرجة ظهر (بيورن) نفسه؛ ولا أحد يدري كيف جاء أو من أين. جاء وحده في هيئة الدب، وبدا كأن غضبته الشديدة جعلت حجمه يتضاعف مرات ومرات حتى بلغ حجم مارد ثائر. صرخته الهادرة كانت كوقع الطبول والمدافع، وأخذ يطيح بالذئاب والجوبلين في طريقه كأنهم قش وريش. جاءت انقضاضته على مؤخرتهم، وشق طريقه بينهم كالبرق حتى وصل إلى حلقة المحاصَرين، وكان الأقزام مازالوا صامدين حول قادتهم فوق تل واطئ مستدير، وعندها انحنى (بيورن) ورفع (ثورين) الذي سقط مع اختراق رماح عدة لجسده، وحمله من قلب الحومة الضارية.

وسريعًا عاد وقد تضاعفت غضبته، حتى إن لا شيء استطاع الوقوف في طريقه، ولا سلاح استطاع التأثير فيه. حطم صفوف الحرس الشخصيين، وجذب (بولج) نفسه وسحقه سحقًا، وعندها دب الرعب في قلوب الجوبلين، وفروا في كل اتجاه. لكن الإرهاق غادر خصومهم مع مجيء هذا الأمل الجديد، وطاردوهم لمسافة طويلة، ومنعوا أكثرهم من الفرار من جهات عدة. عبر كثيرون منهم النهر المتدفق، ومع فرارهم جنوبًا وغربًا سقطوا في شراك المستنقعات المحيطة بنهر الغابة، وهناك هلك السواد الأعظم من الهاربين، بينما ذُبح هؤلاء الذين وصلوا بصعوبة إلى حدود مملكة الغابة أو تُركوا للضياع في غياهب (ميركوود) المظلمة. قالت الأغاني بعدها إن ثلاثة أرباع جوبلين الشمال المحاربين هلكوا في ذلك اليوم، وإن السلام ساد الجبال لسنوات طويلة.

وأصبح النصر مؤكدًا قبل حلول الليل، لكن المطاردة كانت لازالت مستمرة عندما عاد (بيلبو) إلى المعسكر، ولم يكن هناك الكثيرون في الوادي ما عدا ذوي الإصابات البالغة.

سأل (جاندلف) ذلك المساء وهو متدثر في أغطية دافئة كثيرة: "وأين النسور؟"

أجاب الساحر: "بعضها مشترك في المطاردة، لكن أغلبها عاد إلى الأوكار. لقد رفضت البقاء هنا، وغادرت مع أول أضواء الصباح. (داين) منح كبيرها تاجًا من الذهب، وأقسم لها بالصداقة إلى الأبد."

قال (بيلبو) ناعسًا: "خسارة. كنت أود أن أراها ثانية. ربما أراها في طريق العودة. أظنني سأعود قريبًا، أليس كذلك؟"

قال الساحر: "يمكنك العودة متى شئت."

في الحقيقة، مرت بعض الأيام قبل أن يغادر (بيلبو) فعليًّا.

دفنوا (ثورين) في عمق الجبل ووضع (بارد) الحجر الأركيني على صدره قائلاً: "فليرقد معه هنا حتى سقوط الجبل، وعسى أن يجلب الحظ الطيب لجميع قومه الذين يسكنون هنا."

ثم فوق المقبرة وضع الملك الإلفي (أوركريست)، السيف الإلفي الذي أُخذ من (ثورين) وهو أسير. يقال في الأغاني إنه كان يتألق في الظلام إن اقترب عدو، وبهذا لا يمكن أن تسقط قلعة الأقزام على حين غرة أبدًا. اتخذ (داين ابن ناين) مقره هناك، وأصبح ملك ما تحت الجبل، ومع مرور الوقت اجتمع المزيد من الأقزام عند عرشه في القاعات القديمة. رفاق (ثورين) الاثنا عشر تبقى منهم عشرة، فقد سقط (فيلي) و(كيلي) وهما يدافعان عنه، إذ كان خالهما الكبير، بينما ظل الآخرون مع (داين) الذي قسَّم الكنز بالعدل. وبالطبع لم يعد من الوارد تقسيم الكنز بالطريقة المتفق عليها سلفًا على (بالين) و(دوالين) و(دوري) و(نوري) و(أوري) و(أوين) و(جلوين) و(بيفر) و(بوفر) و(بومبر)... و(بيلبو). في الوقت نفسه مُنحت نسبة واحد إلى أربعة عشر من مجموع الحلي والسبائك من الذهب والفضة لـ(بارد)، فقد قال (داين): "تكريمًا لرفيقنا الميت الذي يحتفظ الآن بالحجر الأركيني."

وحتى نسبة الواحد إلى أربعة عشر هذه كانت ثروة فاحشة تفوق ثروات العشرات من الملوك مجتمعة. من ذلك الكنز أرسل (بارد) بالكثير من الذهب إلى حاكم بلدة البحيرة، وكافأ أتباعه وأصدقاءه بسخاء. أما الملك الإلفي فقد نال زمردات (جيريون) التي راقت له كثيرًا ومنحه (داين) إياها.

وقال (بارد) لـ(بيلبو): "هذا الكنز ملكك كما هو ملكي، رغم أن الاتفاقات القديمة لا محل لها هنا مع وجود كثيرين لهم الحق فيه مع فوزهم به أو دفاعهم عنه. إلا أنه رغم أنك كنت مستعدًا للتخلي عن نصيبك كله فيه، فإنني أتمنى ألا تتحقق كلمات (ثورين) التي أعتذر عنها؛ أننا سنمنحك القليل. إنني أريد منحك النصيب الأكبر."

قال (بيلبو): "هذا كرم بالغ منك، لكنني مازلت متنازلاً عنه حقًا، فأنى لي أن أستطيع نقل كل هذا الكنز إلى الوطن من دون قتال وقتل طيلة الطريق؟ كما أنني لا أعرف ما الذي كنت لأفعله به عندما أعود أصلاً. أنا واثق بأن وجوده معك أفضل."

في النهاية اقتنع فقط بأخذ صندوقين صغيرين، أحدهما مليء بالذهب والآخر بالفضة، وهي أثقل حمولة يمكن أن يحملها مهر قوي، وقال: "هذا يكفيني تمامًا."

وأخيرًا حان وقت توديع أصدقائه.

قال لهم: "وداعًا يا (بالين) و(دوالين)، ووداعًا يا (دوري) و(نوري) و(أوري) و(أوين) و(جلوين) و(بيفر) و(بوفر) و(بومبر)! عسى أن تستطيل لحاكم إلى الأبد!"

والتفت إلى الجبل وأضاف: "وداعًا يا (ثورين أوكنشيلد)، ووداعًا يا (فيلي) و(كيلي)، وعسى ألا تخبو ذكراكم أبدًا."

ثم انحنى الأقزام أمام البوابة وقد اختنقت الكلمات في حلوقهم.

وقال (بالين) في النهاية: "وداعًا وحظًا سعيدًا يا صديقي أينما قادتك خطاك. إن زرتنا مرة أخرى عندما تتجدد قاعاتنا وتزيد، فسيكون عيدنا عيدين."

فقال (بيلبو): "وإن مررتم في طريقي مرة أخرى، فلا تطرقوا الباب. موعد الشاي في الرابعة عصرًا، لكنني أرحب بمجيء أيكم في أي وقت."

ثم استدار وغادر.

كان جيش الإلفيين يتحرك. وإن كان عدد أفراده قد قل على نحو ملحوظ محزن، فإن شعورًا بالراحة كان يغمر الكثيرين، فالعالم الشمالي الآن بات حرًا، وسيظل كذلك لسنوات طويلة. التنين مات، والجوبلين هُزموا، وتطلعت قلوب الجميع إلى مجيء الربيع بعد طول الشتاء. ركب (جاندلف) و(بيلبو) خلف الملك الإلفي، ومعهما كان (بيورن) في هيئته البشرية سيرًا على قدميه، وأخذ يضحك ويغني بصوت عال طيلة الطريق. هكذا استمروا في طريقهم حتى وصلوا إلى حدود (ميركوود) حيث كان نهر الغابة يتدفق شمالاً. ثم إنهم توقفوا، فقد رفض الساحر و(بيلبو) دخول الغابة، رغم أن الملك دعاهما للمكوث لبعض الوقت في ضيافته. كانا يقصدان المضي بمحاذاة حافة الغابة وحول طرفها الشمالي في الأرض الخالية التي تقع بينها وبين بدايات التلال الرمادية. كان طريقًا طويلاً كئيبًا، لكنه بدا الآن مع هزيمة الجوبلين أكثر أمنًا من الممرات المخيفة تحت الأشجار، والأهم أن (بيورن) كان سيسلك هذا الطريق أيضًا.

قال (جاندلف): "وداعًا أيها الملك الإلفي. عسى أن تسود البهجة في الغابة والعالم لازال شابًا، وعسى أن يعيش قومك كلهم في هناء."

فقال الملك: "وداعًا يا (جاندلف). عسى أن تظهر دائمًا ونحن نحتاجك أكثر ونتوقعك أقل. كلما شرفتني بالزيارة في مملكتي ازدادت سعادتي."

قال (بيلبو) متلعثمًا وهو يتحرك حركة عصبية: "أتمنى أن تقبل مني هذه الهدية."

وأخرج قلادة من الفضة واللؤلؤ منحه (داين) إياها عند وداعهما. فسأله الملك: "وماذا فعلت لأستحق هدية كهذه أيها الهوبيت؟"

قال (بيلبو) في ارتباك: "حسن، إحم، لقد خطر لي أن... إحم، أن أرد حسن ضيافتك. أعني أنه حتى اللصوص يملكون مشاعر، وأنا شربت الكثير من نبيذك والتهمت الكثير من خبزك."

قال الملك في جدية: "سأقبل هديتك يا (بيلبو) العظيم. عسى ألا يختفي ظلك أبدًا، وإلا ستصبح السرقة عندئذ عملاً سهلاً! وداعًا."

ثم اتجه الإلفيون صوب الغابة، وبدأ (بيلبو) رحلته الطويلة إلى الديار.

واجهته صعوبات ومغامرات كثيرة قبل عودته، فالبراري كانت مازالت براري كما هي، وأشياء أخرى كثيرة كانت تسكنها في تلك الأيام بالإضافة إلى الجوبلين، لكنه كان يتمتع بقيادة وحماية لا يستهان بهما؛ فالساحر كان معه، وكذلك (بيورن) معظم الطريق، ولم يحدق به خطر شديد قط. مع منتصف الشتاء كان (جاندلف) و(بيلبو) قد قطعا طريق العودة كله بحذاء حافتي الغابة حتى وصلا إلى بيت (بيورن)، ومكثا هناك لبعض الوقت. كان موسم نهاية العام دافئًا مبهجًا هناك، وجاء رجال من هناك وهناك للاحتفال به بناءً على دعوة (بيورن). كان جوبلين جبال الضباب الآن قلة مذعورة متوارية في أعمق حفر استطاعوا الوصول إليها، بينما اختفى الوارج من الغابات، فتسنى للقوم الآن الخروج إليها من دون خوف. أصبح (بيورن) زعيمًا عظيمًا في هذه الأنحاء، وحكم أرضًا واسعة بين الجبال والغابة، ويقال إن نسله لأجيال طويلة كان يملك المقدرة على اتخاذ هيئة الدب، وإن بعضهم كان عنيفًا قاسيًا، لكن معظمهم كان يملك قلبًا كقلب (بيورن)، وإن لم يضاهه أحدهم في الحجم والقوة. في أيامهم طُرد بقية الجوبلين من جبال الضباب، وعم سلام جديد على حافة البراري.

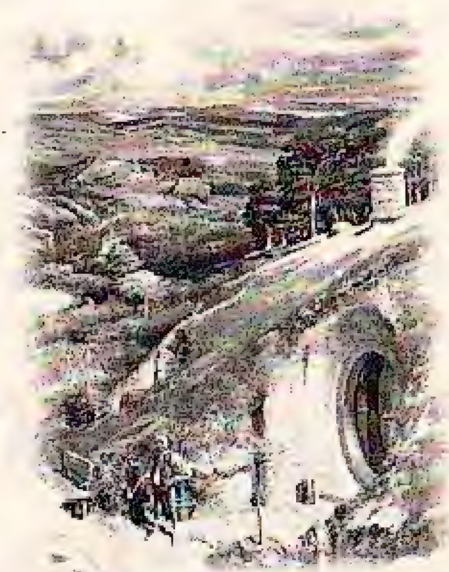
وجاء الربيع جميلاً بطقس صحو وشمس مشرقة قبل أن يطلب (جاندلف) و(بيلبو) الإذن

من (بيورن) بالانصراف أخيرًا. ورغم أنه كان يشتاق إلى وطنه وبيته، إلا أن (بيلبو) شعر بالإحباط، فزهور حديقة (بيورن) كانت يانعة خلابة في الربيع مثلما هي في الصيف.

ثم إنهما بلغا الطريق الطويل، وجاءا إلى الممر ذاته الذي أسرهم فيه الجوبلين من قبل، لكنهما وصلا إلى تلك المنطقة المرتفعة في الصباح، وتطلعا إلى أعلى ليجدا شمسًا بيضاء تنير الأراضي الممتدة. ها هناك كانت (ميركوود) تقبع زرقاء من هذا البعد، وخضارها داكن في أقرب نقاطها حتى في الربيع، بينما بعيدًا، بعيدًا للغاية كان الجبل الوحيد يرتفع عند آخر حافة البصر، وعلى قمته العالية كان الجليد الذي لم يذب بعد يلمع في شحوب.

-"هكذا يأتي الجليد بعد النار، وحتى التنانين لها نهاية." قالها (بيلبو) وأدار ظهره لمغامرته.

كان الجانب التوكي بداخله مصابًا بإرهاق شديد، بينما أخذ جانب (باجنز) يزداد يومًا بعد يوم، وفي النهاية قال: "لا أتمنى الآن سوى الجلوس في مقعدي المريح!"



الفصل التاسع عشر

المرحلة الأخيرة

في الأول من مايو بلغا أخيرًا حافة وادي (ريفندل) حيث كان منزل (الملاذ الأخير)، أو (الملاذ الأول) بالنسبة لهما. كان الوقت مساءً هذه المرة أيضًا، وكانت مهورهما متعبة، بالذات هذا الذي كان يحمل المتاع؛ وشعر الجميع بالحاجة الماسة إلى الراحة. مع سلوكهما الطريق المنحدر، سمع (بيلبو) غناء الإلفيين بين الأشجار من جديد كأنهم لم يتوقفوا منذ غادر.

وبمجرد أن وصل الساحر والهوبيت إلى أرض الغابة الفضاء، انفجر الإلفيون في أغنية

قريبة من طراز الأغنية السابقة.

وهذا جزء منها:

يذوي الآن التنين
يتفتت منه العظم سريعًا
يهوي الدرع نسيعًا
تهوي القوة حتى تصبح شيئًا مقهورًا ومهين
إن الصدأ سيعلو السيف
إن التاج سيسقط تحت جيوش الخوف
فرجال الحرب همو ونموا بالقوة
والكنز الأعظم والثروة
وهنا الأشجار وعشب الغابة ينمو
والأغصان على إيقاع الشمس ستهفو
تجري الأنهار كما كانت بيضاء
والإلفيون ينغمون شعرًا وغناء
فلنتقدم! ترالالالي!
وإلى الوادي تعال
حيث النجم يشع كمثل الكنز المسحور
والقمر يشع بياضًا
يبرق مثل البلور
النار تلوح وتتلظى
فوق بريق الذهب ستطغى
فلمَ التطواف
من غير دواعٍ أو أهداف؟
أوه! ترالالالي!
وإلى الوادي تعال
أين ستذهب هذي المرة
تتأخر مثل العادة في العودة
يحترق النجم
والنهر يصب بمجراه

الفيون والفيات عذراوات
تجري أقدار الحزن عليهم حتى الموت
ويعود الفجر بترحاب حتى تلقاه
ترالالالي!
فلترجع للوادي
فالالالالي!
فالا!

ثم خرج إلفيو الوادي وحيوهما، ثم قادوهما عبر المياه إلى بيت (إلروند). كان الترحيب بهما حارًا، وكانت هناك آذان كثيرة متلهفة على سماع حكاية مغامراتهما، وقص عليهما (جاندلف) الأحداث التي مرت، بينما لاذ (بيلبو) بالصمت الناعس.

كان يعرف معظم أحداث الحكاية بصفته مشاركًا فيها، وكان قد أخبر الساحر بمعظم ما مر به أثناء طريق العودة أو في بيت (بيورن)، لكن بين الحين والآخر كان يفتح عينًا واحدة ويصغي في اهتمام عندما يُذكر جزء من الحكاية لا دراية له به.

وبهذه الطريقة عرف أين كان (جاندلف) عندما غادرهم، فقد استرق السمع للكلمات التي قالها الساحر لـ(إلروند). بدا أن (جاندلف) قد ذهب لاجتماع للسحرة البيض، سادة المعارف والسحر الخيِّر، ومن ثم عرف أنهم استطاعوا أخيرًا طرد النكرومانسر* من معقله المظلم في جنوب (ميركوود).

كان (جاندلف) يقول: "لن يطول الوقت قبل أن تعود الغابة مكانًا صالحًا إلى حد ما، وآمل أن يتحرر الشمال من ذلك الرعب لسنوات طويلة آتية، لكنني أتمنى لو أنه مُحي من هذا العالم تمامًا."

قال (إلروند): "قد يحدث هذا، لكنني لا أظنه حادث في هذا العصر من العالم، أو حتى العصور القادمة."

وعندما تمت حكايات ارتحالهما، كانت هناك حكايات أخرى، والمزيد والمزيد منها؛ حكايات من عصور سحيقة، وحكايات عن أشياء جديدة، وحكايات آتية من خلف حافة الزمن

* استجواب الموتى Necromancy هو ضرب من السحر الأسود يعمل فيه الساحر Necromancer على استخراج المعلومات والخبرات من جثث الموتى. لكن المقصود به هنا هو اللقب الذي أُطلق على سيد الخواتم (ساورون Sauron) بعد أن استقر في معقله بغابة (ميركوود)، وقبل عودته إلى (موردور).

حتى سقط رأس (بيلبو) على صدره، وغط في نوم عميق مريح في أحد الأركان.

استيقظ ليجد نفسه في فراش أبيض، بينما ينهمر ضوء القمر الوضاء من نافذة مفتوحة، وتحته كان إلفيون يغنون بأصوات عالية صافية على حافتي الجدول المائي.

هيا معًا حتى نغني لتعم الفرحة
الريح تهفو بنسمات مرحة
تمر فوق العشب
إن النجوم تشرق الآن
البدر كالوردة يأتي
نوافذ الليل تضيء بالنور
هيا معًا نرقص في حبور
العشب يبدو ناعمًا، فلتكن القدم مثل الريشة الناعمة
النهر فضة، وهذه الظلال هاربة
*مايو جميل فيه نجتمع
نشدو بصوت خافت، والكل مستمع
وننسج الأحلام من حوله
الجائل الآن ينام
ناعمة جدًا وسادته
تهويدة الأطفال والأشجار والصفصاف
يا أيها الصنوبر الحزين لا تبكِ ولا تخاف
فلتظلم الأرض ويسقط القمر
الصمت يا بلوط، يا رماد، يا أعشاب
الصمت يا مياه حتى يأتي الفجرُ من الغيابْ

قال (بيلبو) ناظرًا من النافذة: "حسن أيها القوم المرحون، كم الساعة الآن بتوقيت القمر؟ أغنيتكم هذه يمكنها إيقاظ جوبلين ثمل! لكنني أشكركم على أية حال."

أجابوا ضاحكين: "وغطيطك يمكنه إيقاظ تنين حجري! لكننا نشكرك على أية حال. الفجر يقترب، وأنت نائم منذ بداية الليل. نأمل أن تتخلص من إرهاقك مع حلول الغد."

فقال: "القليل من النوم في دار (إلروند) يعالج إرهاق الروح والبدن، لكنني سأستغل ك العلاج الذي أستطيع الحصول عليه. طابت ليلتكم مرة أخرى أيها الأصدقاء!"

ثم عاد إلى الفراش، ونام حتى وقت متأخر من النهار.

انزاح عنه الإرهاق سريعًا في هذا المنزل، وحظي بدعابات وأغان مرحة كثيرة في أوقات مبكرة ومتأخرة مع إلفيي الوادي؛ لكنه لم يستطع البقاء كثيرًا حتى في هذا المكان الجميل، وكا دائمًا يفكر في بيته. هكذا ودع (إلروند) بعد أسبوع، وبعد أن منحه بعض الهدايا الصغيرة، انطلـ مع (جاندلف).

أظلمت السماء أمامهما في الغرب مع تركهما للوادي، وجاءت الرياح والأمطار تحييهما.

فقال (بيلبو) وماء المطر يضرب وجهه: "جميل مايو بالفعل! لكنني أدرت ظهري للأساطير الآ مع اقترابي من الوطن. هذه الرياح تحمل مذاقه."

قال (جاندلف): "لم يزل الطريق طويلاً."

فقال (بيلبو): "لكنه الطريق الأخير."

بلغا النهر الذي يحدد حافة حدود البراري، ثم المخاضة الواقعة أسفل الضفة المنحدرة إن كنتم مازلتم تذكرونها. كانت المياه زائدة بذوبان الثلوج وهطول الأمطار طيلة اليوم، لكنهما عبرا بالقليل من المشقة، وبلغا مع حلول الليل المرحلة الأخيرة من رحلتهما.

كان كل شيء هناك كما كان من قبل، وإن كانت الرفقة أقل عددًا هذه المرة وأكثر جنوحًا للصمت، وبالطبع لم يكن هناك عمالقة هذه المرة. في كل نقطة من الطريق كان (بيلبو) يتذكر أحداث وأقوال ما حدث منذ عام -والذي بدا له كأنه منذ عشرة أعوام- وسريعًا استطاع تعيين المكان الذي سقط فيه الفرس في النهر، ومن ثم تحولهم إلى مغامرتهم الكريهة مع (توم) و(برت) و(بيل).

وفي مكان غير بعيد عن الطريق عثرا على ذهب العمالقة الذي دفنوه مازال في مكانه لم يمسه مخلوق.

قال (بيلبو) عندما أخرجاه: "لدي ما يكفيني طيلة العمر. الأفضل أن تأخذه أنت يا (جاندلف)، فيمكنك أن تجد له استخدامًا أفضل."

قال الساحر: "بالطبع، لكننا سنتقاسمه. قد تجد نفسك بحاجة إليه أكثر مما تتوقع."

وهكذا وضعا الذهب في حقائب، ووضعا هذه على ظهور المهور التي لم يرق لها هذا

بالطبع. بعد هذا كان تقدمهما بطيئًا، لأنهما سارا معظم الوقت، لكن الأرض كانت خضراء، وكان هناك الكثير من العشب الذي أخذ الهوبيت يذرعه في سعادة. مسح وجهه بمنديل حريري أحمر و... لا! لم يكن منديله بالطبع، فلم يبق أحدها سليمًا، لكنه استعار هذا من (إلروند). كان يونيو قد جاء بالصيف، والجو أصبح حارًا من جديد.

ولأن كل شيء لابد له من نهاية –حتى هذه القصة– جاء يوم أخيرًا وقعت فيه أنظارهما على البلد الذي وُلد (بيلبو) ونشأ فيه حيث كان يحفظ شكل الأرض والأشجار ككف يده. ومن على مرتفع استطاع رؤية التل من بعيد، فتوقف فجأة وقال:

يمضي الطريق للأبدْ
فوق الصخور وتحت الشجيراتْ
في كهوف لا يزورها ضياء الشمس مطلقًا
عبر العواصف نضل عن محيطٍ بالمحيطاتْ
فوق ثلوج البرد يأتي كالمحال
خلال ورداتِ يونيو شديدة الجمال
فوق الشجيرات وتحت الحجر
تحت جبال القمر
حتى يعود ذلك المنفيُّ للوطن
يأتي إلينا من وراء الغيم
هذي عيون قد رأت سيفًا ونارًا
والرعب في قاعات ذعرٍ من حجر
تبصر الآن المروج، تبصر الديارا
والشجر الذي عرفته قديمًا
تبصر التلال الشامخة من قبل مجيء البشرْ

نظر (جاندلف) إليه وقال: "عزيزي (بيلبو)، شيء ما تغير فيك. لم تعد الهوبيت الذي

كنته."

وهكذا عبرا الجسر، ومرا بالطاحونة المطلة على النهر وصولاً إلى باب (بيلبو) الذي
فجأة: "ماذا يحدث هنا بحق السماء؟"

كانت هناك جلبة شديدة، وكان قوم من جميع الفئات المحترمة وغير المحتر
يحتشدون عند الباب، وكثيرون منهم كانوا يدخلون ويخرجون في أريحية من دون حتى
يمسحوا أقدامهم في الحصيرة التي أمام الباب كما لاحظ (بيلبو) في ضيق شديد. إن كان هذا
أدهش (بيلبو)، فقد كانت دهشة القوم أضعافًا مضاعفة. لقد وصل إلى بيته أثناء عقد مزاد!

كانت هناك لافتة كبيرة معلقة باللونين الأسود والأحمر على البوابة تفيد بأنه في الث
والعشرين من يونيو سيقوم السادة (جراب) و(جراب) و(بوروز) ببيع متعلقات المحترم الرا
(بيلبو باجنز) القاطن في (باج إند)، (أندرهيل)، (هوبيتون) بالمزاد العلني، وستبدأ عملية ال
في تمام العاشرة صباحًا. كان وقت الغداء دانيًا، ومعظم مقتنياته بيعت بالفعل بأثمان مخت
تتراوح بين أثمان لا قيمة لها تقريبًا إلى الأغاني القديمة، وهو الأمر الذي كان معتادًا في
المزادات. كان أبناء عم (بيلبو)، آل (باجنز) من (ساكفيل) مشغولين بمعاينة الغرف ليقرروا
كانت ستتسع لأثاثاتهم. كان الجميع قد افترضوا وفاة (بيلبو) بعد وقت قصير من رحيله،
يشعر كل من قالوا هذا بالأسف لثبوت خطأ ذلك الافتراض.

أثارت عودة السيد (بيلبو باجنز) اضطرابًا شديدًا فوق التل وتحت التل وعبر النه
كانت مفاجأة مدهشة تحاكى القوم عنها تسعة أيام. استمرت المشاكل القانونية لأعوام بالطب
ومر وقت طويل قبل أن يُقر القوم بأن السيد (باجنز) كان حيًّا بالفعل، وهؤلاء الذين حصلوا ع
أشياء قيمة بأسعار بخسة من المزاد احتاجوا لوقت طويل من الشد والجذب والإقناع، وفي النه
اضطر (بيلبو) لدفع ثمن الكثير من ممتلكاته ليستطيع استردادها. وجد أن ملاعق فضية كثيرة
اختفت، ولم يعثر لها على أثر قط، وإن كان شخصيًّا يشك في آل (باجنز) من (ساكفيل). ف
جانبهم لم يقروا قط بأن هذا العائد كان (بيلبو) الحقيقي، ولم يحدث أن اتفقوا معه بعدها أب
كانوا يطمعون بالفعل في أن يقطنوا في حفرة الهوبيت الجميلة إلى أقصى حد.

وجد (بيلبو) أنه فقد أكثر من الملاعق؛ فقد سمعته. صحيح أنه ظل ما تبقى له من ع
صديقًا للإلفيين والسحرة والأقزام، وكل هؤلاء القوم الذين يمرون به في الطريق، لكن بين قومه
يعد محترمًا إلى هذا الحد. في الحقيقة، كان جميع الهوبيت في الجوار يعتبرونه شخصًا غري
الأطوار، ما عدا أبناء وبنات أخواله من آل (توك)، لكن تلك الصداقة لم تكن محل ترحيب

كبار العائلة.

يؤسفني أن أقول إنه لم يمانع. كان قانعًا تمامًا بحاله، وكان صوت غلاية الشاي على الموقد كالموسيقى في أذنيه كما لم يحدث قط في الأيام الهادئة التي سبقت الحفل غير المتوقع. علق سيفه (ستينج) فوق رف الموقد، بينما علق قميص الميثريل على علاَّقة في البهو حتى أقرضها لمتحف. أنفق الكثير من ذهبه وفضته على الهدايا النافع منها والباهظ، وكان معظمها لأبناء وبنات أخواله... أما الخاتم فقد احتفظ به سرًا، وكان يستخدمه فقط للتواري عن أعين الزوار المزعجين.

انهمك في نظم الشعر وزيارة الإلفيين، ورغم أن كثيرين من قومه كانوا يهزون رؤوسهم في أسف ويلمسون جباههم قائلين: مسكين السيد (باجنز)! ورغم أن قلائل صدقوا حكاياته، عاش (بيلبو) سعيدًا حتى نهاية أيامه التي كانت طويلة للغاية.

ذات مساء خريفي بعد مرور سنوات كان جالسًا في مكتبه يكتب مذكراته -التي كان يفكر في تسميتها (ذهابًا وعودة، عطلة هوبيت)- عندما دق جرس الباب. كان (جاندلف) ومعه قزم، وكان القزم هو (بالين). رحب بهما (بيلبو) في حرارة، وسرعان ما استقروا في مقاعد وثيرة بجوار المدفأة. إن كان (بالين) قد لاحظ أن صُدرة (بيلبو) كانت أوسع من المعتاد، وأن أزرارها كانت من الذهب الحقيقي، فقد لاحظ الأخير بدوره أن لحية (بالين) قد استطالت عدة بوصات، وأن حزامه كان محلى بجواهر رائعة الجمال.

استغرقوا في الحديث عن أوقاتهم معًا، وسأل (بيلبو) أسئلة كثيرة عن جريان الأمور في أراضي الجبل، وبدا أن كل شيء هناك على ما يرام. أعاد (بارد) بناء البلدة في (ديل)، وجاء إليه الرجال من البحيرة والجنوب والغرب، وعاد الوادي كله غنيًا جميلاً من جديد، وامتلأ معزل التنين القديم بالطيور والزهور في الربيع وبالفاكهة والولائم في الخريف. أعيد بناء بلدة البحيرة بصورة أكمل مما سبق، والثروات تروح وتجيء الآن عبر النهر المتدفق، وفي هذه الأنحاء تربط أواصر الصداقة الإلفيين والبشر والأقزام.

لاقى حاكم (إسجاروث) السابق نهاية سيئة عندما منحه (بارد) الكثير من الذهب لمساعدة أهل البحيرة، وعندها تملك منه الطمع، واستولى على معظم الذهب لنفسه وفر به ليموت بعدها جوعًا في العراء بعد أن هجره رفاقه.

قال (بالين): "الحاكم الجديد رجل حكيم ومحبوب للغاية، فهو بالطبع المسؤول عن معظم الثراء الذي حققته بلدته الآن. إنهم يؤلفون أغاني تقول إن الأنهار تتدفق ذهبًا في أيامه."

قال (بيلبو): "إذن فقد تحققت تنبؤات الأغاني القديمة بشكل ما!"

قال (جاندلف): "طبعًا. ولمَ لا تتحقق؟ ألا تصدقها لمجرد أنك لعبت دورًا في تحقيقها؟ لست تظن بالطبع أن كل مغامراتك وفرارك من هنا وهناك كان مجرد حظ سعيد من أجل منفعتك الخاصة، أليس كذلك؟ أنت شخص رائع يا سيد (باجنز)، وأنا مولع بك، لكنك في النهاية مجرد فرد واحد صغير في عالم واسع للغاية."

ضاحكًا قال (بيلبو) وهو يناوله جرة من التبغ: "وأنا لهذا ممتن!"

تمت

جبل جونداباد
المرج الذابل
الجبال الرمادية
التلال الحديدية
ممر معوج
الجبل الوحيد
قصر الملك الألفي
البحيرة الطويلة
إسجاروث
الأراضي الغربية
بوابة الغابة
ممر الجن
وكر الغوبلين
الكاروك
بيورن
الروند
ريفندل
مخاضة
المخاضة القديمة
جبال ميركوود
طريق الغابة القديم
جبال الغابة
هوبيتون
ويلدرلاند

جون رونالد تولكين

الهوبيت

(أو ذهابًا وعودة)

هذه حكاية عن مغامرة من نوع غير مألوف وذات مذاق مختلف تقوم بها مجموعة من الأقزام بحثًا عن كنز قديم يحرسه تنين وحشي، ومعهم ساحر عجوز قدير يعمل بمثابة مرشد ودليل لهم، بالإضافة إلى شريك كاره للاشتراك في هذه المهمة الخطرة هو (بيلبو باجنز)، الهوبيت الذي لا يملك أي طموح والمحب للراحة، والذى يفاجئ الجميع - بمن فيهم نفسه - بقدراته الكامنة وقدرته على خوض المغامرات بعيدا عن وطنه.

المواجهات مع العمالقة والجوبلين والعناكب الضخمة والكائنات الساكنة في باطن الجبل، والمتاعب مع الإلفيين والأقزام والنسور، والجدل مع التنين (سموج)؛ بالإضافة إلى اشتراكه مكرها في معركة الجيوش الخمس هي مجرد لمحات من الأحداث التي مر بها (بيلبو) فى مغامرته. لكن هناك كذلك بعض الأوقات المرحة الملأى بالصحبة الطيبة والوجبات الشهية والضحك والأغاني.

لقد اتخذ الهوبيت البسيط (بيلبو باجنز) مكانه في مصاف أبطال القصص الخيالية الخالدين، والقصة التي كتبها البروفيسور (تولكين) ليسلي أطفاله حققت نجاحا يفوق الوصف عند نشرها، لتصبح أحداثها جزءا مهما من تاريخ (الأرض الوسطى) الساحر، وتشكل الأجواء والظروف للمغامرة الجديدة في (سيد الخواتم) التي كانت في طور الكتابة وقتها. ورغم أن هذا الكتاب يتناول مغامرة مستقلة بذاتها، إلا أنها تعتبر تمهيدا ضروريا للأحداث التي ستقودنا في النهاية إلى حرب الخاتم العظمى.



دار ليلى

الثمن في مصر: 17 جنيها وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم



DIAMOND BOOKS
إصدارات دايموند